جامعة الجزائر2- أبو القاسم سعد الله

كلية العلوم الاجتماعية

قسم علم الاجتماع والديمغرافيا

رسالة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في علم الاجتماع الثقافي بعنوان:

المقاومة الثقافية في فكر الأمير عبد القادر الجزائري

دراسة سوسيوأنثروبولوجية حول نشأة الدولة الجزائرية

إعداد الطالبة:

شيخي خديجة

إشراف الأستاذ:

أ/د. حقيقي نور الدين

السنة الجامعية: 2017/2016

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ
أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ
وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾

الآية 286 من سورة البقرة

الشكـر

أشكر الله عز وجلّ على كل النعم التي أنعم بها عليّ كما أشكره على أن أعطاني القوة والعزيمة والصبر لكتابة وإنهاء هذا البحث.

ثم أشكر الأستاذ المشرف الدكتور نور الدين حقيقي على توجيهاته القيّمة، كما أشكر أساتذة علم الاجتماع في جامعة الجزائر 2.

كما لا يفوتني أن أشكر أمي وأبي على تشجيعهما ودعائهما لي، وأشكر كل الذين مدوا لي يد العون من قريب أو بعيد بكلمة طيبة، تشجيع، كتاب، نقد من أجل أن يتم هذا العمل، أشكر كل هؤلاء دون أن أنسى إخوتي والدكتور شيخ صلاح قاسم أشكرهم على وقوفهم إلى جانبي في هذا البحث.

خديجة

الإهـداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى والديّ العزيزين

حفظهما الله تعالى.

الفهـرس

مقدمة.. 1

الإطار المنـهجي للدراسة

1- أسباب اختيار الموضوع.. 5
2- الإشكالية.. 5
3- الفرضيات.. 8
4- منهج الدراسة... 8
5- عينة البحث.. 9
6- تحديد المفاهيم الأساسية.. 10
7- صعوبات البحث.. 12

الفصل الأول: سيرة الأميرة عبد القادر الذاتية

1- ميلاد الأمير عبد القادر ونشأته................................. 14
2- تأسيس الأمير عبد القادر للدولة الجزائرية الحديثة.................. 15
3- أشهر المعارك الحربية للأمير عبد القادر.......................... 70
4- المعاهدات التي أبرمها الأمير عبد القادر مع المستعمر الفرنسي 74
5- انتهاء المقاومة العسكرية للأمير وسجنه........................... 77
6- حادثة دمشق وبلاء الأمير فيها.................................. 80
7- مرض الأمير عبد القادر ووفاته.................................. 81
8- شخصية عبد القادر 82
9- الأمير عبد القادر والماسونية 128

الفصل الثاني: بيئة الأمير الثقافية وعصره

المبحث الأول: عصر الأمير

1- نظام الحكم أثناء العهد العثماني 169

2- النظام الإداري أثناء العهد العثماني 172

3- النظام القضائي أثناء العهد العثماني...................................... 179

4- النظام المالي أثناء العهد العثماني 181

5- النظام الضرائبي أثناء العهد العثماني 183

6- الحالة الاجتماعية أثناء العهد العثماني...................................... 185

7- علاقة الأمير عبد القادر بالحكام الأتراك في الجزائر...................................... 189

المبحث الثاني: المحيط الثقافي للأمير

1- المساجد 194

2- الزوايا والرباطات...................................... 198

3- المدارس والمعاهد العليا...................................... 204

4- المكتبات...................................... 207

5- لمحة عن حال التعليم في عصر الأمير...................................... 210

6- الطرق الصوفية...................................... 214

7- الطريقة القادرية...................................... 220

الفصل الثالث: المقاومة الثقافية للأمير عبد القادر

1- أوضاع الجزائر غداة الاحتلال...................................... 228

2- حالة التعليم العربي الإسلامي غداة الاحتلال 235

3- المقاومة الثقافية للأمير عبد القادر...................................... 255

الفصل الرابع: فكر الأمير عبد القادر

المبحث الأول: التكوين الفكري للأمير وآراؤه النظرية

1- التكوين الفكري للأمير عبد القادر.......................... 264
2- آراء الأمير ونظرياته الفكرية.............................. 266

المبحث الثاني: الإصلاح عند الأمير عبد القادر

1- الإصلاح عند الأمير عبد القادر......................... 277
2- علاقة الإصلاح بالتصوف.............................. 278
3- أسباب الإصلاح عند الأمير عبد القادر.................... 282
4- مجالات إصلاح الأمير عبد القادر 283

المبحث الثالث: التصوف عند الأمير عبد القادر

1- التصوف عند الأمير عبد القادر 298
2- كتاب المواقف للأمير عبد القادر 308
3- مقامات السلوك عند الأمير عبد القادر..................... 313
4- أحوال الأمير عبد القادر الصوفية........................ 318
5- مجاهدة الأمير عبد القادر 326

الفصل الخامس: المقاومة الثقافية في كتاب المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد

1- أسباب كتابة المقراض الحاد.............................. 333
2- مواضيع كتاب المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد 333
3- المقاومة الثقافية في كتاب المقراض الحاد...................... 339

الفصل السادس: المقاومة الثقافية في كتاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل

1- أسباب كتابة ذكرى العاقل وتنبيه الغافل.. 359

2- مواضيع كتاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل...................................... 359

3- المقاومة الثقافية في كتاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل........................... 364

الفصل السابع: المقاومة الثقافية من خلال شعر الأمير عبد القادر

1- شعر الأمير عبد القادر.. 374

2- المقاومة الثقافية من خلال شعر الأمير عبد القادر 385

3- صلات الأمير عبد القادر بقادة العالم من خلال رسائله.......................... 392

- خاتمة.. 405

- البيبليوغرافية.. 408

- الملاحق

مقدمة:

إن الجزائر قد تعرضت للاحتلال في 1830م، وردًا على ذلك انطلقت مقاومات شعبية، ومن أهم بل وأهم هذه المقاومات مقاومة الأمير عبد القادر التي دامت سبعة عشر سنة، أما مقاومته الثقافية فقد استمرت إلى أن وافته المنية وهو في هذا الصدد يقول: "إنني الآن ممن يستعمل القلم، لا ممن يستعمل السيف"[(1)].

وقد ألف عدة كتب أهمها: "المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد"، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل"، "المواقف".

وقد تطرقنا إلى الكتب الثلاث في هذه الدراسة وذلك للإجابة على الأسئلة التي طرحناها في الإشكالية، فنحن نسعى إلى معرفة ما إذا كان الأمير عبد القادر قد واصل المقاومة الثقافية بعد انتهاء مقاومته العسكرية. كما نسعى إلى معرفة ما إذا كان التصوف هو الدافع الأساسي للأمير لكي يقاوم العدو الفرنسي، وفي الأخير نسعى أيضًا إلى معرفة ما إذا قام الأمير عبد القادر بتحديث المجتمع الجزائري.

وقد جاءت إجاباتنا في فصول سبعة وهي كالآتي:

الفصل الأول تطرقنا فيه إلى سيرة الأمير عبد القادر الذاتية حيث تكلمنا عن ميلاده ونشأته، ثم تأسيسه للدولة الجزائرية الحديثة، فأشهر المعارك الحربية التي خاضها ضد العدو الفرنسي، ثم المعاهدات التي أبرمها مع المستعمر الفرنسي، ثم انتهاء المقاومة العسكرية للأمير وسجنه، فحادثة دمشق وبلاء الأمير فيها، فمرض الأمير عبد القادر ووفاته ثم جوانب في شخصية عبد القادر الإنسان. ثم علاقة الأمير عبد القادر الماسونية.

---

(1) محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر**، الجزء الثاني، دار الوعي، الجزائر، 2012، ص70.

أما الفصل الثاني فهو معنون ببيئة الأمير الثقافية وعصره ومن خلال هذا العنوان ندرك أن لهذا الفصل مبحثين الأول حول عصر الأمير وميزاته سواء من نظام الحكم أثناء العهد العثماني، النظام الإداري، النظام القضائي، النظام المالي، النظام الضرائبي، الحالة الاجتماعية أثناء العهد العثماني، فعلاقة الأمير عبد القادر بالحكام الأتراك في الجزائر. أما المبحث الثاني في هذا الفصل فتحدثنا فيه عن المحيط الثقافي للأمير وهو يشتمل على المساجد، الزوايا والرباطات، المدارس والمعاهد العليا، المكتبات، ثم أعطينا لمحة عن حال التعليم في عصر الأمير فالطرق الصوفية وبما أن الأمير القادر ينتمي إلى الطريقة القادرية أدرجناها في هذا المبحث أيضًا.

أما الفصل الثالث فعنوناه بالمقاومة الثقافية للأمير عبد القادر وتناولنا فيه أوضاع الجزائر غداة الاحتلال وما تعرضت له من سلب ونهب وتقتيل لأبنائها، فحالة التعليم العربي الإسلامي غداة الاحتلال ومحاولة فرنسا محو مقوّمات الشخصية الجزائرية وذلك من خلال هدم المساجد وتحويل بعضها إلى كنائس وأخرى إلى اصطبلات وغير ذلك من أعمال الهدم والنهب... وهذا ما اقتضى مقاومة من طرف الأمير عبد القادر الذي عمل كل ما في وسعه لتدريس أبناء الأمة، كما سعى إلى رفع الروح المعنوية للطلبة والمعلمين على حد سواء وقلّد المثقفين المناصب العليا في دولته...

أما الفصل الرابع فعنوناه بفكر الأمير عبد القادر وقد قسمناه إلى ثلاث مباحث: المبحث الأول تناولنا فيه بالبحث التكوين الفكري للأمير وآراؤه النظرية، فيما يخص الدين، المرأة، الإنسانية، الحرية...

أما المبحث الثاني فتطرقنا فيه إلى الإصلاح عند الأمير وذلك للإجابة على السؤال الآتي وهو: هل قام الأمير عبد القادر بتحديث المجتمع الجزائري؟ ثم يليه المبحث الثالث المتعلق بالتصوف عند الأمير عبد القادر وقد تناولنا كتاب المواقف بالبحث وبالتحديد

الجزأين الأول والثاني ثم مقامات السلوك عند الأمير فأحوال الأمير عبد القادر الصوفية فمجاهدة الأمير عبد القادر.

وفي الفصل الخامس تطرقنا إلى المقاومة الثقافية في كتاب المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد، فتعرضنا إلى أسباب كتابة المقراض الحاد، ثم أهم المواضيع التي جاءت فيه، ثم المقاومة الثقافية في هذا الكتاب.

أما الفصل السادس فقد دار حول المقاومة الثقافية في كتاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل. وقد احتوى على أسباب كتابة هذا المؤلف، فأهم مواضيع هذا الكتاب، فالمقاومة الثقافية فيه.

والفصل الأخير تطرقنا فيه إلى المقاومة الثقافية من خلال بعض أشعار الأمير عبد القادر. وقد احتوى على شعر الأمير ثم صلات الأمير عبد القادر بقادة العالم من خلال رسائله. وأنهينا الدراسة بخاتمة تبعتها ببيبليوغرافية فالملاحق التي كانت عبارة عن ألبوم من الصور حول الأمير عبد القادر وبعض وثائقه الهامة.

الإطار المنهجي للدراسة

1- أسباب اختيار الموضوع:

لقد اخترت البحث في موضوع المقاومة الثقافية في فكر الأمير عبد القادر للأسباب التالية:

1- لأنني أريد أن أعرف ما إذا واصل الأمير عبد القادر المقاومة الثقافية بعد انتهاء مقاومته المسلحة أم لا.

2-كما أريد معرفة العلاقة التي تربط تصوف الأمير عبد القادر بمقاومته، وما إذا كان التصوف هو الدافع الأساسي لمقاومة الأمير بشقيه العسكري والثقافي.

3-كما أريد أن أتطرق بالبحث حول شخصية عظيمة مثل شخصية الأمير عبد القادر، وأميط اللثام عن سيرته الذاتية وعصره، خاصة أن شخصية الأمير لا تزال محل جدل كبير.

4-كما أنني أريد أن أثري مكتبة علم الاجتماع ببحث حول الأمير عبد القادر ومقاومته.

2- الإشكالية:

إن تكالب القوى الاستعمارية على ما سمي في القرن التاسع عشر بتركة "الرجل المريض"، استلزم مقاومة الشعوب العربية الإسلامية له، وقد كانت الجزائر من بين الدول التي عانت من الاستعمار الفرنسي، الذي احتلها عام 1830م، حيث عمل على محو ثقافة المجتمع الجزائري فقد هدم المساجد والمدارس والزوايا منذ أن حلّ به كما هجّر المعلمين والعلماء (كما شرحنا في الفصل الثالث) وصادر الأوقاف... إلا أن مقاومة الشعب الجزائري لهذا الاستعمار كانت قوية منذ اللحظة الأولى وقد قاد هذه المقاومة رجال من أبرزهم الأمير عبد القادر الجزائري، الذي بايعه أشراف وزعماء القبائل الجزائرية سنة 1833م، سلطانا عليهم وقائدا لهم في الجهاد. وقد أبدى الأمير عبد القادر شجاعة كبيرة في المقاومة المسلحة للاستعمار الفرنسي دامت سبعة عشر سنة، أحرز فيها انتصارات باهرة على الفرنسيين كما أنه أسس الدولة الجزائرية الحديثة لأنه كما يقول عنه الأستاذ عبد القادر جغلول: "فالأمير

يعرف أن الاحتلال الفرنسي ليس مغامرة عسكرية وحسب ولا يرتبط نجاحه أو فشله بالشجاعة ومصير القتال فقط بل وبشكل أعمق بقدرة المجتمع الجزائري على تبديل بناه، والارتقاء إلى مستوى الخصم[1].

ولهذا شيّد الأمير الحصون وأقام مصانع لصناعة الأسلحة كما أسس خزينة عامة ونظم البلاد المحررة (التي كانت تحت إمرته) إداريا وقضائيا. وقد كانت مقاومة الأمير عبد القادر مستميتة وفي هذا الصدد تقول حفيدته الأميرة بديعة الحسني الجزائري: "والحقيقة أن مقاومة الأمير عبد القادر لم تتوقف ضد أعداء دينه بل تابعها الأمير وأصحابه حتى في سجنهم في فرنسا، فلقد قاوم الأمير أعداءه بالصبر والتقوى ولم يحن رأسه ولم يستسلم ولم يستجد ولم يستنجد وتابع مقاومته حتى في بلاد الشام والأدلة كثيرة ومتعددة وموثقة"[2].

علما بأنه صاحب قلم أيضًا، فقد صنفه الأستاذ حسن السندوبي في سنة 1914 في كتاب له بعنوان (أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر هجري إلى اليوم) على أنه أحد الأعيان في البيان فقد قال عنه: "فبطل الجزائر، وإن كان من أرباب السيف، فقد كان أخا القلم، لا يغمد أحدهما حتى يجرد صاحبه، فيبري بالأول الرؤوس والمهام، ويبرئ بالثاني النفوس من سقام الأوهام"[3].

كما أن أحد الدارسين للأمير عبد القادر وهو الدكتور زكرياء عبد الرحمن صيام يقول عنه: "والأمير عبد القادر لم تكن شخصيته ذات جانب سياسي أو عسكري أو اجتماعي أو ديني أو علمي أو أدبي، ولكنها كانت هؤلاء جميعًا"[4].

---

(1) عبد القادر جغلول، **الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر**، ترجمة سليم قسطون، دار الحداثة، بيروت، بدون تاريخ نشر، ص35.

(2) بديعة الحشي الجزائري، **وما بدّلوا تبديلا**، دار الفكر، دمشق، ص.

(3) نقلا عن صالح خرفي، **في ذكرى الأمير**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص ص.65-68.

(4) زكرياء عبد الرحمن صيام، "الأصالة والتجديد في شعر الأمير عبد القادر"، **مجلة الثقافة**، وزارة الثقافة بالجزائر، العدد 75، الجزائر، ماي-جوان 1983، ص291.

وقد ألف الأمير عدة مؤلفات نذكر منها: وشاح الكتائب وزينة العسكر المحمدي الغالب، جواب سؤال عن الراكنين إلى الكفار ومسائل الجهاد، تعليقات على حاشية جده السيد عبد القادر ابن خدة في علم الكلام، الصافنات الجياد، المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، مذكرات الأمير عبد القادر، أجوبة الأمير على أسئلة الجنرال دوماس حول المرأة العربية، ديوان شعر الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف(1).

وباعتبار أن الاستعمار الفرنسي للجزائر كان استيطانيا، فقد استهدف محو ثقافة المجتمع الجزائري وهي الثقافة العربية الإسلامية وفرض الثقافة الغربية الاستعمارية على أنها الثقافة الوحيدة القادرة على نقل البلاد إلى حضارة العصر(2). إلا أن الأمير رد على هذا المشروع الاستعماري بعملية تحديث للمجتمع أو بمعنى آخر إصلاح يتميز بالطابع الصوفي الذي يطغى عليه في شتى الميادين، السياسية، والعسكرية، والاجتماعية والثقافية، وقد يتجلى هذا الطابع بكل وضوح في أسلوب القيادة التي مارسها، وفي القوانين التي وضعها بحيث نجد القيم الصوفية ماثلة في المواقف المختلفة التي وقفها وفي الأوامر التي أصدرها بشأن الدولة لغرض التسيير والتنظيم. (أنظر المبحث الثاني في الفصل الرابع من هذه الدراسة).

وعليه فإنه يحق لنا أن نطرح الأسئلة الآتية:

هل واصل الأمير عبد القادر المقاومة في شكل مقاومة ثقافية بعد انتهاء مقاومته العسكرية؟

---

(1) إسمى مهيبل، "الأمير عبد القادر مؤلفا"، **حولية المؤرخ**، اتحاد المؤلفين الجزائريين، العدد 9-10، الجزائر، 2010، ص ص 163-165.

(2) عبد الوهاب الكيلاني وآخرون، **موسوعة السياسة**، الجزء الأول، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1985م، ص ص 172-173.

ثم ما هو الدافع الأساسي لمقاومة الأمير عبد القادر الثقافية؟ وفيما تتجلى هذه مقاومته الثقافية؟

وهل قام الأمير عبد القادر بتحديث المجتمع الجزائري؟ وكيف تجلى هذا المشروع إن وجد؟

3- الفرضيات:

1-قاوم الأمير عبد القادر الاستعمار الفرنسي بعد انتهاء مقاومته المسلحة وذلك بمقاومة ثقافية.

2-التصوف هو الدافع الأساسي لمقاومة الأمير عبد القادر بشقيها العسكري والثقافي.

3-حمل الأمير عبد القادر مشروعا إصلاحيا أو تحديثا للمجتمع الجزائري.

4- منهج الدراسة:

للإجابة على الأسئلة التي طرحناها في الإشكالية، لابد أن نستخدم منهجا معينا، ولاشك أن طبيعة البحث في علم الاجتماع، هي التي تحدد بشكل حاسم المنهج المستخدم[1]. وعليه فقد اعتمدنا في دراستنا هذه على المنهج الكيفي نظرًا لأننا نسعى إلى معرفة ما إذا واصل الأمير عبد القادر مقاومته بعد انتهاء المقاومة المسلحة وذلك من خلال المقاومة الثقافية (بالقلم) كما أننا نسعى إلى معرفة ما إذا كان تصوف الأمير عبد القادر هو الدافع الأساسي لمقاومة الأمير بسقيها العسكري والثقافي، ونسعى أيضًا إلى معرفة ما إذا كان الأمير عبد القادر قد حمل بشقيها مشروعا إصلاحيا أو تحديثا للمجتمع الجزائري. وعليه فقد قمنا بإجراء مقابلات مفتوحة مع حفدة الأمير عبد القادر في الجزائر، كما اطلعنا على كتابات عديدة حول شخصية الأمير عبد القادر وبالتالي جمعنا معلومات عديدة حوله حاولنا تحليلها تحليلاً كيفيًا.

---

[1] صلاح مصطفى الفوال، **علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق**، دار الفكر العربي، لم يذكر مكان النشر، 1996، ص168.

5- عينة البحث:

لقد ألف الأمير عبد القادر عدة مؤلفات (كما أسلفنا) نذكر منها: وشاح الكتائب وزينة العسكر المحمدي الغالب، جواب سؤال عن الراكنين إلى الكفار ومسائل الجهاد، تعليقات على حاشية جده السيد عبد القادر ابن خدة في علم الكلام، الصافنات الجياد، المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، مذكرات الأمير عبد القادر، أجوبة الأمير على أسئلة الجنرال دوماس حول المرأة العربية، ديوان شعر الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف[1].

وبما أن منهج الدراسة هو منهج كيفي والذي يستدعي أن تقتصر دراستنا على أهم مؤلفات الأمير عبد القادر. وعليه فقد وقع اختيارنا على ثلاث كتب من بين مؤلفاته العديدة وهي: المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد، وكتاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل. وبحثنا فيهما عن المقاومة الثقافية للأمير عبد القادر لأن الكتاب الأول (المقراض الحاد) كتبه وهو في السجن (1852)، أما الثاني فقد كتبه بعد فترة وجيزة من إطلاق سراحه من السجن (1855).

كما تطرقنا إلى كتاب المواقف للأمير عبد القادر وبالتحديد جزأيه الأول والثاني عندما تطرقنا إلى التصوف عند الأمير عبد القادر.

كما لجأنا إلى ديوان الأمير عبد القادر الجزائري في بحثنا عن المقاومة الثقافية من خلال شعر الأمير. ثم تطرقنا إلى بعض رسائل الأمير عبد القادر لقادة العالم من مفكرين وسياسيين وعسكريين.

---

(1) إسمى مهيبل، مرجع سبق ذكره، ص ص.163-165.

6- تحديد المفاهيم الأساسية:

أ. الاستعمار:

لقد توصلت إلى إيجاد تحديدين لهذا المفهوم وهما:

أولا – الاستعمار أو الإمبريالية هي "المرحلة العليا والأخيرة للرأسمالية، بدأت في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، مرحلة تفسخها وانهيارها" وهذا التعريف هو للينين[1].

ثانيا – الاحتلال هو ظاهرة سياسية اقتصادية وعسكرية متفرعة ومتصلة بظاهرة الاستعمار (الإمبريالية)، وتتجسد في قدوم موجات متتالية من سكان البلدان الإمبريالية إلى المستعمرات قبل الاحتلال العسكري أو بعده بقصد استيطانها والإقامة فيها بشكل دائم، أو الهيمنة على الحياة الاقتصادية والثقافية واستغلال ثروات البلاد. ويعرف هذا الاستعمار بالاستعمار الاستيطاني وهو ظاهرة استعمارية ترجع في جذورها إلى القرن التاسع عشر.

ويؤدي هذا النوع من الاستعمار إما إلى طرد السكان الأصليين كما حدث في فلسطين وهذا نادر المثال.

وإما إلى استئثار هذه الأقلية المستعمرة (المعمرين) بالحكم والامتيازات. وهناك بالإضافة إلى الاستعمار الاستيطاني الاستعمار التقليدي الذي يكتفي باستغلال البلاد وحكمها بواسطة جيوشه وعملائه. وكلا الاستعمارين هو في نهاية المطاف نهب وسلب منظم لثروات البلاد المستعمرة فضلا عن تحطيم كرامة شعوب هذه البلاد وتدمير تراثها الحضاري والثقافي وفرض الثقافة الغربية الاستعمارية على أنها الثقافة الوحيدة القادرة على نقل البلاد المتخلفة إلى حضارة العصر[2].

والاستعمار الفرنسي للجزائر سنة 1830م كان استعمارًا استيطانيًا.

---

(1) ب ن. بونو ماريوف، **القاموس السياسي**، ترجمة عبد الرزاق الصافي، لم تذكر دار النشر، لم يذكر مكان النشر، 1978م، ص61.

(2) عبد الوهاب الكيلاني وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص172.

ب. المقاومة:

هناك من الدارسين من عرّفها على "أنها تعني استخدام كافة أشكال العمل المعبّر عن رفض الاحتلال أو وجود نظام فاسد مستبد، بما في ذلك استخدام العمليات المسلحة لإنهاك العدو، والإضرار بقواته ومعداته، أما الاستخدام الشائع عربيا لمفهوم المقاومة فهو اللجوء لأساليب الكفاح المسلح ضد قوة محتلة"(1).

وهناك من الباحثين من عرفها بأنها "رد الفعل، ومواجهة العناصر الدخيلة، ورفض تقبلها، وهي التصدي للاعتداءات التي تقوم بها أطراف خارجية...".

وما دام الجزائريون لم يستجيبوا للأمر الواقع المفروض عليهم فهم ما بين عام 1830 حتى عام 1962 في مقاومة عرفت بنبالتها وإصرارها طيلة القرن والثلث من الوجود الفرنسي.

وقد استعمل الجزائريون في كفاحهم ضد المستعمر الفرنسي حسب الأستاذ محمد الطيب العلوي نوعين من المقاومة.

أولا – المقاومة الإيجابية: فخاضوا المعارك المسلحة منذ 1830 حتى الحرب العالمية الأولى، ثم اتجهوا إلى استعمال السلاح السياسي وخاضوا به المعارك السياسية والدينية والثقافية وتوجوا كل هذا بثورة جادة.

ثانيا – المقاومة السلبية: إذ قاطعوا المشاريع التي اشتموا منها أنها وضعت بهدف القضاء على الكيان الجزائري ومقوماته، أو بهدف تشويهه وتحريفه، حتى أنهم رفضوا التحضر والتمدن على يد المستعمر، لأن ذلك في نظرهم مرحلة من مراحل الابتلاع والاندماج. وقاطعوا اللغة الفرنسية، لا لأنها لغة، ولكن لأن المحتل ينوي من وراء استخدامها ونشرها القضاء على الثقافة الأصلية واللغة الوطنية، كوّنوا لأنفسهم مساجدهم، وأنشؤوا

---

(1) فريدة بلفراق، "مقاومة الاحتلال في ظل قانون الغاب والإرهاب"، **مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية**، جامعة باتنة، العدد 15، الجزائر، ديسمبر 2006، ص22.

مدارسهم، وفرقهم الرياضية، والفنية، محافظة على شخصيتهم الجزائرية، وشنعوا بالعادات والتقاليد، وأنواع السلوك التي حاول الفرنسيون غرسها في مختلف الأوساط(1).

ونحن في هذه الدراسة نعني بالمقاومة الثقافية في فكر الأمير عبد القادر كيفية تصديه للاستعمار الفرنسي الاستيطاني فكريا من خلال مؤلفاته ومن خلال الأعمال التي قام بها في المجال الثقافي.

7- صعوبات البحث:

إن لكل بحث صعوبات تواجهه، ولبحثنا هذا صعوبات منها:

1- إن كثرة المراجع حول شخصية الأمير عبد القادر، كان عائقا لنا بحيث نحتار في اختيار المراجع التي نعتمد عليها في هذا الدراسة خاصة وأن الكتب حول الأمير تعد بالآلاف وذلك بدون مبالغة.

2- إن شخصية الأمير عبد القادر شخصية عالمية عظيمة، لهذا نجد بعض الأطروحات حوله لا تمت للحقيقة بصلة، لأن هناك من المؤلفين من زيّفوا تاريخ هذه الشخصية، ولإزالة هذا الزيف والوصول بقدر الإمكان إلى حقيقة تاريخ وفكر هذه الشخصية نحتاج إلى مجهود كبير.

---

(1) محمد الطيب العلوي، **مظاهر المقاومة الجزائرية 1830-1954**، ط2، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2000، ص22.

الفصل الأول

سيرة الأمير

عبد القادر الذاتية

1- ميلاد الأمير عبد القادر ونشأته:

الأمير عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن محمد بن أحمد بن المختار ينتهي نسبه إلى سيدنا الحسن بن سيدنا علي بن أبي طالب، وسيدتنا فاطمة الزهراء بنت الرسول محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

ولد يوم 23 رجب 1222هـ / الموافق ليوم 25 سبتمبر 1807م بقرية القيطنة والتي تبعد حوالي 20 كلم من مدينة معسكر.

وعندما كبر حفظ القرآن الكريم ودرس على والده الشيخ محي الدين علوم التفسير، والحديث النبوي، والفقه والشريعة والأصول والنحو وأتقنها، ورعاه والده واعتنى بتكوينه وتثقيفه. وفي عام 1821 قررت حكومة الإيالة بوهران وضع الشيخ محي الدين في إقامة جبرية بمدينة وهران بسبب وشايات متعددة تزعم أنه يسعى للقيام بحركة عصيان، فيأخذ معه ابنه عبد القادر إلى هناك ليواصل رعايته وتربيته تربية إسلامية متينة فوسع ثقافته وواصل الدراسة على علمائها ومنهم الشيخ مصطفى بن الهاشمي والشيخ محمد بن قريد، اللذين درس عليهما علوم المنطق والبلاغة والبيان، كما واصل دراسة بقية العلوم الأخرى على والده وتوسع فيها كثيرا وعمقها[1].

فمما سبق نستنتج بأن الأمير عبد القادر نشأ تنشئة إسلامية فهو قد تلقى تربية تقليدية، تربية كل مثقفي القبائل والجمعيات الدينية في تلك الحقبة، مبنية على الإسلام وفنون الحرب والفروسية. وكما يقول عبد القادر جغلول في كتابه الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر[2]: "في الثانية عشرة يصبح "طالبًا" وفي الرابعة عشرة "حافظًا"، ثم ينهي دراسته بالحج إلى مكة المكرمة الذي لم يكن في تلك الحقبة تتميمًا لواجب ديني فقط بل أيضا

---

(1) يحي بوعزيز، **الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري سيرته الذاتية وجهاده**، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص39.

(2) عبد القادر جغلول، **مرجع سبق ذكره**، ص34.

وسيلة لإتمام التربية الفكرية بالاحتكاك بالمراكز الفكرية في المشرق. درس الفلسفة اليونانية (فلاسفة ما قبل سقراط ثم أفلاطون ولاسيما أرسطو)، والتاريخ والجغرافيا والطب..." ولقد أصبح الأمير عبد القادر رجل ثقافة.

2- تأسيس الأمير عبد القادر للدولة الجزائرية الحديثة:

بعد سنتين من عودته إلى "القيطنة" العائلية، كان يمثل الفصل الأول من الاحتلال. وبدأت المقاومة بترتيب مبعثر، وخلق انهيار البنية الفوقية للدولة العثمانية فراغا، ولم تكن المجموعات القبلية تتمتع بتماسك كاف لتنظيم هجوم مضاد ذو فعالية، وبدأت تبرز الحاجة إلى خلق دولة جديدة بشكل ملح. وكان بإمكان محي الدين القول: "يشكل الفرنسيون أمة حربية غنية بالرجال، ومليئة بالموارد يتآكلها روح الاحتلال. وماذا لدينا لنواجهها به؟ قبائل متناحرة مع بعضها وزعماء متآمرين وجشعين يقتتلون في سبيل توسيع إقطاعاتهم وبورجوازية ترفض كل قيد، بعضها يغتني بالنهب والبعض الآخر يتعلق يائسا بممتلكاته، الفريقان بالغا التفاوت. أمام وضع كهذا، تصور مجرد معركة منصورة ضد الكفار قد يكون حماقة، أما المحاولة فقد تكون جنونا"[1].

تلك الدولة الجديدة سيقودها ابنه عبد القادر، وفي 13 رجب 1248هـ (28 نوفمبر 1832م). قام أهالي الإيالة الوهرانية وعلماؤها بالبيعة الأولى للأمير عبد القادر بعد أن اعتذر أبوه محي الدين ورشحه للإمارة وكان ذلك تحت شجرة الدردارة الموجودة بوادي (فروحة) من غريس ولقبه والده بـ (ناصر الدين) بعد أن بايعه. وقام عبد القادر في البيعة الثانية في 13 رمضان 1248هـ (4 فيفري 1833م) فخطب في الناس فقال بعد ذكر اسم الله الرحمن الرحيم والصلاة على رسوله بادرهم بقوله[2]: "إنني لست أفضلكم خلقا وشجاعة وحكمة، ولم يخطر لي هذا المنصب يومًا ولكنني أجبرت عليه كما تعلمون فهو مسؤولية

---

[1] Charles-Henry Churchill, **La vie d'Abdelkader**, SNED, Alger, 1974.

[2] بديعة الحسني الجزائري، **الأمير عبد القادر الجزائري حياته وفكره**، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الجزء الأول، دار الوعي، الجزائر، 2012، ص 28.

أمام الله وأمامكم، أرجو منه تعالى التوفيق والعون لتطهير البلاد من الغزاة ورفع راية الإسلام عالية في سماء بلادنا، فالإسلام هو الذي وحّد قبائلنا بعد شتات وجعلها قوة لا تقهر، تدفعنا إلى ميادين المجد والشرف، وجعلنا إخوة يحب أحدنا لأخيه ما يحب لنفسه، ولا فرق بين عربي وأعجمي، ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى، وأمرنا بالعدل والمساواة، وإذا عدنا إلى التاريخ نجد أن كل من دخل هذه البلاد غازيا من رومان وفاندال وإسبان هزمتهم قوة بأس وشجاعة الأجداد، وكان هدف غزوهم لبلادنا إخضاع شعوبنا وإذلالها ونهب خيرات بلادنا لزيادة رفاهية شعوبهم، والذين حالف النصر أعلامهم من الفاتحين حملوا إلى هذه البلاد حضارة إلهية، وشيدوا صروحا من القيم باقية إلى الأبد التي لا ينضب معينها، ودخلوا هذه البلاد لتكون دعوة الإسلام حرة فيها، قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾، ومدينة راقية ما تزال آثارها تشهد عليها في مدننا في فاس، وقرطبة، وغرناطة، وإشبيلية، وفي وهران، وقسنطينة، إخوتي في الإسلام، أيها السادة زعماء القبائل والعلماء، أيها المجاهدون من أبناء هذا الوطن العظيم سنكون أقوياء، سندافع عن الراية والرسالة التي حملها لنا طارق بن زياد، وموسى بن نصير، وسيظل ارتباطنا وثيقا بدولة الخلافة العثمانية، ارتباطا روحيا بنظامها الإسلامي، ولن نكون جاحدين لأعمال الأخيار من الولاة في خدمة الإسلام ومحاربتهم لقوى الشر في بلادنا، ولن تخرج دولتنا عن طاعة الخليفة، ولن تكون عونا لأعدائها عليها، وكما قال والدي، هذا المنصب الذي اخترتموني له لن يكون متوارثا، وأرفض لقب (سلطان أو ملك) "حسبي الله الذي لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم" والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

فجاء خطابه هذا على غرار الخطب المنهجية التي يلقيها اليوم رؤساء الحكومات في مجالسهم الوطنية، بين فيه خططه الرئيسية، وبرامجه العامة التي يعتزم أن يسير عليها في سياسته الإدارية وفي الشؤون الداخلية والخارجية[1].

---

[1] يحي بوعزيز، مرجع سبق ذكره، ص47.

ولاقت هذه الخطبة حماسا منقطع النظير من جموع الحاضرين، وضجّ المسجد بأصوات الرجال (الله أكبر)، ثم نهض العالم الفقيه محمد بن حوا وكان يرتدي القفطان الجزائري وفوقه البرنس الأبيض، وعلى رأسه العمامة البيضاء، وقرأ نص المبايعة ابتدأها بقوله:

"بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله أجمعين، بعد مبايعة الإمام الجليل الشريف محي الدين وتنازله عنها لولده عبد القادر بن محي الدين أحيا الله بهما الدين وأعانهما على القيام بإعلاء كلمته، وأهلك بدولتهما أهل البغي والفساد والغزاة المعتدين، نحن جميعا علماء غريس وأشرافها وما جاورها وزعماء قبائل العباسي والخالدي والإبراهيمي والحساني والعوفي والجعفري والبرجي والشقراني والزلامطة ومغراوة وبني السيد وحق والخلوية والمشارف وكافة أهل وادي الحمام وزعماء الدوائر والزمالة وبني خويدم وعكرمة وفلقية والمفاحلية والغراية والحساسنة وأولاد الشريف وصدامة وكل من حضر هذه البيعة، نبايع أبا المكارم ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين صاحب الفضل المجاهد الشجاع ذا النسب الشريف قامع أعداء الله الظالمين، أيده الله بنصره، نبايعه على الجهاد والحكم بكتاب الله وسنة رسوله وعلى الطاعة ونصره في السراء والضراء، ومن ينكث فإنما ينكث على نفسه وخسر يومه وأمسه والله الموفق". وخرجت الجموع متفائلة يهنئ بعضهم بعضًا.

أ. التصور المؤسساتي المدني للدولة الجزائرية عند الأمير عبد القادر:

أ1 الإدارة:

رغم انشغال الأمير بحاجيات الدفاع عن البلاد أمام الخراب الذي نشره العدو فيها لم يمنعه أن ينشئ جيشا ويبني مدنا ويسكّ نقودا وينظم إدارة متكاملة تقريبا ومنسجمة مع أخلاق البلاد.

فبعد أن بويع المبايعة العامة أخذ على عاتقه تنظيم الدولة الجزائرية من جديد، فكانت مرحلة الهدوء والاستقرار الذي نعمت بها البلاد بين سنتي (1837–1839) فرصة سانحة للأمير لتأسيس دولة وبناء مؤسساتها وتمكن بفضل حكمته وقوته العسكرية من ترسيخ مبادئ العدالة والمساواة وتوفير الموارد المالية الضرورية لمختلف أجهزته للقيام بالمهمات المنوطة بها. وفي هذا الصدد يقول "نوشي": "كان إصلاحه يرمي إلى وضع أسس وحدة دولة وأن تلك الدولة قد اصطبغت منذ البداية بصبغة جزائرية خاصة".

سعى الأمير إلى تجنب أخطاء الحكم "العثماني" الذي جعل ممثليه في الجزائر عرضة للخطر وكراهية الناس فعمل على بناء إمارة أساسها إخلاص الحاكم وثقة المحكومين.

كان الاضطرار إلى حماية البلاد وتحقيق وحدتها بإضفاء الصبغة الوطنية هو الذي حمل الأمير لا على هدم الأنظمة الإقطاعية فحسب، بل تحقيق استقلال الجزائريين وخلق سلطة دولة مركزة.

أ2 المقاطعات الإدارية:

قسّم الأمير ما دخل في طاعته إلى إقليمين: مقاطعة تلمسان وولّى عليها محمد البوحميدي الولهاصي، ومقاطعة معسكر (حاضرة الإمارة) وولّى عليها السيد محمد بن فريحة المهّاجي وبعد وفاته تولى هذا المنصب الحاج مصطفى بن أحمد التهامي.

ولما امتدت طاعته إلى ما وراء الشلف أضيفت إليها مقاطعة مليانة وقد ولّى عليها محي الدين بن علال القليعي ولمّا توفي ولّى بدله محمد بن علال. ولكل مقاطعة مرسى خاص بها فكان لتلمسان مرفأ "رشكون" ولمعسكر مرفأ "أرزيو" ولمليانة مرفأ "شرشال"[(1)].

ثم دانت له بلاد تيطري فجعلها مقاطعة رابعة وولّى عليها محمد البركاني وجعل حاضرتها المدية. ثم تزايد نفوذ الأمير في الجهات الشرقية والجنوبية فاتسع ما دخل تحت

---

(1) فريدة قاسي، **الدولة في فكر الأمير عبد القادر (1832–1847)**، منشورات بونة، الجزائر، 2012، ص.177–178.

نطاقه إلى ما وراء بلاد مجانة قرب قسنطينة شرقا وإلى الجنوب إلى القفر فيما وراء وادي سوف. وفي الشمال إلى ما وراء بلاد مجانة حيث جعلها مقاطعة خامسة حاضرتها سطيف، وجعل بلاد الزيبان مقاطعة سادسة وحاضرتها بسكرة وبلاد الجبال مقاطعة سابعة وحاضرتها برج حمزة.

إذن في أواسط سنة 1839 أصبح عدد المقاطعات ثمانية مقسمة على النحو التالي:

1-مقاطعة تلمسان

2-مقاطعة معسكر

3-مقاطعة مليانة

4-مقاطعة تيطري

5-مقاطعة مجّانة

6-مقاطعة الزيبان والصحراء الشرقية

7-مقاطعة جبال القبائل أو برج حمزة

8-مقاطعة الصحراء الغربية

وقد قسّم الأمير هذه المقاطعات إلى دوائر، ووضع على كل منها آغا وهذه الدوائر تشتمل على قبائل وكل قبيلة تحتوي على بطون وعشائر. فجعل على كل قبيلة قائدا، وعلى كل بطن وعشيرة شيخا. فكانت الأوامر الأميرية تصدر عن العمال المعروفين بالخلفاء ومن طرفهم إلى الآغوات ومنهم إلى القواد ومنهم إلى المشايخ.

وبالمقابل فالقضايا التي تحدث في الدوائر يرفعها المشايخ إلى القواد وهم يرفعونها إلى الآغوات ومنهم ترفع إلى الخلفاء ثم تعرض على الحضرة الأميرية أينما كان.

هذا في القضايا المهمة وأما في غيرها فإن الخلفاء يفصلونها من دون أن يرفعوها إلى الحضرة الأميرية، وفي وقت الحرب يكون هؤلاء الرؤساء رؤساء عسكرية فيجمع كل منهم جماعة من عشيرته ويحضر بهم إلى القتال[1].

وأمام هذا التنظيم الهرمي الذي يأخذ بعين الاعتبار العلاقات البشرية والأوضاع الاجتماعية العامة السائدة في البلد في ذلك العصر، لم يتمكن الفرنسيون من اختراع ما هو أفضل وأكثر ضبطًا منه عندما آل إليهم حكم البلاد فيما بعد فاكتفوا باعتماده كما هو دون أي تعديل يذكر.

3أ خلفاء الأمير عبد القادر:

كان الأمير شديد التدقيق في اختيار أعوانه الإداريين وولاته بحيث لا يكلف بمسؤولية في إدارته إلا من تتأكد لديه مقدرته ووطنيته وتقواه وقد أبعد كل من له مركز ونفوذ في الإدارة القديمة.

ولما كان قصده ربط البلاد بالإدارة الشرعية، لم يستخدم إلا من اشتهر بمعرفة الأحكام، وعرف بالعفاف والإقدام، فاستخدم في إدارة الأمور، من كان ذا حزم وعزم، وقوة شكيمة من ذوي البيوت المشهورين بالعلم والفضل وحسن السياسة.

فالخليفة وإن كان يستمد نفوذه الأساسي من لقبه ومركزه في الدولة، فهو أيضا في العادة شخصية ذات مركز اجتماعي قوي في منطقته، حيث يكون له أنصار وأتباع يعتمد عليهم في مختلف المهام في السلم والحرب.

وهذا الاعتبار هو الذي جعل الخليفة غير قابل للنقل من مقاطعة إلى أخرى.

وقد استعان الأمير بشخصيات غير معروفة في أكثر الأحيان نظرًا لأصلها الشعبي المتواضع، لأن العبرة في نظره ليس بالأصل بل بالأخلاق والكفاءة.

---

[1] فريدة قاسي، مرجع سبق ذكره، ص179.

وهكذا اعتمد الأمير في تعيين قادته وخلفائه أسسا جديدة وقواعد ثابتة، فكان يختار العالمين بمبادئ الدين الإسلامي والشريعة المتوفقين في ساحات القتال.

لقد توخى أن يولي في كل مكان تابع لنفوذه رؤساء ومرغوبا فيهم لدى الأهالي الذين رئسوا عليهم: فعين سنة 1832 خليفة في تلمسان عضوا قادرا من مجموعة قبائل الطرارة "البوحميدي الولهاهي"، وعيّن قائدا له تاجرا من نفس المدينة وفي مليانة اعتمد سنة 1835، على شيوخ الدين التقليديين للمدينة[1]، سيدي علي الخلادي وسيدي الحاج، وفي المدية نصب رجلا من عائلةّ بركان" الذي كانت أسرته مسيطرة وراثيا على أراضي جني مناصر الواسعة النطاق.

كما كان يستعمل إن اقتضى الحال عملاء غير مسلمين مثل الإسرائيلي ابن دارن ، الذي عيّنه قنصلا في الجزائر، ومثل مانويل ماثوتشي الذي أصبح أكبر الرجال المكلفين بشؤون دولته المالية، كما كان يستعمل رجالا مسيحيين اعتنقوا الإسلام أم لم يعتنقوه من أشهرهم صاحب كتابته الخاص "ليون روش".

شغل الأمير عبد القادر جميع المناصب الهامة برجال نبلاء، تقديرا منه للنتائج المثمرة التي تعطيها النظرة الصحيحة للتكوين الطبيعي للمجتمع، واعتبارا منه لتكريم العرب الغريزي للنصب والدم، ولكن أولئك الرجال الذين وقع عليهم الاختيار كانوا في الوقت نفسه يمتازون بالشخصية القوية، والسمعة النظيفة.

فكانوا مثالا في إخلاصهم وتفانيهم مما أوجب طاعتهم واحترامهم، وبذلك شاع بين كل الطبقات، من قمة المجتمع إلى قاعدته شعور عال بالواجب والاحترام الذاتي، كما بعث العمل بالدين والفضيلة والشرف والأخلاق، التي اختفت أيام الحكومة السابقة.

---

[1] فريدة قاسي، مرجع سبق ذكره، ص180.

يقول بن أشنهو: "لقد بنى الأمير إدارته على أسس الدين الإسلامي، والسلطة الحازمة القوية والاهتمام بالمجتمع وتطويره وهذا ما سمح ببقائها لمدة خمسة عشرة عامًا.

وكان تعيينهم يتم بمراسم خصوصية تتحرر بقلم كاتب الديوان الخاص، وتختم بأعلى سطر منها بخاتم الإمارة، وهو خاتم كبير الحجم، منقوش في دائرته. إذ يتم تنصيب العامل داخل الديوان الأميري، بحضور الحاكم الجديد وعند تسليمه مرسوم التقليد، وتكليفه بمهامه، يسلّم خاتما نقش عليه اسمه ولقبه ويخلع عليه البرنوس الرسمي المصنوع من الجوخ. ونوعه يختلف تبعا لدرجة المنصب الإداري الذي عيّن فيه. ثم يحلف على صحيح البخاري يمين الطاعة والعمل بإخلاص وعدم العدول عن الحق، والصدق في الخدمة مع الأمير والرعية، والتضحية في سبيل الإمارة وشعبها وتطلق عيارات نارية من بنادق رجال المدفعية الذين اصطفوا أمام الباب[1] أثناء إتمام مراسيم التعيين.

وكان يعيّن في كل دائرة قاض من العلماء الذين اشتهروا بالتقوى والعلم والفضل مهمته الفصل في القضايا طبقا لأحكام الشريعة، على مذهب الإمام مالك، وجميع القضاة يخضعون لسلطة قاضي القضاة في الإدارة المركزية، ويتبع كل قاض عدلان، أحدهما يقوم مقام المفتي.

وللقضاء على الفساد والرشوة وطرق ابتزاز أموال الشعب خصصت حكومة الأمير مرتبات لجميع الموظفين تدفع إمّا مالا عينا أو مواد تموين، وقد كان مرتب الخليفة وهو أعلى مرتب في الإدارة 110 دورو (550 فرنك) وتقديم الطعام للزوار عابري السبيل، وأمّا الأغا فيحصل على عشر ما يجمعه من الزكاة والضرائب.

وقد تعيّن على رأس المقاطعات الخلفاء الآتية أسماؤهم:

- **مقاطعة تلمسان:** محمد البوحميدي الولهاهي.

---

(1) فريدة قاسي، مرجع سبق ذكره، ص182.

– **مقاطعة معسكر:** محمد بن فريحة المهّاجي، وبعد موته تولى ابن عمه مصطفى بن أحمد التهامي.

– **مقاطعة مليانة:** محي الدين بن علال القليعي ولمّا مات تولى محمد بن علال (أحد أقاربه).

– **مقاطعة تيطري:** محمد البركاني.

– **مقاطعة مجانة:** محمد بن عبد السلام المقراني ثم السيد محمد الخروبي القلعي ثم محمد بن عمر العيسوي.

– **مقاطعة بسكرة والصحراء الشرقية:** فرحات بن سعيد ثم الحسن بن عزوز ثم محمد الصغير بن عبد الرحمن بن أحمد بن الحاج.

– **مقاطعة الصحراء الغربية:** قدور بن عبد الباقي.

– **مقاطعة برج حمزة:** أحمد الطيب بن سالم التبسي.

والخلفاء أو الولاة تختلف مراتبهم ودرجاتهم وفقا لأهمية الولاية التي يحكمونها، فعلى حسب جسامة المقاطعة أو الخطة تكون مكانة الحكام في الشرف والشهرة.

فولاية تلمسان كانت تعتبر أهم الولايات تليها ولاية معسكر، ثم ولاية مليانة، فولاية المدية، وقد كانت جميع الولايات تتمتع باستقلال ذاتي كبير، ومن ثمّ فإن الخليفة كان محاطا دائمًا بهالة من التقدير بوصفه شخصية دينية وعسكرية وسياسية في آن واحد.

والخليفة يظل يحتفظ بمركزه ومكانته عند الأمير وبين شخصيات الدولة حتى بعد سقوط عاصمته وذهاب منصبه(1).

أما خلفاء الأمير في الأقاليم الأربعة الجديدة فأمرهم يختلف نوعا ما، فقد كان بعضهم لا يحكم إلا مدة قصيرة، وكان بعضهم الآخر لا يتمتع بصيت ونفوذ قوي، مما جعل سلطة

---

(1) فريدة قاسي، مرجع سبق ذكره، ص ص.182-184.

الأمير لا تنفذ ولا تحترم كما نفذّت واحترمت في الأقاليم الأربعة الأولى. حيث لا يتمتعون بسلطة شخصية أو إدارية أو دينية تجلب لهم طاعة الناس. ومثال على ذلك الحاج العربي بن الحاج عيسى الذي لم يستطع أن يوطد سلطة الأمير على الأغواط وما جاورها من الصحراء الغربية، وكان على الأمير أن يستبدله بغيره أمام عجزه عن جلب أو تحييد أحمد بن سالم ومحمد التيجاني، عكس الخليفة أحمد الطيب بن سالم الذي كان ورعا قوي الشكيمة استطاع أن يبسط إدارته بكل قوة وجدارة على المنطقة التابعة له.

وبالنسبة لوظيفة هؤلاء الخلفاء فقد كان الخليفة هو الممثل المباشر للأمير في الإقليم الذي فوّض له إقرار سلطته عليه حيث تتحدد مهمته في مراقبة تحرّك الأغوات وجمع الضرائب والزكاة عبر ولايته حيث يكلف الأغا بجمعها ثم يقوم بتسليم نصيب بيت المال منها إلى الأمير.

والضرائب والزكاة تجمع مرتين في السنة، ولمراقبة عملية تحصيلها يسير الخليفة على رأس قوة من جيشه، ويقوم بجولة في مختلف أطراف الولاية ليتفقد الأحوال ويتلقى شكاوي الناس التي يحوّل ما يستحق التحويل منها إلى ديوان الأمير. والزكاة تدفع نقدا بالمال العين أو بالحبوب والحيوانات لتستعمل في تموين الجيش أما الفائض من الحيوانات كالبقر والغنم فتوضع وديعة لترعى عند القبائل وتستعاد في وقت الحاجة.

وأما الخيل فتوزع على الجيش أو تعطى للقوم، والباقي يودع أيضا عند القبائل، وأمّا الفائض من القمح والشعير فيحفظ في المطامير في أراضي بعض القبائل تحت مسؤولية القائد. وبفضل هذه المطامير الموزعة في مختلف أنحاء المملكة، يضمن الجيش في حلّه وترحاله ما يحتاج إليه من التموين، دون أن يضغط على موارد السكان في المنطقة التي يحلّ بها[1].

---

[1] فريدة قاسي، مرجع سبق ذكره، ص185.

كما تستعمل هذه المخزونات لمساعدة الأهالي والتخفيف من أزمة توفر المواد الغذائية في سنوات القحط، وهذا التنظيم المحكم كان يقوم بوظيفته على أكمل وجه، الخليفة في أوقات السلم، أما في حالة الحرب يصبح كل شيء عرضة للنهب.

ويحتفظ الخليفة بجيش في ولايته يوفر له المؤن والذخيرة كما يتولى مهمة الإشراف على التحصينات وإقامة المنشآت العسكرية الضرورية وشراء الأسلحة. وهذه القوة من جيشه النظامي هي التي ترافقه في تنفيذ المهمات الموكلة إليه خاصة فيما يتعلق بمراقبة تحصيل الضرائب حيث تتعرض القبائل التي ترفض دفع المتوجب عليها للملاحقة والحصار والقتال.

ونظرا لحرص الخليفة على قرار النظام في مقاطعته، فإنه كان يطلع بنفسه من أغوات الدوائر على سير إدارتها، وينظر في المسائل القضائية المهمة ويفصل فيها.

وهكذا تمتع خلفاء الأمير بكفاءة عالية في إدارة مقاطعاتهم في حالتي السلم والحرب، والأمثلة على ذلك كثيرة والشهادات مختلفة. فالأمير عندما عيّن الحاج السّعدي خليفة عنه في المنطقة الممتدة من سهل متيجة إلى ناحية الشرق، وقيامه بمهمته خير قيام أدى ذلك إلى زيارة الأمير لبلاد القبائل أواخر سنة 1837.

ومما يدل أيضا على يقظة خلفاء الأمير ما صدر عن ليون روش من تصرف عندما قرر مغادرة معسكر الأمير، فقد أخذ خاتمه بصفته كاتبا له، وعددا من الرسائل استعملها في شكل برقيات ليخادع كل من يعترض طريقه، لأنه يعلم أنه مهما كان عاملا في صفوف الأمير فلابد وأن يقدم لخلفائه الدليل على ذلك، وهذا غاية في الحزم والمراقبة والدقة الشديدة.[1] وقد لاحظت السلطات الفرنسية مدى فاعلية هؤلاء الخلفاء بالنسبة لإدارة حكومة الأمير ونفوذها فعملت كل ما في وسعها لاستمالتهم إلى صفها نظرا لعدم كفاءة أعوانها.

---

[1] يوسف مناصرية، **مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب (1832-1847)**، م و ك، الجزائر، 1990، ص37.

حيث نجد أن أحد الضباط الفرنسيين بعث برسالة إلى المارشال "دي كاستلان" سنة 1842 مضمونها أنه لابد وأن ينفصل خلفاء الأمير عنه فلو أننا وفقنا في استمالة بن علال والبركاني وبن سالم لحصلنا على ما نبتغيه من السلم.

وفي هذا الإطار حاول "بيجو" استمالة بن علال أواخر سنة 1842 حيث عرض عليه ألف فرنك وإعادة أملاكه الواسعة إليه ومعاشا سنويا قدره خمسين ألف فرنك بشرط أن يستسلم لفرنسا ويقيم بمدينة الجزائر والقليعة مسقط رأس عائلته. فكان جواب الخصم الأنوف، كما يسميه "شانغارني": "ليكن في علمك أنني أحكم وأقاتل ضمن منطقة تمتد من جبل دخلة إلى وادي فضّة، وماذا أراك تعرض عليّ مقابل هذا الحكم الذي أمارسه لإعلاء كلمة الله في خدمة سيدي السلطان عبد القادر، أراك تعرض عليّ أملاكي تلك الأملاك التي سوف أستعيدها بالبارود... وتعرض عليّ المال والخيانة...".

ورغم كفاءة هؤلاء العمال واستيفاء شخصهم للشروط المقررة أثناء اختيارهم وتعيينهم إلا أن هذا لم يمنع الأمير من متابعتهم ومراقبتهم فهو لم يكتف بسلوكهم الظاهري بل كان يستعلم عنهم جميعا حتى لا يقدموا على أية هفوة تمس الدولة والرعية.

وكان مناديه في غالب الأوقات ينادي في الأسواق أن من له شكوى على خليفة أو آغا أو قائد أو شيخ فيرفعها إلى الديوان الأميري من غير واسطة فإن الأمير سينصفه من ظالمه وإن لم يرفع ظلامته فلا يلومّن إلا نفسه.

مع ذلك فإن هذا لا يعني أن هناك استبدادًا من طرف الأمير في ممارسة سلطته على خلفائه فطاعة هؤلاء لم تكن مطلقة وفي جميع الظروف حيث يبدو أحيانا أن قرار الأمير ليس وجيها فيعارض بكل حرية وربما اتخذ قرارا يتعارض وقراره.

وخلاصة القول فيما يتعلق بالإدارة التي أسسها الأمير ومدى انسجامها وكفاءتها ما ذكره "بوجولا" الذي تحدث سنة 1844: "إن فرنسا اتبعت في الأعماق مثال الأمير عبد القادر إزاء الأهالي فجعلت وظائف الخلفاء والأعوان كما فعل هو، فكان على كل إقليم من

الأقاليم الثلاثة جنرال، تحته مجموعة من الخلفاء والآغوات في شكل مناطق خاصة بهم، كانوا يتراسلون مع المكاتب العربية التي كان على رأس منها ضابط فرنسي يمثل فرنسا لدى السكان"[1].

أ4 مكانة القضاء:

كان الأمير حريصا أشد الحرص على إقامة الحق، ونشر لواء العدل بين عموم الرعايا، فكان تنظيم العدالة شغل الحكومة الدائم لأنها العامل الأساسي لتثبيت سيادتها على كافة الأراضي التابعة لها وضمان حقوق مواطنيها.

وقد أشرف الأمير على تعيين القضاة، فعيّن في كل عمالة، وكل دائرة واسعة الأنحاء قاضيا عالما، يشترط فيه أن يكون فقيها نزيها، مشهورا بالعفاف والتقوى والتحري في دينه، وربط إدارة مجموع القضاة بمراجعة العلامة قاضي القضاة أحمد بن الهاشمي المرّاحي (رئيس مجلس الأمير الخاص). وقد عيّن لكل قاض كاتبين، أكبرهما يقوم مقام المفتي في مطالعة الفتاوى التي تجري الأحكام على مقتضاها، باعتماد المذهب المالكي في فصل القضايا.

وقد قسّم الأمير القضاء إلى مدني وعسكري، وخصّ له راتبا شهريا وإضافات مالية لقيام القضاة بواجباتهم الخاصة، وقد كان القرآن هو المرجع الوحيد للقضاء بصفة عامة.

– **القضاء المدني:** فرض عبد القادر على خلفائه فئة من العلماء والفقهاء المتميزين بالعلم والنزاهة وتوزيعهم على المقاطعات الإدارية للإفتاء في الدعاوي والعمل في الخصومات وقد ألحق بكل مجلس إقليمي كاتبين – كما سبق ذكره – يقوم الأكبر منهما بدراسة الفتاوى التي تصدر عن القاضي، فيبث في الثانوية منها ويحيل الأساسية إلى معسكر للحكم فيها.

---

[1] فريدة قاسي، مرجع سبق ذكره، ص ص.187-188.

– **القضاء العسكري:** يشرف عليه السيد بن عبّ بن مصطفى المشرفي في معسكر حيث عيّن في كل كتيبة قاضيا يساعده مسؤولون في إصدار الأحكام وتنفيذها، أحدهما آمر محفّز الشرطة العسكرية.

وقد كان القضاة سواء المدنيون أو العسكريون، ينتخبون لمدة سنة واحدة قابلة للتجديد مرات عديدة شرط اجتيازهم امتحان الكفاءة وعدم ارتكابهم أخطاء جسيمة مهينة للوظيفة.

وقد انحصرت صلاحياتهم في القضايا المتعلقة بالأمور الشخصية، وكان يطعن في أحكامهم أمام مجلس الشورى بمعسكر الذي يفصل أيضا في المسائل التي تمس المجتمع وفي الجرائم الموجهة ضد أمن الدولة. وفي الحالات الدقيقة كان الأمير يستفتي الفقهاء ولا يتردد في طلب أهل العلم في فاس والقاهرة[1]. وعن التنظيم المالي للقضاء أقام الأمير نظاما قضائيا جديدا حيث صار القضاة موظفين رسميين بعد أن كان هذا مفقودا في العهد العثماني بالجزائر وحتى في تونس والمغرب الأقصى. فالقاضي في نظام حكومة الأمير يتلقى مرتبا شهريا قدره 10 دورو أي ما يعادل خمسون فرنكا إضافة إلى رسوم يتلقاها عندما يبرم أنواعا معينة من العقود.

وبالنسبة لتنفيذ الأحكام فقد كان يجري القصاص الشرعي والسياسي على أصحاب الجنايات بما يستحقونه، لا تأخذه في ذلك لومة لائم، وكان الناس يقبلون أحكامهم ويتلقونها بانشراح وطيب خاطر. وكان يقوم بنفسه بالنظر في العرائض والقضايا ومتى كانت الشكوى تقوم على أساس كان الحكم بشأنها سريعا في صالح المتظلم وإذا كانت الشكوى مفتعلة فإن العقاب ينزل بصاحبها حتى لا يستنفد وقتا في شكاوي عابثة.

وإذا كان الحكام الأتراك من قبل يحكمون بالموت تبعا للنزوة والغلطة فإن الأمير لم يسمح بأي تنفيذ للإعدام إلا بعد حكم مطابق للشريعة، حيث لا يعتبر نفسه سوى منفذ لها.

---

[1] فريدة قاسي، مرجع سبق ذكره، ص189.

ومتى أصدر الأمير حكما كانت هناك إشارات، فمتى حكم بالجلد استخدمت العصا بكفاءة، عندما تكون الغرامة هي العقاب يرسل جماعة لاستخلاصها مباشرة ومتى تعذر استخلاصها نقدا عاد الجنود الجهاد والبقر والماشية التي تساوي المبلغ المفروض.

أما الأحكام التي يصدرها القاضي فيقوم الشاويش بتنفيذها حالا، ويراعي في الأحكام المتعلقة بالقضايا الجنائية التي تتسم بالصرامة أن تكون رادعة. ومتى صدر الحكم بالإعدام في حق مذنب يقاد في الحال إلى غرفة التنفيذ التي احتفظت باسمها التركي "باش عودة" او كما تسمى "بيت الرؤوس"[1].

ويلخص لنا الأمير عبد القادر النظام الذي أقامه حفظا للأمن وإقرارًا للعدل بقوله: "أنه لاشك أن كثيرا قد عانوا من نظامي هذا، ولكن لم يعان أحد من دون حكم شرعي وجميعهم قد ارتكبوا نوعا من الجرائم أو خانوا دينهم".

إن شريعتنا صريحة في أن كل من أعان عدوا ببضائعه فقد أحلّ بضائعه وكل من أعانه بسلاحه فقد أحلّ حياته.

ويقارن اسكوت بين حكومة الأمير وحكومة المغرب في مجال تطبيق العدل ونشر الأمن فيقرّ أن الفرق بين كفاءة كل منها في قمع الجرائم شاسع فالأمير محبوب ومحترم من طرف الجميع ولكن اللصوص يفزعون منه أشد الفزع لأنه صارم وسريع في تنفيذ الأحكام.

5أ نظام التعليم:

لم يكن اهتمام الأمير بالعلم والتعليم محصورا في شخصه أو ذويه فحسب بل أراد أن يوجه هذا الاهتمام لجميع أفراد الأمة الجزائرية فاجتهد في وضع أسس نظام تعليمي هدفه

---

[1] فريدة قاسي، مرجع سبق ذكره، ص190.

المحافظة على وحدة الثقافة العربية الإسلامية وتماسكها بالمحافظة على تراث الجزائريين وتغذيتها في حركة الكفاح ضد الاستعمار.

فكان من بين اهتماماته إنشاء نظام للتعليم العام بين القبائل جميعا وأصبح لأول مرة مهمة حكومية، فقد رتّب الأمير في سائر المدن والقرى علماء لتدريس فنون العلم المختلفة وأمر بطلب العلم واحترام أهله.

وقد عبّر عن هذا بقوله: "إن واجبي كحاكم أن أؤيد وأبعث العلوم والدين لذلك فتحت المدارس في المدن وبين القبائل، وفي هذه المدارس كان الأطفال يتعلمون الصلوات ويحفظون تعاليم القرآن وعروضه ويعرفون جيدا القراءة والكتابة والحساب".

وصارت الدولة التي أسسها رجل مثقف تجري النفقات على الطلبة القائمين بالتعليم وتعيّن مرتبات للعلماء على حسب طبقاتهم، وقد تم تيسير السبل لتحصيل العلم فبذلت أقصى الجهود للمحافظة على الكتب والمخطوطات من الضياع فقد أعطى الأمير أوامره المشددة في جميع المدن والقبائل أن يبذلوا عناية قصوى بها وأن كل من وجد يُتلف أو يفسد مخطوطا يجب معاقبته معاقبة شديدة على أساس أن الكتب قليلة في البلاد وعدد الطلبة كثير [1].

وقد كان الجنود يعرفون مدى اهتمام الأمير بهذا الموضوع فكانوا يحرصون على إحضار كل ما تقع عليه أيديهم من مخطوطات أثناء الغزوات وذلك بعناية فائقة وكان هو بدوره يعطيهم جوائز قيمة إثارة لحماسهم وتشجيعا لهم. وبفضل هذه العناية تجمّع الأمير عدد لا بأس به من المخطوطات وضعت في أمكان أمينة في الزوايا والمساجد وأوكلها إلى الطلبة الذين كانوا محل ثقته.

---

[1] فريدة قاسي، مرجع سبق ذكره، ص192.

من جانب آخر كان يشجّع الطلبة على تحصيل العلم ويكافؤهم على نشاطهم فيه وذلك بتقديم امتيازات خاصة بهم من بينها:

- تخصيص رواتب لهم على حسب معارفهم ودرجاتهم.
- العفو عنهم حتى لو كانوا مجرمين محكوما عليهم بالموت.
- إصدار الأوامر باحترامهم واستثنائهم من جميع الخدمات.
- إكرام النجباء منهم بعد امتحانهم في الفن الذي يتعاطونه والإعراض عن المتهاونين فيه.

فكانت النتيجة أن انتشر العلم في جميع المقاطعات وأقبل الناس على تعليم أولادهم فكثر النفع وعمّت الفائدة.

- **مراحل التعليم:**

ذكرنا أن التعليم على عهد الأمير أصبح مهمة حكومية وخلال فترة السلام (1837-1839) أصبح موكلا لفقهاء القبائل والزوايا في مراحله الابتدائية والثانوية والعالية.

وقد خصّ الأمير كافة المعلمين برواتب ثابتة نقدا أو عينا، ومنح الطلبة المتفوقين مبلغا ماليا لمتابعة التحصيل في الصفوف العالية، وقد عرف التعليم على عهده مراحل ثلاث:

- **الطور الأول:** مرحلته أربع سنوات يتعلم الطفل خلالها القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وفي كل قرية كانت هناك خيمة تدعى "الشريعة" يشرف عليها مؤدّب يختاره سكانها وينال فرنكين أجرة في اليوم[1].

---

[1] أبو القاسم سعد الله، **محاضرات في تاريخ الجزائر بداية الاحتلال**، ط3، ش.و.م، ت الجزائر، 1982، ص ص.158-163.

- **الطور الثاني:** يستطيع التلميذ أن يواصل تعليمه مجانا في الجامع أو في مدرسة ملحقة بالأوقاف يشرف عليها مدرس وكانت الدروس تشمل النحو والصرف والتفسير والقرآن خاصة.

وينال الطالب في الأخير إجازة غير مكتوبة إنما شفهية ويصير باستطاعته القراءة في الجامع ويتولى وظيفة كاتب أو مؤدب.

- **الطور الثالث (التعليم العالي):** ليس هناك فصل واضح بين الطور الثانوي والعالي والأستاذ الذي يدرس في هذه المرحلة يسمى عالما يتقاضى أجرا من الأوقاف وكانت الدروس تتألف من النحو والفقه والحساب والفلك والتاريخ وتعطى في الزوايا وأهم الجوامع[1].

واستخلاصا، حسب فريدة قاسي يمكن القول أن عصر الأمير قد شهد بداية نهضة تعليمية لو كتب لها الاستمرار لكانت صفحة مشرقة حيث كان بتلمسان وحدها على عهده خمسون مدرسة ابتدائية تصب في معهدين كبيرين للتعليم العالي.

والأمير في هذا المجال يمارس وجوها متكاملة للإصلاح حسب ما يقتضيه المقام حيث بذل جهدا في إصلاح نظام التعليم وإرسال البعوث والرسائل إلى الدول العربية وبخاصة تونس والمغرب ومصر وهو في مشروعه يسير على نحو ما ينتهجه رجل آخر أكثر منه استقرارا وأمانا هو "محمد علي" وهدفه البعيد هو التضامن في وجه عدو لن يكتفي بالجزائر بل يريد تدمير الشعب المسلم العربي لمحو ثقافته ومقوماته والنيل من حضارته[2].

ب. التصور المؤسساتي العسكري للدولة الجزائرية عند الأمير عبد القادر:

ب1 التنظيم العسكري:

كان همّ الأمير يتمثل في بناء قوة عسكرية لتنظيم جيش مقاتل، فكيف تمت المواجهة بين الأمير الشاب الذي تلقى تعليمه في زاوية أبيه، وبين كبار قادة فرنسا الذين تلقوا تعليمهم

---

(1) أبو القاسم سعد الله، **محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بداية الاحتلال**، مرجع سبق ذكره، ص163.

(2) فريدة قاسي، مرجع سبق ذكره، ص194.

في كبرى جامعات العالم وأكاديمياته العسكرية وبين مجموعات من المجاهدين غير المدربين والفاقدين لكثير من الوسائل والأدوات، وبين جيش منظم ومجهز بكل وسائل الفتك المتطورة، ومخزونة مصانع ضخمة لمده بأحدث الإنجازات؟

وتظهر ديناميكية الأمير في هذا الجانب بشكل كبير، إذ بمجرد مبايعته نظر إلى إمارته نظرة رجل الدولة المسؤول، فاهتم بإنشاء جيش منظم وقوي، وزعه في كافة أنحاء دولته تحت إشراف خلفائه، تسانده جيوش الجماعات المحلية.

وكان وهو يرى انهزام الجيوش الرسمية وضعف التنظيم عند الجماعات المحلية، وتفوّق العدو العسكري وأهدافه وأطماعه، يخلص إلى نتائج هامة ترسم له أفق تخطيطه العسكري وتنظيمه للجيوش وبنائه للحصون والمصانع العسكرية، خاصة وأن معاركه ضد العدو أكسبته خبرة وتجربة دفعته إلى تدريب وحداته على أحدث الأسلحة، وفقا للمبادئ القتالية الأوروبية.

فلما علم الأمير ما بين الجنود المنتظمة والحشود المتطوعة من الفرق العظيمة عزم على تنظيم جند كافٍ، يكون دأبه التمرين والتدريب، ليصل بقوته ومعرفته بالأمور الحربية إلى مقاصده الجسيمة. ولكن تجنيد هذا الجيش من شعب لم يعرف التجنيد الإجباري من قبل، حتى أيام الحكم العثماني، شعب تثور طبيعته لمجرد فكرة التجنيد لتعارضها مع طبيعته وعدم تآلفها مع الحياة القبلية في الأرياف. هو تجربة خطيرة تحتاج إلى حنكة وحذر كبير. لهذا لجأ إلى وسيلة أخرى وهي التجنيد الاختياري، فقد عقد مجلسا عموميا من رجال الدولة وأعيان الرعية وزعمائها وخطب فيهم خطبة أوضح فيها فوائد العسكر النظامي ومنافعه، وأخبرهم أنه اعتزم على تنظيم عدد كاف منه. فأجابه الجميع إلى ذلك، فاعتمد الأمير المنادين العموميين يجوبون الأسواق فينادون في الناس ليدعوهم إلى الدفاع عن الإسلام والوطن، وليتجندوا وراء قائد للجهاد هو الأمير عبد القادر الذي أصدر بيانا مفاده: "ليبلغ الشاهد الغائب أنه صدر أمر مولانا ناصر الدين، بتجنيد الأجناد، وتنظيم العساكر من كافة

البلاد، فمن أراد الدخول تحت اللواء المحمدي، ويشمله عز النظام، فليسارع إلى دار الإمارة "معسكر" ليتقيد اسمه في الدفاتر الأميرية".

تلقى الناس هذا الأمر بانشراح وارتياح، واستحسنه كل عاقل وفاضل، وتقدموا يلبون نداء الجهاد ويتجندون مدى الحياة على اختلاف الأعمار، وقد اشترط الأمير أن يكون سن المتجند يتراوح ما بين خمسة عشرة إلى خمس وعشرين سنة لكن لم يمنع من تهيئة الأطفال خاصة أبناء الجند الذين كان يتكفل بإطعامهم وتحصينهم، وتربيتهم حتى يصبحوا أشداء قادرين على القتال. وكان المتطوع يسجل اسمه لدى القائد بعد تأكيد العزم على التجنيد، وارتضاء الحياة العسكرية فيحوّل إلى أقرب الكتائب، وكان الضابط الذي يستقبله يقدم له البدلة العسكرية، ويقوم بإدراجه ضمن الجنود المسلحين. ومن هؤلاء الجنود كان يختار أحسنهم وأشدهم مراسا في المعارك ليكوّنوا قوة الفرسان، ويبدو أن التطوع والعمل في الجندية له شروط عند الأمير التي تتمثل في:

- أن يكون الجندي جزائريا مسلما، عاقلا بالغا.
- أن يكون الجندي صحيح الجسم قوي البنية.
- أن يدون اسمه في السجلات الرسمية أي الدفاتر الأميرية لتحديد واجباته وحقوقه[1].
- أن ينصرف إلى القتال انصرافا تاما فيمتنع عن تعاطي أي نوع من أنواع المهن الأخرى مثل الزراعة أو التجارة أو الصناعة.
- ويسري على المتطوع الجديد ما يلي:
- اعتبار عقده نهائيا بعد تسجيل اسمه في الدفاتر الأميرية.
- تطبيق أنظمة وقوانين الجيش المحمدي عليه بعد التسجيل.
- فسخ عقده عند اقترافه عملا منافيا للأخلاق او معارضا للأنظمة العسكرية أو مخالفا لتعليمات الأمير.

---

[1] فريدة قاسي، مرجع سبق ذكره، ص ص.198-199.

عندما بدأ الأمير تنظيمه ورّث لدى الناس تقاليد عريقة متواضعة جدا وكان المجاهدون مسلمين ببنادق وسيوف ومسدسات، فاعتزم النظر في أحوال العسكر وتكثير عدده واستكمال عدّته.

ولما علم "ديميشال" بذلك أوعز إلى وكيله "بمعسكر" عبد الله بمساعدة الأمير وإعطائه الآراء في تحسين أحوال الجند، والاستقصاء في تعليمهم وتدريبهم. وأرسل من طرفه معلمين ماهرين وأربعمائة بارودة ومقدارًا وافراً من الذخائر الحربية وقال: "إن الأمير مستعد للقيام بأعباء الملك غير أن ذلك لا يتم له إلا بالعسكر المنتظمة والجيوش المدربة، وأما الحشود والجموع غير المنتظمة فلا تجدي نفعا ولا تستطيع جلبا، ولا دفعًا،فعجب الناس من مساعدة "ديميشال".

وبالنسبة لنواة جيش الأمير فقد كان عددها لا يزيد عن ألف رجل، تأسست بمعسكر، ودربت بواسطة جندي ألماني هارب من فرقة اللفيف الأجنبي، وقد أقام الأمير ثكنة عسكرية لفيلق قوي، مقسم إلى كتائب وذلك بلباسهم وطعامهم، وكان هذا الفيلق هو القوة التي يهاجم بها الأمير المراكز الفرنسية والقبائل المتمردة أو المتواطئة مع المحتل. وكان المجندون مسلحين ببنادق، وبسيوف "الياطاغان" ذات الحدين، بمسدسات، وكان سلاح المدفعية يتألف من ست قطع صغيرة ليس لها شأن، صنعها الكراغلة وهم الذين يستغلونها[1].

واستغل الأمير معاهدة دي ميشال ليضاعف من مشترياته، فتحصل عام 1834 على ألف ومائة وعشرة بندقية وكميات كبيرة من الذخيرة، واشترى كميات أخرى تبلغ ألفي بندقية من الغرب وصلته سنة 1838.

وأنشأ معامل لصنع الأسلحة في مدينة تلمسان مصهرة لصنع المدافع، وفي مليانة مصنع للبنادق والبارود، وبعد معاهدة تافنة أكمل الأمير بناء جيشه وتنظيمه، ووضع له

---

[1] محفوظ قداش، "جيش الأمير، تنظيمه وأهميته"، **مجلة الثقافة**، عدد خاص 75، الجزائر، 1983، ص51.

القوانين، وخلع عليه الرتب، وكان الجيش الذي خاص به المقاومة الكبرى من سنة 1839 إلى 1847 يتألف من قوتين رئيسيتين(1) هما: الجيش النظامي والمتطوعون من القبائل.

فالجيش النظامي هو جملة العسكريين الموجودين في الخدمة الفعلية والمتطوعين في ثلاثة أسلحة. وكان شعار جيش الأمير يوحّد بين مختلف الأسلحة، وتحمله مقدمته أثناء المهمات القتالية، وكان عبارة عن دربة بشكل هلال ركزت على عصا مزينة بالنقوش.

ورغم قلة عدد الجيش النظامي إذ لم يتجاوز خمسة عشر ألف وثلاثمائة منها: اثنا عشر ألف مشاة، وخمسمائة خيالة، وخمسون مدفعيون، فقد كانوا يمثلون الدعم الأساسي للأمير، حيث تميزوا بالشجاعة والبسالة، فقد كان الواحد منهم يعد بعشرة، وكانت كتائب الجيش النظامي التي أحكم اختيارها وتدريبها، كانت كل واحدة منها تشكل نواة للمقاومة المنظمة تنظيما عقلانيا في البوادي والأرياف وكان كل خليفة من خلفاء الأمير مسؤولا عن اثنين أو ثلاثة من هذه الكتائب في المقاطعة.

والدليل على الدور الفعال الذي قام به هذا الجيش، ما استوثق للأمير من قوة وسيادة وتحقيق للأهداف الداخلية والخارجية، حيث أقام الأمير في مواجهة جيش المحتل، الخارجين على طاعته مدة تزيد عن ستة عشر سنة، وبالنسبة لتصنيف الجيش فقد تولى الأمير بنفسه تنظيمه وترتيبه فقسمه إلى ثلاثة استعدادات:

- القوم الراكبون وسماهم الخيّالة.
- المشاة وسماهم العسكر المحمدي.
- الرماة الطوبجية (المدفعيون).

وفي البداية عيّن الأمير قائدا للجيش يطلق عليه اسم الأغا، وإليه ترجع جميع مسائل الجند، فأول من تولى هذا المنصب قدور بن بحر، فاستشهد يوم "وقعة الزبوج" (شجر

(1) فريدة قاسي، مرجع سبق ذكره، ص ص.200-201.

الزيتون) ومعركة المقطع، فتولى بعده الحاج محمد بن السنوسي، الذي عزله الأمير عن العسكر، وتولى موضعه الحاج علي بن عومر المستغانمي، ومات شهيدا، ثم عيّن المختار بن عيسى، ثم ردّه على الخيالة وجعل في موضعه سيدي الحبيب بالنزاري ولما ازداد نفوذ الأمير وكثر الجيش واتسعت المملكة تعددت أغوات الجيوش على حسب ذلك فكان ما يسمى بسلاح "العسكر المحمدي" أو المشاة وقد قسمه الأمير إلى مائة، وجعل على كل مائة سياف، وجعل له كاتبا يكتب ما يعرض لهم، وجعل على كل عشرة سيافين أغا (رئيس العسكر المحمدي) [1].

وقسّم كل مائة إلى ثلاثة أقسام، وجعل لكل قسم خباء[2] وعين لكل خباء كبيرا سماه رئيس الصف، وجعل نائبا له يقوم مقامه إن غاب سماه الخليفة إضافة إلى الطباخين والسقائين.

ويقوم رئيس العسكر بالنظر في سيرة السيّافين ورؤساء الصفوف مع العسكر المحمدي. أما السياف فمهمته تفقد أحوال المائة كل يوم اثنين وخميس.أما الكاتب فوظيفته تعليم المائة الذي هو كاتب عليها جميع العبادات والعقائد، يؤذن إلى الصلاة، ويصلي إماما، ويرأس الكاتب، الباش كاتب ووظيفته كتابة أمور الجيش كالرواتب والأكسية والديون، التي تترتب في ذمة أفراد العسكر، وقراءة القانون وقت الحاجة، ومن وظيفته أيضا أنه يجمع ما تحته من الكتاب ويعلمهم فرائض الغسل والوضوء والتيمم والصلاة والصوم وعقائد التوحيد، كما عليه أن يعلم الأغا وظائف الدين ويؤمّه في الصلاة، وقد أوجب الأمير على العسكر ورؤسائه احترامهم ومن أهانهم تعرض لعقوبة شديدة وصارمة.

---

(1) فريدة قاسي، مرجع سبق ذكره، ص202.

(2) الخباء: خيمة تصنع من الوبر أو الصوف أو الشعر وكانت تضم ثلاث وثلاثون جنديا، بين الخباء والخباء خمس وعشرون خطوة، وبين الحارس والحرس ثلاثون خطوة، وجعل الأمير الأخبئة دائرة.

وبالنسبة لفصل المنازعات يرفع أهل الخباء شكايتهم إلى رئيس الصف (كبير الخباء)، وهو بدوره إلى السياف ومنه إلى الأغا، وإذا لم يقدر فإلى السلطان ويجوز لرئيس الصف أن يخلف خليفة السياف، وهذا الأخير يخلف السياف، والسياف يخلف الأغا وأغا الخيّالة يخلف أغا الجيش، وكذلك سلاح الخيالة يتولى قيادة هذا السلاح، قائد يعينه الأمير ويشرف على تدريب وتجهيز وحداته بغية إعدادها للقتال، سماه رئيس الخيالة، يتألف هذا السلاح من كتائب تضم كل منها ألف فارس بقيادة "أغا"، والكتيبة تنقسم إلى سرايا، عدد أفراد الوحدة خمسين فارسا بإمارة سيّاف، والمجموعة الأخيرة في هذا التقسيم عبارة عن فرقة تتكون من عشرين فارسا، تدعى الفصيلة، تأتمر بإمارة رئيس الصف بمساعدة الجاويش وعيّن لكل ألف كاتب وعلى مجموعة الإداريين رئيسا أي باش كاتب.

أما سلاح المدفعية كان يشكل القوة الثالثة في جيش الأمير عبد القادر النظامي فقد سمي قائده "باش طويجي"[(1)]، واختار لهذا المركز "محمد أغا" المعروف بابن الكسكسة، الذي أوكل إليه قيادة العناصر وتدريب سددة المدفع، والسهر على تنفيذ جميع التدابير المتعلقة بحسن استخدامها. تألف هذا السلاح من مائتين وأربعين عنصرا، خدموا عشرين مدفعا فقط، بمعدل اثني عشر جنديا لكل مدفع بإمرة رئيس ونائب له، وجعل لهم كاتبا بجانب الحرس الأميري المتكونة من مجموعة من خمسمائة جندي بإمرة سالم أغا الزنجي، اتخذهم الأمير لحمايته أثناء السير ولحراسته ليل نهار وفي القتال وعند التوقف، وكانت أسلحتهم محلاة بالذهب والفضة ومرصعة بالمرجان.

وشكلت قوات عبد القادر غير النظامية القسم الأكبر من جيش الولاية، وقد تألفت من عناصر القبائل المؤيدة للأمير، الذين يجمعهم الخلفاء لأغراض الدفاع المحلي، وللاشتراك في العمليات التي يقودها الأمير إلى جانب جيشه النظامي، ثم تعود إلى ديارها فور انتهاء المهمات الموكلة إليها.

---

(1) نسبة إلى طوب وهو المدفع، والكلمة والنسبة إليها تركيتان معناه المدفعي.

فقد جعل الأمير في كل قبيلة كبيرة أو مجموعة قبائل مسؤولا عن تجميع المتطوعين يدعى "أغا" وأحاط المعسكر بسبع أغالكة، وكان خليفته في معسكر سيدي الحاج مصطفى بن تهامي يتولى تنسيق أعمال الأغالكة ومراقبتها، وانتشرت هذه الأغالكة في جميع المناطق التي تشرف عليها إدارة الأمير، وكان لهذه التشكيلات دور هام في ملاحقة الجنود الفرنسيين.

واختلف عدد وحدات هذه القبائل من سنة إلى أخرى، فبلغ حوالي 83 ألف مقاتل من مشاة وفرسان في 30 سبتمبر 1838، و53 ألف عندما أعلن الأمير الحرب على الفرنسيين في 18 نوفمبر عام 1839 وقد تعدّت نسبة الفرسان فيها السبعين بالمائة.

ب2 التنظيم العسكري:

اعتنى الأمير بالشؤون العسكرية وأولاها اهتمامه فكان له جيش دائم حقق له أهدافه الداخلية والخارجية وحرص على حشد طاقته البشرية والمادية في سبيل تحديث إمارته وغنائها فنجح إلى حد بعيد بفضل الأمن الذي نعمت به مقاطعته.

نظر الأمم إلى إمارته نظرة رجل الدولة المسؤول فعمل جاهدا لتطوير المجتمع والنظام والاقتصاد، واهتم بإنشاء جيش منظم وقوي، على غرار الجيوش الأوروبية، وكان معجبا بالمجهودات التي كان يبذلها محمد علي في هذا المجال. وقد أكسبته معاركه ضد القوات الفرنسية خبرة وتجربة دفعته إلى تدريب الجيش على أحدث الأسلحة ووفقا للمبادئ القتالية الحديثة. لقد حافظ الأمير على أسس عديدة ورثها عن أسلافه، فأضاف إليها، أو عدّلها حسب مقتضيات الوضع، وهكذا فرض على جميع أفراد جيشه الطاعة والانضباط، وهو مبدأ أساسي معتمد في جميع العالم(1).

وقد حسّن في تأليف فرق قتالية وتشكيلها، فأخضع عناصرها لقواعد دقيقة حددت واجباتهم وحقوقهم. كان عبد القادر رجلا قادرا وحكيما لتأسيسه دولة، أدارها بنفسه وضبط

(1) فريدة قاسي، مرجع سبق ذكره، ص ص.204-205.

أمورها وأصولها وحافظ على وحداتها واستقلالها، فكان لا يرى في الأمور العظيمة إلا ما يحقق لإمارته النجاح والمكاسب، ومهما كانت الطرق المؤدية إلى تنفيذ أهدافه محفوفة بالمخاطرة، فإنها كانت تثير فيه الحذر والتيقظ وحسن التخطيط ودقة العمل[1].

عندما بدأ الأمير عبد القادر في تكوين جيشه النظامي، أخضعه لتقاليد مضبوطة، فالنظام والقوانين، ألبسة العساكر وشعارات الرتب، الأوسمة والأسلحة التّمارين والمناورات، الارتقاء في الرتب وواجبات الضبّاط، كانت مسطّرة بكل دقة في ترتيب يدل على براعة الأمير وكفاءته الإدارية والعسكرية.

وحددت الرتب في جيش الأمير من مشاة، الخيالة، المدفعية كما يلي:

- **الأغا:** تميز رتبة الأغا أربعة علامات من الذهب اثنان على منكبيه إحداهما مكتوب عليها كلمتا الشهادة: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد رسول الله"، والأخرى حكمة: "الصبر مفتاح النصر" واثنان على صدره بشكل قمر وهلال، فذات اليمين مكتوب عليها اسم الجلالة: "لا إله إلا الله"، وذات الشمال مكتوب عليها "محمد رسول الله".
- **السياف:** يختص بعلامتين من الفضة على شكل سيف: إحداهما مكتوب عليها: "لا أرفع من التقوى والشجاعة" والأخرى "ولا أضرّ من المخالفة وعدم الطاعة".
- **رئيس الخباء أو الصف:** له علامة واحدة من الفضة توضع على عضده الأيمن مكتوب عليها "من أطاع رئيسه واتقى مولاه، نال ما يرجوه ويتمناه".
- **خليفة رئيس الخباء أو الصف:** يختص بعلامة من الجوخ الأحمر يضعها على ساعده الأيمن ليمتاز بها عن مطلق العسكر المحمدي أو الجنود.
- **مطلق العسكر المحمدي:** دون أية علامة، إنما يختص بكسوة الشايق الأزرق والأسود.

---

[1] محفوظ قداش، مرجع سبق ذكره، ص52.

- **رئيس الخيّالة:** يميز بعلامتين من الذهب، إحداهما على منكبه الأيمن مكتوب عليها الحديث الشريف: "الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة".
- **السياف:** لسياف الخيالة علامة واحدة يضعها على عضده الأيمن، وهي مصنوعة من الفضة ومكتوب عليه "أيها المقاتل احمل تغنم".
- **رئيس الصف:** له علامة واحدة من الفضة كرئيس الخباء في سلاح المشاة، توضع على عضده الأيمن ومكتوب عليها "من أطاع رئيسه واتقى مولاه، نال ما يرجوه ويتمناه".
- **الجاويش:** يختص بعلامة من الجوخ الأحمر، كخليفة رئيس الخباء في سلاح المشاة، فيضعها على ساعده الأيمن ليمتاز بها عن الخيالة.
- **الخيالة:** دون أية علامة مميزة، إنما يختص بكسوة العسكري، من الملف إرهابا للعدو.
- **باش طويجي:** تميز بعلامة مدفع من الفضة، يضعها على كتفه الأيمن وكتب عليها قوله تعالى: "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى".
- **رئيس المدفع:** يختص بكسوة ملف أسود ليمتاز بها عن دونه.
- **نائب رئيس المدفع:** مماثل لرئيسه، إذ يختص بكسوة ملف أسود ليمتاز عن دونه من المدفعيين.
- **الطويجي:** دون أية علامة مميزة.
- **رئيس الكتاب أو الكتاب الكبير:** تميز بعلامة واحدة من الفضة على شكل قمر وضعت على ساعده الأيمن، وقد كتب عليها لقب أمير المؤمنين "ناصر الدين".
- **كاتب المئة:** يختص بكسوة الملف.
- **المدفعية:** يختص بكسوة ملف عكري.
- وقد دعّم جيوشه بجهاز طبي ومدربون يتكون من:
- **رئيس الأطباء:** يختص بكسوة من الجوخ الجيد.
- **أطباء الوحدات المقاتلة:** يختص بكسوة من الجوخ الجيد.

- **معلم الحرب**: يختص بكسوة ملف عسكري.
- **الطبنورجي**: يختص بكسوة ملف عسكري.

وبالنسبة للترقية في جيش الأمير عبد القادر فإنها تخضع للشروط التالية:

- لا يرقى أحد في الجيش مهما كانت رتبته أو اختصاصه، إلى رتبة أعلى إلا إذا تحلى بالصفات الحميدة وبعد موافقة الأمير.
- لا يرقى أي من العسكريين إلى الرتب العليا إلا بعد ترقيته إلى مختلف الرتب الأدنى من مطلق العسكر المحمدي أو الخيال إلى خليفة رئيس الخباء أو الجاويش إلى رئيس الخباء أو الصف فالسياف فالأغا.
- يعفى من التدرج المذكور أعلاه كل عسكري يحمل الشيعة المحمدية، شرط أن لا يكون هناك سبب آخر يمنع الترقية[1].
- **الشيعة المحمدية**: اختار عبد القادر وساما، سماه الشيعة المحمدية ويختلف في مظهره حسب جدارة مستحقه، فهو يتكون من خالص الذهب والفضة بشكل يد ممدودة، وعدد هذه الأصابع يشير إلى عدد موقف الشجاعة والبطولة التي وقفها العسكري، وفي وسط الوسام كتبت عبارة "ناصر الدين" وكان لا يلصق على الصدر بل على أحد جانبي البرنس. ويمنح هذا الوسام مكافأة للمجاهدين الشجعان من أفراد جيشه في الحرب والذين ينقذون أحد رفاقهم أثناء المعركة، ويعطى أيضا لمن ينقض على عدوه غير آبه بالنتائج أو يصد محاولات تسلل خصمه.

أما تقليد هذا الوسام فيعود للأمير، الذي يحضر لهذه الغاية في إطار حفلة عسكرية رسمية. وكان يمنح هذا الوسام أيضا للمدنيين الذين أدوا خدمات إدارية عظيمة.

- **الزي العسكري للجند**: جعل الأمير كسوة العسكر المحمدي على نوعين: ملف أو جوخ، وشائق (الكتان المنسوج بالقطن)، وقد جعل الجوخ على ثلاثة أصناف:

---

[1] فريدة قاس، مرجع سبق ذكره، ص.207-208.

- **أحمر قان:** وهو الأعلى ويميز به رئيس العسكر المحمدي ورئيس الخيالة.
- **الأحمر الكاشف:** وهو كسوة السيافين والكتّاب أصحاب الرتبة الأولى، ومعلم الحرب والطنبورجي (وهو صاحب الطرنبيطة).
- **الأسود:** وهو لباس الطوبجي، ورئيس الاثني عشر مدفعيا وكاتبهم. أما بالنسبة لرئيس الصف ورئيس الخباء فكسوتهم متنوعة، فرئيس الصف عبارة عن غليلة من الجوخ الأسود، والسروال من الجوف الأحمر، والعكس بالنسبة لرئيس الخباء. ويختص مطلق العسكر بكسوة الكتان الأزرق والأسود، وبالنسبة للجند الخيال فبكسوة العسكري من الملف إرهابا للعدو.

وقد وصف لنا "أسكوت" هذا الزي بقوله: "زي الجنود يتكون من سراويل تركية وجاكيته زرقاء مصنوعة من الجوخ مقفولة بأزرار، وحزام يشبه الحزام الذي يستعمله أفراد الجيش الإسباني لعمل الذخيرة، وضاربوا الطبول، معظمهم من الجنود الهاربين من الجيش الفرنسي، وتبعا لذلك، فقد كانت معظم الأنغام "المارش" التي يضربونها فرنسية[1].

والضباط يتميزون بحمل صفعة صغيرة من الفضة تتدلى، معلقة بسلاسل من الفضة عليها عدة أهلة، وكل جماعة يقودها ضباط برتبة قبطان (سياف). وأما ضابط الصف فهو يتميز بزي أحمر ويحمل ثلاثة أشرطة من الفضة والذهب على كمّه، والقبطان (السياف) وضابط الصف كلاهما يلبس زيا أحمر اللون. قد نبه على الجميع أن لا يبدّل أحد كسوته المخصوص بها، سواء كان أغا أو سياف، كبير الصف أو خيالا، طبجيا أو عسكريا، ولم بلغ ما بلغ من الغنى، ومن استهان يعاقب بشدة.

---

[1] فريدة قاس، مرجع سبق ذكره، ص209.

ب3 بناء المنشآت العسكرية:

ما من شك أن معرفة الأمير الحميمة بالمحيط الطبيعي وبالمناخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي هي التي جعلته يفكر في إقامة سلسلة من التحصينات على مدى طول منطقة حساسة، منطقة الاتصال والاحتكاك بين التل في الشمال والسهوب في الجنوب التي لعبت دورا كبيرا في تاريخ المغرب الاقتصادي والاجتماعي تبعا لمشروعه السياسي.

وقد اعتمد على عمق البلاد وحركية سكانها، فنقل العديد من أهل العواصم الشمالية إلى شريط المدن التي أنشأها كجبهة ثانية للصمود، وكان هذا الخط العمراني الذي شد قلاعه على حافة الهضاب العليا يعتمد على مدن جديدة وهي مدن عبد القادر كما كانت تسمى آنذاك.

فعند حدود التل والسهول العليا التي تشكل نقاط الاتصالات الاقتصادية حيث مواقع الأمصار القديمة الجزائرية الأصيلة مثل تاهرت، أشير، القلعة، أسس سلسلة من المدن: بوغار قرب المدية، وتازة قرب مليانة وسعيدة قرب معسكر، والقلعة والبرج ومزونة وتلمسان، وتقدمت بالأخص على بعد عشرين كيلومترا جنوب غربي تاهرت العتيقة، التي ستكون العاصمة الجديدة بفضل موقعها المركزي، وقربها من معسكر.

وقد أوضح الأمير للجنرال دوماس، اتجاهه إلى تأسيس هذه المدن والهدف منه فقال: "لقد أقمت على حدود التل عددا من الحصون كلّفني أموالا طائلة بينما كنت أواجه صعوبات جمة، وكان الهدف من إقامتها هو إشعار قبائل الصحراء المضطربة بالسلطة، والابتعاد عن هجوماتكم، ولكن حطّمتم هذه الحصون فيما بعد... لقد كنت مقتنعا أنه متى استأنفت الحرب فإنه عليّ أن أترك لكم كل المدن الواقعة في الخط الوسط للأطلس، ولكن يكون من المستحيل عليكم على الأقل لمدة طويلة أن تصلوا الصحراء لأن الثقل الذي يثقل كاهل جيشكم سيعرقل تقدمه. كانت تقع هذه المدن من جهة الغرب في سبدو، وفي سعيدة بالنسبة لجنوب تلمسان، وفي تاقدمت بالنسبة لجنوب معسكر، وفي تازة بالنسبة لجنوب شرقها، وفي

بوغار بالنسبة لجنوب مليانة، وفي بلخورط (الواقعة شرق مدينة الجزائر) بالنسبة للمدية، وأخيرا في بسكرة بالنسبة لجنوب قسنطينة"[1].

تمّ بناء هذه المؤسسات في ظرف أربع سنين دون أن يترك لأجلها بناء معسكر (إعادة بنائها)، وكانت تلك النهضة المدنية تابعة لنهضة النشاطات في سبيل تمصير الأمصار. لقد كانت هذه المراكز عبارة عن قلاع ومستودعات مثل سعيدة[2]، تاقدمت، بوغار[3]، تازة[4]، وسيباو وكانت "تاقدمت" أهم هذه المراكز، وقد أخذت مظهر عاصمة دقيقة، تتمتع بموقع إستراتيجي واقتصادي لكونها وسيطا بين السواد والصحراء، وانتقل إليها الأمير بأهله وأهل دائرته، وأنشأ دار للسلاح وأخرى لسك العملة، ومستودعات ضخمة للبارود والحديد والرصاص والنحاس والفضة.

لم تكن تلك البناءات كما يظن بعض الناس، عبارة عن ملاجئ لاستقبال سكان المدن المهجورة في أيام الحرب فحسب بل كانت تحتوي على قصبات محصنة ومعسكرات. والقصد منها خلق شبكة مدن دائمة، إضافة إلى وظيفتها العسكرية، كما هو مبين في الكتابة المنقوشة على حجر في مدينة "تازة" "إن الله يشهد لي أن هذا العمل عملي وسيبقى محفوظا في مذكرة الخلف، كل من يقربون مني ويقبلون على أراضينا السعيدة طلبا للأمن والطمأنينة، يجدون بعدي وإلى الأبد أسوة في خدماتي وأعمالي الصالحة.

فزيادة على الجنود المعسكرة، وعلى الكراغلة الذين نقلوا من مدن التل المحتلة وأحيطوا بمن يراقبهم خشية خيانتهم، أسكن الأمير الهاربين من المؤسسات الفرنسية بالجزائر خصوصا مع العمال الذين جمعهم والأسرى والهاربين من جيش العدو الذين يخدمون بجانبهم. كان أولئك اللاجئون إن وجدوا عند لحاقهم سكنا وقدر طفيف من المال. سرعان

---

[1] فريدة قاسي، مرجع سبق ذكره، ص227.

[2] سعيدة: مدينة في غرب الجزائر تبعد بـ 74 كم جنوب معسكر.

[3] بوغار: الآن بلدية تبعد بـ 8 كلم شمال قصر البخاري وبحوالي 43 كلم جنوب مدينة المدية.

[4] تازة: موضع يبعد بحوالي 50 كلم من مدينة مليانة في منتصف الطريق بين بوغاروثنية الحد.

ما اضطروا إلى العمل للارتزاق وهكذا تشكلت في المصانع وورشات المدن الجديدة نظام الإجارة.

- **مدينة "تازة":**

يسميها الأمير تازة الجزائرية، أو تازة الصحراء للتفريق بينها وبين تازة المغربية، وبالنسبة لوصف المدينة فهي ذات منظر خلاب تهبط تدريجيا من جبل يقع في الجنوب الشرقي منها إلى واد منخفض، وبجانبي التلال التي تمتد عليها المدينة يجري واديان صغيران عميقان، وبذلك تبدو المدينة وكأنها جزيرة تحيط بها حدائق غنّاء معظمها غابات البرتقال التي يملكها قائد المدينة من قبل كان يملكها السلطان وهي أجملها جميعًا.

وعند استئناف الحرب عام 1839 كانت "تازة" التي بنيت سنة 1838 تتألف من حوالي ثلاثين كوخا، وبعد سقوطها في أيدي العدو سنة 1840، كان عدد سكانها خمسين بيتا، مبنية بالحجارة المغطاة بالخشب والحشيش تخترقها طرق واسعة وترويها مياه القناة، وبفضل جهاز كانت تلك المياه تدير مطحنتين.

يصنع في المدينة نوع جديد من البارود يقال أنها توارثت صناعته منذ أوائل العهد المسيحي، وفي جوار المدينة توجد معادن الكبريت والملح الصخري، ولكن الكبريت لا يستخرج من هذه المناجم بسبب عدم وجود مختص في تنقيته، وإزالة التراب الذي يختلط به، كما يوجد بها رحى ومستودعات للذخيرة إضافة إلى المتاجر، ولما دخل الأمير مدينة "تازة" ورأى تشييدها في أقرب وقت، حمد الله وأثنى عليه وقال ارتجالا.

الله أعلم أن هذا لم يكن

منـي علـى الأمل الطويل دليلا

كلاّ... وإنّ منيّتي لقريبة

مني وأصبح في التراب جديلا

ورضـــى الإله هو المنــى ليكـون من

بعدي انتفاع الخلق ثم طويلا

- **مدينة تلمسان:**

كانت تسمى (POMARIA) في عهد الرومان، وبعدما أصبحت قاعدة الإقليم، في عهد إدريس الأول، أضحت مركزا مهما للدراسات الفقهية تحت سلطة المرابطين الذين أسسوا مسجدها الكبير، كما كانت مركزا مهما للتبادل التجاري بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب، ولما ضعف سلطان الموحدين في النصف الأول من القرن السابع الهجري أصبحت عاصمة المغرب الأوسط تحت سلطان بني عبد الواد، ولكنها شهدت تدهورا حضاريا وسياسيا في عهد العثمانيين بالجزائر [1].

هذا عن المدينة تاريخيا، أما جغرافيا فهي تقع على مرتفع من الأرض وتمتد في جنوب شرقها هضاب تشكل السلسلة التي تمتد على مقربة من "تافنة" تتجه إلى الشمال وتنتهي عند ساحل وهران، وتكاد تحيط بها الأشجار من جميع الجهات، يقدّر عدد سكانها بعشرين ألفا نسمة منهم ألف يهودي، وتبدو أهمية المدينة بالنسبة للأمير من الناحية الاقتصادية العسكرية، فقد أنشأ مصنعا للمدافع، كلّف بإدارته خبيرا إسبانيا يدعى "دون خوسي" منحه الأمير بيتا ويتلقى المواد الغذائية الكافية، والقطع التي أنشأها المصنع تبلغ قذائفها أربعة وستة أرطال وهي مصنوعة من النحاس.

---

[1] فريدة قاسي، مرجع سبق ذكره، ص229.

وقد أثبت هذا الخبير للأمير أنه معلم ماهر، حينما منح له مدفعين تزن قذائف كل واحد منهما أربعة أرطال، وقد كافأه الأمير بمبلغ 3 دولارات أو 12 شلن وستة بنلسات لإنتاج القطعة الواحدة من المدافع.

وكان دون خوسي يستعين بعمال هم من بين الأسرى الذين يحتفظ بهم الأمير في تلمسان، وكان من بين الخبراء ضابط برتبة قبطان في جيش المشاة الفرنسي.

- **مدينة بوغار:**

بنى الأمير حصن بوغار بجهة المدية، وكان يحتضن معامل لصناعة البرانس، ومخازن كبيرة للكبريت والصود ومعدن الرصاص. كما كان يحتضن زيادة على المرافق المنشآت لمصلحة السكان مستودعا للقمح والحديد والنحاس والرصاص والكبريت والبنادق ونصيبا من الآلات المبعوثة من باريس.

- **مدينة سعيدة:**

كان بعض سكانها من الحضر المطرودين من معسكر وتلمسان سنة 1836، بعد حملة كلوزيل وكانت المدينة مستودعا للقمح والحديد.

- **مدينة معسكر:**

عبّر القبطان شانغارتي عند دخوله إلى معسكر مع الجيش الفرنسي أنه تجوّل في مختلف أرجاء المدينة فوجدها أحسن مما كان يتصوره، إذ لم ير فيها خيامًا بل منازل موريسكية لا تخلو من جمال وأناقة والمسجد الكبير بها على غاية من الجمال كما شاهد من الأضرحة ما بهره ببديع متعه ودقة زخارفه، ومن النادر أن تقع العين على ذلك الرخام.

- **مدينة تاقدمت:**

أهم حصون الأمير على الإطلاق وكانت عاصمته ما بين 1836-1838، وتتضح الأهمية التاريخية للمدينة من خلال معرض حديث الأمير في جوابه عن سؤال دي فرانس

عن المدينة: "إنها كانت جميلة جدا وعظيمة جدا وأنها عريقة في القدم، ولم تكن ذات يوم مسيحية وكانت إحدى أوائل المدن التي بناها العرب، وكان أجدادي السلاطين، الذين كان مركزهم تاقدمت يحكمون من تونس إلى المغرب الأقصى... وإنني مازلت آمل أن أعيد إلى تاقدمت ماضيها المجيد وأنني سوف أجمع القبائل فيها حيث سنكون في مأمن[1] من هجومات الفرنسيين...

فعلا لقد كان للمدينة تاريخ عريق حيث بناها الرومان على مسافة ستين ميلا شرق وهران، وخلال عهد الازدهار الإسلامي كانت مراكز مهمة لحكومة الدولة الرستمية، وتيهرت التي بنيت على أنقاضها تاقدمت تبعد عن مدينة تيارت بثماني كيلومترات، عند منحدرات جبل قزّول، أسسها الشيخ الإباضي عبد الرحمن بن رستم في النصف الثاني الهجري من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) وسرعان ما تطورت ونمت في عهده وأضحت عاصمة المغرب الأوسط السياسية والدينية وقد قامت بدور هام في الحياة الاقتصادية حيث شكلت ملتقى القوافل القادمة من مختلف أقطار العالم العربي. وكانت إلى جانب ذلك مركز إشعاع ثقافي تحتل فيه العلوم الدينية مكان الصدارة، إضافة إلى إنتاجها للعلماء والشعراء، وفقدت تيهرت أهميتها بعد سقوط الدولة الرستمية سنة 296هـ/908م، فقد ألحق بها تأسيس مدن أشير و***** وبجاية ضررا بالغا، فعندما دخلها الأمير سنة 1836 وجدها أنقاضا تعرف بتاقدمت.

عندما استرجع الأمير مدينته معسكر وتلمسان بعد سقوطها على يد الجنرال كلوزيل شعر أن لهما قلة مناعة، فأراد أن يهيء قلعة حصينة فقرر تأسيس تاقدمت وجعلها عاصمة له.

وقد سأل دي فرانس الأمير أثناء محادثة له معه قائلا: ما هي مشاريعك التي تنوي تحقيقها برفع أنقاض هذا المكان ووضع أسس لهذا المعقل. فأجابه الأمير بأنه يريد تشييد

---

[1] فريدة قاسي، مرجع سبق ذكره، ص ص.230-231.

هذه المدينة وجعلها أكبر وأكثر ازدهارا مما كانت عليه، وبناء حصن آمن يقيني من هجمات الفرنسيين، وقد راق موقعها الجزائريين إذ كان يعجبهم الاستقرار به لما يجدون فيه من منافع ومزايا كبيرة، فأردتها مركزا يربط تجاريا بين التلّ والساحل، وأيضا شوكة أضعها في أعين القبائل المستقلة بالصحراء، التي لم تعد قادرة على الهروب منّي، بادرت بالخضوع لي. وقررت عندما أستكمل بناء هذا المعقل المنيع أن أنطلق منه للانقضاض على المسيحيين، فأطردهم من جميع المواقع التي استولوا عليها[1].

وفي هذا الصدد يقول الدّوق أورليان: "يتحسّب الأمير للضراء في أيام الرخاء والسراء، ويعمل على إتقائها، ويختار لنفسه خطا دفاعيا ثانيا... وفي هذا الموقع البعيد عن الحدود التي يفترض إمكان وصول طلائع الفرنسيين إليها، عمد تحت حماية الحصون... إلى إبداع كنوزه، وودائعه، ومعامله، وترسانته وجميع موارده التي وفرها ببصيرته النافذة لمواجهة حرب تكون الغلبة فيها لمن هو أكثر صلابة ومثابرة[2].

- **الزمالة:**

عندما شعر الأمير أنه يحارب ضد عدو محظوظ ذلك أن مراكزه الثابتة قد تعرضت للغزو وخربت وأصبح أعضاء أسرته وعائلات أكبر أتباعه عرضة لزيارات الغرباء الكفرة وما صاحبه من تعدي على الحرمات فأصبح تحقيق عمل مزدوج بإفشال خطط العدو من الخارج ووقف انتشار روح التخلي عنه في الداخل أمرا صعبا للغاية. ولم يطل به التفكير في سبيل العثور على خطة محكمة وتصميما لا يزال مبعثا للإكبار وهو تأسيسه لعاصمة متنقلة كانت مثار دهشة واستغراب وهي بكل ما تحتوي عليه من أثقال كانت سريعة التحرك خفيفة الحمل والإقامة تنتقل خطاها حسب التكتيك الحربي. وبذلك أصبحت عاصمة ضخمة متنقلة تقدر بأكثر من 20 ألف نسمة وكانت تتبع بحركات الأمير سواء في تقدمه نحو

---

[1] فريدة قاسي، مرجع سبق ذكره، ص232.

[2] أنظر الملاحق الصورة التي تمثل مخطط للزمالة.

المدن أو في تراجعه نحو الصحراء. أما عن تنظيمها فقد كانت منظمة حسب ترتيب عسكري محكم فالدوائر التي كانت خيامها تختلف عددا، بناء على قوة كل منها كانت موزعة على أربعة مخيمات كبيرة، وكل دائرة تعرف مكانها، وكل رئيس له مركز معروف ووظيفة معينة طبقا لمكانته والثقة التي يوحي بها. وفي هذا الصدد يقول الأمير: "كان نظام التعسكر محترما من الجميع ومنظما تنظيما دقيقا فعندما أضرب خيمتي يعرف كل أحد المكان الذي يشغله".

وهكذا كان التنظيم دقيقا، ففي الوسط خيمة الأمير محاطة بخيم أقربائه وخدامه وبالتالي:

- النطاق الأول: ويضم خمسة دواوير.
- النطاق الثاني: يمثل دوار خلفائه الكبار وعائلاتهم، والجند النظامي، والرؤساء المهمين ويمثل 10 دواوير.
- النطاق الثالث: ويضم الحشم الشراقة والغرابة الذين كان عددهم قليلا، ولكن حين سقوط الزمالة كان عددهم كبيرا، لأن الأمير أتى بمعظمهم من غريس، ويمثل هذا النطاق 207 دوارا، وكان كل دوار يحتوي على 15-20 خيمة.
- النطاق الرابع: قريب أو بعيد من النطاقات الأولى تبعا لصعوبات أرض المنطقة ويضم 146 دوارا وبالتالي فالمجموع 368 دوارا يشكل الزمالة(1).

لقد لاقى هذا الإجراء الغريب والجديد نجاحًا كبيرا وحقق الأهداف التي جعل من أجلها، إذ شملت هذه العاصمة الواسعة جميع مؤسسات دولته وإدارتها، من منشآت عمومية بما في ذلك المدارس والمساجد ومصانع الأسلحة وورش التصليح ومصانع السروج، المدابغ ودكاكين للخياطين والحدادين بالإضافة إلى المتاجر العادية كما كانت تعقد فيها أسواق دورية للتبادل التجاري يقصدها السكان المقيمون على أطراف الصحراء لمبادلة منتوجاتهم

(1) فريدة قاسي، مرجع سبق ذكره، ص ص.235-236.

بمنتجات الزمالة ومصنوعاتها، وبالنسبة للحبوب والقمح والشعير فكانت تجلب من قبائل الشمال، وإلى جانب ذلك كانت لها وظيفة إدارية حيث كانت تضم الدواوين الحكومية وخزينة بيت المال وخزائن الولايات، ومستودعات الخلفاء ورجال الدولة من الأموال والمجوهرات بالإضافة إلى الجانب العلمي فلو أعطي للأمير الوقت لم يجعل منها فقط مركزا علميا حيث كان يخطط لإنشاء مكتبة ومدرسة ثانوية، وإذا استخدمنا تعبيره هو: "فإن الله لم يشأ ذلك، فالكتب التي أحضرتها من كل أجزاء الشرق لهذه المكتبة أخذ مني، عندما استولى ابن الملك علي زمالتي، ومما زاد في سوء حظي أنني كنت قادرا على تتبع طابور الجيش الفرنسي أثناء عودتهم إلى مدينة المدية بأوراق الكتب الممزقة المبعثرة، تلك الكتب التي كانت قد كلفتني كثيرا من الوقت والجهد لجمعها"[1].

ج. العلاقات بين الأمير عبد القادر وسلطان المغرب:

على إثر مبايعة الأمير أقدم على ربط علاقات حسن الجوار مع كل من باي تونس وسلطان المغرب، وسنركز هنا على علاقاته بسلطان المغرب، يقول الأستاذ قاصري محمد السعيد[2] عندما تضع هذه العلاقات في سياقها التاريخي نجدها قد مرت بمرحلتين رئيسيتين هما:

- **المرحلة الأولى: مرحلة التعاون والوفاق (1833-1843)**
- **المرحلة الثانية: مرحلة التصادم والافتراق (1843-1847)**

---

[1] فريدة قاسي، مرجع سابق ذكره، ص238.

[2] محمد السعيد قاصري، "العلاقات بين الأمير عبد القادر والسلطان عبد الرحمن 1833-1847"، **ندوة مبايعة الأمير عبد القادر**، فرقة البحث آثار السياسة الاستيطانية في المجتمع الجزائري (1830-1962)، دار الهدى، الجزائر، ص151.

المرحلة الأولى: مرحلة التعاون والوفاق (1833-1843):

إن أول ما قام به الأمير تجاه السلطان بعد مبايعته مكاتبته له قصد إجازة مبايعته أو ردها: "إن أهل ناحيتنا هذه اتفقوا أشرافا وعلماء وأهل العقد والحل على ولايتنا وملازمة بيعتنا، وقد ارتضينا ذلك موافقة للوالد، إذ كان هو المطلوب بها، ففر منها وألزمنا إياها، لكننا توقفنا على نظر إجازتكم بذلك أو ردكم إياه"، ويذكر الناصري أن الأمير أظهر الطاعة والانقياد للسلطان، وخطب به على منابر تلمسان وغيرها، وكتب إليه يعلمه أنه بعض خدمه وقائدا من قوّاد جنده، بينما صاحب تحفة الزائر لا يذكر لنا ذلك، وتكتفي مذكرات الأمير بالإشارة إلى ذلك السلطان في خطب الجمعة والأعياد "وخطب له على المتاجر الخطباء (كذا)... أن يخطبوا بمولاي عبد الرحمن ثم يأتوا به من بعده استطراداً وإتماما".

كما أن هناك وثيقة تاريخية جاءت في شكل رسالة وجهها إلى أهل تلمسان يصرّح فيها الأمير أنه خليفة للسلطان: "كافة بلدية تلمسان، سلام عليكم ورحمة الله وبعد قد علمتم سعينا في الصلاح ولم تجد مساعدا عليه، والآن أنتم لكم منا الأمان التام الشامل العام والله هو الرقيب... بأمر خليفة مولانا عبد الرحمن ردّ الله به الأوطان".

إذن طبيعة العلاقة بين الأمير عبد القادر والسلطان عبد الرحمن، هي علاقة قامت على أساس الإقرار بالمبايعة بالطاعة والولاء في إطار الشريعة الإسلامية. ويعود ارتباط الأمير بالمغرب سلطة وشعبا حسب الأستاذ قاصري محمد السعيد إلى ما يلي:

1- انحداره العائلي من المدينة المنورة والاستيطان بالمغرب ثم التوجه إلى الجزائر: "كان أجدادنا يقطنون المدينة المنورة، وأول من هاجر إليها (كذا) هو إدريس الأكبر، الذي أصبح فيما بعد سلطانا على المغرب، وهو الذي بنى فاس، وبعد أن كثر نسله توزعت ذريته، ومنذ عهد جدي فقط قدمت عائلتنا لتستقر في اغريس قريبا من معسكر".

2- انتمائه الروحي الصوفي، إلى الطريقة الصوفية القادرية المتجذرة في المغرب، ومع احتلال فرنسا للجزائر تولّى شقيقه محمد السعيد مشيختها بفاس، فضلا عن تأثره الشديد بعلماء وفقهاء المغرب لأنه أخذ عنهم جملة العلوم التي حصّلها[1].

3- التواجد الجزائري الهائل بالمغرب منذ القرن 16م في شكل علماء وفقهاء وأسرها جروا إلى المغرب واستوطنوا به.

4- الامتداد القبلي عبر التخوم الجزائرية المغربية إذ نجد هناك قبائل جزائرية لها امتداد في المغرب الشرقي، مقابل وجود قبائل مغربية لها امتداد في الغرب الجزائري، بالإضافة إلى قوة الروابط التاريخية واللغوية والدينية.

5- الاقتراح الذي قدمه له والده عندما عزمت عليه الإمارة، فأشار عليهم بسلطان فاس، وباعتبار أن والده كان على قيد الحياة أثناء المبايعة، فلا نستبعد أن يكون لوالده دور كبير في توجيه هذه العلاقة.

6- اشتراط أهل تلمسان على الأمير أثناء دخوله لها بالاعتراف بالتبعية والخضوع لسلطان المغرب مقابل الخضوع له، وهذا ما ذهب إليه الناصري و"أغوست كور".

7- إستراتيجية الأمير الذي رأى أن حماية المولى عبد الرحمن له ضرورية جدا للاستفادة من مخترعاته وخاصة الأسلحة، بل وحاجته إلى التحالف الضمني القائم على أساس الدين الإسلامي ومن أجل خلق عدو جديد لفرنسا على إثر مكاتبة الأمير للسلطان كما أشرت أجابه عن كتابه وأظهر له الفرح والسرور: "بأن أهل الوطن أصابوا وما غلطوا، وعلى الخير سقطوا، الله يعينكم، ويحفظكم والسلام" كما قبل أن يتولى الأمير شؤون الشعب الجزائري في ظل البيعة التي لم يكن له منامى منها أمام رغبة أنصاره أنفسهم. وإذا سلّمنا بهذا الطرح فما هي دوافعه؟

---

[1] محمد السعيد قاصري، مرجع سبق ذكره، ص.154-155.

لاشك أنه رأى في الأمير الشخصية المناسبة لإتمام العمل الذي كانت جيوشه الرسمية قد بدأته منذ سنة 1830م وفشلت فيه، خاصة وأن الأمير تقدم بطلب المساعدة منه، وهذا ما نعتبره استمراراً للسياسة المغربية بالغرب الجزائري، عبر حركة جزائرية بزعامة الأمير، وعليه فقبول السلطان لبيعة أهل تلمسان قبل ظهور الأمير استند إليها كمرجع تاريخي، هذا فضلا عن الوازع الديني، وإدراكه أيضا لخطورة الزحف الفرنسي على بلاده، ولمواجهته اتخذ الأمير كدرع واق لها من الشرق، وبالتالي عرقلة التوسع الفرنسي على المغرب، وحرصه الشديد على توفير الأمن والاستقرار بتخومه الشرقية لخدمة مصالحه خاصة ما تعلق بالحجيج والتجار حسب ما صرّح به للفرنسيين وبالتالي يمكن أن نستخلص أن توجّه الأمير نحو سلطان المغرب وردّ هذا الأخير الإيجابي تحكمن فيه روابط تاريخية، دينية، اقتصادية وعسكرية، وإذا كنا قد تعرّفنا على الإجراءات التي قام بها الأمير تجاه السلطان، فماذا قدم السلطان مقابل ذلك؟ لقد ساهم سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في دعم ومساندة حركة الجهاد في الغرب الجزائري، على النحو الآتي:

- تكوين فئة نشطة حول بلاطه تمثّل مصالح الأمير وتدافع عنها لديه، وقد وضع السلطان على رأسها أمين فاس الحاج الطالب بن جلون الفاسي[1]، الذي كان يعتبر واسطة بين الأمير والسلطان.
- رفع مكانة الأمير لدى القبائل الجزائرية التي بايعته، ولدى خصومه المعارضين له من خلال الرسائل التي بعثها إليه.
- تأمينه لقوافل الأمير المحمّلة بالأسلحة والذخيرة الحربية، القادمة من جبل طارق وطنجة عبر فاس ووجدة لتصل إلى تلمسان، والسماح للقبائل المغربية بجمع المساعدات المختلفة من أنحاء المغرب، وتوجيهها نحو الجزائر.

---

[1] محمد السعيد قاصري، مرجع سبق ذكره، ص ص.156-157.

• تحريض وتشجيع الأمير على مواصلة الجهاد، وتقديم الدعم المادي والعسكري له، ففي أوائل سنة 1833 وبعد أن وجّه الأمير رسالة إلى السلطان: "أجابه عنها وبرفقه 600 بندقية، وكمية كبيرة من الذخيرة وحوالي 600 سيف" وهو ما أكده الناصري: "ولما اتصل بالمولى عبد الرحمن ما عليه الحاج الأمير من جهاد عدو الدين... أعجبه حاله، وحسنت منزلته عنده، لأنه رأى أنه قام بنصرة الإسلام، على حين لا ناصر له، فصار السلطان يمده بالخيل والسلاح، المرة بعد المرة".

ج1 أثر معاهدة دي ميشال على العلاقات بين الأمير والسلطان:

هناك من رآها قد ساهمت في فتور العلاقات بينهما، بينما يراها البعض الآخر عكس ذلك.

الرأي الأول: من بين الذين رأوها ساهمت في فتور العلاقات جلال يحي في قوله، ممّا دفع السلطان أن لا يرتاح إليه لأنه اتفق مع الأعداء فساءت العلاقة فيما بينهما، وإسماعيل العربي، فإن العلاقات الجزائرية المغربية ستفتر نوعا ما بعد عقد معاهدة دي ميشال ويذهب "أوغست كور" إلى القول أن السلطان غضب من معاهدة دي ميشال، فبادر إلى إرسال محمد بن نونة إلى تلمسان لاستئناف عمله كباشا للمدينة، ونقلا عن ياسين إبراهيم يذهب "كوسي بريساك" إلى القول بأنها لم تنل رضا السلطان وأثرت على العلاقات بينهما لأكثر من سنة. ومن بين الأدلة التي قدمها هؤلاء:

– الأمير أصبح في غنى عن الإمدادات التي تصله من المغرب عن طريق البر، بعدما سيطر على ميناء أرزيو وأرشقول.

– تبنّي السلطان وجهة نظر العناصر الدينية المتطرفة التي رأت في المعاهدة تحالف مع الكفار.

الرأي الثاني: يراها ساهمت في توطيد علاقاتهما أكثر، لأن الأمير قبل عقدها أشار بالرجوع إلى السلطان حسب ما أكده ممثل فرنسا بمعسكر إلى "دي ميشال" في شهر جويلية

1834 "ورد أن عبد القادر عندما شاور عمه على أبو طالب وميلود بن عراش حول شروط الفرنسيين لعقد المعاهدة[1]، أشاروا بالرجوع إلى مولاي عبد الرحمن، وأضاف بأن السلطان رد على الأمير بأنه إذا كان قادرا على القيام بحرب ناجحة فيجب القيام بها، وإذا كان العكس فإن رأيه مثل رأي عبد القادر".

المرحلة الثانية: مرحلة التصادم والافتراق 1843-1847:

كعادته قام الجنرال "بيجو" بإثارة البلبلة والشكوك في الأوساط المغربية بالتجسس تارة وبزرع الفتنة تارة أخرى، ففي تقرير للقنصل الفرنسي بطنجة إلى وزارة الخارجية بتاريخ 1842/1/10 جاء فيه: "أحدثت هذه الحالة – اللجوء – أثرا عميقا من القلق في فاس... ووجود الأمير هنا سوف يجر إلى عواقب لا يمكن تقديرها". وهو ما دفع بالسلطان إلى إصدار ظهيرا رحمانيا إلى عماله في شهر يوليو 1842 يمنع فيه المغاربة من إقامة أي علاقات مع الجزائريين، واستنادا إلى هذا القرار أخذت السلطات المغربية تستولي تدريجيا على شحنات الأسلحة الموجهة إلى الأمير في صيف وخريف عام 1842.

وبوجوده في التراب المغربي كاتب الأمير السلطان مباشرة ليعبّر له عن حسن نيته ويطلب مساعدته في التصدي للخطر المشترك فأجابه السلطان: "وإننا نتمنى الحضور بأنفسنا في غمار المسلمين ومباشرة القتال بأيدينا بين صفوف المجاهدين ولكن ما نحن فيه من قمع العتاة وكف البغاة جهاد بل وأفضل من جهاد النصارى... ولو كمل قتالهم وانتظم على الاستقامة حالهم لسرنا وإياهم لنصرة الدين وقمع الكفرة المعتدين". وفعلا فالسلطان كان منشغلا بتوطيد الأمن في مملكته، لأن قبيلة زموره الشلح خرجت عن طاعته، ورغم هذه الأوضاع فإن "سكوت" يرى أن السلطان قد وهب الأراضي التي تمتد بين وجدة وتافنا للأمير كعربون لتقديره له واعتبره كخليفة له على هذه الأراضي، ونظرًا لخطورة الوضع عبر منطقة التخوم الشرقية أقدم السلطان على الخطوات الآتية:

---

(1) محمد السعيد قاصري، مرجع سبق ذكره، ص ص.158-159.

1-تقوية الخلية المخزنية المرابطة في وجدة بحشود عسكرية تنتمي لزمور وبني حسن لطمأنة قبائل التقوم[1].

2-اتخاذ تازا قاعدة أمامية لتجميع الحشود المغربية تحت قيادة ولي العهد سيدي محمد دون استفزاز القوات الفرنسية.

3-استنفار قبائل التخوم الشرقية للجهاد تحت قيادات مغربية قوية مثل عامل وجدة والقائد العربي الرحماني.

لقد كان لهذه الإجراءات آثارا سيئة لدى الأمير الذي لم يكن قادرا على الاستغناء عن المغرب الشرقي، لأن هذه التعزيزات عرقلت تحركاته عبر منطقة التخوم، ومن دلائل هذا الأثر أنه ولأول مرة يمتنع عن إرسال الهدايا التقليدية إلى السلطان التي تعوّد عليها في المناسبات الدينية مثل عيد الأضحى الذي وافق هذه المرة 1843/1/13م. ونتيجة للفوضى والاضطراب الذي عرفته المنطقة، ظهر السلب والنهب فيما بين القبائل وأحيانا شدّ المهاجرين الجزائريين، وهو ما دفع بالأمير إلى تأديب قبيلة الحميان المتمردة على السلطان وأرسل منها حوالي 50 أسيرا إلى عامل وجدة تعبيرا عن صداقته وودّه للسلطان. وخلال شهر أفريل 1844م كاتب السلطان ليطلب منه توفير الأمن والمساعدة للمهاجرين الجزائريين بأرضه وختم كتابه بـ: "خديم حضرتكم الباذل جهده في مرضاة الله ورسوله ثم مرضاتكم المتوكل في كل أموره على الله وعليكم الموضوع اسمه بالخاتم النايب (كذا) عنكم". وهو ما يوضح لنا الحفاظ على طابع الولاء للسلطان رغم الإجراءات التي قام بها ضده. وللتعبير عن حسن نيته قام بإرسال بعثة دبلوماسية تتكون من عدة شخصيات حمّلها هدية ثمينة تشمل 8 من عتاق الجياد وهدايا أخرى، ويكمن دورها في:

1- حثّ السلطان على التدخل لصالح الجزائريين، وشرح عداء الفرنسيين له ومشروعات التوسع الفرنسي على حسابه.

---

[1] محمد السعيد قاصري، مرجع سبق ذكره، ص ص.169-170.

2- التصدي للخطر المشترك الذي بات يهدد مملكته، وأثناء وصول البعثة إلى فاس استقبلهم ابن السلطان ووزيره وأغدق عليهم عبارات الشكر والامتنان ثم نظّم سفرهم إلى مراكش، حيث كان السلطان المتردد يخشى رفض مقابلتهم خوفا من إثارة غضب رعاياه فاستقبلهم(1).

ولقد أسفرت المفاوضات مع السلطان عن:

- إرسال تعزيزات عسكرية إلى منطقة التخوم المغربية الجزائرية.
- عزل بوزيان قائد منطقة التخوم وتعيين عليها سيدي العربي الكبيبي ثم الكناوي.
- حماية الأمير داخل دولته فقط مع الالتزام بعدم مساعدته، ثم زوّد البعثة بكميات من الأسلحة والذخيرة.

ورغم هذه الإجراءات فإن البعثة قد حققت هدفها لدى السلطان ورعيته، إذ أن ردود الفعل المغربية سواء الرسمية أو الشعبية عبّرت عن مدى التضامن الجزائري – المغربي، الذي غذّته المشاعر الدينية والروابط التاريخية والمصير المشترك، وإدراكا منها بخطورة الوضع راحت فرنسا تحاول ضرب هذا التعاون وتحويله لصالحها. وإزاء هذا الوضع المتنامي عبر منطقة التخوم، ونتيجة للمعلومات التي تحصلت عليها فرنسا بشأن الدور الذي أصبح يحظى به الأمير لدى السلطان ورعيته راحت تبحث عن وسيلة أخرى لردع المغرب ووضع حدّ لسلوكه العدائي ضد فرنسا، وللوصول إلى ذلك حاولت خلق مجموعة من الذرائع أثمرت في الأخير بظهور ما عرف بالصراع الفرنسي المغربي على حساب حركة الجهاد الجزائرية. فكانت معركة واد إيسلي 1844، ومعاهدة مغنية 1845، التي ألزمت السلطان بضرورر طرد الأمير من المغرب. فكيف كان موقف السلطان من لجوء الأمير إلى المغرب الشرقي؟

(1) محمد السعيد قاصري، مرجع سبق ذكره، ص171.

على إثر الضغوط الفرنسية التي مورست ضد السلطان عقب معركة إيسلي وقبوله شرط فرنسا بطرده الأمير من المغرب نجده يحاول قدر المستطاع التنصل منه، حسب الرسالة التي بعثها مع عبد القادر أشعاش إلى باريس: " وربما يبطلون شرط الحاج عبد القادر ويريحون من الكلفة به"[1]. وقبل الحديث عن التطورات السلبية التي عرفتها العلاقات خلال هذه المرحلة أود الإشارة إلى بعض الأدوار الإيجابية التي قام بها السلطان تجاه المهاجرين الجزائريين، والتي يمكن حصرها فيما يلي:

1- إصداره لظهيرا رحمانيا في تاريخ 4 جمادى الثانية 1263هـ إلى سيدي محمد بشأن جواز اكتيال الجزائريين القمح لأنفسهم من المغرب: "فقد بلغنا أن أعراب الصحراء من الواسطة وغيرهم يدخلون أفواجا بعدد كثير لكيل الزرع... وإن كانوا يأخذون ذلك لأنفسهم ويحملونه لإقامة بنيتهم فأترك سبيلهم فإنهم إخواننا ولا سبيل لمنعهم".

2- احتضانه لبعض أعيان الأمير الذين هاجروا إلى المغرب، مثل: قاضي الأمير: عبد القادر بن محمد حيث أمر السلطان ابنه سيدي محمد بضرورة الاهتمام به وإعانته". فبوصوله إليك من (كذا) الطالب علال الشامي يدفع لحامله الفقيه السيد عبد القادر بن محمد قاضي الحاج عبد القادر بن محي الدين 30 مُدا من القمح إعانة له على مؤونته، وينظر له دارا يسكنها مناسبة لحاله وإن كان أهلا للتدريس يجعل له ما يستحقه من المشاهرة".

3- قدم للمهاجرين الجزائريين خاصة الأشراف منهم كل سنة 500 مدا من القمح بالمد الفاسي مع 500 مثقالا وأوصى باحترام غوامهم من أهل الحرف والزراعة وتوقيرهم وعدم تكليفهم بأي عمل من الأعمال المخزنية.

4- استقباله لقبائل الحشم وبني عامر على نهر سيبو بين التسول والبرانس ومنحهم أراضي خصبة لزراعتها والانتفاع بها.

---

[1] محمد السعيد قاصري، مرجع سبق ذكره، ص173.

5- احتضانه لأعيان الأمير الذين آثروا الهجرة إلى المغرب مثل: الميلود بن عراش ومحمد بن إيكرو وغيرهم، والتكفل بمساجين الحشم وبني عامر بعد إطلاق سراحهم[1]. وخلال هذه الفترة فإن الأمير توغل في الغرب الجزائري من جديد وكبد العدو الفرنسي خسائر فادحة رغم التعزيزات الفرنسية عبر التخوم الشرقية للمغرب. ثم لجأ من جديد إلى المغرب الشرقي خلال سنة 1846.

- **عودة الأمير عبد القادر إلى المغرب الشرقي 1846:**

خلال شهر جويلية 1846 حط الأمير رحاله من جديد في المغرب الشرقي وبمعية حوالي 4000 مجاهدا بمنطقة ملوية فكيف كانت ردود الفعل المخزنية.

سأركز في الإجابة عن هذا السؤال بقول الأستاذ محمد السعيد قاصري على الموقف الرسمي دون الموقف الشعبي الذي كان مساندا للأمير، وكعادتها راحت الدبلوماسية الفرنسية تحرض السلطان للتحرك ضده باستخدام بعض القبائل الموالية له، وهو ما تم فعلا حيث بعث بالعديد من الرسائل إلى شيوخ القبائل يحذرهم من خطر الأمير، ومن ذلك كتابه إل أحد عماله خلال شهر جويلية 1846 "فاعلم أن هؤلاء بني يزناسن ومن يليهم لو كانت فيهم استقامة تامة وحسن طاعة، ما تأخر إخراج الحاج عبد القادر ودائرته إلى اليوم... وقد ألقى إليهم من ترهاته ما سحرهم به حتى ظنوه على الحق".

وفي هذه الأثناء أعلن قسم كبير من التسول والبرانس وقسم من قبائل مكناسة، الحرب على المخزن وأصبح المالسة وبنو ياحي والتسول والبرانس وقسم من الأحلاف وأغلبية بني يزناسن في صف الأمير، ونتيجة لهذا الموقف ظهرت إشاعات مفادها ان الأهالي شبه المستقلين في الشرق قد اقترحوا عليه أن يكون سلطانهم إلا أنه رفض ذلك لأن السلطان لم يحاربه علنا، وبعضهم أشاع أن الأمير سيحضر إلى فاس قريبا لتأدية الرسالة التي عهد

---

(1) محمد السعيد قاصري، مرجع سبق ذكره، ص174.

الله بها إليه لإعادة مجد الإسلام، وهي ما تسببت في إثارة القلق والاضطراب في صفوف المخزن[1].

وخلال الفترة الممتدة من شهر أوت 1846 إلى مارس 1847 حدث تغير كبير في صفوف القبائل المساندة له وهو ما تؤكده رسالة السلطان إلى ولي عهده بتاريخ 1846/12/05 "ومن رجوع الدائرة عليه، وتفرق الذين كانوا يأوون إليه من شدة سوء بغيه وما أجمع عليه الكرارمة من عداوته والتضييق عليه". كما قام فيه المطالمة بإجباره على ترك أراضيهم ونهبوا منه ما يقرب من مائة من دواب الحمل محملة بالحبوب. الشيء الذي جعله يكاتب السلطان في مارس 1847: "فإني كاتبتكم أولا والتمست منكم كف ضرر قبائلكم المجاورة لنا وتعديهم على من تبعني وسوء معاملتهم لهم لأنهم كلهم أولاد دين واحدة، فلم ياتيني جواب عن ذلك... فإن لم تردعهم الآن عن أفعالهم إنني ألتزم المحاماة عن حقوقي والمحافظة على شرف أتباعي، ولذا بادرت بإخباركم والسلام".

وخلال الشهر نفسه ظهرت بعض المناوشات في عين زورا سقط على إثرها 8 من أعوان الأمير في يد قائد تازا فأرسلهم مكبلين إلى فاس، كما خرجت بعض القبائل عليه وانضمت إلى السلطان. ونظرا لدهائه وحنكته تمكن خلال أفريل 1847 من إعادة بني ستانس وكبدانا والمتالسة وجزء من القلايا وبني توزين إلى صفه، في الوقت الذي هرب فيه خصمه محمد التوزيني ليعلن دعم القبائل للأمير وأنه يتوفر على حوالي 300 فارس و600 من الرماة.

وتحت هذا الضغط قام الأمير خلال شهر ماي بالاتصال بشيخ قبيلة الكرارمة حمدون عبد الرحمن الذي طلب منه إعلام ولي العهد بفاس باستعداداته للخروج نحو الصحراء وهذا ما أشار إليه السلطان في رسالته إلى ولي عهده بتاريخ 20 ماي: إن وعد بالخروج إلى الصحراء على شروط أشار إليها، والتزم ابن عبد الرحمان بذلك، فقط كتبوا بوعده الخروج

---

[1] محمد السعيد قاصري، مرجع سبق ذكره، ص175.

المرة بعد المرة، ولم يف لهم، وأظن أن هذا من حيلة ومكيدة، وأنه يحاول أمرا ينتظر تمامه، فنلاحظ هنا رفض السلطان لمطلبه. ولم يبق في موقف الرفض بل اعتبر ذلك تواطؤا من الكرارمة معه[1]: "واعلم أن فهمنا مقصود الكرارمة بما أشار إليه ابن عبد الرحمن في كتابه، من أن الفتان طلب منهم أمورا ووجدوها (كذا) ورغبوا في إنجازها، وهو أنهم يتركونه لنا خيالا يخوفون به، فتفطن أصلحك الله لدسائسهم وتلبيساتهم وإياك أن تقبل لهم شروط مكرهم أو تصغي إلى تلبيس نكرهم وكن من أمرهم على بال فإن فساد أهل الزمان في ازدياد" فما هي إجراءات السلطان إثر ذلك؟

وفي شهر جويلية 1846 صرح السلطان إلى عبد القادر أشعاش أن الأمير أصبح له نفوذ كبير لدى القبائل ناحية تازة. ونتيجة لذلك كتب إلى ولي عهده بفاس خلال شهر أوت يأمره بالاستعداد لتقليص نفوذه ولوضع حد للضغوطات الفرنسية: "أما بالنسبة إليكم فاستخدموا كل مجهوداتكم ونشاطكم ضد المهيج، لوقف تحركات وعمليات أعوانه في هذه المنطقة وبشكل يجعل طرده يضع حدا لحديث أعداء الدين وعندئذ ستتخلص القبائل من طغيانه".

كما أرسل بتعليمات صارمة إلى ولي عهده بتاريخ 1846/9/23 "ولا تقتصر في تحريض العمال المقابلين والقبائل (كذا) على تعجيل هرده وأخذه وإبطال كيده،... ولا تألوا جهدا في ذاك (كذا) حتى يأخذه الله ويرد كيده في نحره ويجعل دايرة سوء (كذا) عليه، فإنه أعدي أعداء المسلمين، وفتنته أكبر عليهم من فتنة المشركين". وعليه تحركت بعض القبائل ضد دائرة الأمير حسب رسالة السلطات إلى ولي عهده: "وبما وقع له القتال مع المطالسة وفراره وسطهم وإيقاع بحرب الأحلاف (كذا) فقد كنا نظن إعانته وإيواءه إعانة للإسلام

---

[1] محمد السعيد قاصري، مرجع سبق ذكره، ص177.

والمسلمين، فإذا به أعده أعدائهم ومن خدعنا بالله انخدعنا له فلابد قف في التحريض على السكان ولا تقصر حتى يريح الله منه العباد وينقطع أمره في تلك البلاد والسلام"(1).

ولتخفيف حدّة غضب السلطان قام الأمير خلال مارس بمكاتبة السلطان ملتمسا منه كف أذى القبائل إلا أن التماساته لم تلق أي جواب سوى مواصلة التحريض ضده، فحاول الاتصال بحاكم مليلة الإسباني خلال شهري (أفريل، ماي) لعله يجد مخرجا لما آل إليه الوضع، ولكن الظروف التي أحاطت بالمهاجرين الجزائريين حينها حالت دون الاستفادة من هذا الاتصال، ولك تكف فرنسا عن دفع السلطان لتنفيذ شروطها. ففي يوم 4/30/ كتب ممثل فرنسا إلى ابن إدريس: "إن السلطان هو الذي يمكنه أن يطرد الأمير كما تعهد بذلك، وليس الأهالي بقادرين على مهاجمة أحد المجاهدين، وانطلاقا من شهر ماي تكثفت الجهود المخزنية لأن الأمير قام بحملة تأديبية ضد قبائل الحميان، مما جعل الكثير من القبائل يعودون إلى صفه، الأمر الذي حدا بالسلطان للقيام بما يلي:

– تجهيز قوة عسكرية من المخزن تقدر 2500 فرسان رماة، ومزودة بقطع من المدفعية.

– استدعاء بوزيان بن الشاوي وبعض زعماء القبائل الريفية للتشاور في كيفية التصدي لنفوذ الأمير. وتعيين القائد محمد بن سالم الأحمر على رأس الجيش، وتجهيزه لحوالي 5000 جنديا في تازة.

– تزويد جيش محمد ابن سالم الأحمر و2000 من فرسان المخزن والحاج الوليشكي بـ 500 فارسا و400 جنديا تم توجيه الأوامر بالتحرك تجاه الأمير "...فجد في أمره وحرض الأحمر على الجد في اجتثاث أصله والسعي في محو شره. فكيف كان موقف الأمير من هذه التحركات؟

---

(1) محمد السعيد قاصري، مرجع سبق ذكره، ص178.

- **موقف الأمير عبد القادر من تحركات المخزن:** قام بخطوات عدة منها:

– مراسلة علماء مصر ليستفتيهم حول ما حدث، وكان على رأس هؤلاء الفقيه محمد عليش في كتاب ضمّنه نقاط عدة. ولقد جاءت إجابة عليش في صالح الأمير وهي جواز قتال السلطان جوازا عينيا لأنه حينئذ كالعدو والبغاة المتغلبين[1].

– توظيف هذه الفتوى كسلاح للدفاع المشروع عن النفس، وهو الذي مازال يتوفر على حوالي 120 فارسا و800 مشاة فضلا عن جنود القبائل الذين مازالوا في صفه.

– التخفيف من حدة التوتر بالاتصال مع حاكم مليلة الإسباني للتوسط له عند السلطان لإيجاد مخرج سلمي لقضيته، كما كاتب السلطان على لسان حمدون بن عبد الرحمن قصد الخروج نحو الصحراء وفق شروط. إلا أن السلطان رفض ذلك "وخبر الشيطان عبد القادر كنا قدمنا لسيدنا، وهو أن أمره اضمحل وعزم على الخروج للصحراء، وجعل يقدم ضعفاء دايرته أمامه وارتحل من المطالسة إلى بني تزين (كذا) ومنهم إلى بين بني وليشك وبني سعيد يوهم أنه يخرج لصبرة ومنها إلى الصحراء وقبايل الناحية التي هو لها شاع فيهم النفاق"، وأمام هذه الجهود المخزنية الدبلوماسية الفرنسية المشجعة لها لم يكن أمام المخزن إلا تنفيذ ما تم الاتفاق عليه.

- **تصفية حركة الجهاد الجزائرية بالمغرب الشرقي (جوان ديسمبر 1847):**

أمام إصرار السلطان على تصفية حركة الجهاد، ورفض الأمير التعجيل بالخروج من المغرب، وأمام تزايد الضغوطات الفرنسية والنفسية للسلطان لم يكن هناك بديل آخر عن حتمية هذا التصادم الدموي الاخوي الذي تعددت أسبابه وكثرت الأقاويل حوله، ففي خلال 7 أشهر جرت 4 معارك أخوية مأساوية كانت كافية لتصفية حركة الجهاد الجزائرية، وانطلاقا من الإطار الزمني لهذه المعارك فهي مرتبة وممثلة في مايلي[2]:

---

(1) محمد السعيد قاصري، مرجع سبق ذكره، ص180.

(2) محمد السعيد قاصري، مرجع سبق ذكره، ص181.

- **معركة تافريست ومن أهم أسبابها نذكر:**

– اعتداء الأحلاف على البوحميدي ونهب إبل وأغنام الدائرة، فراسل الأمير قائدهم أن يكف رعيته عن أفعالها، إلا أنه رفض ذلك فرد عليه الأمير (حيث لم تكف الظلم عن المظلوم فإننا نأخذ متاعنا من ظلمنا فتبين الأمر حينئذ أنه منه وبإذنه).

– تحرك القائد بن سالم الأحمر لقتال الأمير فجد في أمره وحرّض الأحمر على الجد في اجتثاث أصله والسعي في محو شره.

– إصرار الأحمر على خروج الأمير أو قتاله رغم نداءات المسالمة التي بعثها له، فحسب الاتحاف "وكتب إليه يتبرأ مما نسب إليه من البهتان، وأقسم بصدق ولايته للسلطان وبرهن على أنه مستظل بحمى أمير المؤمنين". ومن أهم نتائج هذه المعركة:

– انهزام القوات المخزنية وقتل القائد الأحمر/ واستيلاء الأمير على محلته.

– اهتزاز ضمير الشعب المغربي لهول ما قام به السلطان ضد الجزائريين الذين طعنهم من الخلف ولم يراع حرمتهم.

– قيام الأمير بتكوين وفد من الأشراف والأعيان والعلماء برئاسة أبي عبد الله محمد السقاط، وأرسلهم إلى السلطان وبرفقتهم كل ما تركته محلة الأحمر للاعتذار حول ما حدث، فقوبلوا بكل تجلة وإكرام وتحقق السلطان من براءة ساحة الأمير من أقوال المرجفين ثم انقلب الوفد عائدا إلى الأمير مغمورا بجود السلطان وكرمه.

ومن أهم الإجراءات التي قام بها السلطان:

– تعيين محمد بن عبد الصادق مكان الأحمر قائدا على الريف، وبرفقة 100 جنديا.

– طلب سيدي محمد من والده التعجيل بالقدوم إلى فاس قبل أن تنتهي فترة هدوء القبائل المرتبطة بفترة الحصاد.

– إرسال قوة عسكرية قوامها 3000 جنديا بقيادة أبا محمد الشرقي إلى تازة في أواخر شهر جوان، الذي بادر عند وصوله بتأديب قبيلة غياثة وتسكين ناحية تازة[1].

– إرسال تعزيزات عسكرية جديدة إلى قائد بني بزناسن ميمون ولد البشير – وقائد الأحلاف – بوزيان بن الشاوي.

وفي يوم 05 جويلية بعث السلطان بخطاب إلى سيدي محمد "يشرح له فيه سبب قتل القائد الأحمر، وأخبره أن الأحمر استعجل الأمر قبل أوانه واستبد برأيه... وإنما أفسد عمله فرار من معه".

- **معركة قلعية ومن أهم أسبابها:**

– تحريض السلطان لعماله للتحرك ضد الأمير. قبائل الناحية كقلعية ليست لهم همة إلا في شن الغارات على بعضهم بعضا وقطع الطرق وقتل النفوس بغير حق. ومن نتائجها:

– رضوخ قلعية للأمير وأداء ما عليها من غرامات التي قدرت بـ 22000 كيسا من الشعير.

– استغاثة قلعية بقبائل الريف مثل بني سعيد، تمسمان، أولاد الشيخ، بني توزين لمساعدتها في الانتقام من الأمير.

– زيادة نفوذ الأمير بمنطقة الريف وتلقيه لكثير من المساعدات من القبائل التي عاضدته "وما أعمال قبائل الريف من الخوف من الفتان إنما ذلك منهم كذب وتلبيس، وكيف يخافون منه وكل قبيلة تعد العشرة آلاف والعشرين ألفا من أهل المقاتلة والحمية، وإنما ذلك منهم نفاق وخيانة وتقاعد عن الوفاء".

ومن أهم الخطوات التي قام بها السلطان تجاه الأمير:

– إصرار السلطان على قتال الأمير وتصفية حركة الجهاد وذاك من خلال المذبحة التي ارتكبها في حق الحشم وبني عامر، التي تعتبر المعركة الثالثة في هذه الفترة.

---

[1] محمد السعيد قاصري، مرجع سبق ذكره، ص ص.182-183.

- **معركة الحشم وبني عامر، ومن أهم أسبابها أذكر:**

– تمكن الأمير من بسط نفوذه على أهالي الريف والإشاعات التي روّجها القناصل الأجانب من خطر الأمير على العرش.

– تخوف السلطان من وصول الحشم وبني عامر إلى الدائرة وبالتالي معاضدتها وتقوية مركزها من الناحية العسكرية، حيث كانت قيمة فرسان بني عامر والحشم وشجاعتهم معترفا بها من الجميع في حركة الجهاد[1].

– محاولة السلطان وضع حد لتحركاتهم نحو الشرق بقتلهم. وذلك من باب التهديد الموجه للقبائل المغربية نفسها المساندة للأمير، وإظهار قدرته العسكرية لتخفيف توتر القبائل العسكرية وتخوفها من الأمير، ونلمس ذلك من خلال رسالته إلى ولي عهده بتاريخ 18 أوت "وأنظر ما نتج منهم من كثرة الإرجاف وإلقاء الرعب في القلوب، مما سودوا به الصحائف، وطولوا وهولوا، وخوفوا من آمر الفتان وأنه قادم لتازة لا محالة".

ومن أهم نتائجها:

– القضاء على أهم قبيلتين جزائريتين هاجرتا إلى المغرب للاحتماء بالسلطان وإذا به يرتكب في حقهما مجزرة رهيبة راح ضحيتها أكثر من ثلاثة آلاف مهاجر جزائري.

– الذل والهوان الذي تعرض له من بقي على قيد الحياة فأخذهم المراكشيون وباعوهم كعبيد في أسواق النخاسة، وهناك من رمي بهم في ظلمات السجون، الاستيلاء على أمتعة وأسلاب القبيلتين، وإعادة الأمل إلى السلطان وجنوده في إمكانية القضاء على ما تبقى من مهاجرين جزائريين بالمغرب الشرقي، وهو ما تم فعلا في المعركة الأخيرة والمصيرية.

---

[1] محمد السعيد قاصري، مرجع سبق ذكره، ص185.

ومما سبق نخلص إلى النتائج التالية:

- التأكيد على الدور الإيجابي الذي قام به السلطان في دعم المقاومة الجزائرية بقيادة الأمير ما بين 1833-1843...

- نجاح فرنسا في تفكيك التعاون الجزائري المغربي بين السلطان والأمير.

- الأمير راهن في تعامله مع السلطان على الحنكة السياسية والدبلوماسية العسكرية في إطار الشريعة الإسلامية، فهو لم يكن ليناور السلطان المغربي أو يداهنه على حساب مبادئه ومثله العليا، وخاصة ما تعلق منها بأصالة وهوية الأمير الجزائرية، عكس السلطان الذي كان من دون شك يعتقد أن الأمير فعلا هو مجرد ممثلا له في الغرب الجزائري ويعمل تحت وصايته – قوة التضامن الذي أبدته قبائل المغرب الشرقي مع المهاجرين والمجاهدين الجزائريين الذين احتموا بالمغرب الشرقي.

- فكرة العرش المغربي بذرة فرنسية لتفكيك وحدة التضامن المغربي الجزائري.

- نجاح فرنسا في ضرب السلطان بالأمير الذي صورته له فرنسا بمثابة العدو الذي يجب القضاء عليه فاشتغل السلطان بذلك.

- ردود الفعل المغربية سيطر عليها دائما طابع التسرع في إصدار الأحكام الجزافية وبألفاظ نابية عنيفة نقلت من اللسان الفرنسي إلى رجال البلاط المغربي، دون ترو ولا تنبه لما ستنجر عنه من عواقب وخيمة.

- التعامل المغربي مع الفرنسيين يفتقر للمناورة السياسية أو الحنكة الدبلوماسية، فتعاملوا مع فرنسا بكل صدق وإخلاص في الوقت الذي تعاملت فيه فرنسا معهم بالظاهر دون الباطن[1].

---

[1] محمد السعيد قاصري، مرجع سبق ذكره، ص ص.196-197.

3- أشهر المعارك الحربية للأمير عبد القادر:

أشهر المعارك الحربية للأمير عبد القادر حسبما وقعت متتالية هي كما يلي[1]:

1) **واقعة خنق النطاح الأولى:** جرت على أسوار مدينة وهران في ماي 1832م، ذي الحجة 1247هـ أبلى فيها الأمير البلاء الحسن، حيث خرق الرصاص جميع ثيابه وقتل فرسه فاستعاضه بآخر مستمرًا في القتال حتى انتصر المسلمون، وهزم العدو، وفقد ما عنده من الذخيرة والعتاد.

2) **واقعة خنق النطاح الثانية:** جرت في نفس العام والمكان. أسند اللواء فيها للأمير فهزم العدو، وكبده خسائر فادحة واستشهد فيها عمه الأمير محمد السعيد الذي افتك جثته من أيدي العدو بأعجوبة نادرة، وفر الجنرال بوابيه بمن بقي معه إلى داخل المدينة وراء الأسوار.

3) **واقعة برج رأس العيون:** وأسند فيها اللواء للأمير أيضا بأمر من والده، وتقدم حتى أشرف على مدينة وهران، فهاجم العدو وأوقع به هزيمة شنعاء ألجأته إلى الدخول إلى معاقل المدينة. ثم حاصر الأمير المدينة شهرًا كاملاً ارتحل إثره عنها لظروف قاهرة.

4) **غزوة قرية فليتة:** المتمردة، وتأديب أهلها العاصين، وإرغامهم على الطاعة، وعند رجوع الأمير إلى معسكر بلغه خبر هجوم العدو على قرية الدبة فهرع لملاقاته قرب وهران حيث أنزل به هزيمة منكرة تسببت في استشهاد بعض الرجال، واندحار العدو إلى داخل الحصون.

5) **غزوة وهران الأولى:** حصلت عندما كان الأمير محاصرًا لها. أعقبتها وقائع أخرى في أمكنة مختلفة، كواقعة تأديب ابن نونة صاحب تلمسان الذي حاول شق عصا الطاعة، وواقعة الحصن الكبير الذي شيده الفرنسيون على ساحل البحر قرب وهران، ليتخذوه معقلا

---

[1] يحي بوعزيز، مرجع سبق ذكره، ص ص.94-99.

للذخيرة ينقضون منه على أطراف البلاد، وواقعة تأديب أهالي أرزيو الذين تواطؤوا مع العدو ضده.

6) **واقعة مستغانم:** بعد استيلاء العدو عليها، ولم تأت بطائل.

7) عقابه لبني عامر وتأديبه إياهم أثناء الجولة التي قام بها في بلادهم للاستطلاع عندما مانعوا في أداء الزكاة والأعشار، حصل كل هذا وهو في طريقه إلى تلمسان قصد تأديب أهالي قبائل الدوائر والزمالة الذين تآمروا مع مصطفى بن إسماعيل عليه.

8) في جولته الاستطلاعية في أطراف البلاد أدب (ابن العربي) الذي شق عصا الطاعة في نواحي القلعة، وشتت شمله، وأحرق القلعة التي اعتصم بها وذلك في 17 جويلية 1834م.

9) وفي 14 جويلية 1834 وعندما كان في جولة أخرى استطلاعية قاتل أهالي الدوائر والزمالة الذين انضموا إلى حليفهم ابن الغماري وقومه ليقاتلوه، ونكل بهم بعد أن حاولوا منازلته، فأطاح برؤوس الفتنة ووقع مصطفى بن إسماعيل في قبضته.

10) **وفي أول يونيو 1835** نقض تريزيل حاكم وهران المعاهدة فهاجمه الأمير في مكان يدعى: حوش مولاي إسماعيل قرب سيق، وألحق به هزائم حتى لم يبق في جيشه البالغ خمسة آلاف جندي إلا عدد قليل وغنم المسلمون كل ما عندهم من الذخيرة الحربية وغيرها وتعرف هذه الحادثة بواقعة المقطع الشهيرة.

11) **وفي غرة نوفمبر 1836م** هاجم كلوزيل مدينة معسكر فأخلاها الأمير من كل شيء ودخلها العدو ليخرج منها بعد يومين. فعاد الأمير فعمرها، وجدد ما أفسده العدو وأحرقه منها.

12) **وفي 13 جانفي 1837م** وقعت معركة تلمسان الأولى وأسوة بمعسكر أخلاها الأمير ليحتلها العدو بعد معركة عنيفة. وعلى إثر استيلاء بيجو على تلمسان اتجه نحو الجهات الشرقية عبر الخط الفاصل بين التل والصحراء. حيث جرت بينه وبين قبائل سبدو وسعيدة وقائع وفواجع مؤلمة. ومن هناك سار إلى "القيطنة" فخربها وأحرقها.

13) **وفي غرة جويلية 1837م** وقعت معركة سكاك المشهورة بالقرب من تلمسان.

14) حاصر الأمير تلمسان مرة ثانية قرابة تسعة شهور.

15) **واقعة الغزوات:** جرت بضواحي نهر الشلف بالمدية قضى فيها الأمير على محمد بن عبد الله البغدادي المتمرد.

16) قام بعدة غزوات لقبائل الزيتون قضى فيها على دابر الفتنة، وأرجع الأهالي إلى حاضرة الدين الإسلامي بعد أن مرقوا منه.

17) **معركة عين ماضي:** التي أرغم فيها الأمير محمد التيجاني على التسليم بشروط أملاها عليه، وحصلت هذه الواقعة عندما كان الأمير في جولته الاستطلاعية ببلاد الأغواط أي الصحراء.

18) سار الأمير مرة ثانية إلى بلاد الأغواط، ونكل بأهلها العاميين حتى جعلهم أشد الناس تعلقا به في أحرج ظروفه.

19) **واقعة موزاية:** جرت قرب المدية وكان للأمير فيها يوم خالد، ولكنه اضطر أخيرًا لإخلاء المدية ليدخلها العدو تحت وابل من الطعنات. ورغم هذا فإن عاملها من قبل الأمير ما انفك يحاصرها مدة طويلة.

20) **واقعة مليانة:** وهي كمعركة موزاية في الشدة والعنف والوصف.

21) **وفي 28 أفريل 1841:** خاض الأمير معركة كبرى مع بيجو بضواحي مليانة بينما كان الأخير في طريقه إلى الجزائر، وغنم الأمير كل ما عنده من العتاد والمؤونة بعد أن كاد أن يفني جنوده أيضا.

22) **معركة مضيق عقبة خدة:** وكانت مهولة جدا مات فيها من الجانبين خلق كثير، واحتدم القتال طيلة يوم كامل، وهي من الوقائع المشهورة.

23) **معركة عين طاقين:** استولى العدو على عاصمة الأمير الثانية التي تدعى بالزمالة وذلك في غيابه.

24) بعد معركة طاقين خاض الأمير معركة ضد الذين تألبوا من قبائل الدواير والزمالة برئاسة زعيمهم الأغا ابن سليمان فقطع الأمير رأسه، وعندئذ تنفس المسلمون الصعداء وتحسر العدو لفقدان أحد أذنابه وصنائعه.

25) **معركة الجعافرة:** جرت بضواحي معسكر عندما تجمعت قوات العدو هناك آتية من قسنطينة وتلمسان ووهران تريد حصار الأمير ومقاتلته، وكانت تحت قواد فرنسيين ثلاثة، وفيها أشيع خبر استشهاد الأمير نظرًا لشدة بأسها ونجا الأمير بأعجوبة نادرة، بعد أن مزقت ثيابه، وتقطع لباسه من جراء تكاثر الرصاص عليه.

26) **واقعة سيدي يوسف:** باغتته قوات العدو فيها عند صلاة الصبح بينما كان مستريحا لشيء من النوم كعادته بعد كل صلاة الصبح، واستطاع بفضل مهارة جيشه أن يفتك من العدو كل خسائره.

27) **واقعة بني عامر الثانية:** قتل فيها الأمير بيده صنيعة العدو بالحميدي بعدما افتك ما بيده من السلاح والذخيرة.

28) جرت وقائع أخرى مهولة بين الأمير ولاموريسير بينما كان الأمير سائرا صحبة أهالي الدواير والزمالة إلى حدود المغرب كي يسكنهم هناك اتقاء لانتفاضهم المتكرر. وقد ألحق الأمير بلاموريسير خسائر فادحة.

29) **معركة الغزوات الثانية:** قتل فيها معظم جنود العدو، وشرد الباقي ولم ينج منهم إلا القليل سلموا أنفسهم إلى الأمير، وفي هذه الواقعة أصيب الأمير برصاصة في أذنه، وطار منها طرف من اللحم وهو أول جرح لحقه منذ تقلد زمام الإمارة والحرب.

30) **واقعة عين تيموشنت:** لم يقع فيها قتال لأن العدو فضل الاستسلام إلى الأمير، وكان عدد جنوده خمسمائة.

31) جرت معارك أخرى بين الأمير ولاموريسير انكسر فيها حاكم المعسكر الفرنسي، وحاصر جيش الأمير قواته من كل الجهات، وفي هذه الأثناء جال الأمير في مختلف أنحاء

الوطن، لينتقلوا من مكان إلى آخر بسرعة عجيبة وجعلت العدو يتيه في مجاهل التلول الوهرانية مدة شهرين كاملين بحثا عليه من غير طائل.

32) **معركة أبي الشطوط:** من بلاد شريف من ضواحي الشلف جرت فيها حوادث مهولة انكسر فيها العدو، بينما تابع الأمير غزواته المتعددة ببلاد القبائل ومتيجة وجرجرة.

33) **واقعة نهر يسر:** بضواحي الجزائر تراجع فيها الأمير إلى الوراء نظرًا لكثرة عدد العدو.

34) جرت معركة كبرى بين الأمير، ويوسف المتنصر العنابي في جهات أولاد نايل.

35) **معركة تافريست:** ببلاد المغرب الأقصى، تغلب فيها الأمير على عساكر بالأحمر بعد أن قتل قائده وبعد المعركة وجه الأمير كل ما غنمه إلى سلطان مراكش بفاس.

36) **واقعة بني عامر الثالثة:** جرت بضواحي فاس نكل فيها الأمير بمن أغاروا على مواطنيه المستقرين هناك بعد الهجرة.

37) **واقعة قلعة سلوان:** ببلاد المغرب شتت فيها الأمير جيش "عبد الرحمن بن هشام" سلطان مراكش الذي يبلغ عدده خمسين ألفا وذلك في 10 ديسمبر 1847.

38) تتمة المعركة وتأخر الأمير التدريجي إلى ضواحي الدائرة مقره حيث سلم نفسه إلى السلطات الفرنسية بعد مذكرات ومداولات يوم 23 ديسمبر 1847.

وبعد أن تطرقنا لأهم المعارك الحربية التي خاضها الأمير عبد القادر لابد أن نتطرق أيضا إلى أهم المعاهدات التي أبرمها مع العدو الفرنسي وهما معاهدة دي ميشيل 1834 ومعاهدة تافنة 1837.

4- المعاهدات التي أبرمها الأمير عبد القادر مع المستعمر الفرنسي:

أ. معاهدة دي ميشيل:

دهش الجنرال دي ميشيل من عبقرية الأمير العسكرية وأصول الحكم، وتأكد أن هذا القائد جاد في تأسيس الوحدة الوطنية إلى جانب تأسيس الدولة، وأنه ليس بالعدو السهل،

وأن سور الحصار يشق عليه يومًا بعد يوم ويمنعه من التزود بالغذاء والماء، ويهدد جنوده بالمجاعة، لذلك لم ير أمامه سوى معاودة الاتصال بالأمير لعقد اتفاقية صلح معه، فأوفد إلى الأمير رجلاً يهوديا اسمه مردخاي موسوي حمله رسالة قال فيها[1]: "إلى سمو الأمير عبد القادر، إنني أيها السلطان لست بغافل عن كل فعل حسن، فإذا أراد سموكم البحث في أمر المعاهدة فأنا مستعد حفاظا على عدم سفك الدماء لأمتين أراد الله ألا تكونا تحت سلطة واحدة".

حرر في كانون الأول (ديسمبر) عام 1833م.

وقد أجبر الأمير عبد القادر الجنرال دي ميشال على قبول إملاءاته المتكافئة ظاهريا وباطنيا كلها لصالحه منها الاعتراف باستقلال الجزائر، والسماح لرئيسها بتعيين القناصل في الدول الأجنبية.

مما دفع بـ "بيليسي Pellissier" إلى القول بأن الاتفاقية أكدت الاعتراف بالدولة الجزائرية، ومنحت زعيمها صلاحيات اقتصادية وسياسية واسعة، منها احتكاره للتجارة الخارجية، وإثبات شرعية حقه في تسليح جيشه، الذي استثمره الأمير في القضاء على أعدائه، من رجال المليشيات، ليتمكن من توجيه الضربة القاضية إلى زعماء القبائل المنشقين عنه، وإنهاء مرحلة الفوضى التي تسبب فيها المتمردون عن السلطة، من الذين قبلوا بحماية العدو والتعاون معه، وإحلال مكانها شرعية جديدة بديلة لسلطة البايات المنحلة[2].

ب. معاهدة التافنا:

توجه الجنرال بيجو إلى الشمال الإفريقي، وفي حقيبته السياسية نوايا خبيثة لا يجهلها الأمير المطلع جيدًا عما يريده بيجو، فقد نزل الجزائر هذا الأخير مهددًا باستعمال القوة،

---

[1] بديعة الحسني الجزائري، مرجع سبق ذكره، ص60.

[2] CH. Robert–Ageron, **Politique coloniale au Maghreb**, Presses Universitaire, Paris, 1985, pp.10-11.

ومتوعدا بحرب شاملة، إذا ما رفضت شروط سلمه، وهو يعي جيدًا أن الأمير لا يزال في حاجة ماسة إلى المحافظة على استمرار السلم ومتيقن بأن الجبهة الداخلية لدولته لا تزال هشة في المجال السياسي، وضعيفة في شقّها العسكري، مما يتعسر على الأمير الدخول في حرب شاملة كالتي يتوعده بها.

فدفع هذا الشرط المهين بالأمير إلى توظيف دهائه، ليتجنب شر بيجو وخبث سياسته فلجأ إلى توظيف عبقريته، فجمد شروط المعتدي المسبقة وأبعد شبح كارثة الحرب، فيتفرغ حينها إلى توحيد صف المقاومة وتبديد طموحات المعارضين السياسية. فسعى بذكائه العملي إلى عقد مؤتمر جامع لمعارضيه ومناصريه فكان له ما أراد، وبعد مخاض عسير ونقاش مثمر مكنه أنصاره من انتزاع الضوء الأخضر للدخول في مفاوضات مضنية مع بيجو انتهت بمعاهدة التافنا، التي يجمع عليها ساسة فرنسا ومثقفوها، بأن بنودها كانت كلها لصالحه، منهم ديمرمون Demermont الذي يرى أنها أحطت من شرف فرنسا، وحققت للأمير فوائد سياسية هامة، منها حصوله على اتفاقية سرية، تؤكد اعتراف فرنسا بدولته القومية(1).

وذلك ما دفع بمعارضيه إلى التشاؤم من بنودها، بخلاف أنصاره الذين اعتبروها فوزا عظيما لقضيتهم، مكنهم من تحرير كل التراب الوطني، ماعدا الذي يقبع فيه الجيش الفرنسي، وما أسرهم كثيرا، هو عودة مدينة تلمسان إلى دولتهم.

أما عند أعدائه من الفرنسيين، فقد أحدثت المعاهدة زلزالا سياسيا، ونقاشا واسعا بين الساسة والمثقفين والقادة العسكريين، ولعل المدعو سولفي Solvet كان أكثرهم واقعية بحيث يرى أن توقيع بيجو على المعاهدة استسلاما لشروط غريمه الأمير ويمنح له الضوء الأخضر للقضاء على حلفاء فرنسا في المنطقة، ويكرّس له الشرعية والسيادة على المملكة القديمة ماعدا قسنطينة والمجال البحري لوهران والجزائر. فسولفي لا يتردد في اتهام إدارة الاحتلال،

---

(1) CH. Robert-Ageron-, **Politique coloniale au Maghreb**, Op.cit, p.19.

بأنها أخفت النسخة المحررة بالعربية، لحجب استسلام بيجو لشروط الأمير، ويذهب إلى أن ترجمتها لم تكن عن جهل أو قصور، بل يراها خيانة عظمى لا تغتفر، وينهي سولفي إلى القول: أن امتلاك الأمير للنسخة الأصلية، يمكنه في أي وقت من المطالبة بكل الأراضي الجزائرية، ماعدا الشريط الضيق المحتل من ساحل الجزائر العاصمة والمقاطعة الوهرانية[1].

أما روسي فيكتفي بالقول: أنها ألعن وأخطر من معاهدة دي ميشال، ويعترف موقان بأن فرنسا تخلت عن الجزائر للأمير بموجب هذه الاتفاقية، ويخلص بعضهم إلى أن معاهدة تافنا وضعت فرنسا أمام العالم والتاريخ في قفص المتحايل والمخادع، بخلاف الأمير الذي مكنته من اكتساب الشرعية القانونية، التي لم تتمكن فرنسا من التملص منها، إلا بنقض المعاهدة ودفع الأمير للعودة إلى الحرب[2].

5- انتهاء المقاومة العسكرية للأمير وسجنه:

يقول الحاج مصطفى بن التهامي في كتابه سيرة الأمير عبد القادر وجهاده يقول بهذا الخصوص[3]: "وكلما نعزم يرخي عزمنا ما نراه من كثرة الجرحى، ولم نجد موضعًا بجعلهم فيه، ولا وجدنا مستندًا نستند إليه إلا الله. وعند ذلك صرنا نتأمل ونتيقن بعد المشورة أن المصير إلى الجند الفرنسيين أولى من التولي للمغاربة، لأنهم لا عقد عندهم ولا قانون يضبطون به أحوالهم مع أصدقائهم أو مع أعدائهم... ولأن الجيش الفرنسي بيت ملك من قديم الزمان، وضوابط شؤونهم، مضبوطة، وكلمتهم عند المتولي للأمر لا يتعداها غيره، ولو أعلى منه، وهم أولوا بأس شديد، وشجاعة، وتجارب الأمور من أول الأمر إلى نهايته، ويعرفون قدر الرجال الأبطال، فيعطونهم قدرهم من التعظيم والحرمة، ولو كانوا أعداء،

---

(1) CH. Robert-Ageron, **Politique coloniale au Maghreb**, Op.cit, p.26.

(2) Ibid, pp.30-43.

(3) مصطفى بن التهامي، **مسيرة الأمير عبد القادر وجهاده**، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص ص.168-169.

ويوفون بكلامهم. فالميل إليهم أولى وأفضل من هؤلاء المتبدين[1] الذين لا يعرفون قدرًا ولا يفرقون بين سليم وسفيح. والانحياش إليهم بشرط لاجتياز إلى الموضع الذي نريده، أفضل وأجل من المشي إلى البوادي، وأن كل الاتساع في أيدينا، ونعيش في أي قبيل قصدناه من قبائل الصحراء، أو مدنهم، كفقيق ونحوه، لأن أوباش الأعراب، الغث والسمين عندهم سواء، والعلم والجهل في مرتبة واحدة... ما في علمنا من خصال الفرنسيين مع المسلمين في السابق. فلقد كانوا في صدمتهم على تونس في الخامس والسادس كل من أراد الخروج إلى موضع أوصلوه إليه من غير مشقة بماله وعياله...

وبهذا انتهت مرحلة مهمة من مراحل كفاح الأمير عبد القادر وهي مرحلة المقاومة العسكرية انتهت باستسلام الأمير ورفاقه بشروط إلا أن الفرنسيين أخلفوا الوعد ونفوا الأمير إلى طولون[2]. وكان ذلك في 1 جانفي 1848هـ وقد اعتذر له الملك في عدم إتمام ما وعده به من بعثه إلى الشرق، وطلب منه أن يسكن فرنسا وتعطى أماكن مناسبة لمقامه العالي، ويرخص الأهل محبته من أهل الجزائر السكن معه. فأجابه الأمير أني لا أقبل هذا، ولو فرشت لي سهول فرنسا ومسالكها بالديباج، وها أنا بين أيديكم فافعلوا ما بدا لكم، ولا يمكن أن أترك طلب الوفاء بالعهد ما دمت حيًا، ومن عجيب من يسمع أنني كنت أرى نفسي ضيفكم، فجعلتموني أسيركم، وأخذتم تعددون علي أمورًا قمت بواجبها ذبا عن ديني، وحماية لبلادي، ولازال التفاخر بها وبأمثالها قديمًا وحديثًا، فإن القيام بها دليل على كمال الرجولية، والعدول عنها برهان على ضعف الإنسانية، وعلى كل حال فالعار والعيب عليكم لا علي.

---

[1] يقصد البدو أو البدويون.

[2] مصطفى بن التهامي، **سيرة الأمير عبد القادر وجهاده**، مرجع سبق ذكره، ص ص.176-177.

ثم عرض عليه التوجه إلى باريس، كما قصدها إبراهيم باشا خديوي مصر، فقال: إن إبراهيم باشا يرى باريس وغيرها من أمصار فرنسا متنزها له، يمرح غيه كيف شاء، وأما أنا فلا أرى فرنسا الآن إلا سجنا لي ولمن معي، فلا فرق عندي بين طولون وباريس[1].

قال بعض مؤرخي الفرنسيين: "إن الأمير لما تعين الكرونيل "دوماس" لمرافقته... أنس به، لأنه كان أيام معاهدة "تافنا" بين الأمير وفرنسا وكيلا عنده في عاصمته "معسكر" وكان الأمير يحسن السلوك مع رفقائه، ويسليهم ويتلطف بهم في سائر الأمور، ويخالطهم بنفسه، ويؤثرهم عليها بكل ما كان يخص به من لذائد الأطعمة، ونفائس الألبسة، فقيل له في ذلك، فقال: الحال التي نحن فيها تقضي علي بذلك، وعلى هذا كان أسلافي مع من يساكنهم ويصاحبهم فلا يقول أحدهم: حصاني وبرنسي ومالي، بل يقول: حصاننا وبرنسنا ومالنا، ولا أريد أن أخالف أسلافي في شيء. ثم نقل الأمير إلى "بو" ثم إلى حصن "أمبواز" و"أمبواز" مدينة في وسطها سراية لملوك فرنسا الأقدمين، حصينة ذاهبة في الجو مشرفة على بسائط وبطاح، يشق البلد نهر عظيم، واسع الأطراف، فأقام فيها أربع سنين.

وكما قال تشرشل في "تاريخه" عند ذكره هذا الخبر ما معناه: إن الأمير عبد القادر مازال ذا همة عالية لم تؤثر فيه شدة المشاق التي أحاطت به من كل ناحية، لو ألمت بغيره... لأذلته إذلالا، وأعدمته الصبر والتجلد تفصيلاً وإجمالاً، ثم قال: وكان الناس يتقاطرون إليه من جميع أنحاء فرنسا وغيرها، لمشاهدة حاله في أسره، فكانوا يعجبون من سمو همته وبعده عن إظهار الضجر، وتسليمه لتصاريف القضاء والقدر، ولاشك أن من كان مثله في القوة الفاضلة لا يبالي بالشدائد النازلة، وقد قيل له في ذلك فقال:

تعودت مس الضـــر حتى ألفته وأسلمني طول البلاء إلى الصـــبر

---

[1] محمد بن عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر**، الجزء الثاني، دار الوعي، الجزائر، 2012، ص ص.5-7.

وكان كثيرون من أصحاب المناصب وذوي السياسة، وقواد الحرب يسابق بعضهم بعضا لإظهار الاحترام والإعظام للأمير، وكان يصرف ساعات كثيرة في مقابلة أولئك القاصدين، والذين كان يدهشهم على الأكثر تظاهره بالبشر والأفراح مع ما أحاط به من المحن والأتراح[1].

فأقام الأمير بأمبواز وهو متمسك بعرى الصبر، متجلد لنوائب الدهر، قائم بواجب العبادة. وداوم الأمير في تلك المدة على تدريس العلم، وإفادة الطلبة من جماعته، فقرأ "الصغرى" للسنوسي في علم الكلام، ورسالة الإمام محمد بن أبي زيد القيرواني في الفقه على مذاهب الإمام مالك... وغيرهما من المصنفات المفيدة[2].

وقام الإمبراطور نابليون الثالث بإطلاق سراح الأمير ومن معه وإرسالهم إلى تركيا ثم انتقل الأمير عبد القادر ومن معه من بروسة إلى دمشق.

6- حادثة دمشق وبلاء الأمير فيها:

في يوم الاثنين الحادي والعشرين من ذي الحجة سنة (1276هـ)، والعاشر من يوليه سنة (1860م) اندلعت الفتنة في دمشق، وكثر الصريخ واللغط في أنحاء البلاد، وجعل السفهاء ينادون في الأزقة والطرقات هلموا إلى الجهاد، وأخذ الناس يتقاطرون إلى محلة النصارى، وينسلون إلى جهاتها من كل ناحية بلا تأمل في العاقبة، ولا روية، ومدوا أيديهم إلى أهلها بالقتل، وإلى أموالها بالنهب، وإلى ديارهم بإضرام النار فيها. ولما اتصل الخبر بالأمير... ركب إلى محلة النصارى فوجدها في هرج ومرج، ورأى ألسنة اللهب الممتدة من المنازل، والغوغاء بين ناهب وقاتل، فجعل ينهى وينصح، فلم تسمع له نصيحة، ولما يئس من رجوعهم عن غيهم... أخذ ينقذ من النصارى من يصل إليه، ويتمكن من إنقاذه... ولما غصت دور الأمير بالنصارى مع تعددها واتساعها.. أخذ يرسلهم إلى القلعة بإذن الحكومة،

---

[1] محمد بن عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر**، مرجع سبق ذكره، ص18.

[2] نفس المرجع، ص24.

فاجتمع عنده وفي القلعة نحو الخمسة عشر ألف نفس، وكان الأمير يقوم بنفقات الجميع، ولما طال الأمر وضاقت نفوسهم.. طلبوا من الأمير أن يرسلهم إلى بيروت، فأجابهم إلى ذلك، وصار يبعثهم إليها، فوجا بعد آخر بمحافظة المغاربة، واستمرت الفتنة قائمة، ونارها موقدة أربعة عشر يومًا، كل ذلك والأمير مشتغل بأخذ الوسائل، ليتوصل إلى إطفائها، باذلاً جهده في حسم أسبابها، ولم يدخل إلى بيته في أيامها، بل كان يجلس على سجادة في دهليزه، و يهجع من الليل إلا قليلاً[1].

ولأول وقوع هذه الحادثة العمياء طار خبرها في أقطار الدنيا، وشاع ما أجراه الأمير من السعي في إطفاء نارها، فأخذت مكاتيب التشكر من سائر الدول ونياشينها العالية الأولية ترد على حضرته[2].

7- مرض الأمير عبد القادر ووفاته:

نشأ الأمير في صحة كاملة وعافية شاملة لم يتغير عليه في أيام شبوبيته وكهولته شيء من قوته، ثم عرضت له أمراض حال شيخوخته، ومن جملة أمراضه: ورم في خصيته يمنعه من الإسراع في المشي، ومع ما كان يقاسيه من شدة الأمل ويعانيه في معالجته لم يظهر ضجرًا، ولا رآه ابنه محمد ترك الصلاة في وقت من الأوقات، وفي آخر مرضه، كان قليل الكلام إلا فيما يخص مرضه واستمر الأطباء يترددون عليه ويعالجونه خمسة وعشرين يومًا إلى أن دعاه مولاه إلى سعة رحمته ونقله إلى فسيح جنته، في الساعة السابعة من ليلة يوم السبت 19 رجب (1300هـ) 24 آيار (1883م) ودفن عند الشيخ الأكبر سيدي محي الدين بن عربي داخل القبة[3].

---

(1) محمد بن عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر**، ص ص.151-153.

(2) نفس المرجع، ص161.

(3) نفس المرجع، ص ص.413-414.

8- شخصية الأمير عبد القادر:

يمثل الأمير عبد القادر مقاومة الشعب الجزائري للغزو الفرنسي في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، وذلك طيلة خمس عشر سنة. وتزخر المكتبات العربية والأجنبية بمراجع كثيرة من كتب ومقالات وتقارير رسمية ولوحات زيتية خاصة بالأمير، ولكننا إذا بحثنا في هذه المراجع عن معلومات تصف لنا عبد القادر الإنسان لا نجد شيئا هاما فيما كتب منها باللغة العربية. فإذا احتجنا إلى وثائق تصور لنا هذا الجانب من حياة آخر ملوك الجزائر، وتخبرنا عن كيفية معاملته للقريب، والبعيد، والعدو والصديق، لجأنا مضطرين إلى المصادر الأجنبية.

فإن محمد بن الأمير عبد القادر مثلاً لم يتصد إلى هذا الجانب من حياة الأمير في كتابه "تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر"، ولا نجد أيضا ترجمة حياة الأمير عبد القادر المخطوطة المحفوظة بالمكتبة الوطنية والتي كتبها ابن عمه وصهره ورفيقه في الجهاد ثم في الأسر والمنفى مصطفى بن التهامي إلا رواية للحوادث الحربية والتطورات الدبلوماسية، فلم يحو الكتاب أية معلومات تتعلق بالرجل وأخلاقه[1].

ولهذا نحن مضطرون للرجوع إلى مؤلفات الأجانب والفرنسيين منهم على الخصوص من مدنيين وعسكريين وإلى شهادات الذين اتصلوا بالأمير منهم أو عاشروه، لكي نصور الجانب الإنساني من حياته. ومن بين الكتاب والقادة العسكريين والموظفين المدنيين والقساوسة الذين كتبوا عن الأمير وما أكثر عددهم يمكن الرجوع إلى ثلاثة منهم على الخصوص: المغامر الكبير "ليون روش Léan Roches" وهو من الفرنسيين الذين عاشروا الأمير وعرفوا جليه وخفيه، إذ كان كاتبه الخاص مدة طويلة ولكن من الواجب أن نكون شديدي الحذر فيما نأخذ عن "ليون روش" مما يتعلق بالسلطان ومشاهداته في المنطقة المستقلة من أراضي الوطن آنذاك والتي أوردها في كتابه "اثنان وثلاثون سنة عبر الإسلام"،

---

[1] محمد بوعياد، "عبد القادر الإنسان"، **مجلة الثقافة**، العدد 75، 1983، ص277.

وهو الكتاب الذي وصفه أحد المؤرخين الفرنسيين الأحياء "بنسيج فتان من الأكاذيب"، ومع هذا فلا ينبغي إهمال الفقرات المتعلقة بالسنوات التي قضاها صحبة الأمير بعد أن تظاهر باعتناق الإسلام رغم ميل "ليون روش" إلى التنميق والتلفيق في حديثه عن نفسه وعن أعماله، فإن ما كتبه يعتبر من أهم المراجع عن حياة الأمير.

الشاهد الثاني لهذه الفترة الخطيرة من حياة بلادنا الذي رجعنا إلى حديثه ورواياته هو الجنرال دوماس Emili Doumas قنصل فرنسا بمدينة معسكر حيث كان السلطان مقيما من سنة 1837 إلى سنة 1839 وهذا بعد معاهدة تافنة[1] وإن كان "دوماس" لم يشاهد الأمير عن كثب في هذه الفترة فقد اقترب من حاشيته ولاحظ سلوك السكان غير أنه عرف الأمير معرفة وثيقة بعد سنة 1847 إذ كان مسؤولا عن حراسته ورفقائه أثناء أسرهم بفرنسا ووثق مع السلطان روابط صداقة لم تنقطع حتى بعد الإفراج عن الأمير سنة 1852.

والشاهد الثالث الذي سنرجع إلى ملاحظاته لتصوير الأمير الإنسان هو المترجم "توستان دي مانوار" Toustain Du Manoir الذي رافق سنة 1841، قديسا فرنسيا سافر إلى المناطق الحرة من البلد، من أجل التفاوض مع السلطان للحصول على الإفراج عن الأسرى الفرنسيين الذين كانوا بأيدي الجيش الجزائري[2].

وصف "ليون روش" الأمير عند حديثه عن أول مقابلة للأمير بمعسكر عين شلالة في كتابه المذكور آنفا فقال:

" رأينا وسط المعسكر خيمة عظيمة يقف ببابها دائما جمهور غفير، إنها خيمة السلطان. وكما قيل لي من قبل، كان السلطان جالسًا وحده في صدر الخيمة قبالة الباب،

---

[1] E. Doumas, **Correspondance du capitaine Doumas Consul à Mascara 1837-39**, Ed. par G. Yver, Alger 1912.
[2] M. Emerit, **Toustain du Mansir au pays d'Abd El Kader**, In : Revue Africaine, 1955, pp.113-152.

فغضضت من بصري وتقدمت نحوه ببطء ثم ركعت لتقبيل يده كما هي العادة فتركني أقبلها. وبعد إتمام هذا الإجراء رفعت عيني نحوه:

"ظننت أنني أحلم عندما رأيت عينيه الزرقاوين تحيط بهما أشفار طويلة سوداء لامعة تمنح النظر حدة ولطاقة في آن واحد. وقد لاحظ ما ترك مشهده من أثر في نفسي، فأعجب على ما يبدو بذلك ثم أشار علي بالجلوس أمامه، وحينذاك تأملته بإمعان".

"إن سمرة خفيفة تكسو شحوب بشرته البيضاء، وإن جبهته عريضة وعالية وتعلو عينيه الكبيرتين الزرقاوين الفاتنتين أشفار سوداء رقيقة ومقوسة ووجدت نفس الدقة في أنفه القاني وفي شفتيه وتحيط بوجهه المستطيل الناطق بما في خلده لحية سوداء حريرية، ويزيد وشم صغير بين الحاجبين إبرازا لصفاء جبينه، له يد صغيرة نحيلة ناصعة البياض تبرز عليها عروق زرقاء، وتنتهي أصابعه الطويلة بأظافر وردية اللون مقلمة تقليما متقنا وكثيرا ما يتكئ بيده على قدمه، ولا تقل هذه بهاء وبياضا عن الأخرى".

"ولا تتجاوز قامته مترا وسبعين سنتمترا غير أن عضلاته تنم عن قوّة شديدة، ويلف رأسه برداء من الصوف الرقيق الأبيض (حايك) يثبته عقال من وبر الإبل، ويرتدي قميصا من القطن الأبيض فوقه قميص آخر من الصوف الأبيض أيضا ويغطي الرأس وكل هذه الملابس "الحايك" الذي يضع فوقه برنوسا أبيض وفوق هذا البرنوس برنوسا آخر بني اللون وتلك هي ملابسه كلها.

"يحمل بيده اليمنى دائما سبحة سوداء، يسبح بها بسرعة ولا يتوقف عن التسبيح عندما يخاطبه مخاطب. وإن بحث فنان على صورة لعابد من عباد القرون الوسطى يضعها على لوحته، فإنه لن يجد حسب رأيي نموذجا أفضل من الأمير، إن مزيجًا من مضاء العزيمة على الجهاد ومن الزهد، يضيء محياه بفتنة رائعة.

"لقد فوجئت بكلامه المتقطع وبصوته الأبح غير الملائم لهندامه إنه محافظ على لهجة سكان الجزائر ونطقهم"(1).

هذا هو الأمير كما رسمه "ليون روش" وقد بلغ الواصف من الدقة ما يجعل القارئ وكأنه أمام لوحة زيتية.

وتحدث بعد "ليون روثر" مواطنه "توستان دي مانوار" عن أول لقاء مع الأمير، ووصفه هو أيضا بهذه المناسبة وصفا دقيقا أكد كلام الكاتب السابق للأمير فقال:

"كان السلطان جالسا على حصير في ظل شجرة تين متكئا على صندوق من الخشب العادي يشبه الصناديق الموجودة عند التجار من سكان العاصمة الجزائرية، هكذا شاهدته، فلا أثر لخيمة و زربية أو أريكة.

"طلب الأمير حصيرا صغيرا يشبه الحصير الذي كان جالسا عليه ودعانا بإشارة من يده للجلوس فتمكنت حينذاك من تأمله عن كثب".

"إن الأمير متوسط القامة، جميل الهندام، لونه أبيض مع بعض الشحوب، ولحيته قصيرة غير أن شعرها كثيف، جبينه عريض ومقبب، لون عينيه رمادي مع ميل إلى الخضرة، أنفه قان ظريف، وفمه جميل، وباختصار فإن وجهه جميل يجذب إليه قلوب الناس، وخلافا لما هو شائع فإن صحته جيدة في الظاهر، ولا تبدو عليه آثار الزهد والتصوف. يتكون لباسه البسيط من أردية وبرنوس، وتحفته الوحيدة هي سبحة غليظة، وقد حدثنا بأدب كبير. وكانت حركاته لطيفة كما كان متواضعا رغم مكانته التي كانت تسمح له بالتعالي والسمو، إننا لم نجد فعلاً في حديثه أي أثر للتصنع".

ولم يجد "توستان دي مانوار" حسبما ذكر في كتاب له حراسا بجانب الأمير باستثناء شاوش (حاجب) يقف بعيدًا في انتظار أوامره، وبصدد هذه البساطة وعدم التكبر ذكر

---

(1) محمود بوعياد، مرجع سبق ذكره، ص ص.278-279.

القنصل الفرنسي "دوماس" أن أسرة الأمير كانت تعيش عيشة شظف، وأن السلطان باع في أسواق مدينة معسكر مصوغ نساء أسرته، ليدفع حصيلته لبيت المال حتى يعلم الشعب أنه يبذل كل ما يكسب في سبيل الجهاد.

ويروي "دوماس" أنه دخل على الملك الأسير في يوم بارد من أيام شتاء فرنسا في قصر "أمبواز" حيث كان مسجونا مع أسرته ورفقائه الذين أبوا إلا أن يلازموه في السراء والضراء. فوجده الجنرال "دوماس" الذي كان مكلفا بحراسته، جالسا في غرفة من غرف القصر بدون تدفئة فتعجب واستفسر الأمير. فأجابه بهدوء حسبما روى السجان: "إن الحطب الذي أعطي لي قد نفذ البارحة ورغم أنني أعلم أن بعض رفاقي لازال عندهم حطب، أحجمت عن الطلب منهم، مساكين والله! عوض أن أنزع منهم شيئا، كم أتمنى أن أرفه عنهم، وأوفر لهم كل ما ينقصهم". ولا مراء أن الأمير كان يتألم كثيرا لوجود أفراد أسرته ورفقائه معه في الأسر، ويشفق عليهم لأنهم وافقوه لما استسلم للجيش الفرنسي وفاء له[1]. وكانوا واثقين أن الأعداء لن ينقضوا معاهدة الاستسلام وأنهم سيرحلون مع قائد الجهاد إلى أرض إسلامية بالمشرق.

وعندما سمع "دوماس" جواب الأمير قال له: "إنك لا تشبه بعض خلفائك وقوادك الذين اشتهروا بظلمهم للناس واغتصاب ما يملكون فأجابه الأمير قائلاً: "لو كنت أشبه أولئك القواد، لم ينطح لي الشعب أبدًا، ولم يمنح بكل رخيص وغال ليتبعني ولم يصمد في وجه الأعداء كما صمد". وهذه شهادة أخرى عن بساطة حياة الأمير وتقشفه يرويها "ليون روش" وقد أثرت فيه تأثرا بالغًا وأظهر مرة أخرى بمناسبة روايتها تبجيله للسلطان وإعجابه به. قال "روش".

---

(1) محمود بوعياد، مرجع سبق ذكره، ص280.

"كان من المقرر أن نواصل إقامتنا بمدينة تاقدمت بضعة أيام غير أن بريدا جاء ينبئ عبد القادر أن أمه "لالا فاطمة الزهراء" قد أصيبت بداء عضال، فصمم على الرحيل لزيارة أمه التي كان يحبها حبًا كبيرًا. فقال للناس:

"إنني لا أرغم أحدًا على المسير معي". غير أن الحاشية استعدت كلها لمرافقته. امتطينا أفراسنا على الساعة الثالثة بعد الظهر وكان الثلج لا يزال يتقاسط وكان البرد قارسا وكان "ألادهم" وهو فرس الأمير يسبق دائمًا باقي الموكب المؤلف من ستين فارسا شقت عليهم مسايرة دابة السلطان لسرعتها.

"ولم يرد الأمير عن مقصده أي عائق، وكان يقول بين الحين والآخر بمسمع مني "يا إلهي مكني من رؤية أمتك قبل وفاتها فأتلقى دعاءها".

ورأينا في طريقنا بعض الأهالي الفقراء الذين كادوا يموتون من شدة البرد فنزع الامير أحد برانيسه وقدمه لأحد أولئك البؤساء.

"واغتنم الأمير وقفة ضرورية بقرية "ثنية الحد" دامت ساعتين لقضاء الصلاة ثم امتطينا أفراسنا وعلى الساعة الثامنة صباحا بلغنا الزمالة عاصمة الأمير المتنقلة، وعلمنا إثر وصولنا أن الخطر قد زال عن المريضة، وكنا قد قطعنا مائة وخمسين كيلومترا في مدة خمس عشرة ساعة فقط. ولم يصل من الستين فارسا الذين غادروا "تاقدمت" مع الأمير إلا أحد عشر فارسا كنت من حسن حظي أحدهم". وأقول هذا لأنني حضرت في ذلك اليوم مشهدا زاد من تقديري للأمير واحترامي لأخلاقه وخصاله.

"عندما كان الأمير يستعد للنزول عن فرسه رأى بباب الخيمة زوجته تلبس قفطانا جميلا ورأى داخل الخيمة زرابي تركية وأفرشة وأرائك من الحرير المذهب، فأدار رأس فرسه وصاح: "من هاته المرأة؟ ولمن هذه الخيمة؟ إن زوجتي لا تلبس إلا النسيج الذي تحيكه بيديها من صوف أغنامي، ولم أجلس أبدا ولم يجلس والدي من قبلي على حرير وقطيفة".

"ولم يكد ينهي كلامه حتى اختفت الزرابي والأرائك ودس القفطان وعوض هذا كله باللباس المصنوع من الصوف وبالأرائك المصنوعة من جلد الغزلان وبحصائر مدينة معسكر. إن الأمير كان تقيا شديد التعلق بتعاليم الإسلام. وكان تشبعه بروح الدين جليا في كل ما كتب من رسائل وكتب ونظم من شعر، وما ارتاب في إيمانه وإخلاصه للدين حتى ألد أعدائه.

وقد شاهد "ليون روش" عيانا مظهرا من مظاهر هذا الإيمان في فترة عمله ككاتب للأمير، ومن المقربين له يتناول طعامه معه حسبما يحكي وينام معه في خيمته بين الحين والآخر. ويروي "روش" أنه كان في ليلة من ليال الشتاء أثناء حصار "عين ماضي" نائما في خيمة الأمير، وبينما هو نائم عاد الأمير منهوكا من عمليات الحصار، وظن أن كاتبه مستغرق في نوم عميق، فأدى فريضة الصلاة ثم رأى "روش" بعد أن أنهى صلاته يتضرع إلى الله ويبتهل، وكانت عيناه متطلعتين إلى السماء، وشفتاه مفتوحتين كأنه مازال يتلو الآيات، وبلغ حالة من الذهول والتشوق إلى الله توحي لمن ينظر إليه بأنه فارق العالم الدنيوي وتسامى إلى العالم العلوي. ومع هذا فإن التشبث بروح الإسلام لم يدفع "فارس الإيمان" كما سماه المؤرخ الجزائري الشريف الساحلي إلى التزمت والتعصب، إذ يحكي "توتسان دي مانوار" أن أحد الأساقفة الفرنسيين قصد الأمير للتفاوض معه حول السماح للكنيسة الكاثوليكية بإرسال رجل من رجال الدين لخدمة الأسرى من الجنود الفرنسيين لدى الجيش الجزائري فاستجاب لطلب هذا الأسقف وأضاف قائلا: "إنني متأكد من أن عملي هذا يرضي ربي إذ أتيح لبعض عباده ذكر ربهم وإتباع شعائر دينهم، لأن كل فرد يتبع دين آبائه[1] والله يحب العباد الصالحين".

وإن هناك قضايا ومواقف أخرى تكشف عن إنسانية الأمير وعدم تعصبه وحقده. منها موقفه إبان الاضطرابات التي هزت سنة 1277هـ/1860م مدينة دمشق بسوريا حيث كان

---

(1) محمود بوعياد، مرجع سبق ذكره، ص ص.281-282.

الأمير مقيمًا. فرغم الأساليب الوحشية التي استعملها المسيحيون الفرنسيون لإحباط مقاومة الشعب الجزائري منذ سنة 1244هـ-1830م ورغم الاضطهادات التي عانها هذا الشعب أثناء الحملات الأولى للغزو وكان لا يزال يعانيها مشاركة الكنيسة المسيحية وموافقة أغلبية رجال الدين أو سكوتهم عن الجرائم التي كانت ترتكبها السلطات العسكرية والمدنية بالوطن البعيد، فإن الأمير اقتحم الأخطار وجابه ببسالته المعروفة غوغاء دمشق لإنقاذ الآلاف من سكانها المسيحيين. وقد روى تفاصيل هذه المأساة محمد بن عبد القادر في كتابه "تحفة الزائر" وتحدث بإسهاب عن موقف والده الأمير وعن خوض الجالية المغربية المعركة بجانبه ضد الرعاع من سكان دمشق. ونال الأمير بموقفه الإنساني هذا إعجاب العالم وتسابق رؤساء الدول لمنحه أرفع الأوسمة وأشهرها ومن بين هذه الدول روسيا وتركيا وفرنسا. ومن المعروف أن آخر ملوك الجزائر كان يتسم بالمروءة والحلم منذ القدم. وقد أظهر "ليون روش" في مذكراته ما كان يتميز به الأمير من رفق وحنان وحلم بصدد رواية هذه القصة. وكان ذلك في يوم مشهود حكم فيه الأمير على غير عادته بالإعدام على بعض الخائنين، وحكى كاتب الأمير السابق أن ملامح الأمير عندما حان وقت تنفيذ الحكم قد تغيرت، فنقلب الوجه الهادئ الوديع إلى وجه مكفهر مرعب، وامتقعت شفتاه، وصارت نظرته الساكنة الحنون عادة نظرة قاسية. وبينما كان الجلاد يتأهب لضرب رأس المحكوم عليه الأول اقتحمت الخيمة جماعة من الأطفال، فتوجه بعضهم للجلاد ووقفوا بينه وبين المحكوم عليه وتوجه الآخرون للأمير يحيونه، وهوت طفلة تبلغ من الجمال منتهاه على يدي السلطان تقبلها وهي تبكي وقالت بصوت لطيف مؤثر: "ربي يحفظ لك أمك، ربي يرحم أباك، ربي يحفظ لك أولادك اغفر لأبي". وكأن البنت كانت مدفوعة بإلهام سماوي. فلم تردعها هيبة الأمير ووقاره، فارتمت في أحضانه وعانقته وهي تنوح وتبتهل متشفعة في والدها، وسرعان ما تغير الجو المطبق على الحاضرين وعادت ملامح الأمير إلى وداعتها وسكونها، فقبل جبين الطفلة وأشار للجلاد أن يكف عن عمله وعفا عن الضالين وكانوا خمسة عشر.

غير أن هذا الملك الإنساني الحليم الذي أظهر في مناسبات شتى مدى شفقته على شعبه وتسامحه مع أعدائه كان صلبا لا يراعي لومة صديق أو عدو، قريب أو بعيد إذا ما تعرضت المصلحة العليا لوطنه وأمته لخطر من الأخطار، فيصبح حينذاك مثال الحزم والشدة. وقد أظهر هذه الخصال طوال خمسة عشر سنة التي كان مصير بلاده بيده فلم تزعزعه أطماع، ولم تحجمه عن هدفه شدائد ولا أخطار.

وقد أظهر حزمه وجرأته يوم بايعه الشعب وسلم له مقاليد الحكم ليقود مقاومته للمعتدي ويسهر على مصالحه في الحرب والسلم. فيروي "الجنرال دوماس" أن والد الأمير الحاج محي الدين سأل ابنه عبد القادر يوم ذاك بمحضر من رؤساء القبائل وأعيانها المجتمعين لمبايعة السلطان الجديد سأله إذا كان يجد في نفسه القدرة اللازمة على تولي أمور الشعب، وطلب منه كيف سيحكم بين الناس إذا ما أصبح راعيهم.

فأجاب الحاج عبد القادر والده الشيخ أنه سيقود الناس ممسكا بإحدى يديه عصا من حديد وبالأخرى كتاب الله، وإنه لن يتردد في تطبيق أحكام الشريعة ولو على شقيقه.

وعلق الممثل الدبلوماسي لفرنسا بمعسكر على اجتماع آخر عقده الأمير مع رؤساء القبائل ليستشيرهم بخصوص معاهدة تافنة مع فرنسا سنة 1252هـ/1837م، فوافقوا الأمير ورضوا بعقد الاتفاق مع الفرنسيين فحذر السلطان الجميع بلهجة الرئيس المطاع من العدول عن رأيهم في يوم من الأيام، ومن مؤاخذته على مصالحة الكفار، وهدد كل من تسول له نفسه أن يلومه في المستقبل على عقد تلك المعاهدة، وعلق "دوماس" راوي الحكاية فقال: أحس الجزائريون في ذلك اليوم بأن لهم زعيما حقيقيا.

وقد شهد للأمير من الأجانب الكثيرون غير "دوماس" و"روش" و"دي ماتوار" بشدة العزيمة، والشجاعة النادرة والمروءة والبساطة في العيش، والصبر على المحن والشدائد

وملكة الابتكار والتنظيم[1] فقال أحدهم وهو "نُوال مانوشي" Noel Manuxi الذي عاش مدة سنتين كاملتين بقرب الملك.

"إن الأمير تمكن من تأسيس مدن، وخلق نظام حكومي جديد، ووضع تشريع، وتوحيد شعب كانت صفوفه مشتته من قبل، كل هذا وهو متحمل لأعباء الحرب ومشاقها".

رغم النكسات المتوالية، والاضطرار للكف عن الكفاح وسخطه على الفرنسيين الذين نقضوا عهودهم فلم ينقذوا اتفاقية الاستسلام، وألم مشاهدة أمه العجوز ورفقائه الأوفياء يعانون من عذاب السجون، رغم تلك المحن والشدائد لم تتغير أخلاق هذا الرجل الهمام ذي الشخصية الجذابة. فكل ما نتج عن هذه الخيبات والآلام إن زاد الأمير ميلا إلى الزهد والتصوف.

وفي سنة 1269هـ-1852م وهو التاريخ الذي قرر فيه أخيرا نابليون الثالث الوفاء بعهود بلاده، وتطبيق معاهدة الاستسلام، فأطلق سراح الأمير، لقيه بباريس وهو في طريقه للمشرق الجندي الفرنسي "إيبوليت لانغلوا" Hypolyte Langlois الذي كان أسيرا عند الأمير من قبل، فتمكن من الاقتراب من الملك، وتحدث "لانغلوا" عن هذا اللقاء بباريس في كتابه "مذكرات أسير عند عبد القادر" فقال "إنني رأيت الرجل نفسه بوجهه الرصين، وبنظرته الملهمة، وكلامه القليل ، عليه مسحة الأنبياء، فكأنه كان يعيش في عالم علوي مترفعا عن كل معتاد ومبتذل"[2].

---

(1) محمود بوعياد، مرجع سبق ذكره، ص283.

(2) محمود بوعياد، مرجع سبق ذكره، ص284.

وفيما يلي أهم صفات الأمير عبد القادر:

1- الأمير الطاهر:

كانت قاعدة حياة الأمير قائمة على أسس ثابتة تتمثل في التحلي بالقوة تجاه نفسه والتسامح حيال الآخرين. وقد كادت أسوة أبيه واستعداداته الطبيعية تدعوه إلى التقشف الأخلاقي. كان طفلا نحيفًا لم تكن جبلته تؤهله لحياة التقشف. ومع ذلك، فإن النظام القاسي الذي فرضه على نفسه جعل منه الرجل الأكثر قدرة على المقاومة وأحسن فارس في الجزائر كلها. كان يحيا على الجواد وكان يقال بأنه قادر على البقاء بقوته مدة ثماني وأربعين ساعة أو أكثر.

لم يكن الطعام يشكل أمرًا ذا بال لديه، كان يحلو له أن يقول: "كلما كان طعامنا قليلا، كانت صحتنا أفضل". لم يكن يرغب في أكثر من عصيدة من الشعير أو القمح وشيء من الحليب وبعض التمر. فالشراهة في نظره أمر مخالف للآداب بل يمكن القول بأنها خطيئة ضد العقل. خلال زيارة قام بها إلى باريس فرض عليه حضور قاضيين بدينيين جاءا خصيصا من الجزائر، أختيرا لـ "ولائهم" وكان حبهما للبطيخ من القوة بحيث أصيبا بتخمة. صدم الأمير ولكنه لم يرد بعنف ولكن حتى لا يصاب هذان الرسولان بتخمة مرة أخرى طلب بسحب البطيخ من المائدة.

كان يصرّ على استمرار هذه الضرورة الفيزيولوجية في حدودها الطبيعية وتحت مراقبة الأخلاق العالية الدائمة.

ذات يوم، بعد معركة شرسة، سار مدة طويلة مرفوقا بجنوده النظاميين كانت المواد الغذائية قد نفذت منذ مدة، والجميع أصبح يعاني من الجوع. رأى الجنود كبشا ضالاً في الحقل. فقتلوه وخمنوا في طهيه سريعًا. وبفخر واعتزاز قدموا لقائدهم شواء لذيذا. غير أن عبد القادر بتحكمه المعهود في نفسه طرح هذا السؤال: "هل حصل كل واحد على نصيبه؟" كان الرد بالطبع سلبيًا ولما تعذر تأمين القسط، أمر برمي هذا اللحم بعيدًا. كان يتميز عن

غيره بالقناعة وبساطة الهندام. هكذا تراءى ذات يوم لبوجو خلال لقاء التافنة: "قبل الشروع في الحديث[1]، كنت أتأمل في مظهره وبدلته التي لم تكن تنطوي على أي فارق مع بسطاء العرب... جميع ملابسه كانت متسخة وفظة وبالية إلى حد بعيد. وهنا أدركت انه يحبذ التقشف والبساطة".

ولما كان بوجو جنديا وذا عادات ريفية فقد ظل يرى الأشياء بشكل ضيق ومختزل. ومن ثم ضل السبيل حين حكم على إشعاع قناعة حقيقية لدى الأمير بأنها نوع من التكلف. في خلاصه المطلق جعله في مأمن من شبهة النفاق أو الديماغوجية.

في بداية مساره ظن وفقا لمعتقد جار، بان ثمة مراسيم لصيقة بالسلطة. غير أن المشاهد القاسية التي تلت غزو معسكر من قبل الفرنسيين جعلته يعمل النظر العميق وحملته على تغيير طريقة حياته رأسا على عقب.

ذات يوم، عندما مثل أمامه الشخص الذي أخذ منه مظلته الملكية بعنف ليردها له، رفض قائلا له: "احتفظ بها قد تصبح في يوم من الأيام سلطانا".

لقد ظن أحد أصهاره وقد أصبح خليفة بأن عليه أن يتميز عن غيره بالرخاء الجم. فاستدعاه عبد القادر ليعطيه درسا، فقال له: "اتخذني قدوة.. ألست غنيا وأقوى منك؟ أنظر إلى هندامي، أنا لا أقوى حتى على الحفاظ على البلوط الذهبي المعلق على برنسي". وراح الأمير يقطعه بخنجره.

إنه لمن الغريب أن نلاحظ بأن الأمير كان يبدو في نظر الرأي العام الفرنسي الذي صقلته الصحافة المغرضة، في هيئة مولّد منحها يرتدي بدلة رسمية لأمير هندي. وحتى بعد الحرب نعثر على هذا الجهل في سلب الأوساط العصية على مفهوم التقشف. بعد

---

[1] محمد الشريف سحلي، **الأمير عبد القادر فارس الإيمان**، ترجمة محمد يحياتن، منشورات ANEP، الجزائر، 2008، ص ص.69-70.

عرض بالأوبيرا باريس. دعي الأمير إلى زيارة الكواليس، وهي الدعوة التي رفضها بحزم بعد أن شرحت له مغزاها.

إن لتقشف عبد القادر جذورًا عميقة في نفسية الشعب الجزائري الذي كان يطالب دائما بان يتحلى قادته بالأخلاق المثالية. وقد كانت الدوناتية والخوارج شاهدًا على ذلك.

وكان عبد القادر أيضا ممتثلا لأسمى سنة إسلامية كان الرسول نفسه مصدرا لها. لم يكن الأمير هاويا يبحث عن الكمال الفردي وكان على وعي تام بالبعد الاجتماعي لمثاله. فعندما يكون الفرد منارة ساطعة ترشد الشعب فلابد عليه أن يكون أفضل الناس كي يبذل كل واحد قسارى جهده قصد الارتقاء إلى مصاف المصير.

أما الانحرافات التي لا مفر منها في مجتمع شهد القمع التركي فقد ألفت عدوا شرسا في شخص الأمير.

كانت الدعارة محظورة وكان على العاهرات أن يتزوجن كي يكون لهن ولي مسؤول عن أفعالهن.

كما حظر وعاقب بشدة الإدمان على الكيف أو المشروبات الكحولية ولعبة الورق. وحتى التبغ لم يلفت من هذا الحظر: فإن لم يكن منافيا للتسرع فإنه كان يفضي إلى مصاريف مرهقة لصحة الجنود وأسرهم. بيد أن الصرامة القصوى كانت مخصصة للمصابين بالشذوذ الجنسي والخونة. فالأوائل كان يحكم عليهم بالإعدام في حين أن الآخرين كانوا يستفيدون من سلم للعقوبات تناسب درجة التهمة: "على من قام بمساعدة العدو بماله أن يقدم هذا المال، أما من ساعده بذراعه فعليه أن يقدم رأسه".

وبصنيعه هذا كان يطبق الشريعة الإسلامية. إن صرامة عبد القادر هذه، المقبولة من قبل الرأي العام، كانت تستجيب لمتطلبات الظروف الصعبة. فجهاد الطهارة والحرب الوطنية

كانا مرتبطين أيما ارتباط في معركة واحدة ومن أجل نفس القضية وهكذا وجّه العزوف المطلق عن الدنيا والبساطة اللطيفة صورة هذا الرجل الطاهر.

ففي الفترة التي كان في مقدوره التمتع بممتلكاته الشخصية لم يقتطع سنتيما واحدًا من الخزينة العمومية. وعندما استولت عليها السلطات الفرنسية قبل بأن تقدم له ميزانية كانت تفاهتها تحاكى حاجات الزاهد الذي عانه في 1839، عندما نقطع السلم ثانية، باع الأمير علانية بمعسكر كل حلي الأسرة قصد تكوين رصيد خاص وضروري لمواصلة الحرب. سارع أولئك الذين كانوا يشكون من وطأة الضرائب إلى اقتفاء أثره. لم يكن أحد من كبار ملاك الأرض على هذا النحو من البساطة والقابلية لملاقاة الغير. لم يبعده تقشفه عن السكان[1]. في كثير من الأحيان، كان يحلو له أن يخطب بالمسجد حاثا على روح المقاومة شارحا مصاعب الحرب وضرورة التضحية. ولما كان يدرك كم هي صعبة مراقبة الإدارة من بعيد وتسيير رعاياه، فقد سعى إلى استثارة الاحتجاجات، مرسلا إلى الأسواق دلالين عموميين مكلفين بإلقاء التصريح التالي:

"أيها المساكين اسمعوا وعوا: على من يرغب في الشكوى من خليفته وشيخه أو قاضيه أن يأتيني، سأقتص له، وإن أبى، فلن يلوم سوى نفسه. أما أنا فلن يسألني الله يوم القيامة". هذه البساطة الديمقراطية للقائد الأكبر قد أدت إلى ردّة إقطاعي مشهور: مصطفى بن إسماعيل. فهذا الإقطاعي أراد ذات يوم أن يزور الأمير فوجده في حديث مع فلاحين. ظن أن الأمير سيقطع حديثه للإصغاء إليه واستقباله. ولكن الأمير واصل بهدوء الحديث دون أن يعبأ بالزائر. استاء مصطفى بن إسماعيل لما رأى أن الأمير أثر عليه رعاة بسطاء وانصرف ليسلك طريق الخيانة.

ولاشك أن عفوية الأمير خلال هذا المشهد تساوق مثال الرسول بتبصر.

---

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص ص.73-74.

2- الأمير الشجاع:

إن الاعتقاد الجاري والسائد يرى في الزاهد كائنا خاملاً يروّض الخوف الفيزيائي بفضل الإرادة. وقد كانت الشجاعة لدى عبد القادر تكتسي جميع مظاهر الجرأة، ولكنها ليست بغريزة عمياء تتجاهل الخطر. إنها سجية جريئة رديفة إدارة متزنة وعقلانية.

خلال العديد من المعارك، شهد موت خمسة جياد وجرح هو نفسه ثلاث مرات. لقد كان دائما في الأماكن الأكثر عرضة للخطر متحديا الموت جالبا إعجاب الجنود الفرنسيين الذين كانوا أحيانا يتوقفون عن إطلاق النيران[1].

في البداية، عند حصار مدينة وهران، شوهد وهو ينطلق بجواده صوب القذائف التي كانت تنبو وتزلّج. لم يكن الأمر يتعلق بلعبة جريئة متهورة بل بفعل مقصود غايته تعزيز شجاعة محاربيه. فالمدفعية كانت تحدث آنذاك أثرا مثبطا في نفوس جلّ الجنود الذين لم يتعودوا ذلك.

والحق يقال إننا لا نعرف ماذا ينبغي الإعجاب به أكثر: جرأته واندفاعه أم رباطة جأشه خلال الحادث الخطير الذي شهدته قلعة تاقدمت.

كان عشرة عمال جزائريين وعشرة أسرى فرنسيين يحضّرون الخراطيش في معمل يقع في أعلى قبو كمخزن للبارود، في أعلى هذا المعمل توجد قاعة مجلس الأمير.

ذات صباح، سمع دوي انفجار قوي متبوع بصراخات: "الفرار، الفرار ستنفجر القلعة". ومن القلعة المغشاة بالدخان برز رجال مذهولون، بعضهم تحول إلى مشاعل حقيقية. واعلموا من قدّم لهم الإسعافات الأولية بأن المعمل قد انفجر. ولكن الجميع تردد في الدخول إلى القلعة لأنهم علموا بأنه في الصبيحة نفسها وضع في القبو مائة كيلو من البارود.

---

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص75.

وأثناء هذا التململ والتردد، ها هو الأمير جاء لتوه مرسعا على ظهر جواده. لم يتوقف ليسأل أو يفحص الجرحى، بل توجه قدما صوب القلعة واختفى وراء سياج الدخان.

اعترى الخجل الفارين والشهود من حركتهم الأولى ثم تداركوا الموقف: دخلوا على إثر الأمير ليروا مشهدا خارقا. كانت ثمة حلبة كبرى اختلط فيها أنين الموتى بصراخ الجرحى وصياح جزائريين في وجه الفرنسيين يتهمونهم بمحاولة الاعتداء على قائدهم. وكعادته سما الأمير المتميز برباطة جأشه وسكينته فوق هذا الاضطراب الجم. دعا الأمير طبيبه وأقدم على تحرّ سريع. والحال أن خطأ ارتكبه أسير فرنسي كان سبب هذه الكارثة غير أن عبد القادر لم يتهم أحدًا. بل أكثر من هذا أصر على أن يطمئن الفرنسيين وانحنى بأريحية على جميع الجرحى دون تمييز[1]، ولم يغادر القلعة إلا بعد أن رأى طبيبه يعالج الجرحى.

عن تحدي الخطر ورباطة الجأش لا يستنفدان أن جوهر الشجاعة لدى رجل من طينة عبد القادر. فإرادته الفولاذية كان من شأنها أن تظهر بأنها قادرة على مقاومة جميع المحن. كما أن صموده إزاء النوائب وصبره على الفشل المبرم الذي يصيب النفوس الضعيفة، كل هذا يبلغ عنده مراتب السمو.

3- الأمير الحازم:

كتب الأمير لأحد خلفائه: "اصبروا على المحن، إنها هي التي تصنع الرجال الأقوياء" وفي رسالة للملك لويس فيليب، راح يشيد لدى بعض المسيحيين بـ "ذكائهم الفائق الذي يسمح لهم بالسيطرة على الحدث الذي يصيبهم".

في ضوء هذين الاستشهادين يظهر أن تصوره للشجاعة المعنوية أثرى مما يمكن تصوره. فالشجاعة المعنوية هي أولا هذه الإرادة الصلبة القادرة على الصمود ومقاومة جميع النوائب. غير أننا لو حصرناها في هذا المفهوم، فلن تكون سوى موقف سلبي تفضي إلى

---

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص76.

التعنت السيئ أو الاستكانة السلبية، فالإرادة بالنسبة إلى عبد القادر لا تخرج من هذه الحالة الخام إلا بمساعدة الذكاء. فالذكاء ينير الطريق ويفسر الحدث ويموقعه في تسلسل الأحداث ويبطله ويوفر الوسائل التي تمكن من مراقبته والسيطرة عليه.

لا أحد غيره جسد بشكل أفضل هذه الفضائل خلال حياة مضطربة للغاية. لم يكن مساره سلسلة من النجاحات التي تؤول إلى هزيمة نهائية. فقد خبر الخيار حيث يجب على الإنسان أن يحترز من نشوة الانتصار ومرارة الهزيمة. أحيانا رأى قوته تنهار انهيارًا ولكنه سرعان ما يستعيد طاقات جديدة وينتفض في انطلاقة رائعة.

في 1835 بعد استيلاء الفرنسيين على معسكر، مني الأمير بهزيمة عسكرية وخاصة بكارثة معنوية لم يسبق لها مثيل. كان الفرنسيون قد أعدوا جيشا قويا أملا في محو ذكرى هزيمة المقطع النكراء[1].

وكان مخطط الأمير قائما على سد طريق معسكر في وجه الجيوش الفرنسية المقدرة بأحد عشرة ألف جندي. حاول في البداية استدراجهم ولكن عبثا في الجبال حيث كان الميدان مواتيا له. حينئذ أعد كمينا إعدادا محكما في مضائق سيدي مبارك مموها العديد من الجنود في المنحدر والمنعرجات المشجرة. واستكمل ذلك ببعض قطع من المدفعية مخفاة وموضوعة بشكل جيد، بينما فريق من الفرسان هام كان ينتظر من بعيد لحظة الهجوم. وقد تطلب نجاح العملية مفاجأة تامة للعدو. وكان متوقفا إذن على انضباط المنفذين. ولكن لسوء الحظ، كانت جيوش الأمير تفتقر إلى إطارات دنيا جيدة.

فلما كان الجنود والقيمون على المدفعية من ذوي الطبع القلق فقد أطلقوا النار مبكرًا قبل أن يقع الفرنسيون في الكمين. فلولا هذا الخطأ الفادح، لشهدت قوات كلوزيل والدق دورليان كارثة مشابهة لكارثة المقطع. وهكذا، بعد أن علم الفرنسيون بما كان مدبرا لهم،

---

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص ص.79-80.

قلبوا الوضع لصالحهم بفضل دعم مدفعية قوية. وكانت الهزيمة بالنسبة للأمير، التي صاحبها بعد أيام قليلة تفكك جيشه، بل هناك جنود لاذوا بالفرار: الأغا المزاري غير المعسكر رفقة كتيبته من الفرسان. وما يفسر هذه الهشاشة المعنوية هو الوضع الفريد الذي كانت عليه مدينة معسكر. ذلك أن العديد من السكان كانوا غرباء عنها حيث كان بقاؤهم مرتبطا بممتلكاتهم.

كان نصف العمارات بالفعل ملكا لأعيان القبائل مثل الدواير والسمالة التي انضمت إلى فرنسا بعد أن كانت مسخرة كشرطة للأتراك وكان المزاري أحدهم، معنى هذا أنهم كانوا أعداء سريين للأمير يتحينون الفرص لتغيير المعسكر، ولاشك أن لهم يدا في مسألة سيدي مبارك وكذا في الفوضى التي تلت هذه النقطة[1] تاريخية يجب توضيحها ومعرفة ما إذا كانت المناورة المبكرة لجنود عبد القادر مردودة إلى قلق طبيعي أو إلى دسيسة سرية. حقا لقد كان ثمة أمر غريب: الوجود المتزامن للدواير والسمالة في المعسكرين كان طريق معسكر مفتوحا للفرنسيين. وكانت القبائل المجاورة التي سبقت الفرنسيون قد نزلت إلى المدينة للسطو على الممتلكات أو إتلاف ما لا يمكن أخذه.

وسرعان ما التحقت بها الكتائب غير النظامية للأمير غير عابئة بتوسلات قائدهم المؤثرة. ثم جاء دور القوم الفرنسيين للدواير والسمالة الذين يؤثرون النهب على المعركة. لقد عاشت معسكر آنذاك أيامًا عديدة من الفوضى والعنف على الأشخاص والممتلكات وجد الفرنسيين مدينة ميتة. مكثوا بها من 5 إلى 8 ديسمبر 1835 وهي الفترة التي استغرقها هدم القصبة والترسانة ومصنع الأسلحة والمحكمة والمحلات التجارية والنقد. ولما ألفى الأمير نفسه وحيدا توجه نحو كشرو بجنوب معسكر حيث التحق بأسرته وهناك كانت عدة مفاجآت أليمة في انتظاره. هناك عناصر مشبوهة قد سطت، في خضم غضبها، على المظلة الملكية وحطمت خيمته وطردت أسرته بعد ان سطت على حلي زوجته وأقراطها وقد

---

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص ص.80-81.

وجد هو نفسه في ساحة السوق محاطا بحشد معادله سربله بوابل من الشتائم أقلها حدة كانت "سلطان الدغل" وعلى هذا الرهط الهائج كان يرد بهدوئه المعهود.

وبعد أن طرد هو الآخر اتجه بوقار إلى سفيسف حيث التجأت أسرته. لم تزده دموع ويأس ذويه إلا حسرة. ولكنه كان بمثابة الرجل الذي يتمالك نفسه ولما وجهت له أمه كلمات المواساة كان قد استرجع بعد إرادته الفولاذية. ورد عليا بلطف: " أماه إن النساء والأمهات هن اللائي بحاجة إلى الشفقة، لا الرجال".

إزاء ضربات القدر وعدم ثبات الرجال، فكر في الانسحاب إلى المغرب، غير أن خبرا قلب مخططاته: خروج الجيوش الفرنسية من معسكر[1].

في اليوم الموالي، وكان الجو باردا وماطرا، نصّب رجلان خيمة صغيرة ممزقة على مشارف معسكر المحطمة. وكانا قد حفرا حفرة صغيرة محاطة بالحجر جعلا منها وسيلة لطهي حفنات من القمح. أحدهما، غير مبالٍ بالجو الماطر، كان يتأمل المدينة المحترقة. وسرعان ما انتشر خبر وجوده. وهكذا جاء الناس من كل حدب وصوب. أحاطوا به، والخجل والندم يعتصرانهم، طالبين منه ثانية، أن يشرفهم بترأسه عليهم. غير أن الأمير أبدى في مستهل الأمر الصرامة. قال: "لقد اخترت المنفى ولا أنوي أن أحكم شعبا أظهر الاحتقار الجم للنظام والانضباط". حينئذ ارتموا عند رجله وقبلوا يده وهدب برنسه. وهكذا أبدى الأكثر جرما في السابق الحماس الأكبر. تقدم منه آغا بني هاشم العموري وأعطاه المظلة الملكية ولكن الأمير دفعه وقال له بسخرية: "احتفظ بها لنفسك لعلك ستصبح ذات يوم سلطانا".

لم يفقد الحضور الأمل، وهم نهب البرد وتحت المطر، وواصلوا بإلحاح وعزم ممزوج بالحماس. ولما أدرك الأمير أنهم صادقون في دعواتهم، قبل بطلبهم وقال بصوت حازم

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص ص.81-82.

وجازم: "ما شاء الله كان، ولكن تذكروا أقسم بأني لن أعود إلى معسكر – اللهم إلا من أجل الصلاة – طالما لم تثأروا لهزيمتنا الشنعاء. إني أرى خونة بينكم، ومعمر أحد هؤلاء فلتشنقوه". هذا الاعتدال في الثأر كان البرهان الساطع كلما تصوره السامي للعدل وعبقريته السياسية. فرغم كل شيء، فقد عززت المحنة الرهيبة قناعاته وطهرت القلوب وقربت بعضها من بعض. وحتى المترددون والعصاة قد انضموا إلى معسكر عبد القادر الذي كانت مقاطعاته تتوسع شيئا فشيئًا باشتداد الحماس. وهكذا في أقل من سنتين بعد كارثة معسكر، كرست معاهدة التافنة قوته وسلطانه بوصفه قائدا لثلثي الجزائر ومن ثم كان في مقدوره أن يغذي آمالا عريضة.

كان فكره يضع الملامح الأولى لمخططات هائلة. كان يحلم، بمساعدة تقنيين أجانب، وخاصة الفرنسيين منهم، بوضع الأسس الأولى لحضارة جديدة. وسرعان ما انبجست من الأرض مدن ومصانع وترسانات وحتى فرن عال. بيد أن اشتعال الحرب من جديد في 1839 قد عطّل هذه الانطلاقة الجميلة[1].

لقد كانت الحرب ضروسا لا ترحم. فقد فيها الأمير جميع مدنها الواحدة تلو الأخرى. ولما وجد نفسه دون سقف وعرش، غنم حراكا أزعج الأعداء. كان يشاهد في كل مكان، يضرب ثم يختفي دون أن يتمكن العدو من الرد. هذا الوضع الجديد قد تطلب تمركزا لترساناته ومؤوناته وأملاكه في مدينة متحركة: السمالة.

كانت السمالة التي تضم آلاف السكان تنتقل تحت حماية الحراس، في 1843، ذات يوم كان الأمير بعيدا، فاجأها العدو وأسرها. كانت الضربة موجعة لقوة الأمير العسكرية. ترى كيف كانت ردة فعله؟ فحسب عبارته، كان رده ردّ رجل متعود على السيطرة على الحدث الذي يضربه: فالصعوبة تلهمه والمصيبة تحمسه. لقد كان موقفه ذا سمو مؤثر. "الحمد لله، كانت هذه الأملاك الغالية على قلبي تشغلني كثيرا وتعيق حركاتي وتبعدني عن

---

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص89.

سواء السبيل. وسأكون أكثر حرية في المستقبل لمحاربة أعدائي". ولكي يبرهن بأنه لا يستخف بالموتى أضاف قائلا: "مما سنشكو؟ ألم تظفر هذه المخلوقات التي نحبها بالجنة؟" وحتى لا يكون هذا الموقف عبارة عن نشوة عابرة برهن عن ذلك بان كتب في اليوم الموالي لخلفائه بلهجة هادئة ورصينة: "لقد استولى الفرنسيون على سمالتي ولكننا لم نفشل، فهذا سيجعلنا أكثر خفة وأكثر استعدادًا للحرب".

اعتراه الفشل مرة واحدة، وهو فشل إنساني جدا ومفيد كثيرا لأعصابه المتوترة منذ سنين عديدة. كان قد ألقى السلاح ونزع درعه. قضى ليلة بيضاء وهو يذرف دموعا على ماض مجيد قد ولى هكذا شاهد وعمره تسع وثلاثون سنة، حلمه ينكسر وحياته تنتهي. أنى لكائن شاب وديناميكي أن يقبل دون تمرد داخلي هذا المآل المؤسف؟ بيد أن هذا الموقف لم يعمر لدى عبد القادر سوى مدة ليلة واحدة. وفي صباح اليوم التالي، خلال حفل الاستسلام، عاد كما كان رزينا وأبيّا. عندما أنزل بميناء تولون Toulon، كتب شاهد يقول: "كانت عيناه ترسلان نظرة قاسية وسامية... وأجمع جميع الأفراد الذين شاهدوا الأمير فعليا على الاعتراف بان نظرته لطيفة وناعمة. قد تكون الأحداث الأخيرة قد أشعلت في عينيه نوعا من الصرامة التي تحجب يأس الروح.

لم يكن يعرف بعد بأن عهد الآلام لم يغلق بالنسبة إليه وكم كانت محنته مهينة. وهو يطأ أرض المنتصرين تحت الهمسات الساخرة[1] والصرخات المعادية لحشود ألّبتها دعاية مغرضة.

يمكننا أن نتصور الصدمة التي تلقاها هو وأصحابه عندما علموا بأن ما كانوا يعتبرونه – بناء على التزام رسمي – كمرحلة في سبيل الحرية، قد أصبح سجنا لهم. وكان لابد من توافر قوة معنوية نادرة للتحلي بالصبر والجلد في وضع ميؤوس منه أو دون مخرج. لقد كانت النوائب بالنسبة لعبد القادر خصما مألوفا.

---

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص ص.83-85.

ولكنه كان يضطلع بمسؤولية جسيمة، السهر على معنويات أصحابه، فهؤلاء كانوا ينتقلون من التمرد إلى اليأس والاعتقاد بأنهم سيقضون آخر أيامهم في السجن. ثمة امرأة كانت تقول وهي تحتضر "الحرية، الحرية"، وهذا يعني أن تأثير الأمير كان من شأنه الحيلولة دون حدوث ما لا تحمد عقباه. من ذلك مثلا أن أصحابه فكروا ذات يوم في أن يضعوا حدا لحياتهم: كانوا ينوون الارتماء على رماح الحراس.

تولون وبو وأمباز: هذه المدن الثلاث كانت مراحل لمحنة طويلة، واعتقال كان بالنسبة لعبد القادر ضغطا معنويا يوميا كي يحلّ فرنسا من وعدها.

وحتى دوما وبواسني وبوجو سعوا إلى إقناعه أكثر بأنه من مصلحته البقاء في فرنسا، حياة قصور، أملاك، صيد، خيول سباق، تربية راقية لأبنائه. ولكن عبثا، لأنه كان يفكر في الإقامة في بلد من المشرق.

بعد ذلك، انتقل الفرنسيون من الوعود إلى الوعيد خاصة بعد الرسالة التي وجهها الأمير عبد القادر إلى لاموريسيار وزير الحرب وخلال أربع سنوات. بأمبواز، كان عزل الأسرى تاما أو يكاد، وتم تقليص عدد المنافذ إلى الحديقة. ولكي لا يرفع عدد الموظفين الذين يزعج مرآهم الأسرى، طينت الأبواب وسورت. هناك مراسلة إدارية من رائد القصر مؤرخة في 24 جويلية 1849 تشهد على قسوة النظام الذي فرض على عبد القادر وأصحابه.

"لن يدخل أي من السادة (رويسو الترجمان، وبولاد الترجمان المساعد، زميلر الكاتب القيم على الأرشيف بعين المكان) في علاقات مباشرة مع الأمير إلا بعد أن يحصل كل واحد منهم على الترخيص المسبق من القائد، ويجب أن يدرك أن هذه العلاقات يجب أن تكون نادرة واستثنائية. والقائد المسؤول الوحيد أمام الحكومة ومستودع تعليماتها يجب أن يكون آخر من يتلقى جميع تقارير هؤلاء السادة مع العرب[1].

---

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص ص.85-86.

ويجب أن يكون على علم بكل ما يتناهى لديهم من علم من شأنه أن يهمّ حتى من حيث تفاصيله الصغيرة...

في الغالب العام، كل رسالة صادرة عن العرب أو مرسلة إليهم يجب أن يؤشر عليها القائد. فالدعوة موجهة لحرس هؤلاء السادة للإسهام بكل ما أوتوا من قوة لجعل المراقبة في هذا الشأن تامة ما أمكن.

يمكن للسيدة روسو وبولاد أن تدخلا على العرب ولكن بعد إشعار قائد القصر، وستعرضان عليه كل مرة ما قيل أو صنع في هذه الزيارات...".

والحال أن عزلة الأسرى كانت من القوة بحيث لم يستطع أي شخص غريب عن الإدارة الحربية أن يزورهم. وهكذا لم يوفق أحد المدافعين الصادقين على الأمير إيمل أو لفيي في زيارته. لقد قيّض للأمير، وإن نادرًا أن يرى بعض أصدقائه عند القائد الذي كان يدعوهم شخصيا.

وأيا كانت أحاسيس النقيب بواسوني الحميمة، فإنه لم يستطع أن ينسى المهمة التي كلفه وزيره بها – كما تذكر بذلك الوثيقة السرية المؤرخة في 19 أوت 1848: "لقد عيّن الوزير بعد ضابطين لمراقبة الاستعدادات المعنوية لعبد القادر والتأثير على نفسه بمحادثات مطردة، وهما النقيبان بواسوني وفورنيي. إن القيادة العسكرية مباينة تماما للمهمة السياسية التي يؤديها هذان الضابطان، يجب إسكانهما في القصر بالقرب من الأمير[1]...

وبالطبع كان الأمير يتعلق بمستغربين يعرفان ناس الإسلام وأموره ترى في أي اتجاه كان يمارس ضغطهما المعنوي؟ إننا نستشف ذلك من خلال قراءة رسالة وجهها عبد القادر للأسقف ديبيش: "هذا البلد بالنسبة إلينا بلد أجنبي: لا يمكننا أن نتعود على العيش في كنفه. وهذا المناخ مخالف جدا لعاداتنا ويبدو أنه يروم اجتثاثنا معها إلى آخر بقايا حياتنا

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص ص.84-87.

الماضية. ماذا سيكون مآلنا لو أن الله نفسه أحجم عن دعمنا بذراعه القوي؟ إننا لا نكفّ على استجدائه. كان علينا أن نجد فيما قيل لنا منذ بداية اعتمالنا العدل والصدق. ولكن يا للأسف إن الطموح لختم في أغلب الأحيان على قلوب الرجال وما يقضي إليه يجعلهم أحيانا جائرين ويحول دون الإيمان بصدق الآخرين... هناك أناس يخشون أن تؤذيهم بعد أن نصبح أحرارا. آه، ولكننا نحن نعرف، على العكس، مدى الإخلاص والتفاني الذي سنحافظ به على السلم...".

هناك شخص ما لا نعرف من هو أضاف في حاشية هذه الأسطر: "إن سمو المصيبة وحده هو الذي يشد أزر عبد القادر في قصر أمبواز، ولكنه يتحمل ألمه إلى حد يجعل هذا الألم مرعبا. من ذا الذي يمكنه أن يتوقع أو يقدر ما سيحدث لو خارت شجاعته؟".

هذه الاستشهادات يقول المؤرخ محمد الشريف سحلي تشهد على الإخفاق العام للمهمة التي أوكلت للنقيب بواسوني. لقد ظل عبد القادر، بمقاومته لقساوة الأسر والعمل النفساني. صامدا صلبا في إرادته الحصول على الحرية عن طريق تنفيذ الالتزام الرسمي الذي اتخذ تجاهه. ترى ما فحوى هذه المهمة؟ من الواضح أن قضية عبد القادر كانت مسألة ضمير بالنسبة إلى الحكام الفرنسيين فالجميع كان يكنّ له الإعجاب السري. البعض كان يعلن عن ذلك أمام الملأ. غير أن الاستسلام المشروط للأمير كان يبدو لهم كرهن معنوي على الفتوحات الفرنسية. ومن ثم كان لابد من الحصول من عبد القادر على نوع من الاستسلام التام، بكل الطرق. فبقبوله البقاء في فرنسا والعيش فيها مثل السادة العاطلين مثل بومعزة قد يقوم بحركة مزدوجة: تكريمه لفرنسا وتنكره لماضيه.

غير أن عبد القادر وهو يحيا بفرنسا يظل في نظر الجزائريين والعالم كافة رجل ملحمة مجيدة والرمز اللامع للروح الوطنية الجزائرية. أليس غريبا أن نعثر عند كاتب من تلك الفترة وهو الكونت دي سيفري العبارة القائلة: "التنكر للقومية العربية؟" في 16 أكتوبر 1852، أطلق لويس نابليون بونابرت سراح الأمير وأصحابه.

وهكذا، إثر اعتقال دام قرابة خمس سنوات وكفاح يومي حاز عبد القادر انتصارا أقوى وأحسن من أي نجاح عسكري. لقد أدرك لويس نابليون بونابرت بأن الكيفية الوحيدة للتغلب عليه معنويًا وربما الظفر بصداقته هي أن يطلق سراحه[1].

لطالما قدم فعل الأمير – الرئيس هذا كآية من آيات الكرم لا تشوبه شائبة سياسية ما. لقد قيل بأنه كان منشغلا بالوصول إلى سدة الحكم ووضع حدّ لمحنة الأمير. بيد أن معارضة وزرائه قد أخرت تنفيذ مشروعه. في الواقع، يتعين أن نسجل بأن لفتته هذه كان عليها أن تأتي مبكرًا بما أن الانقلاب السياسي في 2 ديسمبر 1851 جعل منه حاكما مطلق السيادة.

لم يكن هذا المتآمر القديم رجل الأعمال العفوية أو المجانية. لقد جاء قراره أسابيع قليلة قبل انتخابه. كيف لا نستحق فيه دلائل دعاية انتخابية مقصودة. كان يأمل أن ينشئ في مخيلة الشعب الفرنسي أسطورة الأمير الحليم. وكان يعوّل في أن يبدي له عبد القادر الاعتراف بالجميل ليدعم ترشحه. وكان يحبذ تغليف مشاريعه بسر مستغلق. كما كان يعمل باعتماد المفاجأة، وكان يؤمن بفضائل الاستعراض المسرحي والصدمة النفسية. إلى غاية اللحظة، لم يكن عبد القادر على دراية بأي شيء. وفي 16 أكتوبر 1852، صاحبه بواسوني إلى قاعة القصر الكبرى حيث كان ينتظره الأمير – الرئيس وهو محاط بوزرائه. ودون أن يترك له الوقت الكافي ليستوعب المفاجأة، توجه لويس نابليون إلى الأمير بهذه الكلمات البارعة جدا: "جئت لأعلن إطلاق سراحك. ستوجه إلى بروسا في مقاطعة السلطان بمجرد أن تنجز التحضيرات الضرورية وستلقى من الحاكم الفرنسي العناية الجديرة بمنزلتك. أنت تعلم أن اعتقالك قد سبّب لي ألما حقيقيا لأنه كان يذكرني دوما بأن الحكومة التي سبقتني لم تلتزم بتعهداتها حيال عدو مسكين ولا شيء أكثر إهانة لحكومة أمة عظيمة من تجاهل

---

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص88.

قوته إلى حد الإخلال بعهدها إن الكرم هو دائما أفضل ناصح ومرشد وأنا مقتنع بأن مقامك بتركيا لن يعكر صفو هدوء ممتلكاتنا بإفريقيا.

إن دينك كما ديننا يلقننا الخضوع لقضاء الله. والحال إن كانت فرنسا سيدة في الجزائر فذلك لأن الرب قد قضى بذلك ولن تتخلى الأمة عن هذا الفتح[1].

"لقد كنت عدو فرنسا ومع ذلك فأنا أشيد بشجاعتك وطبعك وصبرك على النوائب. لهذا، أصّر على وضع حد لأسرك وأنا واثق في عهدك".

إذا استنتجنا الفقرة ما قبل الأخيرة التي كانت لهجتها وحجتها تافهتين في مثل هذه الأحوال، فإن الخطاب كان من شأنه أن يغوي الأمير النبيل. فالاعتراف بأخطاء سالفيه والتصريح بالثقة في عهد الأمير، هو الطريق الآمن لغزو قلب شرس وصلب.

لم يستوعب عبد القادر من خطاب لويس نابليون سوى كلمة واحدة يعرفها لأنه سمعها غير مرة أثناء أسره: "Liberté" هناك من ينسب للأمير القول التالي: "الآخرون استطاعوا إسقاطي والبعض الآخر تكبيلي، ولكن لويس نابليون هو الوحيد الذي هزمني".

ما بين إطلاق سراحه وذهابه إلى المشرق، قام برحلة بين أمبواز وباريس طيلة بعض الأسابيع. حقا، لم يسبق لقائد مهزوم أن حظي بمثل هذا التشريف والتكريم. لقد عامله لويس نابليون معاملة صديق حقيقي مستقبلا إياه أكثر من مرة في قصر سان كلود ومهديا إياه هدايا رائعة. وقد اجتهد الفرنسيون في تعريفه بأهم تجليات العبقرية الثقافية والقوة التقنية والعسكرية لفرنسا. وتتالت الزيارات والعروض الفنية والاستعراضات العسكرية قصد إبهار الأمير.

وإزاء هذا الجهد البيّن لإبهاره، لم يجد الأمير الخشية والتصلب، ولاشك أنه تأثر بالعناية التي لقيها من الفرنسيين. صحيح أن صورة الإهانات التي تلقاها في الأسر لم تمح في

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص ص.89-90.

نفسه. ولكنه بتغلبه على هذه الذكريات السيئة والضغينة، انشرح صدره للموقف الجديد الصادر عن أعدائه القدامى وقد أبدى في صلاته بالجميع راحة وأنسا ولطافة أثرت أيما تأثير على زواره.

وقد صدرت عن الأمير في كثير من الأحيان عبارات جميلة سارع مستمعوه إلى إشاعتها والتي اجتهدت دعاية مغرضة في تحريفها أو تضخيمها.لا يمكننا الإفصاح عما هو حقيقي في الكلمات التي نسبت له: فسجّانه القديم بواسوني كان دائما بجواره يقوم بالترجمة الرسمية لكلامه وحركاته[1].

لقد عبّرت جريدة إنجليزية: Morning Herald عن دهشتها للسهولة التي كان عبد القادر يحيا بها في وسط هذا المجتمع الباريسي البعيد جدًا عن عادته وطموحاته.

"إن كل ما نقرأه حول سلوك عبد القادر بباريس ينطوي على جاذبية حقيقية تستثير الإعجاب. إن في سيرة هذا الرجل أناقة وعزة نفس وورع تبعث على الإعجاب واللطافة التي ظل المظلوم يستثيرها إلى غاية اليوم. هل هذا مرده إلى الشعور العميق بالسعادة الذي يحس به بعد خروجه من الأسر الذي طال أمده وأنه تجرد من هذا التحفظ الثابت ورصانة العربي الأبية على مرأى عجائب الحضارة المسيحية أم أن طريقتنا في النظر إلى الأشياء هي التي ضللتنا؟

"ومهما كان الأمر، فإن الأمير قد أظهر مزيدا من الدهشة واستعدادًا للتفتح على الانطباعات اللطيفة التي تشكل تباينا لافتا مع موقف قادة بني وطنه...".

لقد أثار وجود عبد القادر بباريس فضولا هو من القوة بحيث كتبت جريدة إنجليزية أخرى: "لقد سكتت السياسة أمام الاهتمام الجم الذي أحدثه وجود عبد القادر بباريس. إننا نعلم أنه سيذهب هذا المساء إلى الأوبيرا وأن التذاكر ستباع بأسعار خيالية".

---

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص91.

صحيح أن الاستقبال كان ينطوي على حرارة عفوية. غير أن الكيفية التي أديرت بها هذه التظاهرات، كشفت دواعي الحكام السياسية. في هذا الباب، يوجد بجريدة Le Moniteur بتاريخ 12 ديسمبر 1852 فقرة حالة:

"لقد سبق للأمير قبل اليوم أن أبدى تأثره بالعناية التي حطني بها وبالأشخاص الذي اختيروا بعناية من قبل الحكومة".

ولم تكن الغاية من هذه العناية محو صورة الاعتقال الجائر الذي فرض عليه فقط. ذلك أن الرجال الذين "اختيروا بعناية من قبل الحكومة" كانت مهمتهم تقوم على التأثير على معنويات عبد القادر. وفيما يبدو، كان عليهم أن يبينوا للأمير بأنه على خطأ وأن المستقبل بالنسبة إليه يكمن في نسيان الماضي والارتباط بفرنسا[1].

ورغم مناخ مؤات أكثر من مناخ قصر أمبواز، فإنه من الصعب الإيمان بنجاح محاولاتهم. فالأمير الذكي جدا والأصيل جدا، كثيرا ما صدمته نزعتهم إلى الظهور بمظهر المربين وثقلهم وقلة كياستهم. فبمجرد أن تصفق عليه الحشود بالأوبيرا أو في الحلبات، يسدون عليه درسا: هذا هو الشعب الذي أخطأت في تصوره..." ولم يكفوا عن التشديد على الكرم الثانوي في القرار الذي اتخذ لصالحه وحمله على إظهار الامتنان بالتزام رسمي يقضي بعدم العودة إلى الجزائر وعدم محاربة فرنسا. هذا الإلحاح كان يصدم الأمير بشكل مزدوج. لم هذه الحشية العنيدة إزاءه؟ فلقد سبق له أن التزم منذ 1848 بتولون بألفاظ حاسمة: "أعرب لكم عن التزامي المقدس الذي لا يقبل الشك". أثناء إطلاق سراحه لم ير داعيا لتكرير هذا العهد خاصة وأنه كان يكره أن يظهر بمظهر من "يشتري حريته مقابل ورقة". ولكن هكذا كان صبره مع الرجال الذين أكد لهم عهده في 30 أكتوبر 1852، كان يروم الشعور بالالتزام دون ضغط وبعفوية.

---

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص ص.91-92.

أحيانا كان اندفاع الرسميين يحاكي قلة الأدب. وقد تركت زيارة Les inrealides انطباعا مؤلما على الأمير. ولكنه وفق في الخروج سالما من وضع صعب. ذلك أن هؤلاء الفرنسيين لم يفكروا حتى في سحب راياته الموضوعة في صلب غنائم الحرب. وعندما رآها الأمير أدار وجهه بعنف وهو نهب تأثرجم. ودفعت بهم البراءة إلى حد جعله يزور المشفى حيث كان يعالج الجنود المصابون في الجزائر ولما وعى عبد القادر هذا الوضع العكر تخلص منه بأعجوبة وتناول الكلمة بعبارات بليغة ومنتقاة "إنه ليحزنني كثيرا أن أرى أن بعض الجنود البواسل الموجودين هاهنا قد أصيبوا بأسلحتي، ولكنني كنت أدافع عن بلدي وأن الفرنسيين الشجعان والطيبين لن يكنوا لي الضغينة إن هم تذكروا بأني كنت عدوا شريفا وجديرا بهم".

رغم كرهه الشديد للحياة المدنية، فإنه كان يرتاد وسط الاحتفالات بكل راحة. وكان يصر على أن يعجب الجميع خاصة أولئك الذين أبدوا له الصداقة[1].

كان يقول "الصالحات تاج على رأس الناس الطيبين". غير أن الاستغلال السياسي لأنبل المشاعر الشخصية كانت تؤلمه كثيرا. بعد ان أصبح شخصا عاديا، كان يعتبر نفسه كذلك وكان يرغب في أن ينظر إليه الناس بوصفه كذلك. ولئن ظل أميرا في أعين الناس فإن لفظ أمير لم يعد لديه لقبا تشريفيا بل مهمة أوكلها له الشعب وانتهت باستسلامه...

لئن كان قد عدل عن سياسة غالية على نفسه فإنه لم يفعل ذلك من باب الاستسلام لإغواءات وضغوط سياسة غريبة على تصوره للحياة ومنافية لماضيه كله. عندما كان لويس نابليون يخاطب الأمير، لا ينسى أن يحدثه عن فرنسا، كان الأمير يرد عليه بالتشديد على صداقتهما الشخصية. عندما سلمه الأمير سيفاشرفيا قائلاً له: "آمل ألا تشهره أبدا في وجه فرنسا" أجابه الأمير من موقع آخر قائلا: "أنت تعرف جيدا أنني لم أعد من أولئك الذين يستلون السيف". وإلى أولئك الذين كانوا يدعونه إلى القيام بشيء ما لصالح فرنسا. كان

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص ص.92-93.

يكرر رغبته في أن يفيد الجميع مرتقبا هكذا إلى مراتب الإنسانية التي تشرف الإنسان دون أن يقع في لعبة الأهواء الخاصة.

لقد ظل الأمير، بفضل نبله الروحي العالي وطهارته الأخلاقية عصيا على فهم الساسة الفرنسيين لتلكم الفترة مفلتا من تصنيفاتهم العادية. كانوا يريدون أن يعثروا فيه على صورة القائد الإقطاعي المعهودة الذي ينتقل من الكراهية الشرسة إلى الولاء الثابت.

لقد سعوا بعناد إلى إحداث التغير السياسي لديه واستمداد الصداقة من كياسته العالمية والميل إلى فرنسا. وقد توّج هذا المسخ الجنرال أزان حين جعل الأمير في كتاباته مواطنا فرنسا ولئن كانت إرادة الفرنسيين هذه لإلحاق الأمير بفرنسا شريفة ونبيلة فإنها لا تجد أدنى سند في طبع عبد القادر وسلوكه.

أبدا، حتى في أوج كفاحه، لم يستشعر أدنى ضغينة ضد فرنسا. وحسب ما ذهب إليه دوما فإنه كان يعذر أعداءه ولا يتألم "حين يسمع كلاما جارحا عنه"[1].

ولكن فرنسا كانت بالنسبة إليه بلدا أجنبيا، كل ما فيه يبعده عنه: التاريخ، نمط العيش، الفلسفة، وكذا الطبع. علاقاته بفرنسا كانت تقتصر إذن على علاقاته الشخصية مع بعض الفرنسيين وكذلك على إعجاب المثقف الذي كانه بأكبر عبقريات أوربا الثقافية، ليس إلا.

لقد راح البعض ممن تعنتوا في الخطأ النفسي الفادح إلى حد اقتراح ردافة ملكية Vice-royauté جزائرية. ومعلوم أنه لم يفعل أي شيء للانخراط في هذه اللعبة وأن مشروع المملكة العربية لم يكتب له النجاح.

لتفسير هذا الرفض يذهب الجنرال أزان إلى أن الأمير قد تطور كثيرا ويرى بأنه لا يقوى على إدارة سكان متعصبين. والحال أن الحقيقة أبسط وأقل طرافة من هذا: كان عبد القادر يرى بأنه بإلقائه السلاح قد أنهى دوره. لا شيء في العالم يحمله على العدول عن

---

(1) محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص94.

التزامه بعدم العودة إلى الجزائر. لقد كتب لأحد مراسليه الترجمان قاتو يقول: "انتهيت، قمت بكل ما استطعت. لقد وعدت وسأفي دائما بوعدي... ولن يحملني الإمبراطور على أداء هذا الدور الذي تعرف عواقبه". دعاه أحد أصدقائه، السويسري إينارد، إلى توضيح موقفه بأن طرح عليه السؤال التالي: "إن كانت المقاومة غير مجدية في نظرك ألا تشعر بأنه من واجبك أن تسدي النصيحة للجزائريين ودفعهم إلى قبول الهيمنة الفرنسية دون معارضة وكفاح والبقاء وفيا لها؟" أجاب الأمير بهذه الألفاظ الواضحة والرزينة: "إن ما كان ينبغي القيام به قد قمت به، فسلوكي قد نطق بوضوح كما فمي. وعندما رأى العرب بأني استسلمت للفرنسيين بعد مقاومة دامت خمس عشرة سنة أو أكثر. قالوا فعلت ذلك من باب الطاعة للرب وقبولا بقضائه وقلت لهم شخصيا أقبلوا بقضاء الله اليوم إذا كنت تظن بان هناك شيئا آخر يمكنني القيام به فإني سأفعله لأنك ستطلب مني القيام بما هو لائق ومنسجم مع الماضي".

ومن الواضح أن الأمير، برفضه العدول عن تحفظه، كان حريصًا على عدم الإقدام على شيء قد يسيء إلى ذكرى هذه الملحمة الجميلة التي قال وفعل فيها ما كان يجب أن يقوله ويفعله في هذا المجال. وهكذا كتب على عبد القادر أن يواجه المحنة ذات الأوجه المتنوعة: فهي تارة باسمة أو شرسة، وتارة أخرى عدوانية أو غادرة"[1].

وقد قاوم سيول الطيبة التي لم يكن يجهل خباياها بنجاح ولكن دون تصلب. فإرادته القوية الغنية بالتنوعات كانت مرافقة للطف والصبر. وبينما كان في مقدوره وهو صاحب السلطة العليا أن يرسل بإشارة منه، شخصا إلى الموت، كان يتحاشى كل شكل من أشكال العنف في أفعاله وأقواله، لم يكن يحبذ البت في الصعوبات على طريقة الإسكندر الأكبر. فالعنف الصادر عن الضعف الداخلي لا يقوى في نظره إلا على مضاعفة الفوضى نحو الخارج. وفي هذا الباب، نورد الطريقة النموذجية التي استطاع أن يقوم بها سلوك أحد

---

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص ص.94-96.

ضباطه ذات يوم، لاحظ في حصن تاقدمت، أسيرا لا يرتدي سوى قميص ممزق، فلاحظ ذلك على الضابط القيّم على حاجات الأسرى، ووعد بأن يكسو المسكين من رأسه إلى أخمص رجله. ولكن لما عاد الأمير إلى الحصن بعد يومين، وجد الأسير على نفس الحال. ما العمل يا ترى؟ هل يجب معاقبة تهاون الضابط عقابا مثاليًا؟ كان ذلك وسيلة للبت في الصعوبة، ولكن في هذه الحال لن يفهم الضابط ولن يحتفظ من القصة هذه سوى الحقد على قائده. وهكذا عالج الأمير المسألة بكيفية أحذق وأذكى. همس بكلمات في أذن أحد جنود المعسكر نحو الأسير ونزع قميصه وتركه عاريا تماما. والتفت حينئذ نحو الضابط الجاني وقال له: "آمل الآن أن تكسوه حينا". كان الأمير حاذقا في جعل الآخرين يفهمونه ويطيعونه.

هذه القصة تشهد أيضا على الصبر الرائع، هذا الصبر الذي كان ترجمان لذكاء عال وإرادة لا تلين. كان ضباطه يحملون على الكتفية شعارا دالا "الصبر في القيادة مفتاح مرضاة الله". وكان في تعليماته لخلفائه يكرر "اصبروا على النوائب فهي التي تعرف بالرجال الأقوياء، اسهروا على رعيتكم وساعدوهم وأنقذوهم وكونوا دائما قريبين منهم".

لم يكن ذكاؤه مقصورًا على السيطرة على الأحداث فحسب. ففي معالجته للحوادث، كان يجردها من مظاهرها الفرجوية ويضعها[1] في التسلسل العام للأحداث. وعبثا كان الناس يبحثون عن إبهاره وإغوائه بعرض الثروات او بإظهار القوة. كان يسمو على نحو طبيعي إلى العلا حيث يمكن مشاهدة هشاشة الإمبراطوريات والطابع العوضي للحياة البشرية.

ماذا بقي يا ترى من جهود لويس نابليون من أجل خداعه؟ بعد أن زار عبد القادر المدن الداخلية لصقليا كتب إلى نقيب الأسلحة لهذا البلد: "لقد وجدنا في كل مكان من

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص ص.96-97.

بلادكم آثار الشعوب المختلفة التي أقامت في جزيرتكم وها نحن مقتنعون مرة أخرى بان الله هو سيد الكون ويرزق من يشاء...".

وأمام خراب تاورمين، همس عدة مرات وهو شارد الذهن: " يولد الطفل ليموت وينتصب المنزل كي يتهدم".

4- الأمير المتسامح:

يحمل كتاب الجنرال أزان حول عبد القادر عنوانا فرعيا هو "من التعصب الإسلامي إلى الوطنية الفرنسية".

سبق لنا أن قلنا ما يجب الخلوص إليه فيما يتعلق بوطنية الأمير الفرنسية. لنفترض جدلا بأنه على خلاف عقيدة الإسلام وتاريخه، بأن لعبارة "التعصب الإسلامي" دلالة، فهل يمكن أن نجد لدى عبد القادر أدنى أثر للاتسامح الديني؟

لاشك في أن عبد القادر كان مؤمنا فذا وأن الدين كان بالنسبة إليه مصدرا للإلهام الدائم. ولكن أليس الأمر كذلك بالنسبة إلى جميع المؤمنين الحقيقيين المسيحيين منهم والمسلمين؟ إن الحرب التي كان يقودها، حسب أقواله، كانت جهادًا مقدسا ووطنيا، وهل هذا كاف للحديث عن التعصب؟

لقد كان وزراء شارل العاشر الذين أعلنوا الحرب على إيالة الجزائر، يصرحون بإرادتهم في خوض حرب صليبية جديدة وضمان انتصار المسيحية على الإسلام.

لم يفكر أحد في رميهم بالتعصب ذلك أننا لم نر في هذه التصريحات[1] سوى أمور شكلية. ومن ثم ندرك دون عناء لم جنّد الأمير الموارد المعنوية لإيمانه لدعم القضية الوطنية المعرضة للخطر. فعندما يكون بلد ما في خطر، يتشبث بكل شبر من ترابه وكل قطعة من تراثه الروحي. ومن ثم فإن ما أقدم عليه الأمير هو من قبيل غريزة البقاء وليس من باب

---

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص ص.97-100.

التعصب المذهبي. يمكننا أن نذكر في التاريخ الحديث لأوربا أمثلة مشابهة من شأنها أن تجعل مواصلة هذا الجدال غير مجدية.

صحيح أن الأمير – حسب أطروحة العقيد أزار – يكون قد تطور شيئا فشيئا صوب التسامح نتيجة احتكاكه بالفرنسيين. ولكن التفكير على هذا النحو يعني تجاهل جوهر الإيمان الإسلامي ونفسه الجم من التسامح واللطف الإنساني، وثم، ما هي الأحداث التي تبيح تصريح الجنرال أزار المخاطر؟

إن شهادة التاريخ دلالة مغايرة تمامًا، فخلال خمس عشرة سنة من الكفاح، واجه عبد القادر الشجاع التعصب الخالي من العقيدة لرجال الملك المصرفي بإيمان خال من التعصب. كما سعى جاهدًا إلى ألسنة الحرب Humaniser la guerre وتخفيف آلام الأسرى ولكنه اصطدم دائما تقريبا بعداوة شرسة.

صحيح أنه كان ينظر بعين الرضا إلى دخول المسيحيين إلى الإسلام وكان يرى أنه من الفائدة بمكان وأدعى للفخر جعل المسيحيين يسلمون يحل محاربتهم في ساحة الوغى.

ولكن نظرا لامتثاله لتعاليم القرآن، لم يكن يقبل في هذا المجال إلا بالدخول الطوعي العفوي. كان يمجّ العنف والضغط أو الطلب البسيط.

ذات يوم كان أسير من الأسرى يعرب أمامه عن إرادته البقاء على دين آبائه، شاطره الأمير الرأي بحفاوة مضيفًا:" إني لأمجد الشجاعة في العقيدة أكثر من الشجاعة في الحرب"[1].

في مناسبة أخرى، مثل أمامه جنديان أعربا عن نيتهما في الدخول إلى الإسلام. فسرّ الأمير للأمر ولكنه أصر على معرفة دواعيهما مبينا لهما ما سيترتب عن قرارهما هذا، فقد كان حريصا على أن يكون الانضمام حرا ورصينا: "إن كان قراركما عن حسن نية فبها

---

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص ص.99-101.

ونعمت. وإن كان سببه الخوف المبالغ فيه فإن الأمر غير ذلك، ولا تفعلاه، ولا تخشيا على أنفسكما فلن يمسكما أحد بسوء فأنتما مسيحيان وستظلان كذلك، بل فكرا فيما قد يصيبكما إن عدتما إلى الفرنسيين أو وقعتما في أيديهم بعد أن تنكرتما لدينكما، ألا تحاسبان كافرين مجرمين؟..."

لم يكن الأمير يكتفي باحترام القناعات الدينية للأسرى، كان يأمل في أن يسهل لهم ممارسة طقوسهم وتأمين حضور مرشد كاثوليكي يبعث السكينة في قلوبهم.

في 1841، خلال تبادل للأسر أوقفته السلطات الفرنسية، طلب من الأسقف ديبيش أن يرسل إليه أحد القساوسة: "لن ينقصه أي شيء، وسأحرص على أن يبجل ويحترم من قبل الجميع في كنفنا كما يليق بمقام رجل في خدمة الله وتمثيلكم. سيؤدي الصلوات يوميا مع الأسرى وسيواسيهم، كما يمكنه أن يراسل ذويهم وبهذه الوسيلة يمكنهم من الحصول على المال والثياب والكتب وبكلمة واحدة كل ما يرغبون فيه والذي من شأنه أن يخفف من وطأة أسرهم. غير أنه بمجرد وصوله ولآخر مرة سيتعهد بأن لا يكشف في رسائله معسكراتنا وعملياتنا الحربية".

هل نحن بحاجة إلى القول بأن الحكام الفرنسيين، قد رفضوا مرة أخرى هذا العرض السخي؟ وبعد ذلك بكثير، قدم الأمير للذين ظلوا يشكون في روح التسامح لديه تكذيبا قاطعا لامعًا. فبعد إطلاق سراحه خلال زيارته الأولى لباريس، أصر غداة ذلك أن ينتقل إلى كنيسة لامادلين. وها هو شاهد عيان يروي المشهد[1]: "كان الحشد الهائل الذي أحاط بأطراف الكنيسة ويملأها قد أحس بشعور أخاذ لما رأى هذا القائد الفذ للمسلمين يعبر باحترام عتبة المعبد الكاثوليكي مادا ذراعه للقس. ثم تحول هذا الإحساس إلى تأثر لما رأى الناس الأمير وقد وصل إلى المذبح يقف فجأة وقفة ورعة ويدعو بضعة لحظات بخشوع يتعذر وصفه".

---

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص ص.101-102.

في خضم هذه الدهشة الممزوجة بالإعجاب احتار الحشد وتعذر عليه الإدلاء برأي ما. هل كان يرى في هذه اللفتة علامة من علامات الكياسة أم علامة من علامات الدخول في المسيحية؟ لم يكن مهيأ للإحاطة بما هو إسلامي صرف في هذا الموقف: الاعتراف برب واحد مشترك بين الديانات اليهودية والمسيحية والإسلامية. بل أكثر من ذلك، يبدو أن عبد القادر، على غرار بعض مفكري الإسلام الكبار، الذين سعوا إلى توسيع السنة، قد ارتقى إلى مفهوم التسامح الكوني، أليس هكذا ينبغي تأويل فقرة من رسالة وجهها للسويسري إينارد: "سأقول لكم شيئا وإن كان تافها، بأني ذو حماس جم وتسامح ذي درجة عالية للغاية الأمر الذي يجعلني أكن الاحترام لجميع الناس أيا كانت معتقداتهم وأيا كان دينهم".

5- الأمير الحليم:

"سأحكم وفق القانون" هكذا قال الأمير الشاب وهو يتسلم السلطة ترى هل كانت هذه العبارات تؤذن بميلاد حكومة متسلطة لا ترحم؟ إن إطلاق مثل هذا الحكم ينمّ على جهل بروح القانون وأخلاق الأمير.

قد لا يوجد دين مثل الإسلام سعى جاهدًا إلى فهم طبيعة البشر وتقدير إمكانياتها وحدودها. غير أن خرافة خاطئة قد رأت النور جراء سلوك بعض الطغاة المسلمين[1]. فقد كان هؤلاء الذين يصدرون زورًا عن الشريعة الإسلامية، يمارسون عدالة مختزلة قائمة على المسؤولية الموضوعية ضاربين صفحا عن درجة التهمة والنوايا الحسنة أو السيئة. في بلدان أخرى، تدرّع الناس بفكرة الصالح العام إن هذه الأخلاق السياسية المشتركة بين الأنظمة المتسلطة يمكن تلخيصها في عبارة غوتة المشهورة: "اللاعدل أفضل من الفوضى" لقد سبق أن رأينا إلى أي مدى كانت عدالة عبد القادر بعيدة عن هذه العدالة القمعية التي تحاكي العدالة الحقيقية. لم يكن مثلها العقل بل مساعدة المجرم على استعادة مكانته الطبيعية في صلب الجماعة البشرية بفضل التوبة. لم يكن يجهل بأن بعض المخلوقات تقترف الشر

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص ص.102-103.

عمدا وتظل عصية على التوبة. كان يخصص قسوته الجمة لكبار المجرمين العصاة ولكنه كان طيبا ومتسامحا جدا مع الجناة الصغار الضالين ضحايا جهلهم أو قسوة معيشتهم.

هل كان في مقدوره بعد قضية معسكر الخطيرة أن يمتنع عن الضرب دون أن يسهم في بروز خيانات جديدة؟ لكن، بدل البحث عن جميع المجرمين ومعاقبتهم والإقدام على قمع يخلف دائما الأذى والضغينة فضل الإطاحة برأس الخيانة. إنه عقاب فريد ينوّر الجميع ويدعو المجرمين الآخرين السالمين إلى توبة نصوح. كان الأمير يفصح عن ذلك بوضوح ملتزما بعدم العودة إلى معسكر اللهم إلا بغرض أداء الصلاة في المسجد، قبل الثأر للهزيمة النكراء التي مني بها بعد حصار عين المدحي، قام بتمشيط تحصينات المدينة ولكنه لم يمسّ الأشخاص.

لم يخن قادة الطريقة رغم أنهم رفضوا الانضمام إلى الأسير، أو على الأقل ليس بعد. غير أنه كان قاسيا جدًا مع الزواتنة والكلوغليين المقيمين في القبائل والمنضمين إلى الفرنسيين. وما زاد حالة هذه القبيلة خطرًا هو إصرارها، رغم الدعوات الكثيرة للتعقل، على الخيانة بمقاومة الأمير بالسلاح. بيد أن السيف لم يهو إلا على المحرضين، نجوا من القبض بفضل تدخل "مفاجئ" لبعض الأطفال. كان المشهد مؤثرا حيث لانت قسوة القائد أمام براءة هذه المخلوقات الصغيرة. إن رفقه بالبسطاء من الناس مباين لقسوته حيال الكبار، كان يقول لأولئك الذين يخبرونه بقرار ثلاثة جنود: "أتركوهم يذهبون، سيندمون من تلقاء نفوسهم ذات يوم"[1]. كان حينئذ في مرتفع يشرف على سهل المتيجة ويتفحص بنظاراته أطراف العاصمة قبل الإعداد لمخطط هجومي. كانت طيبته تساوق التبصر النفسي العميق. فما كان يهمه ليس الحدث في حد ذاته، بل أثره على معنويات الجيش. فالقبض على الفارين ومعاقبتهم حلّ كسول قد يهب أهمية مبالغا فيها لأمر عادي. غير أن طيبة الأمير لا تقوى

---

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص ص.103-104.

إلا على إذكاء إيمان المجاهدين الذين يستمدون من الحدث أسبابا جديدة تعزز حبهم وإعجابهم بقائدهم.

حين هزم مجاهدو التيتري تاركين السهل دون دفاع، والتجؤوا إلى الجبال القبائلية، أبدى الأمير اهتماما أكبر لآلامهم منه بهزيمتهم إننا لا نعثر في التعليمات التي وجهها لبن سالم، خليفة القبائل على أدنى عتاب أو أثر للمرارة.

"أحمد الله الذي جعل في كل مقاطعة مشعلا لامعا يلتف حوله المؤمنون. لقد استقبلتم جيوشا فرت من خليفة التيتري. لا تبدوا لهم أي تذمر، فالأوقات صعبة، بل عاملهم بإحسان. لا تتركوهم عرضة للجوع والعراء وعوضوهم عن كل ما عانوا منه هم وأسرهم".

كان حبه العارم للبشرية مركزا على التعساء والمحرومين والضعفاء. وكانت رأفته ذائعة الصيت، رأفة حيث لا يتدخل الذكاء إلا ليواصل انطلاقة القلب. في سنوات المنفى القاسية، كان يرصد أربعة آلاف فرنك شهريا للصدقات وهو مبلغ هائل في تلكم الفترة. ولا يدخل في هذا المبلغ الهبات التي كان يقدمها في مختلف اللقاءات والأحداث العابرة. لم يكن يحسب قط وكانت ميزانيته في كثير من الأحيان مختلة جدا بحيث اضطرت أمه وزوجته إلى بيع حليهما في 1855 لمواجهة مصاريف الحج إلى مكة. وكان يجدد العطاء بسمو بسيط كالصنيع المشهور لقديس مسيحي. ذات يوم، وهو على ظهر جواده بالونشريس، التقى برجل مسكين يرتعد من شدة البرد. ودون أن يتوقف، فك واحدا من برنسيه ورمى به للمسكين. كانت عنايته ذات النفس الإنساني الواسع لا تعرف الحدود والتخوم. وكانت تطول حتى أعداءه. ولم يكن أسرى الحرب في نظره خصوها عزلا يرتبط مصيرهم بالمعاهدات الدولية أو بالقوانين التي تنص على المعاملة بالمثل. فهم ضيوف تعساء لهم الحق في الشفقة[1].

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص106.

لقد كانت بدايات الحرب الفرنسية الجزائرية فرصة لاستعادة ممارسات بربرية قديمة. من ذلك مثلا تحاشي أسر الجنود وكانت الرؤوس المقطوعة ينظر إليها كغنائم حرب. من يا ترى بدأ هذه اللعبة غير الإنسانية؟ لا أستطيع الإجابة، ولكن لا أحد ينكر وجود قانون للجيش الفرنسي، ألغي في عهد نابليون الثالث، ينص على منحة قدرها عشرة فرنكات لكل من يأتي بأذنين. وبالطبع كان الغش فغي مثل هذه الأحوال ضاربا أطنابه، فهذا الضابط كان يرمي برأس مفصولة عن جثة عند رجل الدق دورليون. غير أن فظائع هذه اللعبة الدموية كانت موضوع كتاب ذي عنوان دال حسبنا أن نذكر حسب الجنرال أزان، بإقطاعي صحراوي انضم للفرنسيين وهو بن قانة، تسلم في 1840 مبلغ 50000 فرنك وجوقة الشرف مقابل إرسال 5000 زوج آذان لعرب للجنرال دي قالبوا.

هذا ويسجل التاريخ، لصالح الأمير بأنه منذ وصوله إلى السلطة، ترفع عن هذا التقليد الوحشي. لكن ماذا الذي كان في مقدوره أن يتصور إلغاءه دون إتفاق الخصوم؟ كان لابد من توافر روح الأمير السامية شجاعته ونفوذه لتصور وفرض تدبير أحادي الاتجاه على ذويه. أثار هذا القرار الثوري في الجزائر كلها استياء عاما. فقد صدم الحكم المسبق السائد وقد بدا بأنه يضع الجزائر في وضع دوني إزاء أعدائهم. فاضطر عبد القادر إلى دعوة خلفائه والمسيرين الأساسيين إلى مجلس، شرح لهم من خلال خطبة حماسية دلالة قراره وأبعاده. ثم نشر في الجزائر كلها المرسوم التالي: "كل عربي يأتيني بجندي فرنسي سيتلقى مكافأة قدرها ثماني دورو... وعلى كل عربي أسر فرنسيا أن يعامله معاملة حسنة واقتياده حينا أمام الخليفة أو أمام الأمير نفسه. في حالة ما اشتكى الأمير من سوء المعاملة فلن يظفر العربي بأي مكافأة".

قال الأمير لأحد جنوده سأله عن دلالة هذا المرسوم:

- ما هي المكافأة مقابل أسير حيّ؟
- ثمانية دورو.

- ورأس مقطوع؟ قال الجندي

- خمس وعشرون ضربة على أخمص القدم أجاب الأمير [1].

لم يكن الأمير يبلغ حين كتب للملك لويس فيليب:

"...لم نقم أي تمييز بين الأسرى وفرقنا فيما يتعلق بالأكل والمبيت. بل أكثر من هذا كان لهم امتياز يتمثل في حصولهم على اللحم والقهوة وأشياء أخرى...".

كان في مقدوره أن يضيف بأنه كان يوزع عليهم شيئا من المال على غفلة من جنوده الخاضعين لنظام قاس جدا.

لقد وفق الأمير في إيصال كرمه لمحيطه ومعاونيه. ولا شيء أبلغ في هذا الباب من شهادة أسرى أنفسهم.

كان الأسرى يصلون إلى معسكرات الأمير وعقولهم ملأى بالخرافات حول وحشية الجزائريين. فكم كانت مفاجأتهم كبيرة حين استقبلوا بلطافة وكثير من العناية. وقد صعب على البعض تصديق ما رأوا، كانوا يتساءلون ما إذا لم يكونوا يحلمون، يقول النقيب موريزر الذي جرح في المعركة ما يلي:

"بعد ساعات، استيقظت في معسكر سيدي مبارك بن علال، صعب علي استيعاب ما حصل لي، كنت لا أزال أحتفظ بكتفيتيّ ووسام الشرف، فلم يؤخذ مني أي شيء. كنت بداخل خيمة مستلق على ما يشبه فراشا بين برنسين موضوعين في شكل أغطية سرير وبجانبي زربية ونعارة مملوءة بالماء وليمون وسكر.

طلبت الخليفة فحضر لتوه وسارع إلى مواساتي ما وسعه ذلك. قال لي بطيبة لا تخف لن يصيبك أي أذى. حصانك لم يمت وسنعتني به وسيرد لك. وبمجرد أن تقوى على ركوب

---

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص ص.106-107.

بغلة ستختار أحسنها وأقلها إرهاقا وشيئا فشيئا سنقودك نحو الداخل وفق أوامر السلطان، وسيكون حالك هناك أفضل من هذا المكان".

"هكذا توجهت رويدا رويدا، نحو مكان إقامتي حيث استقبلت استقبالا لا يقل غرابة من قبل عدو كريم وغير معروف". كان بوحد ميدي، وهو أحد أفضل ملازمي الأمير، محبوبا من قبل أسراه الذين كان يعاملهم بطيبة نادرة. ألم يذهب به الأمر إلى حد الصفح عن الأسرى الذي حاولوا الفرار؟[1]

وكأن ضرورة العقاب لديه تتلاشى أمام رأفته بأناس أدرك وبرر رغبتهم في استرجاع حريتهم. وهذا يفسر الامتنان والاعتراف بالجميل الذي كان يبديه له أسراهم القدامى. البعض منهم ذهب إلى حد اقتراح إهدائه زوجا من المسدس لولا دناءة حكومة لويس فيليب التي عارضت ذلك. من الإجحاف بمكان نسيان الدور الذي لعبته أم الأمير. كانت امرأة ذات روح عالية ووطنية متحمسة، وقد ساءها وضع بلادها المعرضة لفظائع الحرب، عند استقبالها أسرى سيدي إبراهيم خاطبتهم بلغة جديرة للغاية كانت عبارات المواساة فيها تخفف من عتابه:

"ماذا جئتم تفعلون في بلادنا؟ كان ينعم بالسكينة والرفاهية وها أنتم قد حولتموها إلى خراب. إنها مشيئة الله ولكن غايات الله لا يمكن الإحاطة بها... قد يأتي يوم من أيام الرحمة فيعيدكم إلى بلدكم وأهلكم".

ويضيف شميت الذي أورد الحدث قائلا:

"كانت عباراتها الأخيرة مفعمة بالمواساة والأمل، واستثارت في نفوس الأسرى انطباعا قويا. إن هذه اللغة الجديرة والغليظة والحماسية في آن واحد كشفت عن والدة القائد المحبوب من المسلمين. لقد ولج الأمل قلوبهم. كان كل شيء في أم عبد القادر يبعث على الاحترام

---

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص108.

صوتها كان يرسل نبرة لطيفة قربت منها القلوب التي مزقها الألم. الحال أن لالة الزهرة كانت تضطلع بمهمة أخرى بإتقان ونجاح: السهر على الأسيرات. ففي كل مرة تأتي فيها أسيرة جديدة إلا وأفسح الأمير عن أسفه الصادق. كان يتوسم في النساء ضحايا بريئة للحرب. ذات يوم، جاء أحد الفرسان إلى الأمير بأربع أسيرات، فلم يحجم عن القول باستخفاف: "هناك أسود تجعل من الحيوانات الضعيفة طرائد وهناك أسود أخرى تتهجم على الحيوانات شرسة". في هذا الباب بالذات، سجّل كل من لاكروا ومانوسي لطافة ورفق لالة الزهرة والعناية التي كانت تحيط بها أسيراتها على الدوام[1].

أما الأسيرات فتسكن في خيمة خاصة بالقرب من أم الأمير، وعند مدخل الخيمة ترابط زنجيتان أمتان ولا أحد يدخل إليها دون إذنها. إن طيبتها مع الأسيرات جعلهن ينظرن إليها وكأنها أمهن. إنه لشيء رائع هذه العناية واللطافة اللتين تحيطهن بهما. وهذه الأسيرات بدورهن يبدين لها ما استطعن إلى ذلك سبيلا، امتنانهن لما يلقينه من حسن معاملة، من خلال تقديم تلك الخدمات التي لا تقوى على تقديمها سوى المرأة: جلهن يعرضن على ولية نعمتهن مهارتهن في الخياطة، وتقبل بذلك دائما تقريبا ولكن بإخفاء حسنة أخرى تتبدى في شكل أجرة.

لم يكن الأمير يكتفي بنصح ذويه بالرفق بالأسرى. بل كان يعطي المثال والقدوة. في هذا الباب، تنسب له العديد من الأفعال امتزج فيها نبله الأبي بطيبته، وبلغ فيها حلمه درجاته القصوى.

غداة تبادل الأسرى الذي أشرنا إليه، قام الأمير بلفتة تنم عن لطفه الجم. فبدل أن يوجه إلى الأسقف ديبيش هدايا رائعة كما تقضي بذلك العادة. أرسل إليه قطيعا من الماعز المالتية مصحوبة بصغارها، يقول الأمير في رسالته للأسقف: "أرسل لك قطيعا من الماعز مع صغارها التي لا تزال ترضع أثداءها المتدلية. فيها يمكنك أن تتطعم الأطفال الصغار

---

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص ص.109-110.

الذي تبنيتهم والذين ليست لهم أم. أرجو أن تشفو عن هذه الهدية إنها صغيرة جدًا"، يتعلق الأمر بأطفال فرنسيس يتامى الحرب. وكثيرا ما روى كتاب سيرته موقفه النبيل جدا إزاء نافخ البوق المدعو إيسكوفر الذي أسر في ساحة المعركة في ظروف تنم عن شجاعته وروح التضحية. فلما رأى نقيبه مجروحا وعلى وشك إلقاء القبض عليه، أهداه فرسه واضعا حريته في خطر متعمدا. سمعت الحكومة الفرنسية بصنيعه هذا فمنحته جوقة الشرف. ولما علم الأمير بهذا التتويج أصر على أن يكرم بنفسه إيسكوفر أمام جنوده وهم في وضع الاستعداد(1)...

ثمة حادثة غير معروفة تظهر لنا الأمير وهو يحوز أكثر فأكثر إعجاب الناس. ذات يوم في ساحة الوغى، جيء بجندي فرنسي أصيب بجرح قاتل، تم التعرف عليه وأعلم الأمير بأمره، وسرعان ما أمر بحمله إلى خيمته الخاصة وتمديده على سريره الخاص. خلال أيام عديدة وإلى غاية نفسه الأخير، ظل الجندي محل سهر وعناية خاصة. ترى من يكون هذا الشاب الفرنسي أو ماذا فعل حتى يحظى بمثل هذه العناية؟ إنه رجل غامض ولكنه أثناء المعارك السابقة أصاب الأمير عدة مرات وهاهو الأمير يسعى إلى انتشال من حاول إيذاؤه ثلاث مرات من الموت. إنه لمشهد جدير بالتأثير على القلوب الأكثر قساوة. ولكن ان ينظر إلى هذا العفو، كما فعل بعض المؤلفين، كإهانة وموقف مسيحي فهذا يعني جهل ما ينطوي عليه سلوك الأمير من كرم ونبل إسلاميين. لن يفكر أي مؤرخ اليوم في تحميل الأمير أية مسؤولية في القضية المحزنة لأسرى سيدي إبراهيم. لقد ثبت اليوم بأن الحادث قد حصل في غيابه وعلى غفلة منه. لقد كتب الجنرال أزان: "الأكيد هو أن الأمير لو كان حاضرا ما حصلت المجزرة".

لقد وقعت مجزرة الأسرى في التراب المغربي، بينما كان الأمير في الجزائر كان ذلك في سنة 1846 قبل الاستسلام في فترة حرجة، عندما علم الأمير بالخبر أثر في نفسه كثيرا

---

(1) محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص111.

وآلمه، أيما إيلام. وبخ خليفته الحاج مصطفى بن تامي. بعد سنوات، سأله الجنرال كورب يدي كونيار، فرد عليه بقوله "حصلت المجزرة دون علمي ورغبتي، كنت آنذاك بعيدًا". ولما سأله لِمَ لَمْ يعاقب الجانين، رد عليه: "لم أقو على ذلك، كان قادتي في حال من التمرد ولم يعد يطيعونني لم يكن جنودي الذين أثرت فيهم الهزائم، يتوفرون إلا على حفنة من الشعير. فلا تطلب مني المزيد، أنا لا أود اتهام أحد".

لقد جرت الدايرة أسرى الحرب إلى التراب المغربي وسط صعوبات لا تتصور: قلة المؤونة، عداوة السكان المحليين، إشاعات روجتها المخابرات الفرنسية. في البدء، تعلق الأمر بتحرير الأسرى باقتيادهم إلى مشارف المراكز الفرنسية. لكن سرت الإشاعة بأن الفرنسيين يسعون إلى اختطافهم بالقوة. ويجهل كيف أقدم قائد الدايرة على الأمر بالمجزرة[1]. في هذه القضية المؤسفة، التي ثبتت فيها مسؤولية الخليفة بن تامي يكون من الإجحاف بمكان الاكتفاء بها دون البحث عن الأسباب البعيدة. فالجنرال أزان يغض الطرف من التجاوزات التي اقترفتها الجيوش الفرنسية منذ تجدد المعارك في 1839. ذلك أن الأمر لا يتعلق بتجاوزات فردية بل بأعمال عنف تندرج في مخطط نفذ ببرودة.

للقضاء على المقاومة الجزائرية، تبنى بوجو الطريقة الإرهابية لماريوس وهو يحارب يوغرطة: الهدم والحرق والقتل دون وازع. وفي هذا الباب، هناك مراسلة لسانت آرنو لا تدع مجالا للشك، في 18 جانفي 1844، كتب: "لن تترك شجرة واحدة واقفة في المروج ولا رأس على أكتاف هؤلاء العرب البائسين... إنها الأوامر التي تلقيتها من الجنرال شانقارنبي، وستنفذ في حينها. سأحرق كل شيء وسأقتل الناس جميعا. "تميزت سنة 1845 بالحرق المزود لمغارات الطفرة في الحرق الأول، في جوان 1845، مات قرابة ألف شخص، من رجال ونساء وأطفال، اختناقا أو تفحما. ولم ينج سوى ثلة من الأفراد. في نهاية هذا العمل الشنيع، لاحت أمام أعين الجنود الفرنسيين الذين دخلوا إلى المغارات رؤية دانتية. عندما

---

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص ص.111-112.

بلغ الخبر مسامع الجزائر، حاول بوجو عبثا أن يفرض الصمت على الصحافة المحلية، حينئذ دعم بوليسي الذي عمل – كما يقول – وفق روح الأوامر التي تلقاها. غير أن الفضيحة تكرر صداها بفرنسا حيث أدان بشدة رجال شرفاء هذه المجزرة التي طالت أعداء عزّلا.

في غرفة النواب، عبّر أمير موسكوفا ومونتالمبير عن السخط العام. وكان الماريشال سولت رئيس المجلس تقريبا الوحيد الذي برر سلوك بوليسي بألفاظ خاصة:

"إني آسف على ما حصل. إن مثل هذا الفعل في أوربا رهيب وممجوج أما في إفريقيا فهو الحرب نفسها".

لقد بدا هذا الغفران الصادر عن القائد بمثابة إطلاق لليد في نظر جنرالات إفريقيا، فهؤلاء، بدلا من العدول عن طرائقهم الإرهابية الترهيبية راحوا يطورونها، ساعين إلى عدم ترك أي أثر لأعمالهم الإجرامية بعد أشهر من صنيع بوليسي. أظهر سانت آرنو تفوقا في هذا الإجرام(1).

فقد قام في الظهرة دائما بحرق وقتل 1500 جزائري. وكانت الحيطة التي تحلى بها من الإتقان بحيث لم يقو أحد على الإفلات من المجزرة وأن لا يكون عليها أي شاهد مزعج.

كتب الماريشال بوجو في تقريره السري: "لم يدخل أحد إلى المغارة اللهم سواي". يجدر بنا التذكير بان جل الأسرى الفرنسيين الذين قتلوا بأمر من بن تامي كانوا قبل أسرهم أعضاء في رتل كان على رأسه العقيد مونتاتياك، الذي كان يدعو وهو المشهور بقساوته، إلى اعتماد سياسة بسيطة حيال الجزائريين مؤداها: تخريب البلاد وقتل السكان او على الأقل نفيهم إلى جزر الماركيز".

---

(1) محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص113.

أمام المنعطف الذي اتخذته الصراعات مع العدو، أدرك الأمير بأنه سيصعب عليه أكثر فأكثر تأمين مؤونة وحماية الأسرى كما ينبغي، لذا كتب عدة مرات للملك لويس فيليب يقترح عليه تبادلا للأسرى، ولكن القادة الفرنسيين، الأجلاف الغلاظ كعادتهم، لم يردوا على رسائله بل ذهبوا إلى حد أسر رسله. وهكذا ردوا على جهده المتفاني في أنسنة الحرب، بتسميمهم على مواصلة الحرب الشاملة، وإنا لنقدّر استياء الأمير من موقف بعض الفرنسيين المتجاهلين لهذه السلسلة من الحوادث المؤسفة. عندما كتب ليون روش في 1844 باسم بوجو، رسالة تنطوي على ألفاظ ماكرة اضطر الأمير إلى الرد عليه بنبرة ساخطة: "إنك تدعوني إلى إيقاف حرب تزعم أن ديني والقوانين الإنسانية تستهجنها، إني على دراية بما يأمرني به ديني، وليس المسيحي هو الذي يلقن المسلم معنى القرآن. أما الإنسانية فيحسن بك أن تنضح الفرنسيين أولا بإتباع النصائح التي يسدونها إلي. ترى، من هم الذين يخترقون قوانين الإنسانية أهم أولئك الذين اجتاحت جيوشهم بلاد العرب الذين لم يهيئوهم؟ والذين حولوا بيوتهم إلى خراب؟ أم هم أولئك الذين يحاربون من أجل صد العدوان القائم وتحرير بلادهم من نير الغزاة؟ كما نتفهم قلقه أمام كوري دي كونيار الذي لامه على كونه لم يعاقب الجناة: "لا تطلب مني أكثر أنا لا أريد أن أتهم أحدًا"[1].

فلو كان عليه يتحول إلى متهِم (بكسر الهاء) ترى إلى أي حد سيصل به الأمر؟ لم يمنعه خطأ بن تامي من الوقوف بوضوح على المسؤوليات الفرنسية التي كانت سببا في هذه المسألة المؤسفة.

ماذا كان عليه أن يفعل في هذه اللحظات الحرجة التي أدرك في خضمها بأن قضيته خاسرة، غير التوبيخ والأسف؟ فالتحلي بالقسوة إزاء آخر جنوده الأوفياء أمر غير مجد ومجحف. لم يكن يجهل أن فعل ضابطه المعزول يندرج في مناخ حرب غباوة أرادها أعداؤه.

---

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص114.

كان – وهو الرجل القاسي على نفسه والمتسامح مع غيره – يؤثر التسامح والصفح والحرص على مساعدة الخطائين من أجل السمو والخلاص، على الحكم القاسي، ولئن كان معاصروه قد سعوا إلى استغلال فعل ضابطه المؤسف فإن التاريخ لا ينقص شيئا من صورة البطل الورع والحليم الذي كانه[1].

9- الأمير عبد القادر والماسونية:

تعد الماسونية حركة ضاربة بجذورها في القدم، مما جعل الآراء تختلف حول تاريخ نشأتها إلى حد اعتبار البعض أنها تعود إلى جمعية إيزيس السرية المصرية القديمة، ولكنها ارتبطت باليهودية ارتباطا وثيقا، وهو ما يظهر من نص القسم الماسوني المرتبط بالتوراة، وإذا كان الباحثون قد اختلفوا في تاريخ نشأتها فقد اختلفوا بينا في تعريها نكتفي بإيراد تعريف صابر طعيمة فعرفها "بأنها حركة تنظيمية خفية قام بها على الأرجح حاخامات التلمود وخاصة في مرحلة الضياع السياسي الذي تعرض له يهود العهد القديم، فأخذ الخامات على عاتقهم إقامة تنظيم يهودي يهدف إلى إقامة مملكة صهيون العالمية، ويتوصل إلى أن الماسونية حركة تنظيمية يهودية الأهداف، عالمية الانتشار، تتبنى كل ما يمكنها من تحقيق أهدافها، متدثرة بما في المجتمع الذي توجد فيه من معتقدات وأفكار حفاظا على الإنسان اليهودي وتمكينه من السيطرة على المجتمعات البشرية وتوجيه مسارها توجيها لائكيا لاقيميا[2].

ذكر الشيخ محمد عبده عن الأمير عبد القادر الجزائري، من حيث إيمانه بوحدة العقيدة الدينية السماوية والذي أوّله بعض الباحثين والناقدين على غير مراده وخلافا لمقاصده إذ ادّعوا – بإطلاق ومن غير تحقيق أو تدقيق – بأنه يؤكد فكرة الاختراق الماسوني للفكر

---

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص115.

[2] السعيد عليوان، "الأمير عبد القادر والماسونية"، **أعمال الندوة العلمية للأمير عبد القادر وتيارات فكرية غير عربية إسلامية في الجزائر**، الجزائر، 2006، ص ص.27-28.

الإسلامي وبخاصة في جوانبه الإنسانية التي يمثل الأمير عبد القادر قطبا من أقطابها وواحدا من أشهر دعاتها، ومن الخلط والخبط الذي وقع فيه المتحمسون لفكرة الاختراق أنهم خلطوا بين الإنسانية التي آمن بها الأمير عبد القادر ودعا إليها في علاقة الأديان السماوية بعضها ببعض وبين الإنسانية الصورية التي قام عليها الفكر الماسوني، وعلى خلفية هذا الخلط صنّف الفكر الديني عند الأمير عبد القادر – بطريقة تطويع وتأويل النصوص – من قبل من توّلوا كبر ذلك على أنه فكر ماسوني أو يقترب منه شيئا كثيرا، والحقيقة أن هنا الزعم متهافت وإدّعاء غير مؤسس يتنافى مع المذهب العقدي للأمير عبد القادر ومشربه ومترعه الفكري، وبيان ذلك يتأتى من عدة وجوه نكتفي كما يقول الدكتور محمد بوالروايح[1] بذكر وجهين اثنين:

الأمر الثاني: موقف الأمير عبد القادر من الأديان نابع من أصول العقيدة الإسلامية:

وما يؤكد هذه الحقيقة ما ساقه محمد عبده، من محصّل الكلام هانوتو عن الأمير أسأل القارئ: هل سمع مثل هذه الكلمة ممن يماثل الأمير عبد القادر – في نسبه إلى صاحب الرسالة ومقامه في أهل دينه ومكانته من سلامة العقيدة في مذهبه، وسمع ما يقرب منها ممن لا يدانيه من أهل الملل الأخرى"[2].

ولقد ذكرت بديعة الحسني الجزائرية[3]، أن فكر الأمير عبد القادر فكر إسلامي أصيل ليس فيه دخن وأن الباحثين لم يختلفوا في أصالة شخصيته الإسلامية وإنما اختلفوا في تأويل مواقفه الدينية حيث تقول: "لقد كثر الكلام حول الأمير عبد القادر الجزائري وحقيقته وانقسم الباحثون في تاريخه بين مادح وقادح ومتردد، والحقيقة أن شخصية الأمير وحياته المملوءة بالعلم والعمل في حقبة من التاريخ مضطربة حافلة وتنقلاته في الآفاق الواسعة واتصالاته

---

(1) محمد بوالروايح، "الجدل الفكري حول صلة الأمير عبد القادر بالماسونية"، دراسة تحليلية نقدية، **الندوة العلمية للأمير عبد القادر وتيارات فكرية غير عربية إسلامية في الجزائر**، الجزائر، 2006، ص ص.7-8.

(2) محمد عبده، مرجع سبق ذكره، ص130.

(3) بديعة الحسني الجزائرية، **فكر الأمير عبد القادر الجزائري**، حقائق ووثائق، دار الفكر، دمشق، المقدمة، 2001.

الرفيعة بالشخصيات التاريخية الهامة لابد أن يثير حوله من القضايا والأفكار ما يميّز المعنيين".

وإن كانت بديعة الحسني الجزائرية، لم تفصح عن حقيقة الجدل بين الباحثين حول شخصية الأمير عبد القادر إلا أن السياق العام ومدلول العبارات ينصرف إلى الإماق إلى الجدل الذي أثير حول صلته بالفكر الماسوني، وهي الشبهة التي راجت لمدة طويلة ولا يزال يتشبث بها بعض الباحثين، وما يؤكد ضمنا هذا الانصراف ما ذكرته بديعة الحسني الجزائرية في مواضع أخرى كقولها: "والحقيقة أن مقاومة الأمير عبد القادر لم تتوقف ضد أعداء دينه بل تابعها الأمير وأصحابه حتى في سجنهم في فرنسا، فلقد قاوم الأمير أعداءه بالصبر والتقوى ولم يحن رأسه ولم يستسلم ولم يستجد ولم يستنجد وتابع مقاومته حتى في بلاد الشام والأدلة كثيرة ومتعددة وموثقة"[1].

إن الأمير عبد القادر – كما ذكرت بديعة الحسيني الجزائرية – لا يرضى بالمساومة على الإسلام فكرًا وعقيدة بعرض من الدنيا قليل، كما أن شخصيته الفكرية الناضجة لا يمكن أن تكون هدفا سهلا بالماسونية حتى توقعه في شراكها[2].

الوجه الأول: كلام محمد عبده عن الأمير عبد القادر الجزائري:

إن كلام محمد عبده عن الأمير عبد القادر الجزائري جاء في سياق استشهاده ببعض ما قاله هانوتو[3] عن رسوخ عقيدة التسامح الديني في الإسلام، ومحصّل كلام هانوتو كما نقله، محمد عبده[4]: "إن القواعد الجديدة التي يجب أن يكون عليها العمل في إفريقية هي مخالفة القواعد القديمة التي كانت تجري عليها السياسة الاستعمارية فيما مضى من الزمان".

---

(1) بديعة الحسني الجزائرية، **وما بدلوا تبديلا**، دار الفكر، دمشق، المقدمة.

(2) محمد بوالروايح، مرجع سبق ذكره، ص13.

(3) مفكر فرنسي قال عنه محمد عبده إنه طعن في الإسلام من خلال ما نقلته الجرائد من خطابه الذي ألقاه في المجمع الجغرافي في مارس سنة 1902 متعلقا بإفريقيا فرد عليه محمد عبده ردا دمغ به جهله بالأديان والتاريخ فرجع عنه واعتذر.

(4) محمد عبده، **الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص129.

ثم بيّن هانوتو القواعد الجديدة التي يعامل بها المحكومين فقال "إنها الأمن والسّلم" ثم قال كما ينقل عنه محمد عبده: "إننا مدينون لهم بالتساهل الديني، ولست أشير إلى هذا الموضوع الخطير الذي له علاقة بكل ما يثير النفس البشرية إلا إشارة خفيفة فأقول: "إن التمدن الأوروبي يجد في طريقه في إفريقية لاسيما في شمالها ذلك الدين القديم العظيم الذي هو دين الإسلام، والذي هو في هذه الجهات (أي الشمال الإفريقي) أكثر نشاطا منه في غيرها، وهذا الدين يدعو إلى إله واحد، ويجعل الإيمان بالتوحيد مصدرًا لكل الفضائل الذاتية والاجتماعية، ويستولي على المؤمن استيلاء شديدًا فلا يعود يقدر على التفلت منه"، ثم يخلص هانوتو من هذا الكلام إلى بيت القصيد فيقول: "فمن المفروض علينا التساهل في هذا الشأن، بل ليس التساهل بكاف وحده، فمن الواجب أن ندرس هذا الدين ونبذل جهدنا في فهمه، وعلينا أن نتخذ الكلمة الإسلامية ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ سورة البقرة 256، شعارًا لا نخرج عن حدود معناها، وأن نحترم الدين الإسلامي ونحميه من كل طارئ سوء، ولا بأس بذكر كلمة للأمير عبد القادر الجزائري في هذا المقام وهي: "إنّ أصحاب الأديان الثلاثة يشبهون ثلاثة إخوة من ثلاث أمهات".

ويمكن أن نستنبط يقول الدكتور محمد بوالروايح[1] من كلام هانوتو كما نقله محمد عبده عدة حقائق تجلّي كثيرا من الجوانب الخفية المتعلقة بالشخصية والخصوصية الفكرية لفكر الأمير عبد القادر الجزائري والتي يمكن تلخيصها في أمرين اثنين:

الأمر الأول: وحدة الأديان في فكر الأمير ووحدة المصدر:

ولقد أكد عباس محمد العقاد هذه الوحدة الدينية المحمدية حيث يقول: "من العسير على الكثيرين من المتدينين المؤمنين بالأنبياء أن يذكروا أسبابا عقلية لتفضيلهم الدين الذي يعتقدونه على سائر الأديان التي لا يعتقدونها، وغاية ما عندهم من التعليل لهذا التفضيل أن يؤمنوا بهذه العقيدة، لأنها عقيدة نبيّهم ولا يؤمنون بالعقائد الأخرى، لأنها عقائد أنبياء

---

[1] محمد بوالروايح، مرجع سبق ذكره، ص10.

آخرين لا يؤمنون بهم ولا يقولون لماذا ينكرونهم مع إيمانهم بأمثالهم، ولا يستطيعون أن يردّوا هذا الإنكار إلى سبب معقول... وهذا العجز العقلي عن تعليل اختيارهم لبعض الأنبياء دون بعض يكاد أن يكون ضرورة لا محيص عنها يضطرّ إليها من يؤمن برسالة دون سائر الرسالات، فإن رسالات الأنبياء جميعًا لن تخلو من فضائلها ومسوّغات الإيمان بها.

ولن تنحصر الفضائل ومسوّغات الإيمان في رسالة واحدة، مع تقادم الزمن وتفاوت الأمم والإيمان بوجود الله وهدايته للناس منذ تهيأت عقولهم وضمائرهم لقبول الشرائع والمعتقدات". ويبيّن عباس محمود العقاد الإيمان الشمولي في الإسلام بكل العقائد الدينية الربانية فيقول: "...لأن المسلم يؤمن بجميع الرسالات التي سلفت قبل محمد عليه السلام ولا ينكر منها إلا ما نسخته الشرائع النبوية نفسها لاختلاف مقتضيات الزمن، وما ينكره العقل لما أضافه المتدينون إليه من خرافاتهم أو من شوائب العبادات التي اختلطت ببقايا الوثنية والعقائد الجاهلية من جيل إلى جيل".

ولقد أكد الأمير عبد القادر وحدة الأديان من حيث المصدر وذلك في سياق قوله: "إن أصحاب الأديان الثلاثة يشبهون ثلاثة إخوة من ثلاثة أمهات"، وهو في ذلك يتمثل حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – في الصحاح: "نحن معاشر الأنبياء أبناء علاّت أبونا واحد وأمهاتنا شتى"، ويفهم من هذا أن الأمير عبد القادر يؤمن بالمصدر الرباني المشترك لعقائد الأديان الثلاثة، وهذا ما ينافي القول المطلق بوحدة الأديان الذي لا يقيم وزنا للصحيح منها والمحرّف والناسخ والمنسوخ، فهذا الإطلاق ليس له ما يسوغه أو يبرره، ولا يمكن أن يكون إلا شكلا من أشكال العبث الفكري، الذي يمثله ثلة من الباحثين والمؤرخين"[1].

رغم أنها أوقعت في أحابيلها كثيرا من الأغرار الذين عندهم رقة في الدين وخلل في العقيدة حيث غرّهم الفكر الماسوني فاعتنقوه من غير إعمال فكر أو نظر.

---

(1) محمد بوالروايح، مرجع سبق ذكره، ص ص.10-11.

وممّا ينفي عن الأمير عبد القادر شبهة الردة الفكرية، ومنها انتسابه – على رأي بعض الباحثين – إلى الماسونية العالمية ما أردفت به بديعة الحسني الجزائرية في موضع آخر حيث تقول: "إن جهاد الأمير يفنّد كل الشائعات التي قيلت عنه، لأن بقي متمسكا بإسلامه عانا عليه بالتواجد حتى في حالات الضعف الإنساني، وقد أسفعت بديعة الحسني الجزائرية كلامها هذا عن الأمير عبد القادر بما ذكره هو نفسه في كتابه: "المقراض الحاد لقطع لسان منتقص الإسلام".

الوجه الثاني: المرجعية العقدية للأمير عبد القادر مخالفة للأدبيات الماسونية:

وحول هذه المسألة ذكر حسن عمر حمادة[1] أن الأدبيات الماسونية وذلك بمنظومة من القيم والمعايير المتصلة بنصوص العقائد اليهودية التلمودية المنبثقة من شروحات العهد القديم، ومنذ أن حضرت الماسونية في الحياة الاجتماعية البشرية بدأت مرحلة جديدة في حياة الإنسانية الإسلامية والمسيحية، على المستويات النفسية والاجتماعية والفكرية والعقائدية والسياسية والقانونية والجمالية" ويضيف حسين عمر حمادة مبيّنا وجهة الفكر الماسوني ومخالفته للفكر الإسلامي بل الفكر الديني الإنساني بصفة عامة: "وقد أدرك الباحثون خطورة نشاطات المنظومة الفكرية الماسونية الشاملة فقاموا بدراسة وصفية تحليلية شاملة للأدبيات الماسونية متخذين الدولتين الفرنسية الكاثوليكية والعثمانية المسلمة نموذجين في هذا المجال".

والأمير عبد القادر الذي عرف عنه صفاء العقيدة وكمال الدين، لا يلتقي منزعه العقدي ومشربه الفكري مع الفكر الماسوني وذلك بالنظر إلى عدة مفارقات[2]:

---

(1) حسين عمر حمادة، **الأدبيات الماسونية وصلتها بالعقائد اليهودية الصهيونية وخططها لتقويض المجتمعات الإسلامية والمسيحية**، دار الفكر، دمشق.

(2) محمد بوالروايح، مرجع سبق ذكره، ص14.

أولا – المفارقة بين الإنسانية في فكر الأمير والإنسانية الماسونية:

تجمع كتب التاريخ والتراجم على أن الأمير عبد القادر الجزائري أعطى مفهومًا شاملاً وعالميا لما أصبح يعرف بالتشريع الديني الإنساني، الذي يتجاوز خصوصيات كل دين ليركز على القواسم المشتركة التي تدور حول إثبات التوحيد ومسّوغات الإيمان، وقد عقد في هذا الصدد ملتقى دولي سلط الضوء على شخصية الأمير عبد القادر وملامح التسامح والكارزماتية فيها، فالملتقى الذي كان حول "شخصية الأمير عبد القادر واجب الذاكرة وتحديات العصر". تميز بتقديم مجموعة من المداخلات تمحورت حول شخصية الأمير عبد القادر وعلاقته بأهل الكتاب وكذلك دوره في صقل الذاكرة الجماعية الجزائرية، وقد ذكر محمد بن رضوان في مداخلته حول علاقة الأمير عبد القادر بأهل الكتاب بأن هذه العلاقة تميزت بالتسامح وبالتربية الإيمانية العالية للأمير والتي تنبع كما قال من تربية عربية إسلامية سليمة، ولأجل البرهنة على البعد العالمي للفكر الديني وبخاصة ما تعلق منه بالإسلام والمسيحية عمل الأمير عبد القادر عام 1860م على إنقاذ 12 ألف مسيحي من جبل لبنان وضواحي دمشق بما فيهم قنصل فرنسي، وهذا السلوك الإنساني هو في سواء الحقيقة تطبيق لما يدعو إليه الإسلام من حسن معاملة أهل الكتاب، ودعوتهم إلى كلمة، والأمير عبد القادر الذي عرف بالرؤية الدينية العالمية يمقت العصبيات الدينية التي تحرك مشاعر الكراهية بين أهل الأديان الثلاثة، فقد شرح الكاتب الفرنسي إيتيان بريتو مختلف المناورات التي تعرض لها الأمير عبد القادر من فرنسا وانجلترا، وهو في منفاه في سورية حيث حاولت هاتان القوتان الاستعماريتان استعمال الأمير عبد القادر ومصداقيته في خلق مملكة عربية في سورية ولبنان لضرب الوجود العثماني.

وقد أوضح إيتيان برينو أن البعثات المذكورة التي كانت تقصد الأمير عبد القادر لتقترح عليه منصب حاكم الشام كانت كلها تقابل بالرفض من قبل الأمير الذي فضّل حياة الاعتكاف والتصوف(1).

وجاء في مداخلة عمي كبير في الملتقى المذكور آنفا أن هناك صلة وثيقة بين القيم الدينية التي كان يؤمن بها الأمير عبد القادر وقيم الإنسانية وحقوق الإنسان المعاصرة كما نص عليها القانون الدولي الإنساني، يقول عمي كبير: "إن الأمير عبد القادر الجزائري هو بالفعل رجل نفتقده في هذا العصر، لأنه لم ينغلق على نفسه بل كان رجلا حرا وأخا لكل إنسان بغض النظر عن الدين أو العرق".

وذكّر احميدة عميراوي بنضال الأمير عبد القادر ومقاومته من أجل إيجاد ضمير جمعي يتعدى المنطقة الجغرافية الضيّقة والقبيلة إلى مستوى أشمل يصل إلى أعلى مراتب الإنسانية، يقول احميدة عميراوي: "لقد لعب الأمير عبد القادر دورًا مهما في جمع شمل القبائل التي توحدت تحت رايته عن طريق نظام البيعة التي تعمّق ارتباط الحاكم بالمحكوم وارتباطهما معًا بالأرض والدفاع عنها".

فالفكر الإنساني الذي كان الأمير عبد القادر من أوعيته وحملته يخالف دعوى الإنسانية التي يزعم أقطاب الفكر الماسوني أنهم أوائل الداعين إليها.

ثانيا – الفكر الماسوني هادم للقيم الدينية:

إن البروتوكول الرابع عشر من بروتوكولات حكماء صهيون يؤكد هذه الحقيقة، فقد جاء فيه: "حينما نكمّن لأنفسنا فنكون سادة الأرض لن نبيح قيام أي دين غير ديننا، أي الدين المعترف بوحدانية الله الذي ارتبط حظنا باختياره إيانا كما ارتبط به مصير العالم ولهذا السبب يجب علينا أن نحطم كل عقائد الإيمان، وإذ تكون النتيجة المؤقتة لهذا هي إشعار

---

(1) محمد بوالروايح، مرجع سبق ذكره، ص ص.15-16.

ملحدين فلن يدخل هذا في موضوعنا، ولكنه سيضرب مثلا للأجيال القادمة، التي تصغي إلى تعاليمنا على دين موسى الذي أوكل إلينا – بعقيدته الصارمة – واجب إخضاع كل الأمم تحت أقدامنا"[1].

وهناك تناقض واضح في الفكر الماسوني، بين إدّعاء حرية العقيدة وبين العمل بكل السبل لمحاربة العقائد والأديان، ومنها المسيحية، فقد جاء في البروتوكول السابع عشر: "اليوم تسود حرية العقيدة في كل مكان، ولن يطول الوقت إلا سنوات قليلة حتى تنهار المسيحية بعدها انهيارًا تامًا، وسيبقى ما هو أيسر علينا للتصرف مع الديانات الأخرى، على أن مناقشة هذه النقطة أمر سابق جدًا لأوانه[2].

وقد توعدت الماسونية العالمية بتحطيم البيب البابوي، حيث جاء في البروتوكول السابع عشر: "حينما يحين لنا الوقت في تحطيم البلاط البابوي The popal court تحطيما تاما فإن يدا مجهولة، مشيرة إلى الفاتيكان The Vatican ستعطي إشارة الهجوم، وحينما يقذف الناس في أثناء هيجانهم بأنفسهم على الفاتيكان سنظهر نحن كحماة له لوقف المذابح، وبهذا العمل سننفذ إلى أعماق قلب هذا البلاط وحينئذ لن يكون لقوة على وجه الأرض أن تخرجنا منه حتى نكون قد دمرنا السلطة البابوية، إنّ ملك إسرائيل سيصير البابا Pape الحق للعالم بطريك Patrich الكنيسة الدولية".

وتعلن الماسونية العالمية الحرب على أماكن العبادة ومنها الكنائس المسيحية، وذلك بطريق تدجين التعليم الكنسي ليفقد صبغته المسيحية، فقد جاء في البروتوكول السابع عشر: "ولن نهاجم الكنائس القائمة الآن حتى تتم إعادة تعليم الشباب عن طريق عقائد مؤقتة جديدة، ثم عن طريق عقيدتنا الخاصة بل سنحاربها بالنقد Criticism الذي كان سيظل ينشر الخلافات بينها.

---

[1] أنظر: **بروتوكلات حكماء صهيون**، مكتبة الزهراء، الجزائر، ص101.

[2] محمد بوالروايح، مرجع سبق ذكره، ص ص.16-17.

ثالثا – الفكر الماسوني هادم للقيم الإنسانية:

بالإضافة إلى أن الماسونية تلحّ على ضرورة محو الأديان ومحاربة أتباعها، فإنها تزعم أنها جاءت لإصلاح السرائر الإنسانية وذلك ببث الفضيلة الأخلاقية، والعمل بها. وقد ورد في كتاب الآداب الماسونية – الدستور الأدبي الذي يسير الماسون بموجبه، حيث جاء في بعض بنوده أنه على الماسوني أن يخضع للحكومات التي يعيش في كنفها، مهما كانت ظالمة أو مستبدة: "احترم الحكومة واخضع للشرائع ولا تدخل في مؤامرة بل إذا مست الحاجة فقدم للحكومة المساعدة والعضد: تجنب المجادلات في أمر الدين والسياسة لكي تحفظ العلائق المرتبط بها النوع الإنساني".

وحسبنا أن نذكر هنا أن القيم الإنسانية المثالية التي تزعمها المؤسسة الماسونية، ما هي في الواقع إلا دموع التماسيح[1].

ولقد أثبت الواقع أن الماسونية عملت على إذكاء روح التعصب الديني والعرقي والسياسي والثقافي، بين أهل الأديان، وكان من نتائج هذا التعصب حدوث صراعات دينية كتلك التي حدثت بين المسلمين والمسيحيين بعد أن أكره المسلمون على خوض حرب دينية أشعل فتيلها بعض الساسة والقساوسة المسيحيين.

ووجود الصراعات الدينية بين أهل الأديان، لا يعني نفي وجود الاختلاف بينهم لأن هذا الأمر نابع من الجبلّة والطبيعة الإنسانية مادام الإنسان تتحكم فيه نزعات الخير والشر، وهي الحقيقة التي أكدّها القرآن الكريم: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ**﴾ سورة هود 118.

ويقول ابن خلدون تأكيدا لهذه الحقيقة: "إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، والانتقال من

---

[1] محمد بوالروايح، مرجع سبق ذكره، ص ص.18-19.

حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة، سنة الله التي خلت في عباده".

وما يمكن قوله إن توحيد الأديان الذي تدعو إليه الماسونية مؤامرة على الأديان وفي مقدمتها الإسلام، ولا أعتقد أن الأمير عبد القادر يرضى بهذا المسخ الديني الذي يهدم كل الأسس الإنسانية التي جاءت بها رسالات السماء، ولذلك فإنه من غير المعقول تصديق الشبهات التي تذهب إلى تأكيد صلة الأمير عبد القادر بالماسونية وهي صلة وهمية افتراضية لا يسندها دليل، وليس لها تعليل إلا الهذيان الذي يتخبط فيه بعض الباحثين.

مناقشة آراء القائلين بثبوت صلة الأمير عبد القادر بالماسونية:

هناك حقيقة تاريخية لا ينبغي إنكارها وهي أن شبهة الانتساب إلى الماسونية قد طالت كثيرا من الأعلام المفكرين ويجهد أصحاب هذه الشبهة أنفسهم لذكر الشواهد التي يدّعون أنها تؤكدها تأكيدا قاطعا، فقد قيل عن محمد عبده إنه عضو في المحفل الماسوني وإنه قد تبنى الأفكار الماسونية وأصبح من دعاتها في الشرق. والأمير عبد القادر الجزائري قيل عن انتسابه إلى الماسونية ما قيل عن أسلافه العلماء، فقد ذكر أحمد برقاوي في مقال له، نقلا عن وجيه كوثراني أن الأمير عبد القادر كان صديقا لفرنسا وهذا ما تثبته – حسب تقارير القناصل الأجانب إلى جانب كونه شخصية عربية إسلامية مرموقة[1].

ويذكر برقاوي أنه: "ليس أدل على أثر الغرب في فكر عبد القادر الجزائري من انتسابه إلى الحركة الماسونية، والحق أن المحافل الماسونية – كما أضاف – والتي تأسست في نهاية القرن التاسع عشر إنما كانت تعبيرًا عن نزوع تحرري تنويري لدى النخبة العربية في مصر وبلاد الشام ولهذا ليس غريبا أن نجد أن جل رواد النهضة من مسلمين ومسيحيين

---

[1] محمد بوالروايح، مرجع سبق ذكره، ص ص.20-21.

كانوا أعضاء في هذه المحافل أو من مؤسسيها كالأفغاني والكواكبي وجرجي زيدان وأديب إسحاق ويعقوب صروف وغيرهم.

وقد أشار كراتشوفسكي إلى أنه كان لبطاقة "ماسوني" في المشرق العربي في منتصف القرن التاسع عشر نفس الأهمية التي كانت لكلمة روتاري في روسيا في بداية القرن التاسع عشر. وهذا يعني حسب أحمد برقاوي أن قوى المعارضة من النخب المثقفة للنظام التقليدي قد تحلقت حول الماسونية بما عرضته آنذاك من أفكار حول التسامح الديني والحرية والمساواة والإخاء، بمعنى آخر، وقد وجد المثقفون العرب في القرن التاسع عشر في ليبرالية الماسونية سندا إيديولوجيا لمواجهة المجتمع التقليدي والتحرر منه.

ويورد حسين عمر حمادة قصة انتساب عبد القادر الجزائري إلى الماسونية، مستندا إلى أكثر من مصدر من ذلك قول جرجي زيدان: "إن الماسونية دخلت دمشق بمساعي الأمير عبد القادر الجزائري، وأنّ أول محفل ماسوني تأسس فيها هو محفل سوريا بشرق دمشق، ويورد حسين حمادة قول شاهين مكاريوس إن الأمير عبد القادر الجزائري، وأن أول محفل ماسوني تأسس فيها هو محفل سوريا بشرق دمشق، ويورد حسين حمادة مكاريوس إن الأمير عبد القادر اغتنم فرصة مروره بالإسكندرية في أثناء عودته من الحجاز سنة 1814م، فانتظم في سلكها في الثامن من شهر حزيران بمحفل الأهرام التابع للشرق الشامي الفرنسي.

ويُنقل عن عبد الجليل التميمي قول الأمير عبد القادر الجزائري: "إني أعتبر منظمة البنائين الأحرار (الماسونية) كأول مؤسسة في العالم، وفي رأيي أن كل رجل لا يجاهر

بالعقيدة الماسونية يعد رجلا ناقصا وآمل يوما ما أن أرى انتشار مبادئ الفرماسونية[1] في العالم ويومئذ فإن[2] كل الشعوب ستعيش في سلام وأخوة".

ويدعي برقاوي أن أهمية أن يكون عبد القادر الجزائري ماسونيا – وهو ما تجمع عليه المصادر في زعمه – تكمن في فهم كتابه "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل"، الذي يحمل في طياته كثيرا من مضامين وأفكار الماسونية ويدعي برقاوي حسب ما نقله عن المصادر التي أخذ عنها أن الظاهر أن الأمير عبد القادر الجزائري كان على دراية كافية – حتى قبل كتابة هذا الكتاب أو بعده – بالماسونية وحتى قبل الانتساب إليها، غير أنه لم يحول فقط على الصيغة – الغربية في إطارها الفكري الماسوني بل أشفعها بآرائه الفكرية ذات الصبغة العربية الإسلامية.

وما سماه برقاوي من نصوص وشهادات يعتقد أنها تؤكد كلها صلة الأمير عبد القادر الجزائري بالماسونية، تفتقر في حقيقة الأمر إلى الأدلة الدامغة مما يجعلنا نتحفظ كثيرا على قبول قصة انتسابه إلى الماسونية كما ترويها – بل تحكيها بعض الجهات الفكرية، التي لا يخلو موقفها من هذه المسألة من إفراغ وإسقاط فكري ذاتي لا يعبّر بالضرورة عن الرأي الجامع.

إن ما ساقه برقاوي من نصوص عن قصة انتساب الأمير عبد القادر الجزائري إلى الماسونية، لا يمكن أن ترقى إلى الرواية الجامعة المتواترة، خاصة وأن كثيرا من الوثائق التاريخية لم تحظ بالتمحيص الكافي، وبقيت عرضة للتأويلات الغربية الاستشراقية التي تحترف تشويه الفكر الإسلامي وسيرة الأعلام العرب والمسلمين.

---

[1] الفرماسونية ومعناه البناء الحر وأنصار هذه الفكرة فيطلق عليهم أنصار البناء الحر الذين يؤلفون جمعيات سرية أوجدتها اليهودية قديما لاحتواء الدين المسيحي والدين الإسلامي خصوصا.

[2] محمد بوالروايح، مرجع سبق ذكره، ص ص.20-23.

إن القول الذي نسبه عبد الجليل التميمي إلى الأمير عبد القادر الجزائري والذي مؤداه أنه – أي الأمير – يعترف بإعجابه وانتسابه إلى الماسونية، يحتاج إلى وقفة نقدية تمحيمية، فلا ينبغي ولا يقبل عقلا أن يفهم كل فكر تحرري على أنه فكر ماسوني بالضرورة، فقد وجد الفكر التحرري في المنظومة الفكرية العربية الإسلامية، قبل أن تقول به الماسونية، فالأفكار ليس لها لون عقدي أو فكري، ومن ثم فإنه من الخطأ الاعتقاد بأن الفكر التحرري التنويري من ابتداع الماسونية[1].

إن الزخم المعرفي الذي ينطوي عليه الفكر الإسلامي، والذي يتسع لكل الأفكار التحررية، والذي كان الأمير عبد القادر من أكبر المتبصرين فيه بحكم قوة ملكته، وما يتمتع به من حضور البديهة وفصاحة العقل، حتى قال النقاد عن الأمير عبد القادر إنه صاحب نزعة عقلية، وهو بالإضافة إلى ذلك خلدوني النزعة الاجتماعية ديكارتي في الدفاع عن العقل بيكوني في الهجوم على الأوهام ماسوني أي صاحب فكر متحرر ولكنه مع ذلك إسلامي في نزعته.

وفيما يلي سنفصّل في قضية اتهام عبد الجليل التميمي الأمير عبد القادر بالماسونية، وذلك من خلال مداخلة الأستاذ الدكتور اسعيد عليوان في أعمال الندوة العلمية: الأمير عبد القادر وتيارات فكرية غير عربية إسلامية في الجزائر. حيث يقول: ينطلق عبد الجليل التميمي من اتهام أغلب الباحثين بإهمالهم لدراسة حياة الأمير عبد القادر بدمشق عدا تدخله في أحداث 1860م ويبدأ حديثه عنه بدمشق بتجريمه وجعله شرها للمال غير مبال بالحرام ويستخدم كلمات لا تليق بالأمير ولا بالبحث العلمي النزيه، فيقول "إن المتتبع لحياة الأمير عبد القادر بدمشق سوف يثير انتباهه تكالب الأمير على اقتناء الدور والأراضي الفلاحية والحصول على المال مهما كانت الوسائل المتبعة في ذلك" ولكن الوسائل التي ذكرها عندما نتمعنها بدقة لا تدل لا على تكالب ولا على شره أو حرام، ولكنها تعد طبيعية وفقا لمنطق

---

[1] محمد بوالروايح، مرجع سبق ذكره، ص24.

تطور الأحداث فيقول: "ففي البداية أقرت الحكومة الفرنسية منح الأمير راتبا سنويا بما قدره 15 ألف ف. فرنسي، وقد بلغ مع السنين ما قدره 300 ألف ف.ف. – ولسنا ندري هل قدره نظريا أم عمليا؟ ! – وهو مبلغ خيالي للغاية، وعندما قرر الأمير أن يقوم ببعض الإصلاحات على الدارين اللتين سلمتهما له الإدارة العثمانية بعد أن قامت بتأثيثهما ألحّ الأمير لدى وزير خارجية فرنسا والسفير الفرنسي بإسطنبول للقيام بتدخلات لدى الحكومة العثمانية في تمليك الدارين... كما ألحّ على السفير نفسه للحصول على مبلغ مالي من الحكومة العثمانية[1]، وقد قدمت له الدولة العثمانية مبلغا قدره مائة ألف فرنك، ويبدو أن الأمير قد سعد كثيرا خاصة وأنه المبلغ يمثل ثلاث مرات المبلغ الذي قرر أن يشتري به مسكنا".

بعد ذلك ينتقل التميمي إلى الحديث عن إخماد الأمير لفتنة 1860م في بلاد الشام فيرى بأن تدخله مع ألف من رجاله لإنقاذ المسيحيين وإقرار الأمن والنظام في دمشق يعد مرحلة متطورة للقضاء على حالة الشك والتوتر اللذين لازما الأمير خلال الأربع سنوات الأولى من إقامته، ونتيجة لذلك أخذت تنتشر في أوروبا التآليف التي مجدت الجانب الإنساني للأمير وتسامحه، وعلى الأخص وفاؤه لوعد الشرف الذي قطعه على نفسه لنابليون بعدم محاربة فرنسا، هذا على الرغم من المصاعب الجمة التي عرفتها الجزائر خلال العقد السادس من القرن 19، وبرهن التميمي على هذا "أننا لا نعرف وثيقة واحدة صادرة عن الأمير تشجع الحركات الانتفاضية في بلاده، أو على الأقل مساندته المعنوية لعدد من الزعماء الجزائريين الذين أبلوا البلاء الحسن حتى آخر رمق من حياتهم – ويرى – أن الأمير ذهب الاحترام وعده إلى حد التنكر لابنه محي الدين الذي تحول سرا لإنقاذ البلاد من فرنسا سنة 1870".

---

[1] اسعيد عليوان، مرجع سبق ذكره، ص ص.30-31.

ويرى أن تدخله في فتنة 1860 وتهاطل الأوسمة والنياشين عليه من عدد كبير من رؤساء الدول الأوربيين ولاسيما نابليون الثالث الذي قلده وسام الشرف الفرنسي استوجب انخراط الأمير في الماسونية بعد قناعته بذلك معتقدا أنها ذات طابع إنساني إلى حد اعتقاده أن من لم ينخرط فيها يعد رجلا ناقصًا كما ذكر التميمي الذي نشر ثلاث وثائق بخط اليد بالعربية تبين انخراط الأمير في الماسونية"[1].

ويتوصل التميمي إلى النتيجة الآتية:

الأمير عبد القادر حتى معاهدة استسلامه سنة 1847م كان يعد إحدى الشخصيات المغربية الكبيرة، ولكنه انقلب بعد هذه الفترة على عقبيه وضحى دون شك بسمو ماضيه المشرف وفقد منه الكثير بسبب صمته الكامل الذي لازمه حتى مماته.

تقييم موقف التميمي:

يلاحظ تحامل عبد الجليل التميمي على الأمير من خلال العبارات المستخدمة وإن التحليل النفسي لنصه يدل على وجود أفكار مسبقة في اللاشعور أخرجت إلى مجال الشعور. وإلا لماذا استخدم مصطلح تكالب، فهل هذا المصطلح يليق استخدامه في جناب رجل مثل الأمير عبد القادر؟ وهل هو مصطلح علمي؟ هل يليق أن نصف الأمير بالإصابة بمرض الكلب وهستيريا جمع المال؟ إلى حد عدم المبالاة بالطريقة التي تتبع في جمعه "مهما كانت الوسائل المتبعة في ذلك"، كل هذا من أجل دارين لا من أجل قصرين. وهي البرهنة التي استخدمها التميمي على تكالب الأمير وهي في الواقع ليست برهنة، ولكنها عندما نربط الأحداث مع بعضها نجد أن الأمير حارب فرنسا 17 عاما واحتلت أرضه وسجن بفرنسا 5 سنوات كاملة وفي كل هذه المرحلة كان حكام تونس غير مبالين بما يحدث بل ساهموا فيه بمحاولة شراء قسنطينة ووهران بمليون فرنك لكل منهما مما يعني أنهم اعتبروا استعمار

---

[1] اسعيد عليوان، مرجع سبق ذكره، ص ص.31-32.

فرنسا للجزائر فرصة لا تعوض وفي كل هذه الظروف، فإنه بعد استعمار فرنسا للجزائر واعتراف الدولة العثمانية بهذا الاستعمار في 1847م فإن الأمير وفقا للقانون الفرنسي آنذاك أصبح أحد رعايا الدولة الفرنسية فما العيب في أن تجري له راتبا سنويا ونحن نعلم أن عشرات الألوف من الجزائريين والتونسيين الآن يتقاضون رواتب مختلفة من فرنسا ولا يقومون بأي عمالة لها، وإن المرء يتساءل: هل يعقل أن يتحول الأمير فجأة من النقيض إلى النقيض؟ ناهيك أن تجريم الأمير وجعله شرها للمال غير مبال بالحرام يناقض طبيعته وأخلاقه كما سنذكر.

ونطرح تساؤلات على التميمي؟ ألا يتلقى التميمي إعانات كثيرة من جهات أجنبية – وهو ذو المكانة العالية المرموقة – بماذا أقام مؤسسته المسماة باسمه ومجلتيه وعقاراته؟ من أين له كل ذلك المال[1] والأملاك التي تفوق كثيرا ما كان يملكه الأمير عبد القادر الذي تساوي مكانته مكانة رئيس جمهورية حقيقي؟ فهل يعد هذا طعنا في شرف التميمي وتكالبا على جمع المال؟، عندما تقدم له بلده أو دولة أجنبية مبلغا من المال هل يرفضه؟ ولو أخذه هل يكون ذلك طعنا في شرفه بالضرورة؟

إن الأمير عبد القادر عندما يقارن، يجب أن يقارن بأقرانه، ومن العيب أن نتهمه بالتكالب على المال بسبب ترميم دارين.

لقد وصل الأمر بالتميمي إلى حد التحكم بالأمير والسخرية منه، ومن ذلك قوله "ويبدو أن الأمير قد سعد كثيرا خاصة وأن المبلغ يمثل ثلاث مرات المبلغ الذي قرر أن يشتري به مسكنا"، ثم كيف يحتاج الأمير إلى وساطة السفير الفرنسي ووزير خارجية فرنسا للتوسط لدى العثمانيين وهم الذين توسطوا لدى نابليون الثالث كما سنذكر لإطلاق سراحه؟ وهل الأمير كان يصعب عليه الحصول على المال في دمشق وله آلاف الرجال وقد ذكر التميمي أنه تدخل في فتنة 1860م مع ألف من رجاله؟

---

[1] إسعيد عليوان، مرجع سبق ذكره، ص34.

وهل كان الأمير يعيش حياة البذخ حتى تحصل له كل السعادة التي ادعاها التميمي؟ لقد بين تشرشل أن الأمير لم يكن يعيش حياة البذخ، وأنه لم يكن يأخذ من المرتب الذي خصصته له فرنسا إلا ما هو ضروري، فكان يعيش حياة التقشف وينفق الباقي على رجال وعلى المؤسسات الخيرية والمساجد والفقراء وأوجه الخير المختلفة. وكان كثير الصيام ويتناول وجبة في 24 ساعة تتمثل في الخبز والزيتون[1].

فهل يعد هذا متكالبا على جمع المال؟ يقول تشرشل عن تقشفه "وكان قد أنهك هذا التقشف القاسي الطويل قواه حتى ظهر على بدنه الحديدي"[2]. وأما الوعد الذي قطعه لنابليون الثالث على عدم محاربة فرنسا، فهل كان الأمير قادرا على محاربتها. إن الأمير لم يستسلم في 1847 إلا بعد نفاذ كل ما لديه من طاقة وخذلان ملك المغرب له ومحاربته له وعجزه عن مواصلة الجهاد، وهنا لا نكون منطقيين عندما نلوم الأمير على التراخي في بلاد الشام إن حصل، لأن 17 عاما من الجهاد تضاف إليها 5 سنوات من السجن ليست بالأمر الهين، فإنها قد تقتل الإنسان وتجعله غير قادر على العمل، ناهيك على إطلاق سراحه كان مكفولا من السلطان عبد المجيد بأن لا يعود لحرب فرنسا وأن إقامته في اتفاقية إطلاق سراحه محدودة ببنود اتفاقية الاستسلام إلى سوريا أو مصر وهو ما يعرفه التميمي جيدًا.

إن الأمير عبد القادر ظل تحت الإقامة الجبرية في بروسة ولم يؤذن له بمغادرتها إلا بعد الزلزال الذي دمرها في 1855م ولم يتخذ دمشق مقرا جديدًا له إلا بعد موافقة فرنسا على ذلك بعد ذهاب الأمير إليها والاتفاق مع إمبراطورها[3]. وكان إذن شبه سجين في بروسة كما يقول أبو القاسم سعد الله "وتحت إقامة جبرية في دمشق لأنه كان تحت نظر

---

(1) شارل هنري تشرشل، **حياة الأمير عبد القادر**، ترجمة أبي القاسم سعد الله، ط3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2004، ص ص.349-369.

(2) نفس المرجع، ص369.

(3) تشرشل شارل هنري، مرجع سبق ذكره، ص349.

القنصلية الفرنسية من جهة، وعيون والي دمشق العثماني من جهة أخرى حتى أنه كان لا يتحرك لأي مكان إلا برخصة" إلى حد أنه لم يتمكن من الذهاب إلى الحج إلا بعد ترخيص من نابليون الثالث وقد عبّر تشرشل عن هذه الإقامة أحسن تعبير حين اعتبر إقامته في كل من بروسة ودمشق منفى(1).

ولكن التميمي رغم ما ذكرنا وعلمه بذلك فقد برهن على صحة رأيه بعدم صدور أي وثيقة من الأمير تشجع الانتفاضات في الجزائر أو على الأقل المساندة المعنوية لزعمائها ويذكر أنه تتكر لابنه محي الدين عندما تحول سرا إلى الجزائر للجهاد. والواقع أن الظروف التي كانت موجودة آنذاك لم تكن تسمح له بالوثيقة، فقد كان وهو بدمشق بمثابة من كان تحت الإقامة الجبرية كما ذكرنا ولاسيما في فترة العلاقات الممتازة بين فرنسا والدولة العثمانية ولكنه مع هذا فقد تدخل لمساندة أولئك الزعماء وعكس ما ادعاه التميمي، وهو ما يدل على تتبعه لما كان يحدث في الجزائر، ومن الأمثلة على هذا: فقد تدخل لدى باي تونس مرتين لصالح ابن ناصر بن شهرة الأولى لدى الباي خير الدين التونسي بغية تصفية أملاكه التي خلفها في تونس بعد أن طرده بايها خدمة لفرنسا في 1875 والثانية لدى الباي مصطفى ابن إسماعيل في قضية لازالت مجهولة، وعندما تعرف علاقة ابن شهرة بمحي الدين بن الأمير عبد القادر حتى أتى لمناصرته، فهو الذي مهد له الطريق عندما وصل إلى الحدود الجزائرية أوائل عام 1871م وكتب كثيرا من الرسائل إلى معظم الزعماء بالصحراء الشرقية الجزائرية يستحثهم على حمل السلاح واللحاق به وبمحي الدين ثم التحاق ابن شهرة بالأمير عبد القادر بدمشق بعد خروجه من تونس في 2 جوان 1875م، وظل بدمشق في جوار الأمير إلى وفاته في 1884م(2). مما سبق ندرك مساهمة الأمير في تلك الثورات إن بطريق أو بآخر عكس ما ذهب إليه التميمي.

---

(1) نفس المرجع، ص ص.57-58-36.

(2) يحي بوعزيز، **ثورة الجزائر في القرنين 19 و20**، ط1، دار البحث، الجزائر، 1980، ص181.

وأما قضية تنكره لابنه محي الدين، فرغم أن التميمي يستند إلى وثيقة تنسب إلى الأمير تأييد فرنسا أثناء ثورة 1871م وتنكره لابنه محي الدين، فإن هذه الإدعاءات كما يقول أبو القاسم سعد الله غير مسلم بها فتخليه عن ابنه قد يكون تقية فقط، والوثيقة المنسوبة إليه قد تكون مزورة.

وهنا يمكن أن نتساءل عكس ما ذهب إليه التميمي[1]: هل صدر من الأمير ما يثبط العزائم أو يدعو إلى التخاذل ووضع السلاح والاستسلام لفرنسا؟ وهنا بدل مهاجمة الأمير كان يجب على التميمي إدانة باي تونس الذي اعتقل ابن ناصر بن شهرة وصادر أملاكه خدمة لفرنسا وولاء لها وليس إدانة الأمير الذي تدخل لصالحه وألحقه به في دمشق. وأما قضية احتمال انخراط الأمير في الماسونية بفرنسا ليُستنتج منها احتمال تدخل الماسونيين لدى نابليون الثالث لإطلاق سراحه، فهو أغرب من الخيال، وإلا متى كان الماسنيون يحبون الأمير حتى يسعون لتحريره، فبهذا الاحتمال لا أساس له من الواقع ونبرهن عليه من خلال ما يأتي:

1- الذي حارب الأمير عبد القادر في الجزائر – هو على علم بهذا – كما يقول أبو القاسم سعد الله جيوش فرنسا ومعمروها والكنيسة والماسونية الصهيونية – وهي التي كانت في الجزائر مع اليهود ووفدت إليها مع جيوش الاحتلال – فتآمرت على دولة الأمير "الماسونية خصوصا في الدوائر المحيطة بالحكومة الفرنسية وحاشية الملك وقطعان التراجمة والمستشرقين والذين توافدوا على الجزائر، لأن دولة الأمير كانت دولة عربية سلفية شريفة لو انتصرت لكانت خطرًا عظيما على مخططات الماسونية الصهيونية في الشرق، ولكانت أولى دولة توحّد العرب على كلمة الجهاد كما وحّدتهم عليها زمن الرسول – صلى الله عليه وسلم – وزمن الخلفاء الراشدين"[2]، ويبدو أن هذا هو السر الذي جعل الأمير وهو بدمشق

---

[1] إسعيد عليوان، مرجع سبق ذكره، ص ص.37-38.

[2] أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية**، م.و.ك، الجزائر، 1992، ص ص.274-275.

يسعى لجعل حاكم بلاد الشام عربيا، ولكن تابعا للخلافة العثمانية بدل الحكام الأتراك الذين نخرتهم الماسونية والفساد.

2-قضية إطلاق سراح الأمير محسومة تاريخيا ولا تسمح بتأويلات المتأولين واحتمالات المغرضين فهي تمت بوساطة "وكفالة السلطان العثماني عبد المجيد – لدى نابليون الثالث – بتدخل من شيخ الإسلام في الخلافة العثمانية عارف حكمت، على إثر مجلس خاص عقده الخليفة لذلك لإنقاذه من الأسر".

وقد عبر الأمير عن هذا لدى وصوله إلى بروسة بتركيا لواليها صهر الخليفة بقوله: "لولا كفالة مولانا المعظم السلطان لدى نابليون الثالث ما خرجنا من قبضة الأسر"، وهو ما جعله يمدح هذا الخليفة ومما قاله فيه:

أبشر بقرب أمير المؤمنين ومن
قد أكمل الله فيه الذين إكمالا
عبد المجيد حوى مجدا وعزا على
وجلّ قدرا كما قد تم أقوالا
كهف الخلافة كافيها وكافلها
من لا عهدنا له في القرن أمثالا

والنتيجة التي نتوصل إليها أن هذه القضية محسومة تاريخيا فلا يعقل إغفالها والذهاب إلى الاحتمالات التي لا تحتمل، وهنا يطرح تساؤل وجيه في تصورنا هو: لماذا استجاب نابليون الثالث لتوسط وكفالة الخليفة العثماني السلطان عبد المجيد؟

والجواب في نظرنا يتمثل في العلاقات الممتازة التي كانت في هذه الفترة تربط بين تركيا وفرنسا، ونكتفي بالإشارة إلى بعض ما تم بينهم في عهد هذا السلطان أي السلطان عبد المجيد.

ففي عهده اعترفت تركيا باستعمار فرنسا للجزائر وذلك في 1847م كما ذكرنا قبلا.

وهو الذي توسط لدى نابليون الثالث لإطلاق سراح الأمير فأطلق سراحه في شهر ديسمبر سنة 1852م بعد 5 سنوات من الأسر. ويبدو أن هذا السلطان ضمن لدى نابليون الثالث عدم محاربة الأمير لفرنسا بعد إطلاق سراحه وهو ما يفهم من نص الأمير السابق ذكره "لولا كفالة مولانا السلطان" وهنا ماذا يضر فرنسا عندما تطلقه وقد ضمنت سكوت تركيا عن جرائمها في الجزائر وتوسعها في أقطار أخرى لاحقا؟

وفي عهد هذا السلطان وقعت حرب القرم المشهورة في البحر الأسود بين الدولة العثمانية وروسيا؟ وذلك ابتداء من 1853م. ويهمنا هنا أن فرنسا دخلت هذه الحرب كحليف للسلطان العثماني لعدة أهداف منها: كسب ودّ الجزائريين وإخفاء جرائمها وتكوين رأي عام جزائري يثق في فرنسا ويؤيدها ما دامت صديقة للدولة العثمانية كما يذكر سعد الله وتبييض وجهها في المشرق الإسلامي لمد نفوذها إليه ومنافسة الإنجليز، وقد شاركت فرنسا بقوات معتبرة انطلقت من الجزائر في 1854م تتمثل في 24540 من الفنطازية و1600 فارس إضافة إلى المشاة وفرق الخدمات إضافة إلى ألفي جندي جزائري وكذا من شارك من الجزائريين من المشرق الذين رافقوا الأمير أوفروا بعده. وأطلق على كل هذه القوات: فرقة نجد الدولة العثمانية مبالغة في التأثير وقد قاد هذا الجيش السفاح الجنرال بيليسنه. وقد انتصر العثمانيون في هذه الحرب فرقت فرنسا جنرالها إلى مارشال بلقب الدوق دب مالكوف والنتيجة التي نتوصل إليها يقول الدكتور اسعيد عليوان[1] أن الأمير أطلق في هذه الظروف ولا علاقة للماسونية بذلك وفي عهد هذا السلطان صدر الخط الهومايوني (المرسوم السلطاني) وهو الذي أصدره في فبراير 1856م تحت ضغط الدول الكبرى، ويسمح هذا المرسوم للدول الغربية بالتدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية عن طريق الأقليات المسيحية، بمعنى أصبح من حق هذه الدول التدخل تحت غطاء حماية الأقليات المسيحية، ويعد هذا المرسوم تتويجا لمساعدة فرنسا وبريطانية ومكافأة لها على ذلك. وقد كرسته

---

[1] إسعيد عليوان، مرجع سبق ذكره، ص ص.40-41.

معاهدة باريس الموقعة سنة 1856م. وفي إطار هذا المرسوم وقعت أحداث الشام التي سنتحدث عنها. نتوصل مما سبق إلى أن الاستنتاج الذي بني على احتمال تدخل الماسونيين في فرنسا لإطلاق سراح الأمير لا أساس له من الصحة، وأنه استنتاج شخصي يدخل ضمن التصور المسبق الذي انطلق منه، وإذن لا يمكن بناء أي شيء عليه، وننتقل الآن إلى الحديث عن الوثائق التي اكتشفها التميمي وذكر بأنها بخط يد الأمير.

إن التعرف على خط الأمير ونسبته إليه يحتم نقد الوثيقة من حيث الشكل ومن حيث المضمون. ومما يقوم عليه النقد، هل تلك الوثائق أصلية؟ وهل هي فعلا للأمير؟ وفي أي تاريخ كتبت؟ وهل كل ما بها أصلي أم أضيف إليه ما لم يكن في الأصل إما تزويرا وتحاملا – ولاسيما أن أعداء الأمير كثيرون – ولها عن سوء فهم كما يقول محمود قاسم(1) هذه التساؤلات تعد في تصورنا من الأهمية بمكان وذلك ليس طعنا في التميمي ولكنه لصعوبة التعرف على خط الأمير الحقيقي ونسبته إليه وهذا لسهولة تقليده، ودليلنا في ذلك المساجلة العالمية القيمة التي وقعت بين د. إسماعيل زوخي(2) والأميرة بديعة الحسني(3) حول كتاب المواقف وهنا نتساءل لماذا لا يكون أحد أعداء الأمير هو الذي كتب تلك الوثائق تزويرا ونسبها إليه ليشوهه، وأعداؤه كثيرون ومنهم الماسونية التي حاربته في الجزائر كما ذكرنا.

وهل يعقل أن يصل الأمر بالأمير إلى حد التبجح بالماسونية ويعتبر من لم يعتنقها يعد ناقص العقل مما يعني أنها فوق الإسلام. فمحتواها يتناقض مع طبيعته وأخلاقه – ناهيك أن أغلب الماسونية لا يجاهرون بها(4).

---

(1) محمود قاسم، **المنطق الحديث ومناهج البحث**، دار المعارف، القاهرة، ص ص.206-502

(2) إسماعيل زروقي، "قراءة تحليلية لآراء الأميرة الحسني حول كتاب المواقف للأمير عبد القادر"، **مجلة الحوار الفكري**، مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، العدد 1، الجزائر، جويلية 2001، ص ص.146-155.

(3) الأميرة بديعة الحسني، "فكر الأمير عبد القادر"، **مجلة الحوار الفكري**، العدد 4، نوفمبر 2004، ص ص.127-145.

(4) إسعيد عليوان، مرجع سبق ذكره، ص42.

ثم لو كان الأمير ماسونيا ووصل على حد التبجح بها فهل يخفي ذلك على ابنه حيث إنه لم يورد في تحفة الزائر خبر اعتناقه لها. فكيف تخفى تلك الوثائق على ابنه؟ هل يعقل أن يخفي الأمير اعتناقه للماسونية عن ابنه ومع ذلك يكتب ثلاث وثائق كاملة مفتخرا ومتبجحًا بالماسونية؟ أم أن ابنه يخجل مما كان يفتخر به أبوه؟ وهذا لا يمكن قبوله أبدًا، إذ كيف يفتخر بها الأمير وينفيها ابنه عنه، ثم هل يعقل أن ينخرط الأمير في الماسونية في طريق عودته من الحج؟ وكأن إقامته بالحرمين الشريفين سنة ونصف قضاها كلها في الصوم والصلاة والطواف والذكر والزيارات الروحية وتعميق البعد الروحي – كانت فترة تربص في الماسونية ليعتنقها في الإسكندرية في طريق العودة.

لقد قضى الأمير عبد القادر سنة ونصف كما ذكرنا في مكة المكرمة والمدينة المنورة من 1 رجب 1279هـ إلى 19 محرم 1281هـ/13 كانون الأول 1862 إلى 24 حزيران 1864م وخصص كل وقته في الحرمين الشريفين للدراسات الدينية والتعبد والصلاة فكان لا ينام في اليوم إلا 4 ساعات ولا يأكل إلا مرة واحدة. وقد أخذ وهو بمكة الطريقة الشاذلية عن الشيخ محمد الفاسي المجاور في مكة المكرمة وخصص من تلك 4 أشهر في المدينة المنورة من 26 رجب 1280هـ إلى 27 ذي القعدة 1280هـ/6 كانون الثاني 1864م إلى 4 أيار 1864م متبعا ما قام به في مكة المكرمة من الانقطاع للعبادة والعلم والإكثار من زيارة أُحد وقبور الشهداء فهل يعقل بعد هذا العمل الروحي الجبار أنه يعتنق الماسونية وهو في طريق العودة وكأن تعميق هذا البعد الروحي كان تربصا للتمسين؟ إن الزعم بالانتساب إلى الماسونية أثناء العودة من الحج يهدف في تصورنا إلى الطعن في ورعه وتقواه.

يضاف إلى هذا تناقض الماسونية مع ما اشتهر به الأمير من التقوى وقوة التدين والالتزام بالخط الصوفي[1]. وهو الخط الذي كان جزءًا – كما يقول فضيلة أستاذنا عمار طالبي "جزءًا من حياة أسرته التي لا تته عليه وأشرب قلبه منذ صغره بذاك الجو الروحي

---

(1) إسعيد عليوان، مرجع سبق ذكره، ص44.

فكان والده محي الدين (1195هـ-1249هـ) صوفيا راسخ القدم في الطريقة القادرية... وصحب الأمير عبد القادر والده في رحلته إلى الحج وزار معه بغداد وضريح الصوفي الكبير الشيخ عبد القادر الجيلالي، فكان لذلك كله أثره في نفسه وفي اتجاهه في الحياة". وهو ما بينه الأمير عبد القادر نفسه فذكر غرامه بقراءة كتب المتصوفة منذ صباه وختم حياته بالتمذهب بمذهب محي الدين بن عربي وانشغل بمطالعة كتبه وتفسيرها وألف كتابا ضخما في التصوف هو كتاب المواقف، وقد تكفل بطبع الفتوحات المكية لأول مرة، وأوصى بأن يدفن بجانب محي الدين بن عربي. وقد دفن بجانبه بالفعل. فالذي طغى عل حياته إذن هو التصوف وليس التمسين. والتناقض بينهما واضح.

تضاف إلى ما ذكرنا سابقا قضية أخرى مهمة تتمثل في دحض حفيده محمد سعيد لتهمة التمسين حيث كتب مقالا بعنوان: "الأمير عبد القادر والجمعية الماسونية" برأ فيها الأمير عبد القادر من انخراطه في الماسونية وبين أن زيارته لمحفل الأهرام الاكسندري مجرد زيارة مجاملة بناء على طلب أعضائها ولم تكن انخراطا في سلكها فاغتنم البعض هذه الزيارة لاتهامه بها ونص كلامه "بينما كان الأمير عبد القادر عائدا لسوريا عن طريق الإسكندرية اغتنمت الجمعية الماسونية فرصة وجوده في ذلك القطر فأوفدت إليه هيئة من أعضائها لتعرض عليه المبادئ الماسونية. وعندما ذكر الوفد المشار إليه فضائل الماسون وخدمتها في الإنسانية شكرها الأمير على عملها الذي ادعته، فاتخذ بعض المنتمين للجمعية ذلك الاجتماع ذريعة حسنة لنسبة دخول الأمير جمعيتهم" وقد دحض الدعوة السابقة بدليلين. أحدهما ورع الأمير وتقواه وقد أشرنا إليه قبلا والثاني أن الماسونية كباقي الجمعيات، كل من يريد الانخراط فيها يقدم طلبا للانخراط بها بموجب استدعاء فإذا تم له ذلك وقبل طلبه كلف بوضع إمضائه في سجل أعمالها وعليه أن يكتب بأنه انخرط بإرادته واختياره، هذه الوثائق المادية أقوى دليل، وكل من يتهم الأمير بالتمسين فما عليه إلا أن يظهر هذه الوثائق

بخط الأمير وإمضائه[1]. وهذه القضية أيضا تعد من الأهمية بمكان مما يجعلنا نكرر طرحها بطريقة أخرى فنقول: هل عثر على بطاقة انخراط الأمير في محفل الأهرام؟ لأنه من المعروف أن كل منتمي تسلم له بطاقة انخراط؟ كذلك من المعروف أن كل محفل له قائمة اسمية بأعضاء منخرطيه. فيها أسماؤهم ووظائفهم في المحفل وإمضاءاتهم، فهل وجد اسم الأمير في قائمة أسماء أعضاء محفل الأهرام بإمضائه؟ والجواب لا، في حدود علمنا، إذن ما هو الدليل على انخراطه في هذا المحفل؟ ما قيمة الانتساب إلى محفل الأهرام؟ لأن المعروف أن الانخراط في الماسونية يعني حضور اجتماعات منطقة تحتوي على جدول أعمال ينفذه الأعضاء وهذا يقتضي أنه يتمسين الشخص في محل إقامته ليتسنى له أداء الدور المنوط به والانتظام في سلكها أو يفتح محفلا جديدًا في محل إقامته تابع للمحفل الذي انخرط فيه ولم يعرف أن الأمير كان يتردد بانتظام على الإسكندرية، ولم يعرف محفل في دمشق تابع لمحفل الأهرام وكان الأمير يتردد عليه كما لم يعرف أن الأمير أسس محفلا في دمشق تابع لمحفل الأهرام.

يضاف على ما سبق: هل هناك من رأى الأمير يتردد على المحافل الماسونية في دمشق؟ وهل وجد اسمه بإمضائه في قائمة أعضاء محافلها؟ والجواب في حدود علمنا، لا، ولكن الثابت أن الأمير كان يتردد على مساجد دمشق إلى حد أنه كان من عمارها. وكان وقته مقسما بين التدريس والصلاة والتأليف والخلوة الصوفية كما سنبين وقد أوصى بأن يدفن بجانب محي الدين بن عربي كما ذكرنا لا بجانب أحد الماسونيين وهو أول من حقق الفتوحات المكية ونشره مما يعني أنه كان غارقا في التصوف. أي كان مسترسل الاتصال بالله عزّ وجلّ. وهذا كله يتناقض مع طبيعة الماسونية، يضاف إلى هذا مكانته الاجتماعية وسط المسلمين والمسيحيين على السواء، وهي مكانة لم يبلغها إلا القليل من العظماء. وقد ظلت هذه المكانة إلى الآن ويبدو يقول الدكتور اسعيد عليوان أن التميمي ذهب إلى دمشق

---

(1) إسعيد عليوان، مرجع سبق ذكره، ص46.

لتشويهها. ثم هل أعلن الأمير في حياته الانخراط في الماسونية؟ وهل اتهمه أحد في حياته بالانتساب إليها وعلم بذلك وأقرّ وسكت لما أعلن الأفغاني ومحمد عبده الانتساب إليها وأعلن محمد عبده خروجه منها وعدم فائدتها[1].

بينما الأمير لم يعلن ذلك. فلو كان يرى فيها ما ذكر في تلك الوثيقة التي نشرها التميمي فهل يعقل أن يخجل من التصريح بالانتماء إليها إما في الصحافة أو في مجالسه؟ أنه كتب "المواقف" في هذه المرحلة وهو يتناقض كليا مع طبيعة الماسونية.

كل ما سبق يدخل نسبة تلك الوثائق إليه، ومع ذلك فلو فرضنا بأننا تمكنا من نسبة تلك الوثائق إليه تحتم علينا نقدها من حيث الموضوع، ويتحقق ذلك إضافة إلى معرفة محتوياتها: تقدير الظروف التي أحاطت بكتابتها، ومعرفة مدى مطابقة الآراء الموجودة في الوثيقة لما حدث بالفعل. ونتساءل يقول الدكتور السعيد عليوان هل عبر الأمير عن حقيقة انتمائه أم أن ذلك مجرد إستراتيجية اتخذها لتحقيق أهداف معينة؟ ذلك أن المسؤولين الكبار كثيرا ما يعبرون على غير ما يعتقدون مجاملة أو إستراتيجية وهنا نتوصل إلى أن عكس النتيجة التي توصل إليها التميمي وتتمثل نتيجته في أن الأمير عبد القادر صار في بلاد الشام شخصية أخرى ضحت بسمو ماضيها المشرف واتسمت بالصمت الكامل إلى الوفاة. هذه النتيجة غير صحيحة في تصورنا وبرهانها يتمثل في الإشارة إلى الأمير في بلاد الشام.

الأمير في بلاد الشام:

عندما وصل الأمير إلى الشام في 1855م، واستقر بها وجد بها ظروفا أخرى تختلف عما عليه الحال في الجزائر أدت إلى وضع صعب يتمثل – من ضمن ما يتمثل فيه – في ثلاثة عناصر جوهرية:

---

[1] إسعيد عليوان، مرجع سبق ذكره، ص47.

1-الصراع الطائفي.

2-تربص الدول الغربية الصليبية بالمنطقة.

3-الظلم التركي.

وإذن يمكن القول بأن الأمير وجد في بلاد الشام معطيات جديدة جعلته يتعامل معها بكيفية جديدة تختلف عن معاملة مع أوضاع الجزائر يمكن تلخيصها في النشاط السياسي الفكري لأنه هو الأنسب للمنطقة ناهيك عن أنه لم تكن النزعة الوطنية آنذاك مبثوثة[1].

كما هي اليوم كان الطابع الإسلامي هو المهيمن على المسلمين فأخذ يعمل على أن لا تتكرر مأساة الجزائر في بلاد الشام لأنها هي أيضًا بلده بحكم المنطق الإسلامي فأخذ يعمل بكل ما لديه من قوة على صد الاستعمار عنها. ولا يمكن صده إلا بمعرفة مخططاته سلفا ولاسيما في مرحلة تقاسم تركة الرجل المريض ومن هنا فحتى لو فرض انخراطه في الماسونية، لماذا لا يفسر ذلك بإمكانية أن يكون بهدف الوصول من الداخل أي من داخل هذه الدوائر الاستعمارية ذاتها إلى معرفة ما يدور بداخلها من دسائس وتخطيطات ليتمكن من حماية بلاد الشام من الاستعمار فلا يقع له ما وقع للجزائر.

ومهما يكن من أمر. فهاهي جوانب مهمة متعددة من حياة الأمير في بلاد الشام. تبين عكس ما توصل إليه التميمي.

جوانب من حياة الأمير في بلاد الشام: وتتمثل فيما يلي:

1- الاشتغال بالتدريس والتأليف والانقطاع للعبادة والتصوف والتأثير الاجتماعي:

هو وأتباعه، ومنهم صهره مصطفى بن التهامي، وصالح السمعوني (والد الشيخ طاهر الجزائري) وقد صار بيته وأسرته مدرسة، ويكفي أن تعرف بأن إحدى حفيداته هي التي أسست أول مدرسة للبنات في بلاد الشام.

---

[1] إسعيد عليوان، مرجع سبق ذكره، ص ص.48-49.

ويمكن أن نشير بإيجاز إلى بعض ما قام به الأمير في ذلك: يذكر الباحثون أن الأمير قضى 27 عاما (1856-1883) في دمشق في القراءة وحلقات العلم والتأليف والعبادة والتأمل الصوفي.

وفيما يتعلق بالتدريس، فقد طلب منه علماء دمشق وفقهاؤها أن يكون أستاذهم وقد حصل وكانوا يجتمعون به بالجامع الأموي ثلاث ساعات يوميا ابتداء من صلاة الظهر. وقد كان محور الدروس القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بمنهجية جديدة لم تعهد من قبل بسبب تضلعه في الفلسفة وتوظيفها في التدريس والمناقشة. كما درّس أيضا بالمدرسة الأشرفية (دار الحديث النووية) والمدرسة الجقمقية (شمال الجامع الأموي) كما درّس أيضا بزاوية[1] أبي النصر ببيروت كما درّس في منزله ابتداء من 1864م ومن الكتب التي درّسها فقد ختم صحيح البخاري في 24 شوال 1274هـ/3 حزيران 1858م بدار الحديث النووية والإتقان في علوم القرآن للسيوطي وكتاب الإبريز في مناقب سيدي عبد العزيز لأحمد المبارك في المدرسة الجقمقية وفي شهر رمضان 1275هـ/نيسان 1859م. واعتكف بالجامع الأموي وقرأ كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض والصحيحين في مشهد الإمام الحسين والمشهد السفرجلاني من جامع سيدي يحي، كما قرأ كتاب الإحياء للغزالي. أما الإنتاج العلمي فقد تولى الأمير طبع الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي لأول مرة وذلك بعد أن قام بتحقيقه إذ نجده في سنة 1871 يرسل نسخة منه مع عالمين جليلين إلى قونية بتركيا الأسيوية لمقابلتها وتصحيحها طبقا للنسخة الأصلية الموجودة بها بخط محي الدين ابن عربي وبعد التصحيح قرأها على بعض الخاصة من العلماء في بيته قبل أن ينشرها. ويجب أن نذكر هنا بأن بيته صار مأوى للعباد الذاكرين وكبار علماء التصوف ومنهم الشيخ عبد الرزاق البيطار (ت/1916م) والشيخ محمد الخاني (ت 1279هـ/1862م) وغيرهم ومن خلال هذه اللقاءات أنتج الأمير كتاب الموقف.

---

[1] إسعيد عليوان، مرجع سبق ذكره، ص ص.49-50.

نتوصل مما سبق يقول الدكتور اسعيد عليوان إلى أن الجانب العلمي والتعبدي استحوذ على الأمير بدمشق إلى وفاته، فكيف يعقل أن تتسرب إليه الماسونية وهو في هذا الجو المشحون بروح الإيمان والقرآن والسنة والتصوف؟ وهاهي حياته اليومية في دمشق كما نص على ذلك تشرشل (كان ينهض ساعتين قبل الفجر وينغمس في الصلوات والعبادة حتى الشروق، ثم يذهب إلى المسجد، وبعد أن يقضي هناك نصف ساعة في الصلاة العامة – صلاة الضحى – يعود إلى منزله فيتناول وجبة سريعة، ثم يدخل مكتبه للدراسة إلى نصف النهار، وعلى صوت الآذان يعود إلى المسجد فيأخذ مكانه ويفتح الكتاب المعين للمناقشة ويقرأ بصوت عالٍ. وكان يتوقف باستمرار عند طلب تلك التوضيحات التي تفتح المستودعات المتنوعة والمتراكمة لسنواته المضطربة من دراسته الشاقة ومن التحقيق والبحث. وكان هذا الدرس يستغرق ثلاث ساعات. وبعد صلاة الظهر يعود عبد القادر إلى منزله حيث يقضي ساعات مع أطفاله[1] متفحصا تقدمهم في دراستهم، ثم يتناول الطعام، وعند الغروب يعود إلى المسجد حيث يعطي درسا يستغرق ساعة ونصف. وبذلك ينتهي واجبه اليومي كأستاذ ولكن ما يزال في اليوم بعض الساعات وهي التي يقضيها في مكتبه ثم يذهب للراحة[2].

أما سخاء الأمير فيقول عنه تشرشل: (إن عبد القادر شديد الاحتفاظ بتوقيت الصدقات ففي يوم جمعة يشاهد المرء الشارع الذي يقود إلى منزله مليئا بالفقراء الذين تجمعوا لأخذ نصيبهم من الخبز في الموعد المحدد. وكان الموتى من الفقراء يدفنون من حسابه الخاص سواء كانوا من صيدا أو من دمشق كلها. إذ كانوا حقا معوزين. ومهما كانت مشكلة العوز فإنها لا تحتاج إلى أكثر من لفت انتباهه إليها حتى يقوم بحلها. وكان يقدم بانتظام وفي كل شهر من عشرين جنيها انكليزيا هبات خيرية[3].

---

[1] إسعيد عليوان، مرجع سبق ذكره، ص52.

[2] تشرشل هنري، مرجع سبق ذكره، ص367.

[3] تشرشل هنري، مرجع سبق ذكره، ص ص.367-368.

يقول اسعيد عليوان فأين الماسونية في هذا الجو المشحون بروح الإيمان والاتصال المستمر بالله عز وجل؟ وأين التكالب على المال في هذا السخاء بالمال؟

2- إخماد فتنة 1276هـ/1860م الطائفية بين الدروز والنصارى في دمشق:

لقد تحدثنا عن هذا سابقا لكن لم نفصل فيه لذلك نقول هنا للتأكيد بالاستعانة بالمؤرخين مثل اسعيد عليوان ما يلي:

يعد إخماد الأمير لهذه الفتنة من أكبر أعماله، وهو موقف يدل على تشبعه بقيم الإسلام الذي جاء رحمة للعالمين ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ الأنبياء 107، وهو أيضا موقف إنساني نبيل، وقد شرع الأمير في إخمادها قبل وقوعها حيث جمع العلماء والوجهاء والأعيان من أهالي دمشق وحثهم على إخمادها والتجنيد لذلك. ومما قال في تلك الخطب: "إن الأديان، وفي مقدمتها الدين الإسلامي، أجل وأقدس من أن يكون خنجرة جهالة، أو معول طيش. أو صرخات نذالة تدوي بها أفواه الحثالة من القوم... أحذركم أن تجعلوا لشيطان الجهل فيكم نصيبا، أو يكون له على نفوسكم سبيلا".

يقول المؤرخ محمد الشريف سحلي[1]: ظلت مسألة المشرق تعالج كجرح لا يندمل. كانت القوات الأوربية تقود رقصة الحرب حول هذا "الرجل المريض"، فلقد ترك النظام التركي العاجز سكان المشرق نهب دسائس الأجنبي وأفعاله. وكانت المنافسة بين فرنسا وانجلترا على أشدها إحداهما تدعم الدرز والأخرى تحمي المارونيين. وكان هذا الصراع بين الدرز والمارونيين فرصة لقيام اضطرابات دموية تبرز التدخل الأجنبي المسلح. في الواقع على الطموحات الانجليزية الفرنسية أن تنتظر كي تتحقق عند نهاية الحرب العالمية الأولى والهزيمة التركية. وحسب الأقوال الغربية، فإن مجازر المسيحيين ستتم تحت إمرة الحاكم

---

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص118.

التركي بدمشق الباشا أحمد. ترى ما هي المناورات الدنيئة التي ستسبق الاضطرابات؟ إن التاريخ الغربي لأسباب يمكن استشفافها لم ينبس ببنت شفة في هذا الفصل.

في مايو 1860، أخبر الأمير عبد القادر بالمؤامرة التي يجري الإعداد لها. فقد اتصل به بعض الدرز في المسجد ليخبروه ويلتمسوا قبول مساعدته. ولكن تبصر الأمير السياسي سرعان ما أدرك محركات الدسيسة. وهكذا أخذ يشرح لمخاطبيه استحالة مشروع خطر العواقب بالنسبة لمستقبل الشرق الأوسط. لم يترك لهم مجالا للشك حول موقفه. سيحاربهم إن هم أصروا على تنفيذ فكرتهم الخطيرة هذه: "لن أكون بجانبكم، بل على العكس، إن المسيحيين خاضعون للسلطة ويدفعون الضريبة، ومن ثم يجب حمايتهم، سأقف في وجهكم إن جئتم إلى دمشق وسأحميهم، بعد ذلك، تأكدوا بأنه بمجرد إقدامكم على هذا الظلم، ستحلّ سفن أوربا ببيروت. أنظروا إلي أنا الواقف أمامكم. لقد كانت لي جيوش ومدافع وكنت منظما وها أنا اليوم كما ترون. الآن عليكم بإعمال النظر". ولكن عبثا: ذلك أن الناس المتعصبين لا يأبهون ولا يصغون إلى صوت العقل والحكمة. حينئذ تدخل الأمير لدى السلك القنصلي للضغط على الباشا أحمد الذي يعدّ رأس الفتنة والمؤامرة. طمأن الباشا الجميع وأرجأ تنفيذ المخطط. لم يكن الأمير بغافل عن هذا التهديد لا يزال قائما، فعاود التحذير في جوان ولكنه اصطدم بريبة الجميع، عندئذ، قرر عدم التعويل على السلطات القائمة، وأعد العدة اللازمة للحيلولة دون حدوث المجزرة. هل سيتولى هذه المهمة بمفرده؟ كلا، ذلك أن دعم الجزائريين المقيمين بسوريا أمر محسوم ومضمون. فجميعهم مجاهدون قدامى أو من المتعاطفين مع المقاومة الوطنية، وقد آثروا المنفى على الهيمنة الفرنسية. وهكذا قام الأمير بتعبئة حقيقية: استدعى إلى دمشق جميع أولئك الذين يقيمون في أرباض المدينة، ثم اختار من بين أصحابه القدامى رسلا كلفهم بالدعوة إلى الوفاق والسلم في المقاهي والمحلات.

وقد قام هو نفسه بالاتصال بالأئمة والمفتي قصد إشراكهم في هذا العمل المنذور لإشاعة السكينة والهدوء. غير أنه قوبل بتحفظ فظ لا يخلو من الحسد الشخصي. وهكذا فات الأوان من أجل إيقاف مجرى الأحداث.

في 8 جويلية، أخذ الأطفال الصغار يرسمون على الأرصفة الصلبان (ج. صليب) هل كان ذلك أمرا عفويا أم مبيتا مقصودًا؟ ازداد الطين بلّة حين أقدم مسلمون على تدنيس هذه الصلبان وإجبار المسيحيين على السير عليها. ثمّ توقيف الجناة بأمر من الباشا. لكن يا ترى كيف اعتبر هذا الفعل العادي الصادر عن السلطة كانحياز إلى صف المسيحيين وتحديا للمسلمين؟ ظل اللغز قائما. وفي 9 جويلية، انتشر بعض المسلمين في المدينة وأخذوا يصيحون: "الموت للمسيحيين".

وهكذا بدأت المجازر في المدينة المستسلمة للنعاس بفعل الحرارة الشديدة السائدة. وسرعان ما توجّه الأمير إلى المفتي ملتمسا عونه. غير أن المفتي لم يظهر له أثر. استنجد العديد من المسيحيين المطاردين بالقنصليات الأوروبية.

أدرك الأمير بأنه لن يظفر بالعدد الكافي من الرجال لحماية هذه القنصليات التي تفتقر هي الأخرى إلى إمكانيات المقاومة. كان مخططه قائما على جمع العدد الأكبر من المسيحيين في منزله ومنازل أصدقائه، ومن بين الأوائل الذين قبلوا بهذا الملجأ يوجد القناصلة الأمريكيون [1] والروس واليونانيون. بيد أن القنصل الفرنسي تردد في ترك منزله المحاط بعدد من المتظاهرين، ولحمله على اتخاذ القرار، يقال أن عبد القادر خاطبه قائلا: "الآن أصغ إليّ وقدّر كلامي حق قدره، لن يمسك أحد بسوء، لأني مسؤول عنك إزاء من أطلق سراحي، إن الخطر يتفاقم، ومن ثمّ يجب علي أن أضاعف إمكانياتك الدفاعية. وإن أصررت على البقاء هاهنا، فإنك ستدفعني إلى تقسيم القوات التي هي في متناولي. وإن قبلت على العكس من ذلك بنزولك ضيفا عليّ، فإني سأسعى إلى نجدة المسيحيين بتسخير

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص ص.119-120.

جنودي. لقد قلت لي بنفسك: "إن فرنسا موجودة في كل مكان يرفرف فيه العلم الفرنسي"، إذن خذ علمك ونصبه على منزلي وليصبح منزل عبد القادر فرنسا".

يقول المؤرخ محمد الشريف سحلي[1] لا يوجد شيء يضمن لنا بأن أقوال عبد القادر قد رويت بأمانة، ومهما كان الأمر، فإنه من العبث بمكان أن تكون العبارات الأخيرة لهذه الفقرة ترجمانا لوطنية عبد القادر الفرنسية. فدلالتها واضحة ودقيقة بالنظر إلى الأفق الواقعي والعملي للسياق. فعبد القادر وهو رجل عمل، يمجّ الروح البيزنطية وعلى وعي بمخاطر ومستلزمات الساعة. وفي ظروف خطيرة كهذه لا يتعلق الأمر بالنسبة إليه في الإعراب عن مشاعر موالاته أو معاداته لفرنسا، بل بإنقاذ حيوات بشرية، فهو يترك القنصل حرا في الانقياد للعمليات الرمزية لسمعة مبالغ فيها ولكنه يطلب منه في مقابل ذلك باقتفائه حتى لا يضاعف من صعوبات مهمته.

وهكذا اتجه قنصل فرنسا والمسيحيون الملتجئون لديه صوب منزل عبد القادر، تحت حراسة جزائريين، بعد ذلك، تجمّع حول منزل عبد القادر حشد من الناس في أوج الغليان، لم يأبه الأمير بالأمر، بل ظل يفكر في العدد الكبير من المسيحيين الذين كانت حياتهم في خطر. ثم توجه بعد أن ترك خلفه حراسا كافين صوب الأحياء التي طالها الشغب رفقة ثلاثة مائة من الرجال الشجعان. وسرعان ما دوّى صوته القوي في الشوارع الضيقة: "أيها المسيحيون تعالوا أنا عبد القادر بن محي الدين، تعالوا أحميكم".

في مستهل الأمر، تردد المسيحيون وهم نهب الخوف الشديد، في إخلاء مخابئهم. ولكنهم أخذوا شيئا فشيئا يبرزون من كل مكان. وهكذا بلغ عدد الملتحقين بعبد القادر أكثر من سبعة مائة شخص، رافقهم متطوعون جزائريون إلى غاية منزل الأمير في شكل مجموعات صغيرة. في مدينة دمشق، تعاظم الغضب لما تناهى إلى علم الناس بأن منزل

---

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص ص.120-121.

عبد القادر قد تحوّل إلى ملجأ لمئات من المسيحيين، وكانت قلوب هؤلاء مفعمة بالغضب، واستغل منشطو هذه المظاهرة هذا الخبر ضد الأمير الذي اتهموه بخيانة الإسلام.

في اليوم الموالي، منذ الفجر، أحاط حشد هائل من الناس بمنزل الأمير، وهو يرسل صراخات وشتائم ويطالب بأن يسلم له المسيحيون. كان الأمير قد استيقظ منذ مدة لأداء صلاة الفجر، وهو مستعد لمواجهة الإعصار. كان وحيدا أعزل، وثابتا ورزينا، وقف أمام الحشد الغاضب وخاطبه قائلا: "يا إخواني: إن ما تقومون به تهوّر، ألا يقول القرآن الكريم: لا إكراه في الدين...؟ ردّ عليه أحد المستفزين المندسين في الحشد: لسنا بحاجة إلى رأيك أيها المجاهد.

وردّ الأمير: "أيها المجانين، أنتم كالحيوانات لا تفقهون سوى الكلأ والماء". فرد الحشد الموتور قائلا: "نريد المسيحيين، نريد المسيحيين". ولما لاحظ الأمير عدم جدوى جهوده الرامية إلى إقناع الناس استقام ثانية في وضع من التحدي المطلق وقال: "المسيحيون؟ لن تنالوا مسيحيا واحدًا طالما ظلّ جندي من جنودي حيا. إن المسيحيين ضيوفي يا قتلة النساء والأطفال. هيا حاولوا أخذهم وسترون كيف يحسن جنود عبد القادر القتال. أقسم بالله بأننا سنجاهد من أجل قضية مقدسة قداسة القضية التي جاهدنا في سبيلها من قبل. هيا يا قاره محمد، إليّ بالأسلحة والجواد".

إزاء حزم وعزم القائد الفذ، والإشارة إلى ملحمته الأسطورية وحملة جنوده، تفرق الحشد المنبهر سريعا يبدو أن الحشد، بعد أن تلاشى حماسه فجأة، قد فرّ خجلا من كونه قد شكك في لحظة من الضلالة في شخص الأمير[1].

بعد ذلك، شرع الجزائريون يبحثون عن المسيحيين عبر شوارع المدينة. في اليوم الثالث، تجمع أكثر من أربعة آلاف مسيحي في منزل عبد القادر. غير أن المكان والغذاء

---

[1] محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص122.

أخذا يقلان وينحسران شيئا فشيئا وأصبح الوضع مأسويا. أرسل الأمير وفد لدى الباشا يلتمس مساعدته، قبل الباشا بإيواء المسيحيين في القلعة شريطة أن يتولى حراس جزائريون كثيرون حمايتهم من غضب الجيوش التركية المحتمل، بيد أن المسيحيين راعتهم فكرة مغادرة منزل عبد القادر، فارتموا عند رجله يلتمسون البقاء عنده: "يا عبد القادر، وحق السماء، لا تسلمنا للأتراك، بأبيك وزوجك وأبنائه، أنقذنا من الأتراك، اقتلنا أنت الذي وهبتنا منزلك".

تأثر الأمير للمشهد أيما تأثر، ولكنه لم يقو على العدول عن قرار ضروري. طمأن المسيحيين، ولإشاعة الثقة فيهم، أمر قنصلين بمرافقتهم ولكن كان ثمة مسيحيون آخرون يجب إنقاذهم. أدرك عبد القادر حدود نشاطه وقدراته، فجنوده لا يمكنهم أن يتواجدوا في كل مكان، حينئذ أمر بنشر الإعلان التالي عبر المدينة كلها: "ليكن في علم الجميع أن من يأتيه بمسيحي حيّ سيقبض مبلغا قدره خمسون قرشا". لقد كان لهذا التدبير نجاعة مباشرة ولم يكف المسيحيون عن التدفق على الأمير الذي أبدى سعادة جمة وهو يفرغ صرته من أجل خلاص أمثاله.

وهكذا سجّل التاريخ بعد أفول هذه الأيام المأسوية بأن الأمير الجزائري الفذ قد أنقذ أكثر من اثنا عشرة ألف شخص[1].

3- مساعيه لدى قيصر روسيا نقولا الأول ونابليون الثالث لإطلاق سراح الإمام شميل (الزعيم الداغستاني) من سجون روسيا ونجاحه في ذلك:

الإمام محمد (شامل) كان صديقا للأمير عبد القادر تبادلا المراسلات من 1860 إلى 1865 تجمع بينهما كما يقول الدكتور اسعيد عليوان[2] أشياء كثيرة كالثقافة الإسلامية الواسعة والاستبسال في مقاومة الاحتلال الأجنبي، فالأمير قاوم الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1832 إلى 1859م وأسس كل منهما دولة قوية وحصر صفوف الشعب ونظم الجيش.

---

(1) محمد الشريف سحلي، مرجع سبق ذكره، ص123.

(2) اسعيد عليوان، مرجع سبق ذكره، ص ص.57-58.

وكلاهما أجبر على إيقاف القتال وزج به في السجن ولم يطلق سراحه إلا بعد سنوات طويلة من العذاب. ولنشر بإيجاز إلى هذا الإمام.

ولد في 1799 باغستان شرق القفقاز. وكانت تابعة للفرس أصلها الروسي في بداية القرن 19 ثار سكان داغستان فتسلم زمام المقاومة ابتداء من 1832 بعد استشهاد شيخه واصل الجهاد ونظم الدولة والجيش قبل الأمير عبد القادر وكانت شخصيته قوية وصارمة أبلى بلاء حسنا في كثير من المعارك ولكنه أسر مثل الأمير وأبقى به سجينا في مدينة كالوغا قرب موسكو يوم 6 سبتمبر 1859م بعد 25 سنة من المقاومة. وقد توسط الأمير في إطلاق سراحه لدى نابليون الثالث أثناء زيارته لباريس طالبا منه الاتصال بقيصر روسيا نقولا الأول لإطلاق سراحه ويبدو أن الإمبراطور استجاب لذلك كما توسط أيضا لدى قيصر روسيا بواسطة السفير الروسي لدى الدولة العثمانية فوعده بإطلاق سراحه والأمر له بالسفر، وقد استجاب القيصر لمساعي الأمير عبد القادر. فأطلق سراح الإمام شميل سنة 1869.. الحجز ليحج يقيم بها إلى وفاته في 14 فبراير 1871 نتوصل مما سبق إلى أن الأمير ظل يعيش في ظل محن المسلمين ويعانيها ويسعى في حملها مما يعني أنه لازال على خطه الأول الذي كان عليه في الجزائر ولم يتحول إلى شخصية جديدة عكس ما يذهب إليه التميمي.

4- العمل على إصلاح النظام السياسي للخلافة العثمانية:

أدرك الأمير عبد القادر فساد النظام السياسي العثماني القائم على سياسة التتريك. رأى رأي العين ظلم الولاة الأتراك للعرب المسلمين ونصارى في بلاد الشام، ورأى كيف تسبب الوالي العثماني في تلك الفتنة التي وقعت بين المسلمين والمسيحيين وكيف عمل على تجريد الأمير عبد القادر بما له من السلاح لتنتقص المحنة أكثر ولو رفض الأمير لطلبه لحدثت الكارثة: أدرك الأمير كل هذا فرأى فيه مسلمو بلاد الشام سنة وشيعة ونصاراها أنه لرجل المناسب لمبايعته وجعله أميرا لبلادهم مستقلا عن الخلافة العثمانية وكان بإمكان

الأمير أن يقبل هذه الإمارة التي شنو يدها الدول العربية وقد بدأت الاتصالات به سرا وعلنا إثر مؤتمر انعقد في 1877م ومن أهم الزعماء الذين كانوا على اتصال بالأمير يوسف بك الذي كان منفيا برومة وأحمد الصالح ومفتي مدينة[1] دمشق وتهيب أشرافها حسن تقي الدين الحصني. ولكن الأمير عبد القادر اشترط عليهم أن يقبل الإمارة شريطة بقاء بلاد الشام تابعة للخلافة العثمانية. بمعنى أنه نتيجة للظلم التركي للعرب عمل الأمير على تعريب نظام الحكم مع الاحتفاظ بالولاء التام للخلافة العثمانية. وهو المنطق السليم الذي يمكن به مواجهة الدول الغربية التي كان الأمير يدرك أطماعها في احتلال المنطقة. ودليلنا على صحة هذا التصور أن فكرة انفصال العرب عن تركيا بدأت في عهد ولاية مدحت باشا على سوريا وهو ماسوني جبار معروف وهنا نتساءل لو كان الأمير ماسونيا كيف يقف ضد مدحت باشا؟

5- إفشال مشروع فرنسا بتنصيب ملك الشرق:

وهو ما بينه الأستاذ شوفالي قاصرون وذلك أن الأمير عبد القادر بعد موقفه المشرف من فتنة 1860م انقلب الرأي العام الفرنسي لصالحه فرأى نابليون 3 أن الفرصة مواتية ليعرض عليه مملكة المشرق. ولكن الأمير عبد القادر رغم المغريات الكثيرة رفض الفكرة من أساسها وقال لرسول نابليون كلمة رائقة: "إن هدفي لم يكن في يوم من الأيام تولية المملكة، وإنما ظروف بلادي جعلتني أتولى الدفاع عنها فقدت جيوشها. وشاء الله أن تطوى صفحة الجهاد، فانتقلت للجهاد الأكبر وهو خدمة العلم والدين"[2]. وإذن لا يمكن أن يكون الأمير عميلا. فأين الماسونية وأين التكالب على المال وقد جاءته الملكة والملك ورفض؟ !

---

[1] اسعيد عليوان، مرجع سبق ذكره، ص59.

[2] المهدي البوعبدلي، "وثائق أصيلة تلقي أضواء على حياة الأمير عبد القادر"، **مجلة الثقافة**، وزارة الثقافة، الجزائر، عدد خاص، ماي-جوان 1983، ص148.

وقد علق شوفالي فاجرون على هذا الرفض قائلا: "لم تكن أمنية رجال الحكم الفرنسي العثور على رجل عربي قوي يتولى حكم بلاد المشرق بإعاناتهم، بل كان يشارك الفرنسيين في البلوغ إلى هذا الهدف الإنجليز أيضًا. وقد بلغت انجلترا هدفها إذ وجدت الملك فيصل إلا أن فرنسا من سوء حظها وجدت في طريقها الأمير عبد القادر، وشتان ما بين الشخصين"[1].

وقد بين المهدي البوعبدلي بعد عرض لجوانب من حياة الأمير بأن حياته " لم تتغير من بدايتها إلى نهايتها... وإن طرأ شك لبعض المصطادين في الماء العكر واتهموا الأمير بأنه كان يستجدي ويستغل المناسبات لطلب الإعانات، فيكفينا أنه عرض عليه ملك الشرق العربي من رئيس فرنسا نفسه وفرضوا له ميزانية تعجز عن مثلها كبار دول الشرق والغرب كما ذكر الأستاذ Agéron في ملتقى باريز... ورفض وعلل رفضه فمحاولة إلصاق هذه التهمة نجد وراءها بقية المسعورين وأذنابهم"[2].

6- تدخله لدى حكام تونس مرتين لصالح المقاومة الجزائرية:

وهذا عكس ما ادعاه التميمي وقد كان هذا التدخل لصالح ابن ناصر بن شهرة الأولى لدى الباي خير الدين التونسي لتصفية أملاكه التي خلفها بتونس والثانية لدى الباي مصطفى بن إسماعيل في قضية لازالت مجهولة لأن رسالة الأمير تحيل إلى رسالة ابن شهرة، وهذه الأخيرة لم يعثر عليها.

وقد التحق ابن شهرة بالأمير عبد القادر بعد أن أرغمه باي تونس على الرحيل فغادرها يوم 2 جوان 1875م من حلق الوادي على متن باخرة إلى بيروت ليستقر مجاورا لمحي الدين مليا ثم يلتحق بالأمير عبد القادر بدمشق إلى وفاته عام 1884م بعد وفاة الأمير بسنة[3].

---

(1) المهدي البوعبدلي، مرجع سبق ذكره، ص148.

(2) نفس المرجع، ص150.

(3) مرجع سبق ذكره، ص62.

الفصل الثاني

بيئة الأمير الثقافية وعصره

المبحث الأول

عصر الأمير

لقد نشأ الأمير عبد القادر وتربى في الجزائر التي كانت تابعة للخلافة العثمانية حيث ابتدأت هذه الأخيرة (الفترة العثمانية) من تاريخ الجزائر في الربع الأول من القرن السادس عشر (1516) بالتحرش الإسباني، وانتهت في الربع الأول من القرن التاسع عشر (1830) بالاحتلال الفرنسي. وقد تميزت هذه الفترة بما يلي:

1) نظام الحكم أثناء العهد العثماني:

اتصف نظام الحكم الذي عرفته البلاد الجزائرية أثناء العهد العثماني بتعاقب عدة أنظمة سياسية عبر فترات تاريخية محددة أولها فترة الحكم الباي لارباي "باي البايات" 1518–1588، التي ابتدأت باستقرار الحكم التركي بفضل جهود الأخوين عروج وخير الدين بربروسة وانتهت بتنحية علج علي من مقاليد السلطة، وثانيها فترة حكم الباشوات 1588–1659، الذين حددت مدة حكم كل واحد منهم بثلاث سنوات، وثالثها فترة حكم الآغوات القصيرة 1659–1671 والتي عرفت فيها الجزائر اضطرابا في نظام الحكم وفوضى في شؤون الإدارة، أما المرحلة الرابعة والأخيرة، فهي فترة حكم الدايات الطويلة التي استمرت بدون انقطاع من 1671–1830 وعرفت فيها الجزائر مقومات السياسة، وتمتعت بالاستقلال الفعلي عن الدولة العثمانية.

وممّا يلاحظ أن تعاقب أنظمة الحكم هذه، وما صاحبها من تطور في المؤسسات الإدارية، وتحول في الجهاز الاقتصادي للجزائر جعل الدولة الجزائرية – لاسيما في الفترة الأخيرة من حكم الدايات – تتميز عن باقي أقاليم الإمبراطورية العثمانية بكيانها المتميز بإدارة منتظمة وعاصمة قارة وحدود معترف بها وروابط متفق عليها مع باقي الدول والأقطار بحيث أصبحت الجزائر دولة مكتملة السيادة لها كامل الصلاحيات في توقيع الاتفاقيات وإقرار المعاهدات مع الدول الأوروبية بدون الرجوع إلى الباب العالي، ومن المؤكد أن هذا

التطور في نظام الحكم[1] الذي عرفته الجزائر في العهد العثماني وانتهى بها إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية يعود إلى الظروف الدولية والأوضاع المحلية التي كانت تعيشها البلاد الجزائرية، فازدهار الغزو البحري وتكاثر الغنائم مكّن الباي لارباي أن يدعموا حكمهم ويتدخلوا في شؤون الأقطار المجاورة، وهذا النفوذ المتزايد لهؤلاء الحكام الذين كانوا رياس بحر أكثر من كونهم رجال حكم هو الذي دفع الدولة العثمانية إلى تعويضهم بالباشوات لاسيما بعد أن خفّ الصراع الإسباني – العثماني في حوض البحر الأبيض المتوسط، وركن السعديون بالمغرب الأقصى إلى المهادنة والصلح، كما أن طبيعة حكم الباشوات المؤقت وما أحدثه من عدم الاستقرار، ومحاولة الكثير من الباشوات استنزاف خيرات البلاد والاستحواذ على جزء من عوائد الغزو البحري ولو على حساب الوجاق وجماعة الرياس سمح لقادة الجيش "الأغوات" أن يتولوا شؤون الحكم وان ينتهجوا سياسة مستقلة عن الدولة العثمانية، على أن هؤلاء القادة العسكريين لم يستطيعوا التخلص من منافسيهم، ولم يحسنوا تسيير شؤون البلاد، وكذلك استقر رأي أعضاء الديوان على اختيار نوع آخر من الحكم يعتمد على مبدأ الاختيار ذي الطابع الأوليقارشي، وبذلك أصبح نظام حكم الإيالة الجزائرية أشبه شيء بجمهورية عسكرية يتولى تسيير شؤونها حاكم منتخب هو "الداي" الذي له مطلق الصلاحية في التصرف في شؤون الإيالة، ولا يحد من نفوذه سوى وجود مجموعة من المواطنين الكبار والقادة العسكريين الذين كانوا يجتمعون عادة بالديوان لتقديم النصح والمشروة للداي.

وقد كان اختيار الدايات في أول الأمر 1671–1689 يتم من بين صفوف الرياس، نظرًا لنفوذهم وثرواتهم ومكانتهم في أوساط السكان، ولكن بعد أن تناقصت ثرواتهم وقل

---

[1] ناصر الدين سعيدوني والشيخ المهدي بوعبدلي، **الجزائر في التاريخ**، الجزء الرابع، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص15.

نفوذهم إثر ضعف نشاط القرصنة أصبح الداي يختار من بين قادة الوجاق الذين ظلوا يتقلدون منصب الداي حتى نهاية العهد العثماني (1830-1689).

وأثناء الفترة الأخيرة من حكم الدايات ضعفت روابط الجزائر بالسلطة العثمانية واقتصرت على تقديم فروض الطاعة للسلطان باعتباره الخليفة(1) الشرعي للمسلمين وتبادل الهدايا وإرسال الإعانات وجلب المتطوعين الأتراك للعمل في قرى الأرياف، وهذا ما يجعل العلاقة بين الجزائر وإسطنبول لا تتعدى في حقيقة الأمر نطاق المصلحة المشتركة، في وقت أصبحت فيه الدول الأوروبية تتعامل مع الجزائر على اعتبارها كيانا سياسيا مستقلا عن الباب العالي، وتعتبر حكامها (الدايات) على أنهم رؤساء دولة مستقلة.

ولعلّ أهم حدث يبرز لنا مدى تبلور الكيان الجزائري في فترة حكم الدايات الأخيرة نستخلصه من تمكن الدايات من التخلص من الباشا مبعوث السلطان إلى الجزائر الذي اعتاد الباب العالي إرساله إلى الجزائر لتمثيله شخصيا لدى ديوان الجزائر في وقت كان فيه التنافس قائمًا بين طائفة الرياس التي كانت تعتمد على معاضدة العناصر اليونانية والألبانية "الأرناووط" التي بلغ عدد أفرادها في بعض الأحيان ما بين ستة آلاف وثمانية آلاف رجل، وبين جماعة الوجاق التي كانت تعاضدها العناصر التركية الوافدة من الأناضول للخدمة في الجيش الجزائري، لكل تزايد نفوذ الوجاق مكن الداي علي شاوش من منع دخول الباشا إبراهيم، بعوث السلطان إلى الجزائر عام 1771، ممّا اضطر الباب العالي أخيرا إلى الامتناع عن إرسال ممثل عنه وإسناد لقب الباشا إلى علي شاوش، وبالتالي أصبح دايات الجزائر يجمعون بين المنصب التنفيذي "الداي" واللقب الشرقي "الباشا" ويستحوذون على المهام التنفيذية لجهاز الحكم بالجزائر، حتى أن بعض المؤرخين الغربيين لم يترددوا في وصفهم بأنهم كانوا يجمعون ألقاب السلطة كلها رغم بقائهم في نطاق الرابطة الإسلامية المتمثلة في الدولة العثمانية.

---

(1) ناصر الدين سعيدوني والشيخ المهدي بوعبدلي، **الجزائر في التاريخ**، مرجع سبق ذكره، ص15.

2) النظام الإداري أثناء العهد العثماني:

عرف الجهاز الإداري للجزائر في العهد العثماني تطورا ملحوظًا وذلك منذ استقرار الحكم التركي بالجزائر، وحتى أن استكمل تنظيماته واستقرت أجهزته مع نهاية القرن الثامن عشر، بحيث أصبحت السلطة التنفيذية بيد الداي الذي كان يساعده في أداء مهامه الإدارية وإصدار أوامره مجموعة كبيرة من الموظفين والضباط المتقاعدين الذين كانوا بدورهم يشكلون[1] الديوان الكبير الذي يجتمع أعضاؤه في المناسبات الرسمية والمواسم الدينية، ونظرا لطبيعة اختيار الداي الذي كان يتم من طرف الوجاق في الفترة الأخيرة، ويختار من بين كبار الموظفين والضباط المتقاعدين، فإن مهامه كانت تتصل بإقرار الأمن والمحافظة على النظام وتوفير المداخل الضرورية للإنفاق على موظفي الدولة، والسهر على رعاية مصالح الدولة، وهذا ما سمح له أن يتخذ إجراءات ويصدر أوامر بدون الرجوع إلى مساعديه، الأمر الذي دفع أحد الرحالة الأوروبيين إلى وصفه بأنه مستبد وليس له حرية، أرستقراطي ولكنه محروم من أرباح القرصنة.

أما مجموعة الموظفين الكبار الذين كانوا يساعدون الداي في أداء مهامه، فيمكن ترتيبهم حسب أهمية الأعمال التي كانوا يقومون بها في أواخر العهد العثماني كالتالي:

- **الخزناجي:** أو المتصرف في خزينة الدولة، كان يقوم بتسليم المداخيل ويشرف على الإنفاق ويراقب أمور السكة، يساعده في مهامه المالية أمين السكة وبعض من الحضر واليهود.

- **آغا العرب:** أو آغا العسكر، قائد فرق الانكشارية، "الوجاق" وجماعات فرسان المخزن "الصبانحية" يتلقى أمره من الداي مباشرة وأوكل إليه مراقبة قيادات متيجة والساحل وأوطان دار السلطان والمناطق الملحقة بها كسهول ساباو وعريب، وتزايد نفوذه أواخر العهد

---

[1] ناصر الدين سعيدوني والشيخ المهدي بوعبدلي، **الجزائر في التاريخ**، مرجع سبق ذكره، ص ص.16-21.

العثماني داخل مدينة الجزائر بعد أن كلف بإقرار الهدوء والمحافظة على الأمن بالضواحي القريبة من المدينة "الفحص".

– **بيت المالجي:** يراقب الأملاك والثروات التي تعود للدولة نتيجة المصادرة أو انعدام الورثة، كما يقوم بحفظ الودائع وتسيير أملاك الغائبين والتصرف فيها في حال شغورها وذلك ببيعها أو تسليمها لمستحقيها أو كرائها لفائدة البيالك بالإضافة إلى قيامه بعض الأعمال الخيرية كتوزيع الصدقات على المستحقين والتكفل بدفن الفقراء المعدمين.

– **خوجة الخيل:** ارتقى إلى مرتبة الموظفين الكبار بعد أن أصبح يدير أملاك البايليك ويرعى مواشي الدولة، ويتصل بفرسان المخزن وبالعشائر الحليفة أو المقيمة في أراضي البايليك بمناطق دار السلطان والتيطري للحصول على المواد الغذائية الضرورية لتموين الموظفين الأتراك والفرق العسكرية المعسكرة في مدينة الجزائر.

– **وكيل الحرج:** يراقب النشاط البحري ويشرف على أعمال الترسانة البحرية وينظر في توزيع الغنائم، ويتصل في بعض الأحيان بقناصل ومبعوثي الدول الأوروبية. ورغم أهمية وظيفة وكيل الحرج التي جعلته يهتم بالشؤون الخارجية ويشرف على أمور البحرية، إلا أنه ما لبث أن تضاءلت مكانته وتقلصت صلاحياته إثر ضعف القرصنة واشتداد الضغط الأوروبي على الجزائر وتزايد نفوذ آغا العرب والخزناجي.

– **الكتاب الأربعة أو الخاجة باش لار:** تزايد نفوذهم واكتسبوا مرتبة سامية في جهاز الدولة حتى أصبحوا يعتبرون من الموظفين الكبار وهم على التوالي:

الكاتب الأول أو المكتباجي أو المكاتارجي "المقاطعي" كان يشرف على سجلات الدولة. الكاتب الثاني أو الدفتردار: كان يراقب مخازن الدولة ويقوم بتسجيل مصادر دخل البلاد من الضرائب المختلفة والرسوم المتنوعة. الكاتب الثالث أو وكيل الحرج الصغير: كان يقوم بحفظ سجلات غنائم الجهاد البحري وضبط أمور الديوانة "القمارق". الكاتب الرابع أو الرقمجي: كانت مهامه تنحصر في المحافظة على السجلات الرسمية للدولة التي تتصل بالشؤون الخارجية وهذا ما تطلب وضع ترجمان خاص تحت تصرفه.

ومما يلاحظ أن هؤلاء الموظفين الكبار يشرفون بحكم مهامهم وصلاحياتهم على جماعات أخرى من الموظفين الصغار الذين انحصرت أعمالهم في القيام ببعض الخدمات العامة ذات الطابع الاجتماعي، والاقتصادي والتي أصبحت بمرور الوقت تؤدي حسب تقاليد وعادات متوارثة، ومن أهم هؤلاء الموظفين الصغار.

– **مجموعة الخوجات:** الذين كثر عددهم وتنوعت مهامهم حتى بلغوا في بعض الأحيان ثمانين خوجة، منهم خوجة القصر أو خوجة الباب الذي كان يتلقى الهدايا ويتوسط في إسناد المناسب وقضاء الحاجات، وكذلك خوجة القمرق حد الديوانة، وخوجة الرحبة "المكاس" وخوجة مخزن الزرع، وخوجة الملح، وخوجة الجلد وخوجة الفحم وخوجة العيون وخوجة الوزن، بالإضافة إلى خوجات أبواب المدينة والمنازل والدكاكين وغيرها من المصالح العامة.

– **مجموعة القياد:** أغلبهم كانوا يتولون الإشراف على شؤون البوادي "الأوطان" ويقومون بإقرار الأمن واستخلاص الضرائب من سكان الأرياف بالرجوع إلى شيوخ الدواوير والأعراش والاستعانة بفرسان المخزن وفرق الحامية التركية، والقليل منهم كان يشرف على سير الخدمات الاجتماعية داخل المدن، مثل قائد العبيد وقائد الشوارع وقائد الزبل "القمامة".

– **مجموعة الحكام:** يعود إليهم حكم المدن، ويكلف البعض منهم بالقيام ببعض المهام مثل مراقبة جمع الضرائب بالاستعانة بالرؤساء المحليين وأمناء المهن والطوائف، والسهر على إقرار الهدوء، وتنفيذ الأحكام بالحواضر، وقد توسعت صلاحيات بعض الحكام فأصبحوا يشرفون على شؤون كثير من العشائر مثل عشائر منطقة البرواقية، وقد تزايدت الصلاحيات الإدارية لهؤلاء الحكام في أواخر العهد العثماني حتى أصبحوا يعينون مباشرة من طرف الداي مثل حكام المدية ومليانة وتلمسان، وأصبحت أمور النقابات المهنية والطوائف العرقية تعود إليهم مباشرة.

– **مجموعة الضباط المتقاعدين:** "معزول آغالار أو بلوك باشلار": كانوا يشكلون مجلس الوجاق "الديوان الكبير" وعلى رأسهم الكيتخدا "الكاهية" أو البلوك باشي الذي يتولى

منصبه الشرفي لمدة شهرين قمريين مما أكسبه لقب آغا الهلالين، ثم يصبح بعدد هذه الفترة القصيرة معزول آغا، وأثناء توليه لمنصبه المؤقت كان يقوم آغا الهلالين بالإشراف على فرق الحامية التركية بمدينة الجزائر والموزعة على سبع ثكنات "قشلات" ويترأس مجلس الضباط "الديوان" ويقوم بتوزيع الرواتب ويحق له الجلوس مكان الداي أثناء توزيعه الجرايات على الجند، كما يحق له معاقبة الأتراك عند صدور الأحكام بشأنهم في منزله الخاص بعيدا عن أنظار السكان الآخرين من غير الأتراك.

ونظرا لكون منصب آغا الهلالين لا يسمح لصاحبه أن يستمر فيه أكثر من شهرين فإن كثيرا من الآغوات والبلوك باشيات ولاودا باشيات ارتقوا إلى هذا المنصب السامي، حتى أصبحوا في عام 1748م يعدّون بثلاثمائة معزول آغا.

– **مجموعة الخدم والشواش:** بلغ عددهم أواخر العهد العثماني اثني عشر شاوشا وعرف كل واحد منهم بالعمل الذي يقوم به، مثل أشجي باشا "كبير طباقي قصر الداي" الذي كان يحظى بثقة الداي وينال الهدايا المغرية، والباش سيار المكلة بالبريد، والباش سايس القائم على اصطبلات البايليك، والسركجي المشرف على السجون وآغا العزرة الذي يتولى معاقبة الأتراك المحكوم عليهم من طرف الداي، ويضاف إلى هذه المجموعات العديدة من صغار الموظفين، بعض القائمين على الخدمات الاجتماعية بالمدن مثل: شيخ البلد: يتصل بالطوائف السكانية بالمدن عن طريق أمنائها ويتصرف في النقابات المهنية باستخلاص ما يتوجب عليها من رسوم وعوائد، ويبلغ أوامر البايليك إلى مختلف الطوائف والجماعات العرقية والمهنية كالعلماء والحرفيين والوافدين على المدينة من سكان الأرياف.

– **الشيخ الناظر:** كان يشرف على الأحباس ويرجع إليه وكلا والأوقاف في جميع ما يتعلق بالأملاك الموقوفة، وبتوجيه منه يتم تسديد النفقات والمصاريف المترتبة على الأوقاف واستخلاص ما يعود منها إلى بيت المال.

– **المحتسب أو صاحب الشرطة:** كان يراقب كل ما يباع في الأسواق والدكاكين من مأكول ومشروب وملبوس ومصنوع حسب أحكام القضاء والإفتاء، وغالبا ما يتجول في

الأسواق وهو حامل الميزان لمعاينة نوعية وكمية المعروضات في الأسواق والتأكد من عدم تحايل التجار وتدليسهم ومن التزامهم بتحديد الأسعار وضبط المكاييل والموازين، وينال مقابل عمله هذا نسبة معينة من ثمن البضائع الواردة إلى السوق.

– **المزوار**: "الذي يعرف في قسنطينة بقائد القصبة": يطبق العقوبات الجسدية وينفذ حكم الإعدام بأمر من الداي في غير الأتراك، ويراقب أهل الدعارة، ويسهر على أمن الشوارع في الليل والنهار، ويراقب بعض السجون، وعادة ما يساعده في عمله الشاق بعض الأعوان من الحرس مثل السركاجي وقائد الفحص.

– **الدلاّل والبرّاج:** الأول ينادي على البضائع في الأسواق مقابل درهم عن كل دينار والثاني يعلن عن أوامر وقرارات السلطة الحاكمة، ويشهو بالمجرمين واللصوص والمحتالين.

وهذا النظام الإداري الذي تركز في مدينة الجزائر وإقليم دار السلطان، كان يماثل النظام الإداري المعمول به في بقية المقاطعات الأخرى وهي: بايليك الشرق وعاصمة قسنطينة، وبايليك الغرب ومركزه وهران منذ 1792، بعد ان انتقل مركزه من مازونة إلى مستغانم، ثم إلى معسكر، وبايليك التيطري ومركزه المدية. إذ كان على رأس كل بايليك باي مطلق الصلاحية في مقاطعته يعيّن مباشرة بأمر من داي الجزائر وغالبا ما يكون الباي مقربا من بعض الموظفين الكبار ويحظى بسمعة في مجلس الديوان أو يكون قد شغل منصب خليفة الباي الذي سبقه، والجدير بالذكر أن باي المدية انقصت صلاحياته في الفترة الأخيرة من الحكم التركي. فاقتصرت سلطته على مقاطعة التيطري دون مدينة المدية مركز البايليك[1] التي أوكل أمرها إلى حاكم تركي، يخضع مباشرة لأغا العرب المتصرف في دار السلطان، وذلك للحد من نفوذ الباي والتقليل من قوته نظرًا لقربه من مدينة الجزائر وسهولة اتصاله بدار السلطان وإطلاعه على ما يحدث بالديوان.

[1] ناصر الدين سعيدوني والشيخ المهدي بوعبدلي، **الجزائر في التاريخ**، مرجع سبق ذكره، ص ص.17-19.

هذا في حين أبقي التقسيم الإداري على ما هو عليه رغم محاولة بعض أحكام الأوائل إحداث مقاطعات أخرى على شاكلة بايليك قسنطينة ووهران والمدية ودار السلطان، مثل إقليم عنابة وتلمسان، وسابا والتي لم يكتب لها النجاح.

ورغم اختلاف أوضاع البايليكات الثلاث إلا أن المناصب الإدارية والصلاحيات التنفيذية كانت تتشابه فالباي في كل بايليك كان يقوم بالمحافظة على الأمن وإقرار الهدوء والحيلولة دون انتفاضة وعصيان القبائل بالأرياف، كما كان يتكفل بدفع أجور الحامية التركية الموجودة بمركز البايليك الذي يحكمه مع الاهتمام بالمرافق العامة بالمدن الكبرى التابعة له، وتأمين الطرق وإبقاء الاتصال بمركز السلطة بالجزائر، بالإضافة إلى حرصه البالغ على ضمان موارد قارة لخزينة البايليك وتوفير مبالغ ضخمة يبعث بها فصليا إلى الجزائر مع خليفته "الدنوش الصغرى" أو يتوجه بها شخصيا ليسلمها للداي وحاشيته كل ثلاث سنوات "الدنوش الكبرى". وعلى كل فإن التنظيم الإداري للإيالة الجزائرية كان يحمل في طياته تكوين دولة وطنية رغم ما كان يتصف به من مظاهر خاصة وجوانب سلبية وإيجابية نوجزها في الملاحظات التالية:

1)كان النظام الإداري وسيلة فعالة مكنت الأقلية التركية من التصرف في مقدرات الجزائر، وفي وقت أصبحت فيه الجزائر تتمتع فيه بكيان معترف به دوليا وتمارس استقلالا حقيقيا في نطاق الرابطة العثمانية التي قوامها المصلحة المتبادلة والروابط الروحية، وهذا ما أوقع كثيرا من الكتاب في الخلط بين طبيعة الجهاز الإداري الذي كان في صالح الأقلية التركية وبين وضعية الجزائر الدولية، فذهب بهم الأمر إلى حد اعتبار الجزائر مستعمرة تركية وهذا خلاف الحقيقة والصواب.

2)كان النظام الإداري يعكس بصدق الوضع الاجتماعي، فالمناصب ذات الدخل الوفير كانت محصورة في العنصر التركي، والمناصب ذات الدخل المتوسط كان ينفرد بها جماعة الكراغلة، والوظائف ذات المردود المتواضع كانت من نصيب الحضر، بينما

الخدمات الشاقة العديمة الأهمية كانت توكل للجماعات الأخرى الموجودة بالمدينة والتي كانت تعرف بالبرانية، ولعل أحسن دليل على ذلك أن مهنة المزوار الشائعة كانت مقتصرة على الحضر دون الأتراك رغم مردودها الكبير.

3)كانت التنظيمات الإدارية للإيالة الجزائرية تستند إلى تقاليد محلية كانت متأصلة بالجزائر منذ الفترة الإسلامية السابقة، وإن كان أغلبها يرجع إلى عهد الموحدين مثل وظائف، المحتسب والقياد والشيوخ وشيخ البلد، أو أنها كانت مقتبسة من المشرق العثماني، لاسيما ما يتصل بالمجال العسكري من حيث الألقاب ونوعية الخدمات، وكذلك في كيفية إسناد المناصب التي كانت تعطى عن طريق الالتزام، فقياد المدن كانوا يشترون مناصبهم بمقدار مالي يتراوح ما بين عشرة آلاف وثلاثين ألف بوجو، وخوجات الخدمات الاجتماعية والاقتصادية كانوا يحصلون على وظائفهم مقابل مقدار معين من المال يتسلمه المشرف على الخزينة كل شهرين، مما جعل هذه المناصب قابلة للعزل والتجديد حسب المبالغ المدفوعة.

4)كان الجهاز الإداري يتصف بالمرونة والفاعلية فهو بسيط في تنظيماته عملي في إجراءاته يعتمد أساسا على توزيع صلاحيات الموظفين على مختلف المهام حسب ما تقتضيه الحاجة، فحتى المناطق التي ظلت ممتنعة على نفوذ البايليك بقوة مسلحة من الفرسان المزودين بالبنادق "المزارقية" وبلفيف من فرسان القبائل الحليفة، ومقابل تمتع هؤلاء الشيوخ بالامتيازات ونيلهم الترضيات واكتسابهم ثقة الحكام، كانوا يقومون بتنفيذ أوامر الدايات أو البايات ويستخلصون الضرائب نيابة عنهم معتمدين على القوة العسكرية الموضوعة تحت تصرفهم ومن أشهر هذه القيادات التي تبرز طابع المرونة والفاعلية للجهاز الإداري للبايليك، قيادات الأوراس وبلزمة والنمامشة وقصر الطير وغيرها.

3) النظام القضائي أثناء العهد العثماني:

كان لنظام القضائي للجزائر في العهد العثماني انعكاس على الواقع الاقتصادي والاجتماعي وتأثير مباشر على موقف الأرياف من السلطة وصلة الحكام برجال الدين، فرغم كون النظام القضائي كان يستمد تشريعاته ويعتمد في نصوصه على الشريعة الإسلامية، إلا أنه كان يتصف بثنائية الهياكل والأحكام القضائية فهناك القاضي المالكي والقاضي الحنفي وهناك مفتي مالكي بجانب المفتي الأكبر الحنفي، فإذا كان الأمر يتعلق بالأتراك والكراغلة وبعض الحضر تستمد الأحكام من المذهب الحنفي، أما إذا كانت القضايا تخص الطوائف الأخرى من السكان فيعود في ذلك إلى أحكام المذهب المالكي، ومع قلة أتباع المذهب الحنفي فإن الأسبقية غالبا ما كانت تعطى للقاضي أو المفتي الحنفي الذي يعرف في الوثائق الرسمية بشيخ الإسلام ويعتبر الشخصية الدينية الأولى بالبلاد، وذلك لكون الطائفة التركية تنتسب إلى هذا المذهب.

وتبرز ثنائية الهياكل القضائية أيضا في كون الجهاز القضائي المنظم والتابع للبايليك يكاد يقتصر على المدن وبعض المناطق الخاضعة، بينما المناطق الجبلية والجهات النائية أو الممتنعة على الحكام يعود أمر القضاء فيها إلى شيوخها ومرابطيها وأهل الرأي منها، كما تنعكس هذه الثنائية في استقلال كل نحلة دينية أو طائفة مذهبية أو مهنية بمحاكمها الخاصة، فاليهود يتولى أمر القضاء بينهم أحبارهم ومقدموهم، والنصارى لهم محاكمهم الخاصة بهم ولا يعودون في أحكامهم إلى القوانين المعمول بها في البلاد إلا إذا تعلق الأمر بالمخالفات التي تحدث بينهم وبين المسلمين، وهذا ما سمح للقناصل ورجال الدين المسيحيين وبعض التجار الأوروبيين بالتدخل في القضايا الخاصة بالبلاد وتأكيد الامتيازات التجارية وانتهت بهم في بعض الأحيان إلى التحايل على تعليمات الدولة الجزائرية مثل إخفاء بعض الجزائريين والتستر عليهم حتى لا يتعرضوا لطائلة الأحكام القضائية الإسلامية، ولعل تجاسر القنصل الإنكليزي على فتح باب قنصليته لبعض الجزائريين المغضوب عليهم وتدخل

الأسطول الإنكليزي لتأكيد ذلك عام 1824، بقيادة الأميرال نيال، لخير دليل على كون ثنائية النظام القضائي لم تعد تتماشى مع متطلبات السياددة الجزائرية .

ومما يلاحظ على النظام القضائي وصلته بالمجتمع والاقتصاد انه كان لا يتدخل في شؤون الحكم ولا ينظر في أمور الدولة، الأمر الذي لم يسمح بإدخال تغييرات على الجهاز الاقتصادي والوضع الاجتماعي بل عمل على الإبقاء على الوضعية الممتازة للعنصر التركي، وحتى عند تطبيق الأحكام التي تتصل بالمخالفات نجد هناك تمييزا بين الأتراك وبقية السكان، فالعقوبات الصادرة في حق الأتراك كانت تطبق سريا في دار آغا الانكشارية حفاظا على كرامتهم أن تهدر بينما إذا تعلق الأمر بغير الأتراك فإن العقوبات تنفذ أمام الملأ بعد أن يشهر البراح بها في الأسواق.

ونظرًا لكون النظام القضائي كان يقتصر على المسائل الدينية والقضايا المدنية الصرفة، فإن الحكام لم يروا مانعًا من السماح لبعض الحضر والكراغلة بتولي المناصب القضائية التي لم يكونوا يتقاضون عليها أجورًا محددة وهذا ما ساعد على انتشار الرشوة ودفع ببعض القضاة إلى الانحراف في بعض الأحيان، بعد أن ضاقت بهم سبل العيش ولم يلقوا العناية اللائقة من الحكام مثل بقية الموظفين الآخرين، فالقاضي لم يسمح له إلا بأخذ موزونة واحدة مقابل كل وثيقة يصدرها. وقد اضطرت هذه الوضعية التي كان يعيشها رجال القضاء آنذاك بعض القضاة إلى مجاراة الحكام وإصدار أحكام تتماشى مع رغباتهم، وبذلك لم يعملوا على الحد من مظالم الحكام وتخفيف المطالب المخزنية والأعباء المالية على الفقراء بل كانت أحكام بعض القضاة التي تتصف بشدة العقوبات وبساطة المرافعات وسرعة التنفيذ، تعكس رأي الحكام أكثر مما تظهر تشكي المحكوم، ولعل موقفهم هذا هو الذي جعل أغلب القضاة يغضون الطرف عن وجود الخمارات بالمدن الكبرى، وقد كانت ثلاث منها تابعة للبايليك في مدينة الجزائر، ولا يرون مانعا من امتهان عدد كبير من النساء الدعارة حيث تجاوز عددهن في بعض الأحيان ثلاثة آلاف امرأة في مدينة الجزائر.

ولعل أهم ما يبرز لنا مدى تطور النظام القضائي في الجزائر العثمانية وتأثيره على الحياة الاقتصادية ما يتمثل في التنظيمات التي خضعت لها مؤسسة الأوقاف بعد أن تزايدت الأملاك الموقوفة التابعة لها في العهد العثماني وأصبحت في أواخر القرن الثامن عشر تستحوذ على نسبة كبيرة من الممتلكات داخل المدن وخارجها، قدرت نسبتها عند بعض المؤرخين بثلثي الأملاك الحضرية والريفية، بالجزائر العاصمة ونواحيها، فأوقاف الجامع الأعظم بالجزائر بلغ عددها مع نهاية العهد العثماني 543 وقفا، ونظرًا لكثرة الأوقاف وتعددها فإن القائمين على الجهاز القضائي بالإيالة الجزائرية عملوا على تنظيم تلك الأوقاف وحفظ مواردها وتسجيل عائداتها وهذا ما حدث بالمدن الكبرى كتلمسان والجزائر وقسنطينة التي انتظمت إدارة الأوقاف بها عام 1776م في عهد صالح باي.

4) النظام المالي أثناء العهد العثماني:

كان النظام المالي يقوم على تنظيم محكم لمصادر الدخل ووجوه الإنفاق، ويخضع لإجراءات فعالة لضبط حسابات الخزينة العامة "بيت المال" التي أصبحت العصب الحساس لنظام الحكم بالإيالة الجزائرية.

ونظرًا لأهمية القضايا المالية فقد اكتسب الخزناجي أهمية مكانة مرموقة أهلته لأن يكون الشخصية الثانية في جهاز الدولة، وأوكل إليه التصرف في ودائع الخزينة ومراقبة سك العملة وتحديد قيمتها ووضع تحت تصرف مجموعة[1] من الموظفين والكتبة والمستخدمين كالمكتباجي صاحب سجلات الدولة والدفتر دار أو وكيل الحرج الكبير المكلف بتسجيل مصادر دخل الخزينة ووكيل الحرج الصغير الذي يعود إليه تسجيل غنائم البحر ورسوم الجمارك، بالإضافة إلى أمين السكة ومساعديه من اليهود وهما العيار والوزّان.

---

[1] ناصر الدين سعيدوني والشيخ المهدي بوعبدلي، **الجزائر في التاريخ**، مرجع سبق ذكره، ص ص.26-30.

والجدير بالذكر أن إصدار العملة كان يتم بأمر من الداي وبإشراف من الخزناجي، وقد امتازت العملة الجزائرية آنذاك بتنوع مادتها واختلاف قيمتها، فهناك العملة الذهبية كالسلطاني أو سكة الجزائر، وهناك العملة الفضية المتمثلة في زوج بوجو أو دورو الجزائر أو في ريال بوجو وربع بوجو وثمن بوجو، بالإضافة إلى الموزونة وزوج موزونة وريال درهم المعروف ببدقة شيك المستعمل في العمليات الحسابية، ونصف بدقة شيك والصائمة، أما النقود البرونزية والنحاسية فهي متنوعة وكثيرة التداول منها الخروبة ودراهم صغار "غرامس" وأسبر شيك ونصف دراهم صغار.

على أن هذه الأنواع من العملة تعرضت لصعوبات جمة بفعل مزاحمة النقود الأجنبية التي كان الحكام يسمحون بالتعامل بها، مثل النقود الإسبانية التي شاع استعمالها إثر هجرة الأندلسيين واليهود إلى الجزائر وبفعل الوجود الإسباني بوهران وأهم أنواعها الدبلون والدوكة، والكرونة والدورو والقرش والدولار والريال والأسير والبستول والكاتريبل التي أصبحت محل ثقة التجار والحكام على حد سواء. ومن الصعوبات التي اعترضت العملة الجزائرية شيوع العملة المزورة التي كانت تجلب من الموانئ الأوروبية أو تصنع محليًا بمناطق جرجرة والتي بلغت نسبتها عام 1830م 3% من صنف البدقة شيك و4% من فئة الربع بوجو. وهذا ما أدى إلى تناقص العملة الجيدة وشيوع المقايضة في العمليات التجارية حتى على المستوى الخارجي.

وحتى الإصلاحات المالية التي انتهجتها بعض الدايات في الفترة الممتدة ما بين (1811م–1823م) لم تسجل أية نتائج إيجابية بل أدت إلى تناقص قيمة العملة الجزائرية وأظهرت بشكل أو بآخر عجز الحكام على انتهاج سياسة مالية تخدم مصالح الدولة وتنمي التبادل التجاري والإنتاج الفلاحي والصناعي، وتحد من تلاعب التجار الأوربيين واليهود الذين كانوا يسعون جاهدين إلى استنزاف خيرات الجزائر، نظير تصدير عملات رديئة يتم صنعها بموانئ البحر المتوسط. أما ودائع الخزينة التي تتصل مباشرة بكمية العملة ونوعيتها

فقد كانت تتصف بالضخامة بعد أن تضاعفت مع مرور الزمن، وبعد أن انتهج الحكام سياسة تتصف بالتقليل من النفقات إلا ما كانت تقتضيه الحاجة وتتطلبه الظروف الطارئة.

ورغم التحايلات والاختلاسات التي تعرضت لها ودائع الخزينة عند وقوعها في أيدي الجيش الفرنسي في شهر جويلية عام 1830، فإن اللجنة التي شكلتها إدارة الاحتلال لتقدير ثروات الخزينة الجزائرية التي تم الاستيلاء عليها من طرف الفرنسيين تقدر بـ 48.684.527,94 فرنك.

أما مصادر هذه المقادير الضخمة من الأموال التي تجمعت في خزينة الجزائر طيلة العهد العثماني فهي متنوعة وتتوزع أساسا على مصادر الدخل التالية:

1- غنائم العمليات الحربية وبالخصوص الجهاد البحري.

2- مساهمة البايليكات السنوية والفصلية "الدنوش".

3- ضرائب القطاع الفلاحي وغرامات سكان الأرياف.

4- رسوم سكان المدن وعوائد النقابات المهنية والطائفية.

5) النظام الضرائبي أثناء العهد العثماني:

أصبحت الضرائب منذ أواسط القرن الثامن عشر تمثل المصدر الرئيسي لدخل الدولة بعد أن تناقصت غنائم الجهاد البحري وتقلصت ثروات سكان المدن، وهي مع تنوعها واختلاف تسمياتها كانت ترتبط بوضعية الأرض ونوعية حيازتها وكيفية استغلالها وطبيعة علاقة سكانها بالحكام.

فالملكيات الخاصة، كانت تؤخذ عليها ضريبة العشور والزكاة التي كانت تحدد حسب عدد الجابدات أو الزويجات، بحيث كان يؤخذ على كل جابدة صاع من القمح وصاع من الشعير. وتضيف بعض القبائل حمولتين من التين ومقدار من الزبدة، وبعض الدواجن كالدجاج. وقد كانت ضريبة العشر والزكاة التي تؤخذ من الشرق الجزائري تقدر بـ 20.762 صاع من الحبوب نصفها من القمح، ونصفها الآخر من الشعير، وفي بايليك التيطري بلغت

1330 حمولة جمل. أما أراضي الدولة "البايليك" فكان مردودها يختلف باختلاف نوعية استغلالها، فكان يؤخذ منها محصول عيني إذا استغلت مباشرة باستخدام الخماسة (السخرة) وتسخير الرعية (التويزة) وقد يؤخذ عنها كراء سنوي محدد (الحكور) قدر في الشرق الجزائري بعشر ريالات تسلم نقدًا، وفي بعض الأحيان تعطى كإقطاع لذوي النفوذ والمكانة مقابل دفع رسم سنوي لا يتجاوز[1] 4 ريالات عن كل جابدة باعتباره عشورًا أو كراء منخفضًا كما هو الشأن بالنسبة للأراضي التي يقيم عليها قبائل المخزن التي كانت توفر لبايليك الشرق 2345 قيسة قمح ومثلها شعير.

ويضاف إلى هذين النوعين من الضرائب نوع ثابت يؤخذ من الأراضي القبلية المشاعة (أراضي العرش أو السبيقة) التي تفرض عليها غرامة سنوية تعرف في بعض الأحيان باللزمة أو المعونة أو الخطية، هذا بالإضافة إلى بعض الضرائب الإضافية التي كانت تفرض على قبائل الرعية وتؤخذ عنوة من القبائل الممتنعة أو المستقلة وذلك باللجوء إلى الحملات العسكرية واستعمال قبائل المخزن، مثل ضرائب ضيفة الباي وضيفة الدنوش والفرح والبشارة وخيل الرعية وحق البرنوس ومهر باشا والفرس.

ومما يلاحظ أن هذه الضرائب المفروضة على سكان الأرياف كانت غير قارة وليست محددة لا من حيث النوعية، ولا من حيث الكمية، فبعضها كما سبقت الإشارة إلى ذلك، يؤخذ عينا، وبعضها الآخر يستخلص نقدا، كما أنها كانت تتصف بالتعدد واختلاف التسميات بحيث أصبحت متداخلة لا تخضع لأي ترتيب أو تنظيم مثل الضرائب الإضافية "العوائد" التي ترتبط كميتها أساسا بقوة المحلة الفصلية وفعالية فرسان المخزن وبالفصل الذي تؤخذ فيه إذ كلما زادت قوة المحلة وبرهن فرسان المخزن على جديتهم ومهارتهم كلما زادت كميتها وتنوعت أصنافها، كما حدث في السنوات الأخيرة للحكم التركي ببايليك التيطري الذي استخلص منه ما يناهز 248.000 ريال بوجو في شكل عوائد إلزامية ولهذا يمكن أن

[1] ناصر الدين سعيدوني والشيخ المهدي بوعبدلي، **الجزائر في التاريخ**، مرجع سبق ذكره، ص ص.31-36.

نحكم على نظام ضرائب القطاع الفلاحي في العهد العثماني الذي كان يشكل العمود الفقري للبناء الاقتصادي للجزائر، إنه غير عادل ولا يراعي القائمون عليه طبيعة الإنتاج ولا وضعية الفلاحين وحالتهم، فهم لا يأخذون بعين الاعتبار إلا نوعية الملكية ومتطلبات الخزينة وحاجة الموظفين، وهذا ما زاد في شقاء وبؤس الفلاحين.

أما النوع الثاني من الضرائب فهو يتعلق بالضرائب والرسوم التي كانت تؤخذ من سكان المدن، وهي مع تنوعها يمكن حصرها في المطالب المالية التالية:

1- عوائد بيت المال: التي تتألف من مردود الأوقاف وما يؤول إلى الخزينة العامة من التركات والودائع والأملاك التي تبقى شاغرة وليس لها وريث شرعي بالإضافة إلى مردود بعض الأملاك العقارية التي تعود ملكيتها مباشرة للدولة، وهذا ما سمع لصندوق بين المال أن يزود الخزينة بأربعمائة بوجو شهريا عشية الاحتلال.

2- رسوم النقابات المهنية والدكاكين التجارية: يتكفل شيخ البلد "قائد الدار" بجمعها من أمناء النقابات المهنية المختلفة الموجودة بالمدن الكبرى، وقد قدرت عام 1822 بما يعادل 3000 دولار إسباني.

3- رسوم الطوائف العرقية والأقليات الدينية.

4- رسوم المرسى وحقوق الديوانة.

5- فوائد الاحتكار وحقوق إسناد المناصب.

6- المداخيل الاستثنائية.

6) الحالة الاجتماعية أثناء العهد العثماني:

بلغ عدد السكان في الجزائر ما قبل الاحتلال حسب حمدان بن عثمان خوجة 10 ملايين نسمة، ففي مدينة الجزائر وحدها بلغ عدد السكان خمسين ألف نسمة وفي إحصائيات أخرى بلغوا مائة ألف منهم 5000 يهودي رغم الظروف الكثيرة المؤدية للهجرة. أما فيما يخص التركيبة الاجتماعية آنذاك فقدت تميزت بأنها مقسمة على أساس شروط وأسس

وبالتالي رسمت الملامح البارزة التركيبة السكانية في الجزائر على يد (نخبة) متفرعة إلى أقسام على أساس امتلاك القوة العسكرية أو على أساس اكتساب الثروة أو على أساس امتلاك النفوذ الناتجة عن العوامل السابقة أو على النسب وصلة القرابة الواسعة وعليه سنتعرض باختصار لهذه التركيبة السكانية التي شكلت محيطا واسعا للأمير.

أول هذه الأطراف المشكلة للبنية الاجتماعية:

الأتراك:

في أعلى السلم الاجتماعي يسيطرون على الحكم من الباشا إلى البلداش أبسطهم منهم الوزراء والبايات والأغوات وأعضاء الديوان. وكذلك العاملون في الجيش يستقدمون في شكل متطوعين بشكل مستمر.

ميزات هذه الفئة:

1- انغلاقها على نفسها.

2- السيطرة التامة على الوظائف العليا والمحورية[1].

وإلى جانب الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي يشير إلى أنه لا يكاد يخلو مصدر عن العهد العثماني مهما كان دون أن يهدمه الفساد والجور والانحراف.

بالإضافة إلى ملاحظة هامة جدا تمثلت في نظرتهم الاستعلائية للسكان فكل ما كان يهمهم هو (الدتوش) والتي يحملها البايات كل 3 سنوات وخلفاؤهم كل نصف سنة كما اتهموا بسرقة أموال الأوقاف وتقاضي الرشاوي. هذا ما سيرسم واجهة العلاقة التي سترتبطهم بالسكان حين تنتقل الجزائر إلى مرحلة الاحتلال والغزو. ظلت هذه البنية في مجملها معزولة

---

[1] عائشة بن ساعد، **البعد الروحي لمقاومة الأمير عبد القادر الجزائري**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2003-2004، ص31.

عن بقية السكان رغم أهميتهم في هذه التركيبة إلا أنهم بقوا قوى غريبة عن واقع الجزائر العميقة.

الكراغلة:

وهم فئة المولدين العثمانيين (أي المولودين من أمهات جزائريات) اشتقت الكلمة من قول أوغلي (ابن العبد).

ميزتهم:

1-ترفعهم عن باقي السكان.

2- عجزهم عن الاندماج مع الأتراك.

ولأنهم أبعدوا عن مقاليد الحكم (ماعدا بعض البايات) مما أحدث حساسية تشبه المنافسة مع الأتراك وتؤكد لنا بعض الحوادث الصدامية ذلك الناتجة عن إبعادهم عن الحكم وإخفاء آبائهم حقيقة الانتماء إليهم حيث كانوا يعترفون بأبنائهم من أمهات مسيحيات ويخفونهم من أمهات مسلمات.

– **المخزن:** وهم عشائر تعاملت مع الأتراك وصفها أ.د سعيدوني بانها مجموعات سكانية اصطناعية متمايزة في أصولها المختلفة في أعراقها ذات طابع ريفي مهمتها المشاركة في الحملات الفصلية لمعاقبة عصاة الجباية، تتمركز في مناطق هامة (نقاط مراقبة) من بينها مخزن وهران بايلك الأمير وعرف بالدوائر والزمالة والذي أصبح فيما بعد رديفا للاستعمار ليحافظ على امتيازاته.

– **الحضر:** وتضم هذه الفئة الأسر العريقة في المدن الكبرى كالجزائر ووهران وتلمسان ومازونة ومعسكر والمدية والبليدة ومليانة وقسنطينة وميلة وعنابة. كما تضم كذلك العلماء

والتجار وأصحاب الحرف والصنائع والكتاب والإداريين وأصحاب الأملاك. كان عددهم ضئيلا ويشكلون ما يعادل 5% من السكان[1].

ميزتهم:

1- هم برجوازية.

طوائف المدن المحرومة:

قدمت هذه الفئة للعيش في المدن (البرانية) وبلغ عددهم عام 1830 عشرة آلاف. وقد تكون هجرة هؤلاء النازحين فصلية أو نهائية يتدبرون من خلالها العمل في العاصمة والمدن الرئيسية في حوانيتها ومصابغها ومدابغها وحماماتها. ويجدر بنا هنا أن نسجل الملاحظة الآتية إيالة الجزائر تتكون من مدن وقرى وموانئ وأرياف، ويسكنها أناس من أجناس متعددة ومختلفة، فتجد العربي والبربري والتركي والعبراني والأوروبي والأندلسي، مما أدى ذلك إلى اختلاف في لغة البلاد العامية إلى درجة أصبحت لها صفة خاصة بها (لهجة)، فمفرداتها وتراكيبها وجملها وعباراتها متداخلة لا يفهمها إلا من مارس حياة المدينة، وامتزاج بأهلها هي في الجملة تظهر عليها مسحة عربية.

تختلف عادات وطبائع سكان الجزائر حسب تعدد سكانها والجهة التي يقطنون فيها، فنجد مثلا للبربر طبائع وعادات مختلفة عن سكان السهول وكانت هذه العادات والطبائع في اللباس والأكل والمسكن، والحرف والكرم والأخلاق، من عصبية وطيبة، ونجد في بعض الأحيان اشتراك أو تشابه بين عناصر السكان، فنجد البرابرة متعصبين وسكان السهول كذلك[2].

---

[1] عائشة بن ساعد، **البعد الروحي لمقاومة الأمير عبد القادر الجزائري**، مرجع سبق ذكره، ص32.

[2] حمدان بن عثمان خوجة، **المرآة**، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص ص.62-98.

7) علاقة الأمير عبد القادر بالحكام الأتراك في الجزائر:

ففي المرحلة التي سبقت سقوط الجزائر في يد الفرنسيين (4 جويلية 1830)، والتي اكتملت فيها شخصية عبد القادر بن محي الدين الهاشمي، نلاحظ – كما يقول الدكتور ناصر الدين سعيدوني – أن هناك عدة عوامل وظروف دفعته إلى التخوف من رجال البايليك وانتهت به إلى معاداتهم وعدم الاعتراف بشرعية سلطتهم، ومن هذه العوامل نذكر:

1- انتساب عبد القادر إلى قبيلة هاشم العربية الأصيلة، ومكانة أسرته الشريفة في منطقة غريس، حيث كان جده سيدي مصطفى بن محمد المعروف بسيدي قادة، موضع إكبار وإجلال من رجال قبيلة هاشم، كما كان أبوه الشيخ محي الدين رجل دين ينتسب إلى الطريقة القادرية، يتبرك به سكان تلك الناحية ويرجعون إليه في أمورهم، وحتى عند احتجازه بوهران من طرف الباي حسن بن موسى (باي وهران) ظل الناس يتوافدون عليه ويعرضون عليه خدماتهم ويلتمسون منه الدعوات الصالحة، ونفس المكانة حظي بها ابنه عبد القادر عندما أصبح شابا واكتسب ثقافة دينية واتصف بالورع والتقوى. وقد عبرت بعض الإشاعات والأقاويل المتداولة بين عامة الناس بمنطقة غريس عن مدى تعلق الناس بعبد القادر واعتقادهم في قدرته على إصلاح أمورهم، ومفاد هذه التنبؤات الشعبية أن حكم البايليك سيزول وأن شابا عربيا اسم أمه زهرة سوف يحكم الناحية الغربية، وذهبت بعض هذه الإشاعات إلى حد القول بأن اسم هذا الشاب عبد القادر، كل ذلك أشعر عبد القادر بن محي الدين بأصالة نسبه ورفعة مكانته وأقنعه بعدم شرعية الحكام الأتراك بعد أن عجزوا عن الوقوف في وجه الفرنسيين.

2- عداء الباي حسن بن موسى آخر بايات وهران (1816–1831) للطرق الدينية وتخوفه من زعماء العشائر وشيوخ القبائل العربية ببايليك الغرب، وكذلك معاملة قياد وحكام البايليك ورجال المخزن للأهالي بقسوة، وإتباعهم سياسة تتصف بالعجرفة والترفع في تعاملهم

مع رؤساء القبائل وشيوخ الزوايا والطرق الدينية بعد أن استرجعوا وهران من الإسبان (1792) ونجحوا في القضاء على ثورة درقاوة وأبعدوا خطر الطريقة التيجانية.

ومن رجال الزوايا الذين كان يتخوف منهم رجال البايليك أسرة الشيخ محي الدين المنتسب إلى الطريقة القادرية التي ما فتئت مكانتها تزداد ونفوذها يتعاظم، ورغم التزام الشيخ محي الدين جانب الحذر والحيطة مع حكام البايليك بعد تورط أخيه سيدي علي بوطالب في مساعدة التيجانيين في هجومهم على معسكر، واضطراره إلى الاختفاء والتستر مدة طويلة، إلا أن رجال البايليك وعلى رأسهم الباي حسن كانوا يتحينون الفرصة للحد من نفوذ الشيخ محي الدين والإطاحة بأسرته، وقد أوقع الباي حسن العقاب ببعض رجال قبيلة هاشم إثر هجوم التيجاني على معسكر وفرض على أفراد تلك القبيلة غرامة قدرت بخمسين ألف ريال بوجو، ثم سنحت له الفرصة أن يتحتجر الشيخ محي الدين وابنه عبد القادر بوهران مدة، بعد أن اعترض[1] فرسان المخزن طريق الشيخ محي الدين وابنه وأتباعه بنواحي الشلف بالقرب من وادي جديوية، وحولوا اتجاههم إلى وهران، ولم ينجو الشيخ محي الدين وابنه عبد القادر من عقبا الباي إلا بفضل تدخل بعض رجال المخزن كمصطفى بن إسماعيل والمرصالي، ووساطة بعض أفراد أسرة الباي نفسه، إذ تذكر الروايات أن زوجة الباي حسن وأمه كان لهما دور في إطلاق سراح الشيخ محي الدين وابنه.

كل هذه الأحداث والمواقف عمقت انتساب عبد القادر للطريقة القادرية وزادت اعتزازه بحياة البداوة ذات القيم الإسلامية العربية الأصيلة التي تأبى ظلم الحكام وتعسفهم.

3-تعرف عبد القادر على التصرفات الجائرة للحكام الأتراك ورجال المخزن سواء بمعسكر او بوهران، وقد عاين ذلك عن قرب عند إقامته بوهران أثناء تلقيه العلم بمدرسة أحمد بن خوجة مع بعض أبناء الأعيان وموظفي البايليك قبل أن يعود إلى مسقط رأسه

---

[1] ناصر الدين سعيدون، **ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، الطبعة 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص ص.339-340.

(1823)، وكذلك عند استقراره بدار التاجر المغربي بوهران مع أبيه، في انتظار ما يصدره الباي حسن في شأنهما إثر احتجازهما بوهران (1826)، وهذا ما سمح له بأن يطلع على مدى ما كان يقترفه رجال البايليك من جور وتعدي في حق السكان، مما أدى به إلى اعتبارهم أعداء الله ومضطهدي بني جنسه من العرب.

4-تأثره بأوضاع المغرب الأقصى حيث كانت الدولة العلوية تعتمد في بسط نفوذها وإقرار سلطتها على إدعاء النسب الشريف وخلق صلات وروابط برجال الدين وشيوخ الزوايا وزعماء العشائر، بينما الحكام الأتراك بالجزائر رغم نجاحهم في تأسيس دولة جزائرية مستقلة فإنهم ظلوا منعزلين عن باقي السكان، ومعتمدين في فرض حكمهم على القوة الحربية والأساليب العسكرية التي أخمدت الثورة الدرقاوية بالغرب الجزائري، وأخضعت سكان الأرياف لحكم البايليك ومتطلباته المالية الثقيلة.

5-تعرف عبد القادر على الحركة الإصلاحية بالمشرق العربي عندما أدى فريضة الحج مع أبيه (1826-1827)، فقد شهد حالة تونس تحت حكم الأسرة الحسينية واطلع على تجربة محمد علي بمصر عندما نزل الإسكندرية مع أبيه واستقر مدة بالقاهرة وحظي مع أبيه بمقابلة محمد علي حسبما تشير إلى ذلك بعض المصادر. كما اطلع على أحوال الحجاز وتعرف على أوضاع الشام والعراق، مما زاد في سعة[1] أفقه ومكنه من مقارنة أحوال البلاد الجزائرية بأوضاع البلاد العربية الأخرى، وجعله يكوّن فكرة عن أوضاع الإيالة الجزائرية مفادها أن الحكام الأتراك والمتعاونين معهم من عناصر تركية وكراغلة ورجال المخزن فشلوا في رد العدو وحماية السكان وإقرار العدل والنهوض بالبلاد، وهذا ما جعله يرفض الاعتراف بشرعية سلطتهم والتسليم بجدارة حكمهم للبلاد، الأمر الذي دفع أحمد باي قسنطينة إلى القول في إحدى رسائله إلى الباب العالي، "بأن عبد القادر حاول إقناع الناس بأنه سوف يأخذ قسنطينة ويقضي على بقايا حكم الأتراك في هذه المقاطعة".

---

[1] ناصر الدين سعيدوني، **ورقات جزائرية**، مرجع سبق ذكره، ص ص.341-342.

كل هذه العوامل المختلفة ساهمت في بلورة موقف الأمير عبد القادر من الحكام الأتراك بالجزائر، وأحملت عليه سياسة تتصف بعدم الثقة فيهم في بعض الأحيان، وبالعداء السافر لهم في مناسبات أخرى.

ولعل أول مناسبة أظهر فيها عبد القادر موقفه صراحة من الحكام الأتراك، تعود إلى أواخر سنة 1830، عندما عارض مد يد المساعدة للباي حسن حاكم وهران، بحجة عدم القدرة على حماية هذا الباي بمعسكر، لأن ذلك يثير غضب القبائل المعادية للمخزن، وقد تمكن بالفعل من إقناع أبيه ووجهاء قومه بوجهة نظره هذه، وكان الباي حسن قد طلب المساعدة والحماية من الشيخ محي الدين وعشيرته بعد نزول الفرنسيين بالجزائر وتوجههم لاحتلال وهران، نظرًا لتخوفه من هذه الظروف من هجوم القبائل المعادية له على وهران، ولضعف الحامية التركية التابعة له والتي لم يكن عدد أفرادها يزيد عن 800 جندي، وهذا ما اضطر الباي حسن بعد فشله في الحصول على عون الشيخ محي الدين إلى الاستسلام إلى الجنرال دامريمون في 04 جانفي عام 1831م.

المبحث الثاني

المحيط الثقافي للأمير

1- المساجد

2- الزوايا والرباطات

3- المدارس والمعاهد العليا

4- المكتبات

5- لمحة عن حال التعليم

6- الطرق الصوفية

7- الطريقة القادرية

سنتطرق في هذا المبحث للمؤسسات الثقافية في العهد العثماني، والتي تشرب الأمير من فكرها، هنا يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله لا تكاد المؤسسات الثقافية في هذا العهد تخرج عن المسجد والمدرسة والزاوية والمكتبة. ومعظم هذه المؤسسات كانت للتعليم أكثر مما كانت للثقافة بمفهومها اليوم. ولم يكن من بين هذه المؤسسات جامعة أو معهد عال رغم أن بعض المساجد والمدارس والزوايا كانت تبث تعليمًا في المستوى العالي. ولم تعرف الجزائر عندئذ المسرح ولكن وجد ما يشبهه كقيام القراقوز وحلقات المداحين وحلبات المصارعة. أما الصحافة فلم يكن لها وجود قبل العهد الفرنسي، وكذلك المطبعة.

1- المساجد:

كثيرا ما يختلط على الباحث اسم الجامع والمسجد والزاوية. ذلك أن بعض الجوامع والمساجد كانت تابعة لزوايا معينة، كما أن بعض الزوايا كانت تابعة لجوامع ومساجد معينة. والتداخل ليس في الاسم فقط بل في الوظيفة أيضًا. فالجوامع والمساجد كانت للعبادة والتعليم كما أن الزوايا كذلك أحيانا، ولكن هذه في الغالب كانت رباطًا أو ملجأ أو مسكنا للطلبة والغرباء ومراكز لتلقين الأذكار واستقبال المريدين. كما أن حجم هذه المؤسسات له دخل في تحديد وظائفها. فالجامع اصطلاحا أكبر حجما من المسجد، فهو الذي تؤدى فيه الصلاة الجامعة أو الجمعة والعيدين، وكثيرا ما يسمى أيضًا جامع الخطبة، وبعض هذه الجوامع كان أيضًا يسمى بالجامع الكبير أو الأعظم. غير أن هناك بعض الباحثين يذكرون "المساجد" فقط ثم يفصلون كبيرها وصغيرها، ما له صومعة وما ليس له صومعة، بل ما له صومعة عالية وما له سوى قبة أو نحوها. ثم أن الجوامع والمساجد في الغالب غير منسوبة إلى الأولياء والصلحاء، بل هي منسوبة إلى مؤسسيها من السياسيين والتجار والعسكريين ونحوهم، بينما الزوايا تنسب غالبا إلى ولي من الأولياء فهناك زاوية أحمد بن عبد الله الجزائري وزاوية عبد الرحمن الثعالبي، ولكن هناك الجامع الأخضر والجامع الجديد، والجامع الكبير ...الخ.

كما أن بعض الجوامع كانت تنسب إلى الأحياء الواقعة فيها مثل جامع باب الجزيرة وجامع سوق اللوح وجامع سوق الغزل (بقسنطينة)، أو إلى صنعة[1] أهل الحي مثل جامع الخياطين وجامع حي الرمان (بتلمسان).

ومما يلاحظ أن أغلب المدن الجزائرية كانت تشمل مسجدًا يطلق عليه اسم (الجامع الكبير) وهو المسجد الذي اشتهر بين الناس إما لقدمه او لسعته ولكن "الكبير" هنا لا يعني دائما السعة الحقيقية. فقد يكون في المدينة من المساجد ما هو أوسع من الجامع الكبير مساحة. وقد يطلق على أحد المساجد اسم "المسجد العتيق" أو القديم الذي يكون قد بني وسط المدينة القديمة أثناء نموها، فيصبح بهذا المعنى "شيخ المساجد" وحامي حمى المدينة في نظر السكان. وبذلك يكون موضع اهتمام الحكام وهدف المحسنين لوقف الأوقاف عليه، وكثيرا ما يكون هو المصلى لحاكم البلاد. ورغم شهرة الجامع الكبير بالعاصمة وضخامة أوقافه فإنه لم يتطور إلى "جامعة" علمية كالأزهر أو الزيتونة أو القرويين، فقد ظلت شهرته منحصرة في قدمه (وهو يعود إلى ما قبل العهد العثماني) وحجمه وأوقافه ومركزه القضائي باعتباره المركز الذي كان ينعقد فيه مجلس الفتوى كل أسبوع، كما أنه كان مقر مفتي المذهب المالكي.

والعناية بالمساجد كانت ظاهرة بارزة في المجتمع الجزائري المسلم. فلا تكاد تجد قرية أو حيا في المدينة بدون مسجد. فقد كان المسجد هو ملتقى العباد، ومجمع الأعيان، ومنشط الحياة العلمية والاجتماعية، وهو قلب القرية في الريف وروح الحي في المدينة، إذ حوله كانت تنتشر المساكن والأسواق والكتاتيب. وكان المسجد أيضا هو الرابطة بين أهل القرية والمدينة أو الحي لأنهم يشتركون جميعا في بنائه كما كانوا جميعا يشتركون في أداء الوظائف فيه. وقد كان تشييد المساجد عملا فرديا بالدرجة الأولى، فالغني المحسن هو الذي يقود عملية بناء المسجد والوقف عليه وصيانته. ولكن أعيان القرية أو الحي كانوا يساهمون

---

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص ص.227–245.

بالتبرعات ونحوها. ولا يتعدى مجهود السلطات الحاكمة في هذا المجال مجهود الأفراد. فالدولة لم تكن مسؤولة على بناء المساجد. وإذا بنى أحد الباشوات مسجدًا فإنما يبنيه من ماله الخاص ويوقف عليه من ريعه وأملاكه. فهو بذلك يعبر عن إحسانه وحبه للخير وواجبه الديني وليس عن واجبه السياسي. حقا إن عمل الحكام قد يشجع رعاياهم[1] على تقليدهم، وقد يفتح مجالات للتعلم والتثقف لا يمكن للمواطنين العاديين أن يفتحوها، ولكن عملهم، كما قلنا، يظل من الوجهة الدينية عملا فرديًا.

وتختلف الإحصاءات عن عدد المساجد في المدن الجزائرية خلال العهد العثماني، بل إن بعض المدن لا تكاد المصادر تذكر له إحصاء. وتكتفي معظم المصادر بالحديث عن المدن الرئيسية كما أن بعضها لا تذكر إلا الجوامع (أو مساجد الخطبة). ثم إن بعض الإحصاءات تخطط فيها المساجد القديمة المؤسسة قبل العهد العثماني والمؤسسة أثناءه.

فالتمغروطي، مثلا اكتفى في حديثه عن مدينة الجزائر في آخر القرن العاشر (16م) بقوله أن فيها الجامع الكبير وهو واسع وإمامه مالكي، وفيها ثلاث خطب أحدها للترك وإمامهم حنفي. وهو يعني بالخطب خطبة الجمعة. ومعنى هذا أن مدينة الجزائر على عهده، لم يكن فيها سوى ثلاثة جوامع للجمعة، منها الجامع الكبير المالكي وآخر للمذهب الحنفي (ولعله يقصد به جامع سفير الذي بناه مملوك خير الدين). وجامع ثالث لعله هو جامع القشاش، أو جامع سيدي رمضان الذي كان قديما أيضا. بينما يذكرها بدو الإسباني، حوالي نفس الفترة، أن مدينة الجزائر كانت تعد حوالي مائة مسجد منها سبعة رئيسية. وفي بداية القرن الثالث عشر (19م) ذكر بانانتي الإيطالي أن هذه المدينة كانت تضم تسعة جوامع وخمسين مسجدا. ولكن ديفوكس الذي بحث الموضوع المؤسسات الدينية في مدينة الجزائر قال إنه كان بها سنة 1246هـ (1830م) تاريخ الاحتلال ثلاثة عشر جامعًا كبيرا

---

(1) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، مرجع سبق ذكره، ص ص.246-247.

(أو جامع خطبة) ومائة وتسعة مساجد، واثنتان وثلاثون قبة (أو ضريحًا) واثنا عشر زاوية، فمجموع ما فيها من المؤسسات الدينية، بناء عليه، مائة وست وسبعون مؤسسة.

كما تختلف الإحصاءات حول مساجد مدينة قسنطينة. ففي عهد صالح باي، الذي اعتنى بإحصاء المساجد وترميمها وتشييدها، بلغت، كما جاء في السجل الذي أمر به، خمسة وسبعين مسجدًا وجامعًا، بالإضافة إلى سبعة مساجد تقع خارج المدينة. وقد جاء في بعض الإحصاءات المتأخرة أن قسنطينة كانت تضم قبل الاحتلال الفرنسي، خمسة وثلاثين جامعًا.

ورغم وفرة المساجد فإن بعض المؤلفين والملاحظين قد اشتكوا من عدم العناية بها في هذا العهد. ويبدو أن عدد المساجد لم يكن يدل بالضرورة على العناية بها والوقف عليها بما يحفظها ويصونها. فقد كان بعضها خربًا وبعضها[1] سيء البناء أصلاً وبعضها محروما من الأوقاف الضرورية لتجديده. وهكذا نجد أحمد بت ساسي البوني يشتكي إلى الباشا محمد بكداش خراب المسجد في عنابه وخلوها من المصلين والعباد.

خربت المساجد   وقل فيها الساجد

وفي معظم الجوامع توجد المكتبات الموقوفة على القراء والطلبة والأساتذة. وتختلف الكتب الموقوفة كثرة وتنوعا. ففي بعض الأحيان لا يوجد في المكتبة سوى المصاحف والكتب الدينية والصوفية مثل صحيح البخاري وتنبيه الأنام ودلائل الخيرات وكتب الأدعية والأذكار. ولكن بعضها كان يحتوي على كتب في العلوم المختلفة من أدب وطب وفقه وتاريخ ورياضيات. ومن أهم ما كان يلحق بالجوامع أيضا الكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم للأطفال، والزوايا لمبيت الطلبة والغرباء. ومن التوابع الضرورية للجوامع الميضات والعيون للطهارة والاستحمام.

---

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص ص.247-250.

وتختلف الجوامع أيضا في حجم موظفيها، فبعضها كان كثير الموظفين حتى أن عددهم كان يتجاوز الستين موظفا كالجامع الكبير بالعاصمة، وبعضها كان يقوم عليه عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة. وعلى كل حال فإن أغلب الجوامع كان له من الموظفين الوكيل والخطيب والإمام (وأحيانا يجمع الخطيب الإمامة أيضا) والمدرس والمؤذن والحزاب وبعض القراء.

2- الزوايا والرباطات:

من أبرز ميزات العهد العثماني في الجزائر انتشار الطرق الصوفية وكثرة المباني (الزوايا ونحوها) المخصصة لها. ففي المدن والأرياف، في الجبال الشاهقة والصحارى القاحلة عاش معظم المتصوفة يبثون عقائدهم ويلقنون أتباعهم الأذكار والأوراد مبتعدين عن صخب الحياة الدنيا مؤثرين العزلة والعبادة، وكثيرًا ما كانوا يعلمون المريدين والعامة مبادئ الدين أيضا. فإذا اشتهر أحدهم بين الناس أسس له مركزًا يستقبل فيه الزوار والغرباء والأتباع ويعلم فيه الطلبة. ويتبرع الناس لهذا المركز فيكبر ويثرى ويتضاعف قصاده ومريدوه، ويصبح اسم المتصوف (المرابط) علمًا على المكان، ويصبح المكان يدعى بين الناس زاوية سيدي فلان أو رباط سيدي فلان. فإذا مات "سيدي فلان" يدفن في الزوايا أو في الرباط، ويصير الضريح علامة على الزاوية، وهذه علامة على الضريح. ويرث الأبناء والأحفاد مكانة وعمل "سيدي فلان" وتزداد قداسة الزاوية أو الرباط بين أهل الناحية وتنتشر شمعتها ونفوذها إلى نواح أخرى بعيدة، وهكذا[1].

وكانت كل مدينة كبيرة أو صغيرة، محروسة بولي من الأولياء، فهو الذي يحميها من العين ومن الغارات ومن نكبات الطبيعة ومن طمع الطامعين. فهناك صلحاء تلمسان ومدينة الجزائر ومدينة قسنطينة وبجاية والمدية...الخ. وقد ذكر ابن مريم كثيرا من صلحاء وأولياء تلمسان، وأضاف محمد بن سليمان قائمة أخرى منهم في كتابه (كعبة الطائفين) الذي لم

---

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص ص.262-263.

يكتف بأولياء وصلحاء تلمسان بل شمل صلحاء مدن أخرى. وكتب محمد الموفق المعروف بابن حواء عن صلحاء الشلف في أرجوزته (سبيكة العقيان) وكتب محمد الجوزي عن أولياء أغريس في شرحه على (العقد النفيس).

فهذه مدينة الجزائر عاصمة الدولة، كانت تعج بالزوايا والأضرحة والقباب المقامة على الأولياء والصالحين. فبالإضافة إلى زاوية وضريح عبد الرحمن الثعالبي وزاوية الولي دادة، وزاوية عبد القادر الجيلالي، هناك قائمة طويلة أخرى نذكر منها زاوية سيدي محمد الشريف وزاوية سيدي أحمد بن عبد الله الجزائري صاحب "المنظومة الجزائرية"، وسيدي الجودي، وسيدي جمعة، وسيدي الكتاني، وسيدي السعدي، وزاوية البركاني قرب شرشال...الخ.

وكانت للزاوية في الريف أرض موقوفة يحرثها المسلمون ويعتنون بها ويستعمل إنتاج هذه الأرض في صيانة الزاوية وتغطية أجور المدرسين ومعيشة التلاميذ. كما أن الزاوية الريفية عادة ما يقدم إليها مسلمو الناحية جزءًا معينا من إنتاجهم الفلاحي سنويا. فالزاوية بالنسبة إلى سكان الناحية كانت على غاية كبيرة من الأهمية. وتثبت الإحصاءات أن عدد الزوايا والأضرحة ونحوها كان يفوق عدد المساجد والمدارس. فقد كان بتلمسان ونواحيها أكثر من ثلاثين زاوية في آخر العهد العثماني.

ولقد لعبت الزاوية في الريف دورا أكثر إيجابية من الزاوية في المدينة. ففي بداية العهد العثماني كانت الزوايا عبارة عن رباطات أو نقط أمامية ضد الأعداء. فكان المرابطون يقودون أتباعهم في الحروب الجهادية وينصرون المجاهدين ويطعمونهم في زواياهم ويتحالفون مع الأمراء المكافحين من أجل الدين وحماية البلاد، وعلى هذا النحو تحالف بعضهم مع العثمانيين وقدموا لهم المساعدات الأساسية فجندوا من ورائهم الشعب وجمعوا لهم المؤن والمعدات ورفعوا الروح المعنوية للمحاربين. ولكن الدوافع الجهادية كانت تضعف بالتدريج بعد القضاء على الخطر الخارجي الداهم. فعاد المرابطون إلى قواعدهم وكانوا على

صلة بالشعب أكثر من صلتهم بالسلطة العثمانية، وكان على هذه السلطة أن نؤيد المرابطيين بالعطايا السخية والإعفاء من الضرائب حتى لا تضعف الرابطة بينهما، ولكن بعض الزوايا قد أصبحت مراكز لتدريب الأتباع على الثورة ضد السلطة، ولاسيما في أواخر العهد العثماني[1].

فقد ثار يحي الأوراسي والزبوشي، وثار الدرقاويان ابن الشريف وابن الأحرش وتململت الزاوية القادرية والرحمانية، كما تمردت الزاوية التجانية في عين ماضي ونواحيها. ويظهر الدور الإيجابي للزوايا الريفية في التعليم على الخصوص. فقد كانت بالإضافة إلى وظيفتها الدينية، معاهد لتعليم الشبان وتنوير العامة. وكانت الزاوية الريفية تشمل أيضا مسجدًا وقبة الشيخ المرابط ومبيتا للطلبة الداخلين ومساكن للغرباء والفقراء. وقد اشتهرت بعض الزوايا والخلوات الريفية حتى أصبحت محجة للزوار والطلبة. ومن ذلك زاوية خنقة سيدي ناجي، وخلوة عبد الرحمن الأخضري، وضريح سيدي خالد وزاوية محمد بن علي المجاجي وزاوية القيطنة، وزاوية ابن علي الشريف. ويبدو أن عدد الزوايا في غرب الجزائر كان أكثر من شرقها ولعل ذلك يعود إلى استمرار الجهاد في الغرب دون الشرق وإلى كثرة الزوايا والمرابطين في المغرب الأقصى. ثم إن حجاج ورحالة المغرب كانوا يعبرون الجزائر ويغذون فكرة المرابطية فيها وينشرون مبادئ زواياهم وشيوخهم، كما كانوا يعودون بمثل ذلك من المشرق في طريقهم إلى المغرب.

وظاهرة التعليم في الزوايا، ليست خاصة بالريف. ففي المدن أيضا كانت بعض الزوايا تقوم بدور إيجابي في نشر التعليم بجميع مستوياته.

فالزاوية القشاشية قد تحولت تدريجيا إلى مدرسة عليا أو معهد وهذه الزاوية تتبع جامع القشاش. وكذلك زاوية شيخ البلاد في مدينة الجزائر ومن الزوايا التي لعبت دورًا رئيسيا في نشر التعليم في غير العاصمة زاوية الفكون في قسنطينة، وزاوية مازونة ذات الشهرة

---

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص ص.263-268.

الواسعة، وزاوية عين الحوت بتلمسان، وزاوية محمد التوالي ببجاية، وغيرها. غير أن معظم زوايا المدن كانت معطلة عن التعليم لوجود الكتاتيب من جهة والمساجد والمدارس المتخصصة من جهة أخرى. وبذلك كثرت في المدن الأضرحة والقباب والزوايا التي تؤدي دورًا اجتماعيا كإيواء الفقراء والعجزة والغرباء وحماية الهاربين إليها من المجرمين والسياسيين المغضوب عليهم، واستقبال التلاميذ الدارسين في المساجد المجاورة.

وبالإضافة إلى الزوايا المنسوبة إلى الأفراد هناك الزوايا المنسوبة إلى الجماعة. ومن ذلك زاوية الأشراف وزاوية الأندلسيين. فقد كانت الأولى خاصة بعزاب الأشراف الذين كانت لهم أيضا نقابة خاصة. وكان يشرف عليها[1] مجلس من أعيانهم. وفي كل مولد نبوي كان الوكلاء يعدون وجبة طعام في الزاوية يحضرها أعضاؤهم فقط. وكان الشرفاء يعيشون كجماعة مترابطة متضامنة ولكنهم لم يكونوا بالضرورة من الأغنياء.

أما زاوية الأندلسيين فقد كانت لاستقبال فقراء وعجزة مهاجري الأندلس أو الذين كانوا من أصل أندلسي، كما كانت تستقبل طلبتهم عند الضرورة قد ظلت المؤسسات موجودتين إلى الاحتلال الفرنسي.

وكان بناء الزاوية يختلف عادة عن بناء المسجد والمدرسة. فالزوايا غالبًا ما جمعت بين هندسة المسجد والمنزل. وهي في الجملة قصيرة الحيطان منخفضة القباب والعرصات قليلة النوافذ. وإذا كان للزاوية مسجد فهو في الغالب بدون مئذنة. فالزاوية من الناحية الهندسية غير جميلة، بالإضافة إلى أنها كثيرة الرطوبة والعتمة. وشكل الزاوية يوحي بالعزلة والتقشف والهدوء أكثر مما يوحي بالاختلاط والثراء والحركة. غير أن بعض الزوايا المعدة أصلاً لسكنى الطلبة ونحوهم كانت واسعة وصحية.

---

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص ص.268-269.

وقد كان للزاوية أوقافها أيضا مثل المسجد. وفي عصر ساد فيه الجهل والخرافة كان الناس يميلون بأوقافهم وأفعالهم الخيرية إلى الزاوية أكثر من ميلهم إلى المسجد والمدرسة. فقد كانت بعض الزوايا غنية مثل زاوية المجاجي وزاوية القيطنة. فكلتاهما كانت تطعم الأعداد الكبيرة من الزائرين وتؤويهم وتعلمهم. وكان الواقفون والمتصدقون على الزوايا من عامة الناس يعتقدون أن جزاؤهم يأتي بسرعة وأن ذنوبهم تغتفر في الحال إذ يكفي أن يرضى عنهم الشيخ ويمنحهم بركاته ومن الزوايا كثيرة الوقف زاوية الولي داده، وزاوية أحمد بن عبد الله الجزائري وزاوية سعيد قدورة التابعة للجامع الكبير، وكذلك الزاوية الطيبية بتلمسان.

وكانت بعض الزوايا متخصصة في استقبال نوع معين من الضيوف بنصوص أوقافها. فزاوية مولاي حسن بالعاصمة كانت عبارة عن دار سكنى للعزاب. وكانت زاوية سيدي أبي عتيقة تستقبل الفقراء والمرضى والعجزة. وكانت زاوية سعيد قدورة مخصصة لاستقبال فقراء العلماء. وأما زاوية شيخ البلاد فلا يسكنها إلا الطلبة العثمانيون. ومن جهة أخرى كانت بعض الزوايا مقصودة أكثر من غيرها لغرض فيها. فقد كانت النسوة تكثر في زاوية سيدي عبد القادر، كما كانت العامة يكثرون في زاوية علي الزواوي لاعتقادهم بأن ماءها يبرئ من العقم[1] ويحفظ الأولاد ويذهب الحمى. وهذه الاعتقادات في الواقع ليست خاصة بزوايا العواصم، بل كانت منتشرة أيضا في زوايا الريف، ولاسيما عند قبور الأولياء والصلحاء.

ومن أهم ما كان يميز بعض الزوايا والأضرحة كونها ملجأ يلجأ إليه الهاربون من العقاب والقتل مهما كانت جرائمهم. فقد كان الولاة والعامة يعتقدون في حصانة حمى الزاوية والضريح. ويكفي أن يهرب الجاني إلى هذا الحمى فلا يلحق به أحد، ولا يمسه سلطان. وقد وقعت حوادث الفرار زاوية الوالي دادة وزاوية القليعة والثعالبي وغيرها، سواء من الولاة أنفسهم او عامة الناس، ولاشك أن ذلك كان يدخل في عقيدة الناس في صلاح الأولياء وقدرتهم على تسليط غضبهم على من يهين حماهم. وقد قيل إن صالح باي قد بنى في

---

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص ص.269-270.

المكان الذي قتل فيه المرابط محمد الغراب بعد أن تحولت جثة هذا إلى غراب مخيف تطيّر منه الباي. وكان الثوار في نواحي قسنطينة لا يمسون من يلجأ إلى زاوية / معمرة الواقعة في أراضي أولاد عبد النور، وكان محيي الدين مقدم الطريقة القادرية (زاوية القيطنة) يصف زاويته بأنها كمقام إبراهيم الخليل من دخلها كان آمنًا.

ويختلف موظفو الزاوية عن موظفي الجامع في كثير من الوجوه. ذلك أن المسؤول الرئيسي على الزاوية في العادة هو مؤسسها أو المرابط نفسه، أو ورثته. فهي مقام الولي ومصلاه، ومجمع أوراده وأذكاره، وفيها يدرس ويستقبل المريدين، وفيها (وخاصة في الأرياف) يصلح بين الناس وينورهم في شؤون دينهم ويفتيهم ويحكم بينهم. وفي غياب المؤسس أو المرابط يتولى إدارة الزاوية عادة أبناؤه وأحفاده على نفس النمط. وهكذا كانت زاوية أو خلوة عبد الرحمن الأخضري وزاوية المجاجي وزاوية ابن علي مبارك بالقليعة. ولكن الزاوية لا تحتاج فقط إلى المرابط ومن يقوم مقامه من أبنائه وأحفاده أو عائلته بل تحتاج أيضا، كالجامع، إلى منظفين ومؤذنين ومساعدين وغيرهم. فالزاوية النشيطة عبارة عن خلية حية يتحرك فيها كل شيء كالساعة في انتظام ودقة ومسؤولية. وكانت بعض زوايا المدن تحت إشراف "قيمين" أو مديرين يعينهم وكلاء الأوقاف العامة أو الخاصة كسبل الخيرات وبيت المال ومكة والمدينة، وكان هؤلاء القيمون عادة من نسل المرابط أو من الأشراف أو من أهل الصلاح والخير.

وكانت الرباطات تشبه الزوايا من بعض الوجوه. فهي مثلها في خدمة الدين والمجتمع. ولكن الرباطات كانت تمتاز بأنها قريبة من مواقع الأعداء وأن تأسيسها يهدف بالدرجة الأولى إلى خدمة الجهاد والدفاع عن حدود الإسلام مع أداء مهمة العلم أيضا[1].

---

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص ص.271-272.

3- المدارس والمعاهد العليا:

رغم أن الرحالة الفرنسي فانتور ديبارادي قد تحدث في القرن الثاني عشر (18م) عن وجود ثلاث جامعات لتعليم المذهب المالكي في مدينة الجزائر وحدها، فإن الواقع هو أنه لم يكن في الجزائر كلها جامعة واحدة بالمعنى المتعارف عليه.

فقد خلت الجزائر العثمانية من مؤسسة للتعليم العالي، توحد نظم التعليم وتحافظ على مستواه وتعكس نشاط واتجاه العلماء، وتحفظ قدرًا معينًا من أساليب اللغة والذوق الأدبي العام. ولم يكن للجزائر "جامعة" إسلامية كالأزهر والقرويين والزيتونة، غير أن دروس جوامعها الكبيرة كانت تضاهي، بل قد تفوق أحيانا، دروس الجامع الأموي بدمشق والحرمين الشريفين لتنوع الدراسات فيها وتردد الأساتذة عليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي. فدروس سعيد قدورة وعلي الأنصاري وأحمد بن عمار بالعاصمة. ودروس سعيد المقري في تلمسان، ودروس أبي راس في معسكر ودروس عمر الوزان وعبد الكريم الفكون وأحمد العباسي وعبد القادر الراشدي في قسنطينة. وأحمد البوني في عنابة –كانت مضرب الأمثال في العمق والإحاطة والرقي، غير أن شهرة هؤلاء العلماء كانت نتيجة جهودهم الشخصية وليس نتيجة انتمائهم لنظام شامل تخضع له المؤسسات التابعين لها. ومهما كان الأمر فقد كثرت في الجزائر المدارس الابتدائية حتى كان لا يخلو منها حي من الأحياء في المدن ولا قرية من القرى في الريف، بل إنها كانت منتشرة حتى بين أهل البادية والجبال النائية. وهذا ما جعل جميع الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني ينبهرون من كثرة المدارس بها وانتشار التعليم وندرة الأمية بين السكان. وقد عد بعضهم العشرات من هذه المدارس بالإضافة إلى المساجد والزوايا والرباطات وكانت الأوقاف والصدقات تلعب دورًا هامًا في انتشار المدارس ونشر التعليم.

وكانت أقل وحدة للتعليم الابتدائي هي الكتاب (جمع كتاتيب) أو المكتب كما يسمى أحيانا، وكان يطلق عليه، ولاسيما في العاصمة، اسم "مسيد" وهو بدون شك محرف من

تصغير كلمة مسجد. ذلك أن الكتاب، المخصص عادة لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم مبادئ القراءة والكتابة للأطفال[1].

كان في الغالب عبارة عن حجرة أو دكان في الأصل أو جناح في مسجد معد للغرض المذكور: بل إن بعض الواقفين كان يكتفي بفتح غرفة في منزله على الشارع ويجعلها كتابا للأطفال. وكذلك كان في زوايا المرابطين أجنحة خاصة لتعليم الأطفال وحفظ القرآن.

وكانت مؤسسة التعليم الابتدائي تخضع أيضا في أهدافها لرغبة الواقفين. ذلك أن بعضها كان عامًا لتعليم القرآن وتربية الأطفال المسلمين، وبعضها كان خاصًا بخدمة مذهب أو جماعة معينة. فقد لاحظنا أن المكتب الملحق بجامع الباشا الحاج حسين ميزمورطو قد خصص للمذهب الحنفي.وكانت المدرسة التابعة لجامع البطحاء مخصصة لتعليم الشبان العثمانيين. غير أن معظم مؤسسات التعليم الابتدائي كانت من النوع العام. ذلك أن هدفها الأول، هو تحفيظ القرآن الكريم وتعليم مبادئ القراءة والكتابة وأوليات العلوم لأطفال المسلمين الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة والرابع عشرة سنة.

وقد عرفنا أثناء حديثنا عن الجوامع والزوايا اختلاط وظيفة المدرسة والزاوية والجامع في ميدان التعليم. فقد كانت بعض المساجد والزوايا تؤدي وظيفة المدرسة في نشر التعليم بجميع أنواعه، وخاصة الثانوي. وكانت بعض الزوايا عبارة على مدارس، كما كانت مساكن للطلبة الذين يدرسون وكانت بعض المدارس ملحقة بالزوايا وأخرى ملحقة بالمساجد. وكثيرا ما ينص الوقف على تأسيس زاوية وجامع ومدرسة في نفس الوقت.

لذلك فإنه من الصعب تمييز الوظائف التي تؤديها هذه المؤسسات مجتمعة في مجتمع يقوم فيه التعليم قبل كل شيء على الدين. وتلعب فيه المساجد والزوايا (وليس المدارس) الدور الرئيسي.

---

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص ص.273-276.

وقد عرف أبو راس الناصر المدرسة التي نحن بصددها، مدرسة التعليم الثانوي والعالي، بأنها هي التي: "تبنى لدراسة العلم، أي تعليمه وتعلمه". فمن الواضح من كلامه أنها ليست المدرسة الزاوية أو المدرسة – المسجد بل هي المدرسة المتخصصة للتعليم وحده أي "دراسة العلم" في مستواه الثانوي والعالي.

وفي هذا السياق ذكر أبو راس بأنه كان في مدينة الجزائر على عهده "مدارس كبيرة"[1]، وقد مثل لها بالمدرسة القشاشية، كما مثل لها في معسكر بالمدرسة المحمدية. وبالإضافة إلى المدرسة القشاشية كان في العاصمة مدرستان أخريان وصفتا أيضا بأنهما في مستوى عال، وهما مدرسة الأندلسيين ومدرسة شيخ البلاد. ويبدو أن أصل المدرستين زاوية. فقد جعل الأندلسيون من الزاوية التي أسسوها، كما سبق، "مدرسة عليا" لتعليم علوم القرآن ودراسة مختلف العلوم الأخرى. وكان الوقف يغطي حاجة المدرسة. ومن المتوقع أن التعليم في هذه المدرسة كان على مستوى راق لأن الأندلسيين قد عرفوا بإجادة فن التدريس وحسن التربية ومراعاة التطور العقلي للتلاميذ. وتذكر الوثائق أن الفرنسيين قد قضوا على هذه المدرسة أيضا.

وقد كانت قسنطينة من أكثر المدن عناية بالمؤسسات العلمية، وذلك لاستقرارها السياسي نسبيا ولقربها من تونس. ونود أن ننوه هنا بالمدرسة الكتانية التي أنشأها صالح باي والتي خصص لها أوقافا كبيرة شملت الأساتذة والطلبة. فقد كان المدرس بها يأخذ ثلاثين ريالا والطالب الداخلي يأخذ ستة ريالات (وعددهم ثمانية طلاب). وكان لهذه المدرسة، التي تنشر تعليما في مستوى الثانوي والعالي، نظام داخلي دقيق يضبط أوقات التدريس والتغيبات وعدد أحزاب القرآن المتلوة كل يوم، وشروط الإقامة في المدرسة. وقد أشاد بعضهم بهذه المدرسة ونظامها حتى قارنها بمدارس فرنسا العليا المعاصرة لها. وقدر

---

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص ص.277-280.

لهذه المدرسة أن تلعب دورا في الحياة الثقافية في الجزائر حتى في العهد الفرنسي. وهي ما تزال قائمة إلى اليوم.

ومن أشهر المدارس في غير العواصم مدرسة الخنقة ومدرسة مازونة. وتنسب مدرسة الخنقة إلى مؤسسها (سنة 1171) أحمد بن ناصر، لذلك تسمى بالناصرية، وقد اشتهرت بعلوم النحو والفقه والحديث. وكانت مقصد طلبة الزيبان ووادي سوف والأوراس وحتى قسنطينة وعنابة. ومن خريجي مدرسة الخنقة أحمد التليلي وخليفة بن حسن القماري. أما مدرسة مازونة فقد كانت على درجة كبيرة من الأهمية في النواحي الغربية من البلاد، وكان لها نظام راسخ وتقاليد متينة استمدتها من صلتها بالتعليم في تلمسان والأندلس والمغرب الأقصى.

وهي أيضا من أقدم المدارس التي أسست في العهد العثماني. وقد اشتهرت بالخصوص في الفقه والحديث وعلم الكلام. واستمرت المدرسة تشع بالمعرفة حتى بعد انتقال العاصمة الإقليمية من مازونة إلى معسكر ثم إلى وهران. وكانت مقصد طلاب النواحي الغربية ولاسيما ندرومة ومستغانم وتنس وتلمسان ووهران(1).

4- المكتبات:

إن الجزائر خلال العهد العثماني كانت في طليعة البلدان الكثيرة الكتب والمكتبات. وقد شهد على وفرة المكتبات فيها حتى خصوم العثمانيين، كالفرنسيين، الذين حكموا بان العثمانيين لم يقدموا أي عمل لتنشيط الحياة الروحية والفكرية في الجزائر. وكانت الكتب في الجزائر تنتج محليا عن طريق التأليف والنسخ أو تجلب من الخارج ولاسيما من الأندلس ومصر وإسطنبول والحجاز.

---

(1) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص ص.280-285.

وتشهد عبارات الباحثين الفرنسيين الذين شاهدوا وجمعوا المخطوطات من مكتبات المدن الجزائرية غداة الاحتلال أنهم كانوا مندهشين من كثرة الكتب التي وجدوها ومن تنوعها ومن جمالها والعناية بها. فقد اعترف بذلك البارون ديسلان الذي كتب تقريرًا عن المكتبات بقسنطينة عقب احتلالها مباشرة، وكذلك أدريان بيربروجر الذي رافق الحملة الفرنسية على قسنطينة وتلمسان ومعسكر وجمع المخطوطات من هذه المدن. وقد ذكر أيضا شارل فيرو الذي كتب عن المؤسسات الدينية في قسنطينة وعن العائلات الكبيرة بها، إن بعض هذه المؤسسات والعائلات كانت تحتفظ بمخازن من المخطوطات في حالة جيدة، وأن في هذه المخطوطات نوادر تعتبر فذة في موضوعها. وضرب على ذلك مثلا بمكتبة شيخ الإسلام بقسنطينة (عائلة الفكون) التي قال عنها أنها كانت غنية لا بالكتب الخاصة بالجزائر فقط، بل حتى بالكتب المتعلقة بالبلاد الإسلامية المجاورة. وكان يريد بذلك أن يبرهن على وجود الكتب بالجزائر وتذوق الفنون والعلوم من قبل أهلها، رغم عدم عناية العثمانيين بالثقافة.

وكان التأليف من الطرق الهامة لنمو المكتبات. وقد كانت حركة التأليف في العهد العثماني، رغم ما قيل فيه وعنه، حية ونشيطة. ولا نكاد نجد عالمًا إلا وله قائمة قصيرة أو طويلة من المؤلفات في مختلف العلوم المتداولة. وقد تمثل ذلك في الشروح والحواشي والتقاليد والتعاليق والرسائل والفهارس وفي التآليف ذات الأجزاء أيضًا.

ومن أشهر المؤلفين في هذه الفترة عبد الرحمن الأخضري وأحمد المقري وعبد الكريم الفكون وابن مريم وأحمد البوني وأبوراس وابن حمادوش وقدورة. فقد ألف المقري موسوعته عن تاريخ الأندلس (نفح الطيب) في مصر كما ألف (أزهار الرياض) في المغرب الأقصى. وألف يحي الشاوي وعيسى الثعالبي وابن حمادوش معظم أعمالهم في الخارج. ومن جهة أخرى نذكر أن صالح باي، قد أوقف في قسنطينة عددًا من الكتب على (المدرسة الكتانية) التي بناها، ولكنه لم يعرف عنه أنه كان يشجع حركة التأليف والنسخ، كما فعل زميله

ومعاصره محمد الكبير، بل كان يشتري الكتب الموقوفة من أصحابها وما يزال بعضها يحمل ختمه إلى اليوم[1].

وكان الحج والرحلة في ظل العلم وراء انتشار حركة التأليف والنسخ واقتناء الكتب. وكان حجاج المغرب الأقصى يتركون آثارهم في الجزائر ذاهبين وآيبين. فالعياشي تبادل الكتب والكراريس مع علماء الجزائر أثناء مروره بها في القرن الحادي عشر (17م) كما تبادل معهم ذلك وهم في الحجاز ومصر. ونذكر من هؤلاء العلماء عيسى الثعالبي وعبد الكريم الفكون.

ومن جهة أخرى كانت تونس معبرا ومدرسة للجزائريين. فهم يتصلون بعلمائها ويتبادلون معهم التآليف والإجازات ونحو ذلك. ومن هؤلاء محمد بن محمود المعروف بابن العنابي الذي تبادل الكتب والشعر مع علماء تونس، وخصوصا محمد بيرم سنة 1245.

ويمكن تقسيم المكتبات في الجزائر إلى عامة وخاصة. وما دمنا قد أشرنا إلى أن الولاة لم يشجعوا على التأليف ولا على جمع الكتب لأنفسهم، فإن ما يسمى أحيانا بالمكتبات السلطانية أو الأميرية لا وجود له تقريبا في الجزائر العثمانية.

فالمقصود إذن بالمكتبات العامة هنا هو تلك المكتبات الملحقة بالمساجد والزوايا والمدارس، والتي كانت مفتوحة للطلبة خصوصا ثم لجميع القراء المسلمين. ومن أشهر هذا النوع من المكتبات مكتبة الجامع الكبير بالعاصمة، ومكتبة زاوية القيطنة تحتوي على كتب كثيرة أيضا. وهي الكتب التي تثقف منها الأمير عبد القادر.

أما المكتبات الخاصة فكثيرة وليس من السهل حصرها. غير أن بعض العائلات قد اشتهرت لطول عهدها بالنفوذ، بالمكتبات دون الأخرى، فعائلة الفكون بقسنطينة كانت لها

---

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص ص.285-294.

مكتبة ضخمة أصبحت مضرب الأمثال بعد الاحتلال الفرنسي، وكان لأبي راس مكتبة كبيرة حبسها عليه أحد بايات وهران وسماها (بيت المذاهب الأربعة).

ولما كانت السيادة في العهد العثماني للعلوم الدينية فإن محتوى المكتبات كان أغلبه لا يخرج عن هذه العلوم. فكثرتها كانت من كتب التفاسير والقراءات والأحاديث النبوية وشروحها وكتب الفقه والأصول والتوحيد ونحو ذلك.

ثم تقارير العلماء الفرنسيين إثر الاحتلال عن مكتبات الجزائر كل ذلك يدل على أن هذه المكتبات كانت غنية بجميع أنواع المعارف، رغم وفرة الكتب الدينية فيها[1].

5- لمحة عن حال التعليم في عصر الأمير:

مثلت التعليم في عصر الأمير مؤسسات ثقافية متنوعة على اختلافها كان مضمون التعليم يعتمد على الحفظ وعلى مضمون كتب معروفة أشهرها ابن عاشور ورسالة أبي زيد القيرواني ومختصري خليل وابن الحاجي وعقائد السنوسي وألفية ابن مالك. ولعل أهم مرحلة اهتم فيها العثمانيون بالعلم كانت على عهد الباي محمد الكبير.

والذي كان له الإنجازات ما كان له تأثير إيجابي على الناحية الغربية والتي تشكل بيئة خاصة ومقربة للأمير، إذ كان هذا الباي حريصًا على الثقافة وعلى المثقفين حبًا في ذلك وحبا في استشارتهم فقام لتحقيق مرادهم ببناء دور العلم والمساجد. كبنائه للجامع العتيق سنة (1175هـ/1761م)، حيث أعاد بناءه بهندسة متقنة وجامع معسكر المعروف بجامع محمد الكبير أو جامع العين البيضاء سنة (1175هـ/1761م) والذي تحول إلى المدرسة المحمدية والتي أفرد لها أوقافا.

---

(1) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص ص.294-298.

ومسجد بن ناصر بمعسكر (1207هـ/1792م). وجامع الباشا (حسين باشا) الذي كان يرسل له مصاريفه بالإضافة إلى اهتمامه بالمدارس، كالمدرسة الجليلة بخنق النطاح (يوجد بها ضريحه) وتجديده لمدرستين بتلمسان وحبس خاص للجامع الكبير.

ولم يكتف الباي بالبناء بل واصل اهتمامه بالعلماء وهيئة التدريس بأن رتب للمسجد خطيبا وإماما وأربعة مدرسين وإيمانا منه بحاجة الناس إلى ذلك دون أن يهمل المؤن الخاصة بكل مدرسة فرتب لكل مدرسة ما يكفيها لشراء الزيت كل شهر بالإضافة إلى تقديم راتب معلوم للطلبة ولمن يقرؤون الحزب داخل المسجد صباحًا ومساءً.

بالإضافة إلى مرتبات خاصة بالعلماء زيادة على المنح والهدايا التي كان يفاجئهم بها في الأعياد[1]. ويذكر لنا ابن سحنون الراشدي أنهم كانوا يأخذون وظائفهم من الأحباس فيقول: "رتب المدرسين في الجوامع بوظائف يأخذونها من الأحباس بعد أن كان العلماء لا ينتفعون من ناحية المخزن بشيء إلا من كان متوليا لخطة أو مستعملا في خدمة فانشرحت الصدور للقراءة وكثر طلبة العلم".

كما كان الباي يحب جمع الكتب ولا يكتف باقتنائها بل يستنسخ منها ما لم يستطع شراءه ويحمل لنا الراشدي بدقة هذه الميزة فيقول: "ولمحبة هذا الأمير للعلم والأدب كان يشتري كتبه بالثمن البالغ ويستكثر منها ويستنسخ ما لم تسمح نفس مالكه ببيعه. وكثيرا ما يأمر بقراءتها في حضرته في مجلس حكمه".

حتى أنه كان يحب أن يحافظ على ذكرى العلماء فأنشأ مقبرة لمشاهير شخصيات معسكر وأمر ببناء مزار للسيد محمد بن عودة (من علماء القرن 11 دفين فليتة). ومشهد للولي أحمد بن يوسف (دفين مليانة من علماء القرن العاشر). ولعل اهتمامه بعلماء معسكر

---

[1] عائشة بن ساعد، **البعد الروحي لمقاومة الأمير عبد القادر**، مرجع سبق ذكره، ص ص.33-34.

وضواحيها يؤكده تكليفهم بمهمة تأسيس رباط بينه وبين الإسبان جبل المائدة لخطة ذات بعد ديني يثبط بها همة الإسبان وليحولوا دون دخول السلاح والمؤن التي تأتيهم من الخارج.

لهذا زخر عهده بالكثير من التأليف منها كتاب عجائب الأسفار لمحمد أبي راس المعسكري وكتاب الثغر الجماني لأحمد بن علي بن سحنون، وكتاب الرحلة القمرية في الأخبار المحمدية لصاحبه مصطفى بن عبد الله بن زرقة. كما أمر بجمع فتاوى العلماء في جوائز الملوم وأجزل العطاء لأحد الطلاب بسبعين دينارًا.

أما عن الشعراء فكان يحب الأدب ويجزل لأصحابه العطاء كمنحه للراشدي مائة دينار ذهبيا على اختصاره لكتاب الأغاني الأسفهاني.

ويؤكد بن سحنون ذلك التشجيع حين يقول: "أمرني باختصار الأغاني واختصرته في نحو الثمانين كراسة. فأثابني بمائة سلطاني ثم أمرني أيضا بجمع طب القاموس فضممته وزدت عليه من كلام الأطباء فأثابني عنه بخمسين سلطانيا وقد كنت ألفت باسمه كتابا في الأدب".

وكان عدد طلبة هذا الرباط يزيد على خمسمائة طالب يرأسهم محمد بن المولود الغريسي ويدرسهم الطاهر بن حوا قاضي معسكر. كما أعفى ضريبيا كل من يسكن هذا الرباط في جبل المائدة.

ومادام الهدف من التعرض للحياة الثقافية في الجزائر في القرن التاسع عشر هو تحديد ملامح الثقافة في عصر الأمير وخاصة فيما يتعلق ببيئته الثقافية لابد من التحدث أيضا عن الوسط الخاص الذي عاش فيه الأمير ألا وهو منطقة غريس موطن الفقهاء وذوي الصلاح وبلد الزوايا والمزارات في كل مكان[1].

---

[1] عائشة بن ساعد، **البعد الروحي لمقاومة الأمير عبد القادر**، مرجع سبق ذكره، ص ص.35-36.

حيث كان أشراف غريس قد اهتموا اهتماما كبيرا بعلوم الدين وبالعلوم اللغوية فأسسوا لذلك الغرض زوايا للعلم المجاني وانتقوا لها أحسن المدرسين وهذا ما شجع الوافدين إليها بالتزايد حيث كان "الواحد منهم يؤسس زاوية لطلبة العلم يوظف بها أجلة المدرسين فيقصده طلبة العلم من آفاق على نفقة صاحب الزاوية لذلك كثرت الرحلة لطلب العلم لوطن غريس ما بين القرن العاشر والحادي والثاني عشر" وذلك بفضل بعض العائلات التي رعت العلم وحافظت عليه ومن أهم علماء المنطقة في عصر الأمير وفي غريس بالذات يذكرهم لنا صاحب القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم للعلامة الطيب بن المختار الغريسي المختاري (ت: 1320م/707هـ) والذي أورده بلهاشمي بن بكار في كتابه مجموع النسب.

- السيد الحاج عبد القادر السنوسي وأولاد سيدي عمر بن دوبة وأولاد سيدي دحو.
- وسيدي بن يامنة بن دوحة (خال الأمير) وسيدي أحمد بن علي وسيدي أحمد بومعزة وولده سيدي عبد الرحمن بن احمد وولد سيدي الطيب بن عبد الرحمن (قضاة زمن الباي حسن).
- والشيخ مصطفى الرصاص صاحب الحاشية المشهورة على شرح الشيخ التتائي.
- والسيد عبد القادر بن عبد الله المعروف بالشيخ المشرقي (صاحب زاوية الكراط) وحفيده ابن عبد الله.
- وابن فريحة خليفة الأمير.
- وأولاد سيدي أحمد الوغي.
- والحاج عبد القادر درس وكتب (متولي قضاء وهران). وعبد القادر الصغير.
- ومحمد بن حواء وأولاده سيدي عبد القادر بن المختار وأحمد المختار وولده بن خدة الذي كان له تعليق حاشية على صغرى السنوسي.
- ومصطفى بن المختار.
- والعلامة ابن زيان (في العروض).

– وأبي عبد الله المجاوي[1].

وأما عن عائلة الأمير بالذات، عائلة المختار الحسيني فقد اشتهر فيها الطيب بن المختار ابن عم الأمير عبد القادر صاحب القول الأعم في بيان أنساب الحشم ومصطفى ابن التهامي ابن عم الأمير وصهره والذي كتب السيرة الذاتية للأمير او تنسب إليه أحيانا والذي درس على يده القاضي الطيب بن المختار، توفي في: (1307م/707هـ) وكذلك الحسين بن علي بن أبي طالب ابن عم الأمير والذي كتب تاريخًا مختصرًا عن الأمير نشر في المجلة الإفريقية. وكذلك أحمد بن محي الدين أصغر إخوان الأمير عملوا في القضاء كالمشارفة مثل المشرفي محمد (منافس الأمير) وابن عبد السقاط المشرفي وكذلك القاضي أحمد المجاهد بن محمد بن عبد القادر بوطالب.

6- الطرق الصوفية:

لقد ورد لفظ الطريق أو الطريقة في القرآن الكريم في أكثر من موضع ومعناه المنهج والصراط المستقيم الموصل للنجاة حيث قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا**﴾ النساء 168.

أما عند الصوفية فالطريقة هي السير بالسير المختصة بالسالكين إلى الله وقد عرفت الطرق الصوفية في العالم العربي الإسلامي عامة وفي الجزائر خاصة انتشارا واسعا بحيث كثرت أعدادها وتعددت أنواعها وتنوعت مناطق تمركزها بين المدن والأرياف[2].

وفي القارة الإفريقية نجد بأن الطرق الصوفية قد انتهجت مبادئ العصور الوسطى في التصوف بالإضافة إلى طرق جديدة اختلفت من طريقة لأخرى وكان أقطاب الطريقة يشكلون طريقتهم بما يتناسب مع عقلية الشعوب البدائية وكانوا يحولون التمارين الصوفية إلى نوع من الرقص يصحب تلاوة أوراد الطريقة، ولم يضع الأقطاب شروطا معينة قبل الانخراط

---

(1) عائشة بن ساعد، **البعد الروحي لمقاومة الأمير عبد القادر**، مرجع سبق ذكره، ص ص.36-37.

(2) نصر الدين حسين، **الصوفية بين الأمس واليوم**، الدار المتحدة للنشر، بيروت، 1975، ص14.

في سلك الطريقة بل بسطوا الإجراءات وأصبحت تشمل الحصول على عهد الولاء للطريقة، ولم يطلب القطب من الأتباع سوى الصلاة والقيام بالدعاء كما كان طلب الأناشيد المنظمة والأذكار يتم بشكل معتدل في محاولة لإظهار الأثر النفسي والجسماني على المريد[1].

ولم يكن لمعظم الطرق الصوفية في القارة الأفريقية تنظيم مركزي معين بل كانت الطرق تضم مدارس سرية تعمل أساسا في المناطق الإفريقية لتسد الفراغ في القارة بعد القضاء على بعض الأنظمة السياسية التي كانت تتولى الحفاظ على الدين الإسلامي، بل وصل الأمر ببعض الطرق إلى حد السعي لتقلد السلطة السياسية مثل الطريقة السنوسية في ليبيا والطريقة القادرية في دولة سوكوتو ممثلة في الشيخ عثمان بن فودي وذريته الذين أسسوا دولة إسلامية في شمال نيجيريا وظلت تمارس الطريقة القادرية في أكثر من قرن من الزمان وأيضا تجسد ذلك في الطريقة التيجانية عندما أسس الحاج عمر الفوتي التكروى إمبراطورية كبرى في غرب القارة وطبق فيها أسس التيجانية[2].

وفي الغالب كان صاحب الطريقة لا يقطن في المكان الطي تنتشر فيه فهو يقيم بعيدا عن القارة الإفريقية إما في الحجاز أو العراق لكنه يفوض سلطانه إلى خلفائه من أبناء البلاد والذين كانوا يعملون كنواب له ولكنهم مع الجاه والنفوذ الذي يربطهم بأتباعهم ومع المكاسب الكبرى التي يحققونها من جراء القيام بهذا الدور فإن النواب غالبا ما كانوا يحجبون الشيخ الحقيقي عن أتباعهم، وكان هذا الخليفة أو النائب يعين خليفته قبل وفاته وربما كان هذا المنصب عادة لأحد أبنائه أو أقرب التلاميذ إليه وأرفعهم مكانة عنده ولم يتم اختيار الخليفة الجديد عن طريق شيخ الطريقة ومؤسسها الحقيقي رغم أن الاتصال مستمر بين الخلفاء وشيخ الطريقة للحصول على موافقته.

---

[1] عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، **الطرق الصوفية في القارة الإفريقية**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 2004، ص26.

[2] نفس المرجع، ص26.

وكانت سلطة الخليفة المحلي تقوم على أساسين هما سلسلة البركة والتي تربطه بمؤسس الطريقة وسلسلة العهد الذي يعتبر عهد الانضمام للطريقة، وممارسة الأذكار التي تتصل بذكر الله والرسول الكريم وكانت مراسم انتقال الخلافة تتم بعد الأذكار وإعداد وليمة كبرى ثم قيام الشيخ بتلاوة بعض العبارات والهمس في أذن الخليفة بعبارات تتصل بالاستغفار وتلاوة (لا إله إلا الله) عدة مرات ويسلمه سجادة للصلاة عليها ومسبحة لتمكنه من أداء واجبات الصلاة والقيام بممارسة ورد الطريقة[1].

ويطلق على من ينضم للطريقة اسم المريد بينما يطلق على أعضاء الجماعة لقب الإخوان، ويمر هذا المريد بمراحل مختلفة إلى أن يصل إلى درجة القطب الغوث أو الرباني وهي أعلى المراتب في الطرق الصوفية، وطبعًا كانت القادرية، التيجانية، العروسية، المهدية، المجذوبية، الإدريسية، الختمية، الشاذلية، العياشية..الخ، من بين تلك الطرق الصوفية التي انتشرت بالقارة السمراء، وبصرف النظر عن الآراء التي نادت بها أو الأفكار التي حاولت نشرها أو الأوراد التي حاولت تلقينها إلى أتباعها ومريديها أو حتى حلقات الذكر التي أدخلتها على طرقها، فإن هذه الطرق الصوفية قد لعبت دورًا كبيراً في نشر الدين الإسلامي في القارة الإفريقية، لدرجة أنه لا يمكن الحديث عن انتشار الإسلام أو دور المسلمين في مقاومة الحركات الاستعمارية الصليبية دون أن نتعرض لهذه الطرق الصوفية التي وجدت في إفريقيا مجالا خفيًا لنشاطها وتعلق الناس بشيوخها وصارت جزءًا أساسيا من حركات الجهاد الإسلامي في القارة.

وأثناء الاستعمار الفرنسي لبلاد المغرب: تونس، ليبيا، الجزائر والمغرب الأقصى فقد لعبت الطرق الصوفية دورا بارزا وفعالا في مواجهة الاستعمار وإضعافه وهذا ما دفع الفرنسيين إلى السعي بقوة من أجل محو هذه الطرق من جذورها.

---

(1) عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، **الطرق الصوفية في القارة الإفريقية**، مرجع سبق ذكره، ص27.

ومن الطرق الصوفية التي كانت حاضرة أثناء المقاومة في تونس، الجزائر وليبيا نذكر السنوسية والرحمانية والقادرية أما التيجانية فقد تعاملت مع الاحتلال ومع فرنسا كما واجهت ووقفت ضد جهاد الأمير عبد القادر[1]. وفيما يلي الأنواع المختلفة للطرق الصوفية:

1- الطريقة الشاذلية:

ومؤسسها كان الشيخ أبي الحسن علي بن الجبار الشاذلي (592هـ-655هـ/1196م-1285م) الذي ولد بالمغرب الأقصى ثم رحل إلى قرية شاذلة بتونس حيث أسس طريقته الصوفية هناك وقد تتلمذ الشاذلي على يد الشيخ أبي محمد عبد السام بن مشيش الذي بدوره تتلمذ على يد الشيخ أبي مدين.وقد تفرعت عن الشاذلية الطريقة الوافية وفي المغرب الأقصى الطريقة الدرقاوية وفي ليبيا تفرعت عنها الطريقة المدنية نحو 1450م، وأيضا العروسية وفي الجزائر تفرعت عنها الطريقة الزروقية وتفرعت عنها طرق صوفية أخرى من الصعب إحصاؤها لكثرتها وتشعبها في المناطق الممتدة بين الحجاز شرقا والمغرب الأقصى غربا مثل البكرية والحازولية وغيرها[2].

وكان ما يميز هذه الطريقة قدم ظهورها ورفض أتباعها للوظائف الإدارية في الدولة بالإضافة إلى الإكثار من العبادات والذكر والالتزام بالسنة والكتاب وكان لها في الجزائر 11 زاوية و14206 من الأتباع منهم 652 أخوات، وقد تفرعت عنها البوزيدية والعلاوية والحنصالية والطيبية والعيساوية والزيانية والكيتانية وغيرها[3].

---

[1] عبد الجليل ساقني، **الزاوية القادرية المشيخة العامة للطريقة القادرية بالجزائر وأدوارها السياسية والاجتماعية من 1884 إلى 1962**، جامعة الجزائر، 2009-2010، ص41.

[2] عمار هلال، **الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربي في غرب إفريقيا السوداء**، دار الثقافة، الجزائر، 1984، ص109.

[3] نفس المرجع، ص106.

2- الطريقة التيجانية:

وقد تأسست هذه الطريقة على يد أحمد بن محمد بن المختار بن سالم التيجاني الذي عاش بين (1731م و1815م) بعين ماضي وقد أبدى التيجاني عند طفولته ذكاءً فائقا وامتاز بالأخلاق الفاضلة وتربى تربية بين عائلة محافظة جد متمسكة بعقيدتها الإسلامية وكان أبوه عالما فقيها في الدين.

وتتميز بأن الداخل إليها يجب أن يكون قد دخل طريقة أخرى من قبل لكن بعد دخوله التيجانية لا يمكن أن يعود ويخرج مرة أخرى وقد كان المركز العالمي للطريقة هو عين ماضي بالجزائر وتنتشر في القارات ولها تأثير في القرار السياسي للعديد من الدول الإفريقية. وكان من أهم المصنفات التي تجمع مذهبهم كتاب جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض الشيخ التيجاني.

3- الطريقة السنوسية:

أسس الطريقة الصوفية السنوسية الشيخ محمد بن علي السنوسي الخطابي الإدريسي المجهري وقد ولد الشيخ السنوسي سنة (1859-1787م) بالقرب من مستغانم في دوار طرش الموجودة بين قرية سيرات وجبل ينارو أي دائرة يلل الحالية، وقد أخذت تعاليم طريقته من عدة طرق خلال سياحته المتعددة كالزيانية والكرزازية والدرقاوية والتيجانية والخضرية وقد انتشرت طريقته بشمال ليبيا ثم جنوبها بواحة جغبوب أين أسس زاويته الكبرى ومن ثم شرع في نشرها في الجزائر وتونس والصحراء الكبرى أما في العهد العثماني فقد تميزت بتوتر علاقاتها مع الحكم العثماني حيث ثارت ضده وضد حكم مصر بسبب تصرفاتهم التي كانت تشبه الأوروبيين والعجم آنذاك، وفي الجزائر كان لها زاوية واحدة و949 من الأتباع منهم 13 أخوات وهي لا تمنع أتباعها من الانضمام لطرق أخرى[1].

---

[1] عمار هلال، مرجع سبق ذكره، ص127.

4- الطريقة الرحمانية:

أسسها الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري الجزجري القشتولي وكان من قبائل جرجرة وقد عاش بين (1780–1794م) وعرفت الطريقة بالحياد واهتمت بالتعليم الإسلامي الديني ومن الأمور التي ميزت الطريقة الرحمانية المساواة والأخذ بتعاليم وثقافة الشاذلية والدعوة للإسلام وكانت قد نشأت وتطورت بالجزائر خاصة بالوسط.

5- الطريقة الدرقاوية:

وتأسست على يد الشيخ العربي بن احمد بن الحسين بن محمد بن يوسف الملقب بأبي الدرقاوي الشريف الإدريسي الذي توفي سنة 1823م وقد قام بتأسيسها بشمال المغرب الأقصى ومن ثم انتشرت في الجزائر وبالخصوص في الغرب الجزائري تحديدا وهران وتلمسان ومستغانم وتيارت، ولم تلزم الحياد ضد الحكم فقد ثارت ضد الحكم العثماني وكذا ضد الاستعمار الفرنسي بمختلف الثورات التي قادتها والكثير من العلماء ويقولون بأنها أخذت من الشاذلية إلا في شيئين التزام الحياد ضد السلطة والتسامح، وقد تميز أصحابها بكثرة الذكر والعبادة والعزلة والصوم والابتعاد عن ملذات الحياة الدنيا وأيضا حمل العصا.

6- الطريقة العيساوية:

وقد أسسها الشيخ محمد بن عيسى المكناسي الذي توفي بالمغرب الأقصى سنة 1526م وكانت طريقته قد انتقلت من المغرب الأقصى إلى غرب الجزائر وبالنسبة للحكم فقد كانت علاقتها وثيقة بالحكم العثماني في حين كانت ضد الاستعمار الفرنسي[1].

وهناك طرق صوفية أخرى كالقادرية التي كان ينتمي إليها الأمير عبد القادر وسنتعرض لها بشيء من التفصيل فيما يلي، بالإضافة إلى النقشبندية وانتشرت في سوريا

---

(1) عبد الجليل ساقني، مرجع سبق ذكره، ص44.

ولبنان والرفاعية التي انتشرت بالكويت والعراق ومصر والجزائر، والناصرية بخنشلة والشيخية والطيبية والبكداشية والشابية كلها زالت بزوال الحكم العثماني خاصة بالجزائر.

7- الطريقة القادرية:

أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني وولد بجبال جيلان، بلاد تقع في العراق سنة 470هـ على الأرجح، أبوه يسمى موسى جنكي ابن عبد الله المكنى أبو صالح وأمه أم الخير بنت عبد الله الصومعي الحسيني.

وكان الشيخ عبد القادر يتمتع بشخصية فذة ونفوذ روحي فكان يسيطر على قلوب المستمعون أثناء وعظه ويستهوي نفوسهم في التلذذ بحديثه، حتى أنه استغرق مرة في كلامه وهو على كرسي الوعظ فانحلت طية عمامته وهو لا يدري فألقى الحاضرون عمائمهم وطواقيهم تقليدا له وهم لا يشعرون.

وبعد أن توفي الشيخ أبي سعيد المبارك المخزومي فوضت مدرسته إلى خليفته الشيخ عبد القادر الجيلاني فجلس فيها للتدريس والفتوى، وكانت شخصيته الفذة وحبه للتعليم وصبره على المتعلمين جعلت طلاب العلم يقبلون على مدرسته إقبالا عظيما حتى ضاقت بهم فأصيف إليها ما جاورها من المنازل والأمكنة ما يزيد على مثلها وبذل الأغنياء أموالهم في عمارتها وعمل الفقراء فيها بأنفسهم حتى تم بناؤها سنة 528هـ الموافق 1133م وصارت منسوبة إليه.

وكان الشيخ عبد القادر عالما متبصراً يتكلم في ثلاثة عشر علما من علوم اللغة والشريعة، حيث كان الطلاب يقرؤون عليه في مدرسته دروسا في التفسير والحديث والمذاهب والأصول واللغة، وكان يقرأ القرآن بالقراءات وكان يفتي على مذهب الإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل وتوفي سنة 561هـ[1].

---

[1] عبد الجليل ساقني، مرجع سبق ذكره، ص ص.86-87.

أما فيما يخص شيوخه:

- فهو قد قرأ القرآن الكريم على يد أبو الفاء علي بن عقيل الحنبلي وكذلك عن محفوظ الحنبلي وغيرهم، قرأ الأدب على يد يحي بن علي التبريري.

- سمع الحديث ورواه من أحمد بن الحسن البقلاني وأبو البركات هبة الله ابن المبارك وجماعة أخرى.

- تعلم الطريقة عن حماد الدباس ويوسف بن أيوب الهمداني، وتعلم كذلك الفقه وأحكام الأصول والفروع زيادة على علوم الحقيقة والانقطاع والخلوة والمجاهدة ومخالفة النفس وكان رضي الله تعالى عنه حنبلي المذهب يفتي في المذهبين الشافعي والحنبلي.

أشهر كتب الشيخ هي كتاب فتوح الغيب، كتاب الغنية لطالبي الحق، كتاب الفتح الرباني والفيض الرحماني، كتاب سر الأسرار فيما يحتاج إليه الأبرار.

أما فيما يخص مؤسس الطريقة القادرية في الجزائر فهو الشيخ أبو مدين شعيب وهو شعيب بن احمد بن جعفر أو ابن الحسين الأنصاري البجائي وكنيته أبو مدين تكنى بسيدي مدين دفين مصر المحروسة بجامع الشيخ عبد القادر الدشطوطي، وقد ولد سنة 1104م بالأندلس، ونشأ فيها ثم ذهب إلى فاس وتفقه بها وسكنها مدة وقرأ على يد شيوخ عدة منهم الشيخ أبو الحسن بن غالبة ثم توجه للمشرق والتقى بالشيخ عبد القادر الجيلاني في الحج وصحبه وقرأ عليه الحديث الشريف وألبسه خرقة التصوف وأودعه من أسراره بملابس الانوار فكان سيدي بومدين يفتخر بصحبته ويعده من كبار مشايخه ولما رجع من حجته وجولاته حل ببجاية وكان يقول أنها معينة على طلب الحلال وكانت ترد عليه الوفود وذووا الحاجات، وكان على إطلاع وعلم غزير ولقد أخذ عليه خلق كثير ونجد حكمه في الفتوحات المكية لمحيي الحق والدين أبي عبد الله محمد بن علي المعروف بابن عربي ولقد شارك في الجهاد

لتحرير القدس من الصليبيين. إن الطريقة التي كان يتبناها انتشرت في مصر المحروسة وفي القدس الشريف وأخذها كذلك إلى المغرب الأقصى[1].

وقد أجمعت المشايخ على تعظيمه وإجلاله وتأدبوا بأدبه وكثر تلاميذه مريدوه وذاعت شهرته في كل شمال إفريقيا، وقد استقر الشيخ شعيب في بلدة بجاية بالمغرب الأقصى وأنجب ولده مدين هناك فعرف بأبي مدين، وظل يمارس الوعظ والإرشاد في جامع البلدة ومدرستها حتى بلغ الثمانين من عمره وعرف في كل بلاد المغرب، وسمع به أمير المؤمنين أحد أحفاد الأدارسة، وخليفة المغرب الأقصى في ذلك الوقت وكان موجودا بمدينة تلمسان فأرسل في طلبه.

كان أبا مدين شعيب يدرس الرسالة القشيرية في التصوف لمؤلفها عبد الكريم القشيري والمقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى لمؤلفه أبي حامد الغزالي، وورث طريقته الصوفية القادرية إلى تلميذه عبد السلام بن مشيش صاحب كتاب إعادة الراغبين في الصلاة وهو يعتبر شيخ شيوخ الطريقة الشاذلية القادرية وقبل وفاة عبد السلام بن مشيش ورث طريقته إلى تلميذه أبي الحسن الشاذلي ومنه انتقلت إلى الشيخ مصطفى بن المختار الغريسي القادري ومنه إلى ابنه الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر[2].

وفيما يتعلق بالقادرية يمكن القول أنها أساس ومنطلق كل الطرق الصوفية في الجزائر فالمدينية تفرعت من القادرية والجنيدية تفرعت عن المدينية الشاذلية وعن هذه الأخيرة تفرعت طرق كثيرة منها الدرقاوية والجزولية واليوسفية والعيساوية والشيخية والطيبية والحنصالية وغيرها... [3].

---

[1] عبد الجليل ساقني، مرجع سبق ذكره، ص ص.86-89.

[2] نوري الطيب، **الرسالة النورية في الطريقة القادرية**، دار الكتب العلمية للنشر، لبنان، 2007، ص14.

[3] عبد الجليل ساقني، مرجع سبق ذكره، ص91.

ومبادئ القادرية إنسانية لأنها قائمة على حسن التعامل والتسامح مع الآخرين بما فيهم الأجانب. يقول الشيخ القطب عبد القادر الجيلاني في صحبة الأجانب والتعامل معهم "إنهم من أهل السلامة فيتجاوز الله عنهم" ويعني هذا أن ينظر إليهم بعين الشفقة ولا تصادر أموالهم مع الصبر على سوء أخلاقهم.

ومن غير المستبعد أن يكون لأخلاق القادرية الرفيعة دور في دفع الكثير من الأجانب إلى الإقبال على اعتناق مبادئها من ذلك ما حدث للمغامرة إيزابيل إيبرهارت التي كتبت عن الإسلام واعتناقها له وحبها الشديد لحياة البادية والصحراء وعن قيامها بمغامرات في وادي سوف وعين الصفراء وأثناء تواجدها في وادي سوف اعتنقت الطريقة القادرية.

وقد عملت الطريقة القادرية على توحيد قبائل كثيرة ومهدت الطريق للوحدة الوطنية الجزائرية التي تبلورت في عهد الأمير عبد القادر، ولم تدعو القادرية يوما إلى سفك الدماء بين أفراد الشعب الواحد بل كانت تؤازر حرية الإنسان وتصون كرامته.

فالطرقية وحدت المجتمع روحيا إلى حد كبير وهو ما عجزت عنه السلطة العثمانية لأن للطرق الصوفية نظاما إداريا يشبه النظم الإدارية للحكومات لذلك العهد ولاسيما فيما يتصل بتسخير الأتباع في استثمار الأراضي والعقارات المحبوسة على زوايا الطريقة، ومن بلاد المغرب انتقلت الطريقة القادرية إلى إفريقيا بواسطة القوافل التجارية التي صحبها علماء ودعاة ومنهم شيوخ الطريقة القادرية(1).

أسس الطريقة القادرية:

وضع الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه أسسا قويمة ومبادئ سديدة لطريقته العظيمة التي هي دعوة إلى الإيمان وإتباع الله وسنة رسوله والحفاظ على أركان الإسلام والتمسك بالفضائل والابتعاد عن الرذائل فقال بهذا الصدد: "ولأهل المجاهدة وأولي العزم

---

(1) احميدة عميراوي، **رسالة في الطريقة القادرية في الجزائر**، دار الهدى، الجزائر، 2003، ص31.

عشر خصال جربوها لأنفسهم فإذا أقاموها وأحكموها بإذن الله تعالى وصلوا إلى المنازل الشريفة وهي:

- ألا يحلف بالله صادقات ولا كذبا عامدا ولا ساهيا.
- أن يجتنب الكذب هازلا وجادا.
- أن يجتنب أن يلعن أحدا من الخلق.
- أن يجتنب أن يدعوا على أحد من الخلق.
- أن لا يكفر أحدًا من أهل القبلة.
- أن يجتنب النظر إلى شيء من المعاصي ظاهرا وباطنا.
- أن يجتنب احتقار أي مخلوق.
- أن يقطع طعمه من الآدميين.
- أن يكون متواضعا لله لإعلاء منزلته بين الخلق[1].

ويضيف الشيخ عبد القادر الجيلاني:

"طريقتنا هذه مبنية على الكتاب والسنة وسلامة الصدور وسخاء اليد وبذل الندى وكف الجفا وحمل الأذى والصفح عن عثرات الإخوان...الخ.

- الصوفي أعماله هي التي تدل على الطريق وليست الأقوال وحدها.

- أما سلامة الصدور فتكون من كل غل وحسد وغش ورياء وطلب رئاسة وكثرة حرص على الدنيا وغيرها من الآفات المهلكة للنفس.

- أما سخاء اليد فهو العطاء والكرم والإيثار بما فتح الله به على العبد من أمور الدنيا إن قل أو كثر.

مدار الطريق لذا مبني على مكارم الأخلاق ومحاسنها.

---

(1) عبد الجليل ساقني، مرجع سبق ذكره، ص94

ثم يقول رضي الله عنه في هذه الوصايا أن التصوف مبني على ثماني خصال وهي: السخاء، الرضا، الصبر، الإشارة، الغربة، لبس الصوف، السياحة والفقر. ثم يقول بعد ذلك عليك بصحبة الأغنياء بالتعزز والفقراء بالتذلل وعليك بالإخلاص وهو نسيان رؤية الخلق ودوام رؤية الخالق ولا تتهم الله في الأسباب...الخ.

الورد الخاص بالطريقة القادرية:

أن الأذكار والأحزاب والأوراد الموجودة في الطريقة القادرية هي كثيرة حتى قبل أنه يوجد نيف وسبعين طريق كلها منسوبة للشيخ عبد القادر الجيلاني أصولها قادرية وزاد عليها بعض المشايخ الكبار المجددين حسب مقتضيات عصورهم مع العلم بأنهم أهل إرث وانتساب.

من بين هذه الأذكار الجليلة نذكر منها الورد القادري المشهور عندنا وهو أن يقول الطالب كل صباح ومساء بعد صلاة الصبح والعصر[1].

- بسم الله الرحمن الرحيم...100 مرة
- فاتحة الكتاب...مرة واحدة
- لا إله إلا الله...200 مرة
- الله...100 مرة
- أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه.......100 مرة

ثم يدعو بعد ذلك بالدعاء التالي:

- ثبتنا بقولها وارحمنا يا مولانا بفضلها واجعلنا من خيار أهلها "آمين" ثلاث
- يا من له هذا الملك والملك الباقي لا تجعل فينا محرومًا ولا شقيًا بجاه محمد السابق اللاحق.

---

[1] عبد الجليل ساقني، مرجع سبق ذكره، ص ص.94-96.

– يا من لا مثيل له في الذات والصفة اغفر لنا ما مضى وأصلح لنا ما يأتي بجاه محمد صاحب الشفاعة.

– الله يا مولانا يا سامع دعانا بجاه محمد لا تقطع رجاءنا.

– الله يا مولانا يا سامع دعانا بجاه محمد تقبل دعاءنا.

– الله يا مولانا يا سامع دعانا بجاه محمد أحفظنا وأرعانا.

– ربي أحيينا سعداء وأمتنا شهداء ولا تخالف بنا عن طريقة الهدى.

– ربي أحيينا سعداء وأمتنا شهداء ولا تخالف بنا عن سنة نبينا.

– ربي أحيينا سعداء وأمتنا شهداء ولا تخالف بنا عن طريقة شيخنا.

– بفضلك يا الله والنبي محمد "آمين يا رب العالمين" والسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله صلاة أهل السماوات والآراضين عليه وأجري يا رب لطفك الخفي في أمري وأمور المسلمين.............. 03 مرات[1].

---

[1] عبد الجليل ساقني، مرجع سبق ذكره، ص ص.96–97.

الفصل الثالث

المقاومة الثقافية

للأمير عبد القادر

سنتحدث في هذا الفصل عن أوضاع الجزائر غداة الاحتلال وعن ما تعرضت له من تخريب وانتهاكات ثم سنتطرق إلى المجال الثقافي المتمثل في التعليم العربي الإسلامي وما تعرض له في بداية الاحتلال الفرنسي ثم نتعرض للمقاومة الثقافية للأمير عبد القادر.

1- أوضاع الجزائر غداة الاحتلال الفرنسي:

يقول الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي المؤرخ الكبير في هذا الصدد: "ما كاد ينقضي على أخذ العهود والمواثيق المؤكدة من فرنسا على تأمين السكان وتطمينهم على ديانتهم وأموالهم وحريتهم الشخصية وحول تجارتهم وصناعتهم ...الخ. مدة شهرين فقط حتى أخذت فرنسا في نقض ما أبرمته مع الحكومة الجزائرية وهدمته حجرًا حجرا...

فأطلقت يد النهب والسلب والقمع وانتهاك الحرمات بين الناس، ولاسيما فيما يخص بالمادة الخامسة من الاتفاقية المبرمة ما بين الدولتين الجزائرية والفرنسية المتعلقة بالمؤسسات الدينية والشريعة الإسلامية والأوقاف، كما جاء في المعاهدة فإنها أصبحت كلها منقوضة واضحة جميع موادها غير محترمة فلا تراهم ينظرون إليها إلا كما ينظرون إلى مجرد حبر على ورق ثم لم يكن لتنقضي على المعاهدة الجزائرية – الفرنسية مدة أسبوع واحد من أيام الاحتلال ولياليه الحالكة الطويلة الأولى حتى عمل الجيش المحتل على طرد الأهالي وإخراجهم من ديارهم ومساكنهم إلى حيث ترى أكثر الأهالي يشدون رحالهم إلى البوادي والقفار وإلى أقاصي حدود البلاد الجزائرية، ومنهم من ذهب على وجهه فخرج من المدينة سالكا طريق الحراش إلى حيث لا يدري أين تلقي به الأقدار، ومنهم من سيق كالأغنام بقوة السلاح وبغير شفقة ودون ستر عورات نسائهم إلى حيث حشروا بداخل السفن التي أبحرت بهم إلى المنفى، ومنهم من انتقل مهاجرا إلى المشرق والمغرب. وصودرت أملاكهم وجميع ممتلكاتهم، وخرج يومئذ من الجند التركي أكثر من 2500 انكشاري، فذهبوا إلى أزمير.

وكان ارتحال الداي من الجزائر يوم 17 محرم 1246هـ-10 جويلية 1830م، فذهب إلى مدينة نابولي الإيطالية[1].

وفي خلال ظرف ثلاث سنوات ونصف مضت من يوم الاحتلال فقط هدمت عمارات المدينة دون أن تدعوا الحاجة إلى ذلك. ودون أن يتم تعويض المالكين وفقا للمادة 545 من القانون المدني كما حطمت مساجد العاصمة التي كان يوجد بها يومئذ 92 مسجدا مالكيا و14 مسجدا حنفيا، وفيها ما حول إلى كنائس ومنها ما أصبح ملكا "للدومين" يكتريه للتجار ونَفَى رجال السلك الديني والقضاة دون أن يرتكبوا ما يدعو إلى ذلك. وفيما يتعلق بالمساجد وما حصل لها من أضرار نجد السيد حمدان خوجة يقول في هذا الصدد في كتابه المرآة: "وهناك أفعال أخرى كثيرة أستطيع أن أقول بأنها منافية لتقاليدنا، وهي التي تنفر السكان من السلطة. هذه هي الأسباب التي جعلت الجزائر غير قابلة للاستعمار، وبإمكاننا القول بأن السيد كلوزيل هو الذي كان أصلا في وجودها. وعندما كنت عضوًا في مجلس البلدية، في عهد بورمون، طلب منا شيخ البلدية أن نسمح له بتحويل عدد من المساجد إلى مستشفيات للجيش، ذلك الذي قال عنه بأنه لا يملك مسكنا يأوي إليه في الشتاء، فأجبناه بأن تلك الأماكن معدة لأمور لا تستطيع تغييرها وعليه لن نوافقه لمحض إرادتنا، ولكنه إذا أراد استعمال القوة للاستيلاء عليها فإننا نكون عاجزين عن منعه. وبعد قليل من المحادثات، رفضت ملاحظاتنا ووقع الاستيلاء، ظلمًا على المساجد.

إن الحكومة الفرنسية باستعمالها العنف، تنفر السكان وتثيرهم ضدها كما أنها تتصرف ضد المعاهدات والالتزامات التي كانت قد وقعت عليها وحسب شريعتنا، فإن المساجد ملك للجميع وهي مخصصة، فقط لعبادات المسلمين، والقاضي نفسه لا يستطيع تغيير هذه الوجهة، والمسجد مكان مقدس لا يحق انتهاكه بالنسبة لجميع المسلمين، سواء منهم سكان فارس والمغرب أو الصين. وبما أن وثيقة الاستسلام تعترف باحترام المساجد وتتعهد بضمان

---

[1] عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، الجزء الرابع، دار الأمة، الجزائر، 2008، ص ص.44-45.

ذلك، فإن سكان مدينة الجزائر لن يتوقفوا عن الاحتجاج ضد هذه الانتهاكات[1]. كما أن المستعمر الفرنسي قام بإبعاد الخواص من الأثرياء الذين يساعد وجودهم الطبقة الفقيرة لا لشيء إلا نتيجة اتهامات لا أساس لها من الصحة وهدمت ظلمًا وعدوانا المخازن التي يمكن للطبقة الفقيرة أن تحصل منها على وسائل العيش، وأصبحت المؤسسات العمومية التي أنشأها بعض الأثرياء الخواص لمساعدة المساكين بيد الدومين الفرنسي، غنيمة للمنتصر. وتم احتلال ممتلكات الأشخاص احتلالا عسكريا وبدون مقابل، كما حدث انتهاك للمساكن الخاصة واحتجاز بعضها مما يخالف ما جاء في المادة 57 من ميثاق سنة 1830م. وأضف إلى ذلك بعثرة القبور التي تحتوي على هياكل أجداد هذا الشعب لغرض التجارة بعظام أصحابها... !!

ولما احتج حمدان بن عثمان خوجة لدى القائد الفرنسي الجنرال "كلوزيل" ضد خرق فرنسا للاتفاق المشترك، أجابه "كلوزيل" بأن فرنسا غير مجبرة على احترام هذا الاتفاق لأنه لم يكن هذا في نظرنا سوى لعبة حرب.

فما أن احتل الجيش الفرنسي العاصمة ونزل منها بقصر الإمارة – قصر القصبة، الشهير بناحية "الباب الجديد" بأعلى المدينة حتى أسرع إلى الاستحواذ بطريق النهب على جميع ما ظفر به هنالك من ذخائر القصر من مال ونشب وسلاح ومجوهرات وحلي وتحف ونفائس ملكية مختلفة، وكان فيها من الذهب ما يقدر وزنه بسبعة أطنان و312 كيلوغرام، ومن الفضة 108 طنا و704 كيلوغرام. ورغم ما اعترى القصر من النهب والسلب والواقعين من ضباط الجيش الفرنسي وكبار رجاله فإن الجنرال "بيرتوزان" والدكتور "بودافون" والقبطان "بيليسيسي دورينو"، والرسام المصور "فودان"، ومعهم "م. زوزي" في آخرين... كلهم شاهدوا الخزينة الجزائرية وشهدوا بأنه كان بها من الذهب ما قدره: 24.700.000 فرنكًا على نسبة

---

[1] حمدان خوجة، مرجع سبق ذكره، ص ص.248-249.

فرنك ذلك العصر، وكان بها من نقود الفضة ما يقدر بمبلغ 23.984.527 فرنكًا. وذكر "دوغرامون" أن خزينة الجزائر تعتبر الخزينة الثانية في العالم.

أما فيما يخص أموال الأوقاف فقد صودرت، وذلك أن الجنرال "دوبورمون" نفسه بعدما أعطى عهوده مواثيقه بشأن المحافظة على أموال الأوقاف، وعدم التعرض إليها بسوء – كما جاء في المادة الخامسة من نص وثيقة الاستلام – فإنه نكث عهده، بعد مضي شهرين فقط من تاريخ إبرام الاتفاقية، وأصدر مرسومًا يوم 8 سبتمبر 1830م، يقضي بمصادرة الأوقاف الإسلامية والاستيلاء عليها. ولم يلبث بعدها إلا يوما واحدًا فقط فأصدر قرارا ثانيا يكفل فيه لنفسه[1] حق التصرف في الأملاك الدينية بالتأجير والكراء، على اعتبار أن الحكومة الفرنسية هي التي حلت محل الحكومة الجزائرية في إدارة الأوقاف، وإنها المسؤولة عنها وعن توزيع ريعها على المستحقين. إلا أن عملية المصادرة هذه بكل أسف لم تتم لحساب الجهات التي وقفت عليها هذه الأراضي والأملاك، بل تمت لحساب الحكومة الفرنسية، إذ نهبت أموال الأحباس وصرفت في غير ما وضعت له، حتى أن الكاردينال "أسقف الديانة المسيحية" بالجزائر، كان يناله منها ثلاثون ألف فرنكا سنويا، يتصل بها من فائض المال.

كما أنه كان هناك مشروع جزائري آخر أسس سنة 999هـ–1590م، ويعرف بمشروع سبل الخيرات، أسسه شعبان خوجة. وهو من قبيل المشاريع الخيرية العامة كإصلاح الطرقات وإجراء القنوات للري وإعانة المنكوبين وذوي العاهات وتشييد المساجد والمعاهد العلمية وشراء الكتب لإيقافها على طلبة العلم وأهله. كان لهذا المشروع إدارة منظمة مركبة من أحد عشر عضوا، منهم ثمانية مستشارون ووكيل وخوجة – كاتب –، وهم ينتخبون غالبا من أجل العلم والفضل، ويضاف إليهم شاوش – مستخدم – وقد جاء عن هذا المشروع الخيري في التقرير الذي رفعه "أوبنيوز Aubignose" يوم 25 أوت 1830م، إلى قائد الحملة

---

[1] عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سبق ذكره، ص ص.45-53.

الاستعمارية "دوبورمون" أن دخل المشروع هذا بلغ في هذه السنة 150.000 فرنكًا، ولقد حدث لهذا المشروع مثل ما حدث لغيره...!

وقد أحصى بعضهم مبالغ مالية الأوقاف خاصة في أيام الاحتلال الأولى فكان العدد يفوق الأربعين مليون فرنكا ذهبيا من عمله ذلك الوقت، أي على نسبة 66% من مجموع الأملاك العقارية والزراعية. وقد جاء ذلك منشورا في رسالة طبعت بتونس سنة 139هـ-1891م، باسم المناضل الدكتور محمد بن العربي الطبيب، والعضو وقتئذ بمجلس بلدية الجزائر، وباسم رفيقه المجاهد الغيور محمد ابن رحال الندرومي فإنهما بعد أن أوضحا في رسالتهما مطالب الجزائريين حول إصلاح حالتهم الراهنة تعرضا فيها للأوقاف، فذكرا العدد المومى إليه، ثم قالا: "وإن هذا العدد من المال كان ينفق –ريعة – على مائة وخمس عشر مسجدًا، منها خمسة عشر جامعا كبيرا – كلها بالعاصمة، قضى على جلها الاستعمار[1].

وقالا: إذا قدرنا دخل هذه الأوقاف بخمسة في المائة بلغت جملته مليونين من الفرنكات، مع أنه لم يعتبر منها في الميزانية العامة لينفق في الشعائر الدينية إلا ستون ألف فرنكا سنويا، فمرتب مفتي الجزائر (1891م)، ثلاثة آلاف فرنكا سنويا، وجراية الكاردينال – من الأوقاف – ثلاثون ألف فرنكا. وفي سنة 1868م، طلب المسلمون من أعضاء مجلس شورى الحكومة حساب شرائط السبعة ملايين المقدرة لها أوقاف الجزائر فأحيلت المسألة على لجنة مخصوصة لازالت لم تستقر على رأي، ويصرف ريع الوقف غير مصرفه الحقيقي.

وذكر "هـ. كلان H. Klin" رئيس "جمعية الجزائر العتيقة"، أن الأملاك الموقوفة على جامع القصبة العليا، المعروف اليوم بجامع سيدي رمضان، بأعلى حي القصبة – وهو حسب المتواتر المسموع أقدم جامع بالعاصمة – بلغت أوقافه خمسين عقارا، وأن الأملاك المحبسة على زاوية ضريح الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي بلغت تسعا وستين عقارا.

---

(1) عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سبق ذكره، ص54.

وكان فيما احتله الفرنسيون إبان نزولهم بالجزائر مما هو ملحق بأوقاف الجامع الكبير -55- عقارا اتخذوها كلها مأوى للجيش.

ففي سنة 1836م، قام بعض المسؤولين من رجال الحكومة الفرنسية ببحث دقيق – حسب زعمهم – عن الأوقاف الموجودة إبان الاحتلال فبلغ عددها 1419 عقارا منا واحد وخمسون باسم زاوية الثعالبي وإضافة 18 وفي نفس التاريخ وقع التصرف في 188 بناية، منها ما حطم ومنها ما استعمل في مصالح الحكومة وكان دخل هذه الأحباس يومئذ 100.000 فرنكا سنويا، وفي السنة بعدها ازداد مبلغ الدخل إلى 140.000 فرنكا، وذلك بعد عزل الوكيل السابق[1].

وفيما يلي سنتطرق إلى السياسة الفرنسية بعد الاحتلال (1830-1870).

أ. إلحاق الجزائر بفرنسا سياسيا (مرسوم 21 جويلية 1834م):

بقيت الجزائر خاضعة للحكم العسكري الفرنسي كأرض أعداء محتلة حتى عام 1834م حيث اعتبرت منذ هذا التاريخ، ومن وجهة النظر الاستعمارية جزءا من الممتلكات الفرنسية وأصبحت تدار وفق أنظمة خاصة لم تنفذ صفات الثبات والاستقرار، حتى قيام الجمهورية الثالثة عام 1870م، بسبب تصارع تيارين حول أسلوب الإدارة الفرنسية في الجزائر هما: العسكريين ويتمثل في اتخاذ بعض الرؤساء التقليديين الجزائريين الموالين للاستعمار وسطاء بينهم وبين السكان، والموقف الثاني للمدنيين ويقوم على أسلوب الإدارة المباشرة.

ولذلك جاء النظام الإداري الذي أخضعت له الجزائر ابتداء من 1840م مزيجا من الموقفين، فقد طبق في المناطق الشمالية التي يكثر فيها المعمرون نظام مدني مماثل لذلك المتبع في فرنسا، وطبق في المناطق الداخلية التي يقل فيها المعمرون خليط من نظام مدني على الأوروبيين، وإدارة عسكرية تعاونها المكاتب العربية (وهي جهاز من بعض العملاء

---

[1] عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سبق ذكره، ص ص.54-57.

الجزائريين يقودهم ضابط فرنسي، يقوم بجمع الضرائب من السكان والسهر على استتباب الوضع، واضطهاد الشعب وبدأت بالظهور منذ 1833م) على الجزائريين. أما المناطق الجنوبية فخضعت لحكم عسكري تباشره المكاتب العربية.

ب. السياسة الاقتصادية: تمثلت خاصة في:

– نوع الأرض من الجزائريين، بضم الأوقاف الإسلامية والأراضي التي يمتلك أصحابها وثائق ملكيتها، ثم الأراضي المشاعة، والغابات والمراعي إلى أملاك الدولة، وحجز الملكيات التي هجرها أصحابها، ومصادرة القبائل المجاهدة (رسميا منذ 1840م) فانتقلت مساحات واسعة من الأرض إلى السلطات والمعمرين بلغت سنة 1860م قرابة 5 مليون هكتار منها 370000 هكتار للمعمرين.

– ربط اقتصاد الجزائر بفرنسا بإلغاء النقود الجزائرية العثمانية وسك نقود فرنسية في 1851م، وفتح أسواق الجزائر أمام المنتجات الفرنسية (وشجعت في مرحلة لاحقة في زراعة الكروم لإنتاج الخمور، على حساب الحبوب وإنشاء شبكة سكك حديد بين المناجم وموانئ التصدير لتسهيل استخراج المعادن وتصديرها خاما إلى فرنسا).

ج. السياسة الاجتماعية والثقافية: وأهمها:

– تشجيع هجرة الأوروبيين بتقديم الأرض والقروض بأيسر الشروط، وبناء المرافق الضرورية للاستيطان كالمستوطنات (أولها في بوفاريك سنة 1836م) والطرق والسدود وأقنية الري، فارتفع عدد المعمرين من 25000 في 1839م إلى 110000 في 1847 و220000 معمر سنة 1866م.

– محاربة التعليم واللغة العربية والدين الإسلامي بالقضاء على الأوقاف، وإبادة واضطهاد المعلمين، ومنع فتح المدارس وتجميد استعمال اللغة العربية، وتدمير المساجد والزوايا أو تحويلها إلى مستشفيات ومتاحف وثكنات وكنائس.

– إنشاء بعض المدارس الابتدائية لتعليم أبناء الجزائريين في المدن الكبرى منذ 1850م، لم يتجاوز عددها 36 مدرسة وتلاميذها 13000 في 1870م وكانت تدرس بمناهج ولغة فرنسية[1].

– محاولة التنصير بواسطة بعض الأعمال الإنسانية، كمداولة المرضى وإطعام الجياع، ورعاية الأيتام، قام بها رجال دين مسيحيون في طليعتهم لافيجري (Lavigerie) خاصة أثناء كوارث 1866–1869م بهدف إنشاء شريعة موالية لفرنسا، وتحويل الجزائر إلى قاعدة لتنصير إفريقيا.

– سياسة تجنيس فئة من الجزائريين الذين تتوفر فيهم بعض الشروط النادرة، كالخدمة في الجيش الفرنسي أو المجالس المنتخبة أو الإدارة، إضافة إلى القراءة والكتابة باللغة الفرنسية، وحيازة بعض الممتلكات، مع التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية، وذلك بمقتضى قانون سيناتومي كونسولت لعام 1865م.

2- حالة التعليم العربي الإسلامي غداة الاحتلال:

بعد مصادرة الأوقاف ونفي العديد من العلماء وترهيب الباقين، ترك الفرنسيون التعليم يموت دون الإعلان عن ذلك رسميا. اشتغلوا بالاستيلاء على الأراضي وتوطين أبنائهم فيها ومحاربة المقاومين، وأهملوا كل ما يتعلق بتعليم الجزائريين وبعد حوالي عشر سنوات أخذ بعض مسؤولي المكاتب العربية (وهم العسكريون) يكتبون التقارير عن وضع التعليم عند المسلمين (الجزائريين) وموقفهم من المدرسة الفرنسية عموما. ومن هذه الكتابات تقرير الجنرال بيجو، وتقرير فاليري، وتقرير الجنرال دوماس، وتقرير ليبيشو ثم تقرير ديهوتبول.

ففي فترة الأربعينات من القرن الماضي، نصبت لجان رسمية، وزارة الجزائر أمثال أليكسس لي طوكفيل، وخرجوا جميعا برأي عن تجربة التعليم في الجزائر ماضيا وحاضرا. ويتلخص هذا الرأي فيما يلي:

---

(1) الاحتلال الفرنسي للجزائر : www.onefd.edu.dz/.../cours.

1-الاستمرار في إهمال التعليم العربي الإسلامي وعدم رد الأوقاف إليه، رغم تشبث السكان به ومقاطعتهم المدرسة الفرنسية.

2-إنشاء تعليم مزدوج خاص بالجزائريين تدرسي فيه اللغة العربية على أن تكون فيه الفرنسية وعلومها هي السيدة، ابتداء من سنة 1850.

3-ترك التعليم في الزوايا الريفية والمعمرات على ما هو عليه مع مراقبة برنامجه ومعلميه حتى لا تكون الزوايا مراكز لمعاداة الفرنسيين. وقد اعترفت جميع التقارير بأن التعليم العربي الإسلامي كان منتشرا بين الجزائريين بشكل ملفت للنظر قبل الاحتلال[1].

يقول لويس رين: كان القرآن في الجزائر هو كل شيء، هو المعلم والتعليم. وكان الفرنسيون كلما حاولوا مشروع إصلاح فكروا في عدم المس بالمشاعر الإسلامية، لكن المتعلمين (الجزائريين) الخبراء أصبحوا بمرور الزمان، نادرين مما سهل على فرنسا تمرير مشاريعها. لقد كان هدف فرنسا منذ 1830 هو الحط من التعليم القرآني وتعويضه تدريجيا بتعليم أكثر عقلنة وأكثر علمية، وبالخصوص أكثر فرنسة (فرنسية). وقد نجحت فرنسا (وهو يكتب سنة 1844) في الفصل بين الدين والتعليم اللذين كانا في الماضي لا ينفصلان. وفي الوثائق الفرنسية الرسمية أن التعليم العربي الإسلامي كان على العموم مزدهرًا سنة 1830. وهو يتألف من مستويات التعليم الثلاث المعروفة اليوم: الابتدائي والثانوي والعالي. وكان التعليم الثانوي والعالي مجانا، أما الابتدائي فقد كان بأجر اختياري ضعيف، وفي أغلب الأحيان يدفع الأجر عينا. وجميع أنواع التعليم لا تقدم إليها الدولة (الجزائرية) أية مساعدة. فكان تعليما حرًا بمعنى الكلمة. وكانت المدارس متصلة بالمساجد في أغلب الأحيان، ويشرف عليها وكلاء الشؤون الدينية، وهي تتغذى من أملاك الأوقاف الخيرية. ولكن منذ الاحتلال دخلت أملاك الأوقاف في أملاك الدولة الفرنسية، فأهملت المدارس

---

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الثالث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص21.

الإسلامية، وتوقف التعليم الابتدائي والثانوي، ولم تبق إلا بعض الزوايا البعيدة والمعزولة حيث الدروس العليا.

ويضيف تقرير آخر أن المعلمين كانوا أيضا أحرارا. فهم لا يخضعون إلى أية ترقية، وشهرتهم هي التي تدل عليهم، وهذه الشهرة تكون في العلم والأخلاق الكريمة والسلوك الجيد، كما أنهم كانوا يحصلون على الشهادة (الإجازة) من أستاذ معروف. وكانت المدارس كثيرة، ورواتب المعلمين مضمونة من مداخيل المساجد (الوقف). وكان مشاهير الأساتذة يأتيهم المتعلمون من أماكن بعيدة. وقد أقيمت الزوايا المجاورة للمساجد لإيواء أمثال هؤلاء والغرباء. وكان عدد هذه الزوايا في مدينة الجزائر وحدها ستا، اثنتان لأهل الشرق وثلاثة لأهل الغرب وواحدة لأهل المدين (الجزائر). وقد اختفت جميعها ولم تبق منها بعد سنة 1846 سوى واحدة كانت تقع في سوق الجمعة. وكل هذه الزوايا كانت تصونها وتتعهدها أموال الأوقاف قبل مصادرتها. وكذلك لم يبق من المدارس القديمة إلا عدد ضئيل، وأصبح التعليم في الباقي منها ناقصا[1].

واختفت كثير من المساجد أيضا بالهدم والتحويل عن الغرض الأصلي.

أما خارج مدينة الجزائر، فإن التقرير يذكر أن المدارس الشهيرة والزوايا كانت متوفرة ثم اختفت نتيجة للاحتلال والإهمال ومصادرة الأوقاف وهجرة العلماء أو نفيهم. ومن هذه مدرسة صالح باي بقسنطينة ومدرسة قرومة الواقعة على وادي الزيتون شرقي العاصمة، ومدرسة (زاوية) سيدي محمد بن عبد الرحمن بجرجرة، وبسهل متيجة كانت زاوية مربوني بالأربعاء، وزاوية سيدي خير الدين بني الخشنة وبني موسى، وزاوية النميلي في بني موسى، وزاوية سيدي السعيد بين بوفاريك والدويرة، وزاوية سيدي الحبشي بأولاد منديل، ثم زاوية البراكنة قرب شرشال. ويضيف التقرير أن الزوايا الواقعة في أوساط القبائل والأعراش قد اختفت أيضا نتيجة الحروب المريرة والحملات العسكرية الفرنسية، إذ تشتت المعلمون

---

(1) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الثالث، مرجع سبق ذكره، ص ص.21-23.

والمتعلمون، واختفت المخطوطات. كما أن المعلمين عموما تضاءل عددهم حتى في المدن لضعف الرواتب وعدم انتظام الدروس واستقرار الحياة العلمية.

كان برنامج التعليم يكمل بعضه بعضا، ففي الابتدائي يحفظ الطفل كل أو أجزاء من القرآن الكريم، ويتقن الكتابة والقراءة، ويتعلم مبادئ الدين، ويحفظ المتون والنصوص الضرورية. وفي الثانوي يواصل المطالعة والفقه والتوحيد ودراسة النحو والصرف وأوليات التفسير ومصطلح الحديث والسيرة النبوية. وأما الدراسات العليا فتشمل الفقه أيضا وأصول الدين والتوحيد والتاريخ الإسلامي وبعض الحساب والفلك والجغرافية والطب والتاريخ الطبيعي. وقد لاحظت التقارير أن التعليم الأول كان يحصل عليه أبناء الطبقة الغنية وكذلك التعليم العالي الذي لا يواصله عادة إلا الطبقة التي كرست حياتها للعلم حتى أصبح فيها وراثة. والمقصود هنا هو علم الدين. وقد أضاف بعضهم إلى مواد التعليم العالي الهندسة وعلم الرسم والزخرفة والخطابة وكتابة الوثائق والمدارس لم تندثر دفعة واحدة. ففي العاصمة كانت حوالي مائة مدرسة سنة 1830 لم يبق منها سنة 1840 سوى حوالي 24 مدرسة (مسيد) يتردد عليها 600 تلميذ. وفي سنة 1846 انخفض عدد هذه المدارس إلى 14 فقط يتردد عليها بين 320 و400 تلميذ[1].

ومع ذلك فإن الأولياء كانوا يفضلون هذا النوع من المدارس لأولادهم على المدرسة الفرنسية. لقد كانت المدارس تحت إشراف "الطلبة" الذين يعلمون التلاميذ اللغة العربية والقرآن الكريم ومبادئ الدين. وهي منتشرة بكثرة خارج العاصمة، سيما قسنطينة ومنطقة زواوة. ويقول التقرير أن هذه المدارس بقيت حتى الآن (1846) خارج مراقبة السلطات الفرنسية.

---

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الثالث، مرجع سبق ذكره، ص24.

وقد أوصى التقرير بضرورة وضع كل أنواع التعليم تحت الرقابة، لأن "الوجود الفرنسي لا يمكن أن يتأسس نهائيا... إلا إذا تولت السلطة المديرة تعليم كل الأجيال الجديدة في البلاد وأمسكته بيدها".

وفي تقرير أوغيست ليبيشو عن التعليم وصف "حيّ" للتجربة الإسلامية فيه ومدى معاناته بعد الاحتلال. وكان السيد ليبيشو نفسه مسؤولا عن التعليم في الجزائر. وقد شهد أن التعليم العربي- الإسلامي كان منتشرا في المدن والأرياف وحتى في الخيام. وكانت المدارس والزوايا تضم المخطوطات أيضا. ولكن كل ذلك تغير، حسب رأيه، فالحملات العسكرية بعثرت كل تجمعات الطلبة والعلماء. ولم يبق إلا بعض المدارس التي لا تقدم سوى تعليم غير كامل على الإطلاق. ذلك أن دراسة الدين قد أهملت، بينما لا يمكن فهم الدين إلا بالرجوع إلى الشروح التي يجب لفهمها إتقان اللغة العربية. وأصبح المتعلمون نادرين تدريجيا. وبذلك كثر أعداء فرنسا حسب قوله. أما عن المخطوطات فقد قال أنها أيضا تبعثرت وأتلفت في معظمها، وكانت هي أساس التعليم. وقد جاء في تقرير الجنرال دوماس أنه بعد عشرين سنة من الاحتلال لم يعد في إمكان السلطات الفرنسية أن تجد من توظفه في القضاء إلا بصعوبة. وتمثل ذلك في الشؤون الدينية والتعليمية الأخرى. أما عن الأدب والثقافة والفن فلا حديث.

وتؤكد مختلف الكتابات الفرنسية على هذا التحول الذي أصاب التعليم العربي الإسلامي نتيجة الاحتلال. وقد جاء في إحداها أن التعليم التقليدي (وهو هذا الذي سميناه الأصلي) قد توقف عن أداء مهمته، لظروف الحرب من جهة[1]، والاستيلاء على الأوقاف من جهة أخرى، وهجرة المعلمين أو نفيهم من جهة ثالثة. فقد خربت المدارس الثانوية (وهي التي كان منها يتخرج العلماء)، وغادر المتعلمون الزوايا القريبة من مراكز الاحتلال. والأساتذة إما اكتفوا بأداء الشعائر الدينية دون التعليم وإما انتقلوا إلى أماكن غير محتلة.

---

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الثالث، مرجع سبق ذكره، ص25.

وامتنع "الأهالي" عن إرسال أولادهم إلى المدرسة الفرنسي، لأن المدرسة في نظرهم هي حيث يتعلم الطفل القرآن والصلوات وقواعد الدين، بينما المدرسة الفرنسية لا تعلمهم إلا اللغة وربما تعلمهم أيضا مبادئ دين آخر. ومن ثمة اقترح صاحب التقرير (وهو غير مذكور): العودة إلى النظام القديم في التعليم الابتدائي والثانوي (بعد خمسة عشر عاما من الإهمال، لأن التقرير مكتوب حوالي سنة 1845). مع الرقابة التامة والدقيقة للفرنسيين على هذا التعليم حتى في اختيار المؤديين في الابتدائي والمدرسين في الثانوي، كما اقترح صاحب التقرير إدخال بعض المواد كالحساب والجغرافية في برنامج التعليم الابتدائي، وإدخال التاريخ والفيزياء والكيمياء إلى برنامج الثانوي. واقترح كذلك جلب المعلمين من تونس ومصر، لخلو الجزائر منهم عندئذ أو لعداوتهم للفرنسيين. أما بالنسبة للتعليم العالي فقد اقترح التقرير تركه إلى حين آخر، أي عندما يصل الجيل الذي سيتكون تحت الإدارة الفرنسية إلى المرحلة العالية – ومعنى ذلك توقيف دورة الحياة العلمية.

وما دام القرآن نفسه قد مجّد العلم فقد اقترح صاحب التقرير أن يبقى التعليم التقليدي على ما هو عليه في المدارس الصناعية والزراعية (الفرنسية) لأن المسلمين سيقبلون عليه باعتباره واجبا دينيا. ومن الطبيعي أن يوحي التقرير بأن يكون الهدف من كل هذه المحاولات هو خدمة الوجود الفرنسي في الجزائر.

وبعد احتلال قسنطينة كتب الجنرال بيدو تقريرا عن التعليم فيها، وقدمه إلى وزير الحرب. وقد جاء فيه أن التعليم في قسنطينة كان منتشرا بصورة غير متوقعة للفرنسيين، فقد كان فيها مدارس من مختلف المستويات الإقليمية[1].

فمدارسها الثانوية والعالية تضم بين 600 و700 تلميذ يدرسون علوم التفسير (القرآن) وعلوم الحديث، ومحاضرات في الحساب والفلك والبلاغة والفلسفة. كما يوجد بها 90 مدرسة ابتدائية (مكتب) يتردد عليها بين 1300 و1400 طفل. وكانت دروس المساجد (وعددها

---

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الثالث، مرجع سبق ذكره، ص26.

35 مسجدا) والمدارس الثانوية (وعددها سبع) خاصة بالمستمعين، والأساتذة لهم شهرة تجلب إليهم الطلبة من بعيد. والمدارس الابتدائية تابعة للمسجد أو الزاوية، والنفقات جميعا كانت من الأوقاف المخصصة للمسجد أو الزاوية. وكان المؤدب يعينه ناظر الأوقاف بوصية من العائلات، وهو (المؤدب) يقوم بدور الإمام والحزاب أيضا. وله منزل خاص به، وله أجرمن أولياء التلاميذ يقدر بحوالي 14 ف. بالإضافة إلى الهدايا التي يتلقاها بمناسبة الأعياد وعددها أحد عشر عيدا، ويتلقى أيضا تبرعات مختلفة سيما عندما يحفظ التلميذ أجزاء من القرآن. وبذلك قدّر دخل المعلم (المؤدب) بحوالي ثلاثين فرنكا سنويا، زيادة على عطاءات أهل الخير والإحسان.

ولكن منذ الاحتلال تدهور كل ذلك. ففي عشر سنوات (1847)، كاد يختفي التعليم في هذه المدينة (قسنطينة) العريقة في خدمة العلم والعلماء. ولم يبق من 600 أو 700 تلميذ في الثانوي سوى 60 فقط. والمدارس الابتدائية التي كانت تسعين لم يبق منها سوى ثلاثين، ولا يتجاوز الأطفال فيها 350 بعد أن كانوا بين 1300 و1400. هذه إذن هي رسالة فرنسا الحضارية للجزائريين وقد كان صاحب التقرير (الجنرال بيدو) والمعلق عليه (ذي طوكفيل) صريحين جدا في ذلك. فقد قال بيدو أننا أهملنا التعليم في عاصمة الإقليم (قسنطينة) مما سيعطي لرجال الزوايا أهمية كبيرة ويزيد من نفوذهم وقوتهم بين السكان وواضح من تقرير الجنرال أن خوفه ليس على الجزائريين من الجهل، ولكن على مصير الوجود الفرنسي من نفوذ الزوايا. ذلك أن اختفاء المعلمين قد حول أنظار الناس إلى شيوخ الزوايا في الأرياف. أما دي طوكفيل فهو صاحب الصيحة الشهيرة: "إننا جئنا لإضاءة الشموع فأطفأنا الموجود منها". وهو يقصد هنا بالشموع المدارس. ولكن دي طوكفيل كان أيضا في صالح الرسالة الحضارية الفرنسية وتثبيت الاستعمار في الجزائر"[1].

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الثالث، مرجع سبق ذكره، ص ص.26-27.

لقد نقص المدارس والمساجد بعد أن حولت مداخيل أملاكها (الأوقاف) إلى أملاك الدولة كما ذكرنا، وتوقفت الدولة الفرنسية المحتلة عن صيانة المساجد، كما أنها لم تصن مساكن الطلبة والعلماء التي كانت مجانية.

ونقصت قيمة العملة المتداولة، فلم تعد الوظيفة التي أصبح عليها رجال الدين يكفي دخلها، ولذلك لم تعد أمرا ممتازا يتنافسون عليه. وقد زاد أولياء التلاميذ في أجور المعلمين (المؤدبين) ولكن غلاء المعيشة أدى بالعائلات إلى توجيه الأبناء إلى أعمال أخرى أكثر ربحا، كما توقفوا عن استقبال الأقارب وأبناء الأعراش من خارج قسنطينة. بينما تدهور حال المدرسين والعلماء وافترقوا وأصبحوا متذمرين. وأدى كل ذلك إلى انخفاض مستوى التعليم ونقص مدته والمواظبة عليه. وكانت نتيجة هذا الوضع في مدينة قسنطينة هي رحيل التلاميذ القادرين إلى زوايا المناطق غير المحتلة بعد، مثل منطقة زواوة ومناطق الجنوب، طلبا للعلم.

هذه الصورة السوداء التي رسمها تقرير الجنرال بيدو عن التعليم في قسنطينة وتدهوره وبعثرة أهله يتفق معه فيها زائر انكليزي زار هذه المدينة في نفس الفترة تقريبا. يقول الرحالة بلاكسلي: كانت الأوقاف كثيرة، وهي مورد التعليم المجاني، وكانت تزيد أحيانا عن حاجة المدرسة والمسجد فيخصص منها جانب للفقراء أيضا. وقد حضر بلاكسلي مع المستشرق شيربونو درسا كان يلقيه بعض المدرسين فقال أنه مدرس يمتاز بالذكاء والجاه، وكان الدرس في تفسير القرآن الكريم. أما في وقت الزيارة فقد أصبحت المدارس والمساجد والزوايا "مهجورة وخرابا في كل مكان بالجزائر". كما أن فقر السكان الذي جاء في أعقاب مصادرة أموال الأوقاف كان بدون شك السبب الرئيسي في هذا الخراب، رغم أن الحرب كانت سببا آخر أيضا.

ونفهم من ذلك أنه بعد الاستيلاء على المدن ومصادرة الأوقاف وهجرة العلماء، قصد المتعلمون الراغبون المناطق البعيدة عن الفرنسيين لمواصلة تعلمهم العربي والإسلامي، ومنه

ذلك التعليم الذي كان منتشرا في مدارس وزوايا منطقة زواوة. ويقول تقرير كتب عن بجاية وما حولها سنة 1840 أن كل دشرة (قرية) كان لها طالب يحسن اللغة العربية، وهو يقوم في نفس الوقت بوظيفة إمام المسجد(1)، ويعلم الأطفال الكتابة والقراءة وحفظ القرآن، وله أجر يشترك فيه الجميع، وكان بعض هؤلاء الطلبة قد حصلوا على مبادئ الفقه في الزوايا. وهم يحكمون بالصلح بين الناس أيضا. وفي كل قبيلة أماكن مخصصة للتعليم وتكوين التلاميذ في المواد التي ذكرناها، في أماكن عادة تكون قريبة من الزاوية التي فيها أو كان فيها مرابط اشتهر بين الناس بالورع والتقى. والدراسة مجانية ومدتها غير محددة، والجميع، المعلمون والتلاميذ، يعيشون من تبرعات وإحسان القبائل المجاورة، وأحيانا من مداخيل مخصصة لهم بمقتضى الأوقاف التابعة للزاوية منذ عهود سالفة. الزاوية مكان مقدس لدى الجميع ولا أحد يجرؤ على انتهاك حرمتها.

وأبرز هذه الزوايا في المنطقة هي زاوية شلاطة التي كانت تبعد مسافة يومين عن سوق بجاية، وهي تقع على الضفة اليسرى لوادي آقبو. وتسمى أيضا زاوية ابن علي الشريف. ولها سمعة علمية تجاوزت حدود الجزائر إذ كانت الهدايا تأتيها من فاس وتونس وإسطنبول.

وفي دراسة هانوتو ولوتورنو عن منطقة القبائل ما يؤكد هذه الظاهرة، فقد قالا إن كل فرد في المنطقة يعرف القراءة والكتابة، وللسكان مدارس عامة، واعتزاز قوي بدعم هذه المدارس إذ يرون في ذلك واجبا دينيا ونخوة خاصة. ولغة التدريس هي اللغة العربية والمواد كلها إسلامية، وهي تتبع المنهج الإسلامي. والتعليم في هذه المؤسسات على مرحلتين: ابتدائي وثانوي. وهناك بعض المدارس الخاصة تحت إشراف المرابطين، وهم يقومون عليها بحماس ديني قوي، فهم يستقبلون العديد من الشباب ويوفرون لهم المسكن والمأكل، ويعلمونهم مجانا، وكان التعليم نفسه عموميًا. وهذه الظاهرة كانت عامة، كما لاحظها

(1) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الثالث، مرجع سبق ذكره، ص ص.28-29.

مختلف الكتاب، وتعني ظاهرة انتشار الكتابة والقراءة وحفظ القرآن في المدن والأرياف على السواء، حسب برنامج موحد يقوم على دراسة العلوم الإسلامية باللغة العربية. ولاحظ أحد الضباط الفرنسيين أن منطقة ميزاب كانت تتبع نفس المنهج وبحماس كبير حتى أنه لا يوجد إلا عدد قليل جدا هناك لا يعرف القراءة والكتابة. وقال أن أعمال الحساب عندهم منتشرة حتى أن تجارهم في مدن التل يقومون بالحسابات[1] في سجلاتهم دون وسائط. والتعليم عندهم يجري في المساجد على يد الطلبة أيضا. وكل مدينة لها جامع خاص بذلك. لكن السكنى للطلبة كانت في أماكن مخصصة لهم خارج المساجد، والطلبة (المعلمون) لا يأخذون أجرا من أولياء التلاميذ، وكل أجورهم يأخذونها من الأوقاف. وتوزع مداخيل الوقف نوعا لا نقدا. هذا عن التعليم الابتدائي، أما الثانوي فيحصلون عليه في المساجد الكبيرة بالدروس العامة المتطورة أو بالهجرة في سبيل العلم إلى مناطق أو بلدان أخرى.

فإذا كان حال العلم غداة الاحتلال هو الازدهار والانتشار والاحترام، فأين هو بعد ربع قرن من ذلك؟

لقد أهل الفرنسيون التعليم في المدن والأرياف، على السواء لأسباب مختلفة منها اغتصاب موارده، وكثرة الحروب، ومشاركة الطلبة في واجب الجهاد. وبعد ضعف التعليم بل نكاد نقول انهياره في المدن على إثر الاحتلال، بقي التعليم في الزوايا والمعمرات، فخرج إليها التلاميذ واغتربوا فيها طلبا للعلم والمقاومة الثقافية. وبعد نجاح الاستعمار في التوغل في الريف أيضا ومراقبة المعلمين والتلاميذ ضعف التعليم هناك أيضا وحوصر إداريا بالقوانين ولغويا بالفرنسية، سيما منذ الستينات، وفي هذه الأثناء ونشأت زوايا جديدة مثل زوايا الهامل وأولاد جلال وقصر البخاري، وفتحت زاوية نفطة أبوابها للجزائريين وظلت زوايا زواوة مستمرة في التعليم إلى ثورة 1871. وكل هذه الزوايا ترجع إلى الطريقة الرحمانية عدا زاوية قصر البخاري التي كانت شاذلية. ومع ضغط الاستعمار في عهد الجمهورية الثالثة

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الثالث، مرجع سبق ذكره، ص30.

كادت حركة التعليم العربي – الإسلامي تختفي، وهكذا ارتمى الناس في أحضان الطرق الصوفية والغموض والدروشة، واعتقدوا أن الخلاص لم يعد بالسلاح ولا بالتعليم ولكن ببركة الشيخ الصبوخي والمرابط.

ومنذ حوالي الستينات ظهرت زوايا جديدة نصبت نفسها للتعليم العربي الإسلامي رغم المراقبة والمضايقة الفرنسية والقيود القانونية وجفاف الموارد. ومن ذلك زاوية أولاد الأكراد بتيهرت (تيارت).

وإن بعض الكتاب والملاحظين ممن سلف ذكرهم قد حكم على التعليم العربي الإسلامي بالفشل لأسباب: منها ما ذكرنا كالحروب ومصادرة الأوقاف...الخ. ومنها اختفاء الطلبة والعلماء حتى أنه لم يبق منهم إلا بعض الطاعنين في السن، وفيهم من لا يكاد يعرف القراءة والكتابة "إنهم طاعنون في السن وإن جهلهم لا يعادله إلا البؤس العميق" الذي أصبحوا عليه. ومعنى ذلك أن الفرنسيين انتظروا عن قصد إلى أن أصبح وضع هذا التعليم كالمريض الميؤوس منه وبعض الذين بقوا من متعلمي الزوايا قد تولوا وظائف أخرى غير التعليم الذي أصبح، كما لاحظ تقرير يبدو، تعليما لا يعيش أسرة ولا يقيم الأولاد.

وتعترف بعض المصادر الفرنسية بأن اختفاء التعليم العربي – الإسلامي او فشله يرجع أيضا إلى هدم العديد من المدارس والزوايا أثناء الثورات المتأخرة مثل 1857، 1864، 1871. وقد حدثت الأزمات الاقتصادية خلال الخمسينات والجوائح الماحقة بين 1867 – 1869. ثم إن الزوايا كانت تعيش من الأوقاف (الأحباس) إلى سنة 1863، ولكن في هذه السنة صدر المرسوم الشهير حول تمليك الأرض والذي قضى على أوقافها أيضا إذا كان كثير من الزوايا يعيش على الأرض الموقوفة، فلم يبق للزوايا بعد ذلك من الموارد سوى الزيارات التي يأتي بها أتباع الزوايا في مواسم معينة، وقد تدخلت السلطات الفرنسية في هذه الزيارات أيضا فمنعتها عمن تشاء وأبقتها فقط لبعض من الشيوخ الذين خدموا فرنسا بإخلاص.

وليس السبب الاقتصادي هو وحده الذي كان وراء فشل الزوايا في أداء دورها – والتعليم من أبرزه – ذلك أن مجالات العمل أمام المتخرجين منها أصبحت معدومة تقريبا. فالفرنسيون كانوا يعتبرونها ملجأ للتعصب الديني والتراث العربي الإسلامي. ولذلك زعزعوها من جذورها. ولم يكونوا يثقون في المتخرجين من الزوايا ولا من الذين يتخرجون من القرويين أو الزيتونة أو من الأزهر.

وقد أسسوا المدارس الشرعية الرسمية الثلاث لتخريج من يحتاجونه في الوظائف الدينية والقضائية دون الحاجة إلى خريجي الزوايا أو معاهد المغرب أو تونس أو مصر. وبنى الفرنسيون بعض المدارس الابتدائية العربية – الفرنسية لتنافس تعليم الزوايا والمعمرات وللتأثير على جيل من المتعلمين لا رابطة بينه وبين ما يسمى التعليم الديني أو التقليدي. ولم يعد في استطاعة الزوايا التوسع في أوساط الأعراش وف ي المدن كما في الماضي لأن مرسوم الأرض المشار إليه أخذ صلاحيات كثيرة من القيادات العربية السابقة وبدأ في تدجينها بتقليص مساحات نفوذها ونزع أهم اختصاصاتها وإدخال منافسين جددا ليسوا من أهل السيف. وبذلك ضعف التعاون الذي كان بين أصحاب الزوايا (المرابطين). والأجواد أو الحكام في هذا المجال، ونعني به مجال التعليم. وما دامت الزوايا لم تجد طريقا للتوسع فقد انطوت على نفسها، كما ذكرنا، واستعملت وسائل أخرى[1]. ربما تكون غير علمية كالاكتفاء بتحفيظ القرآن، واللجوء إلى اتخاذ الرموز والتلغيز وكتابة الحروز، وتمني الأماني على الله.

ولكن يجب ألا يفهم من هذا اختفاء الزوايا ودورها التعليمي تماما. فرغم التدهور الذي أصابها خلال الستينات، كما ذكرنا، فأنها قد استمرت في أداء مهمتها في بعض المناطق كالجنوب وزواوة والأوراس. وكان بعضها يكتفي بالحد الأدنى "المسموح به" وهو تحفيظ

---

(1) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الثالث، مرجع سبق ذكره، ص ص.32-33.

القرآن الكريم ومبادئ الدين كزاوية تماسين التجانية وزاوية قمار، وزاوية أولاد الأكراد وزاوية العطاف، وبعض زوايا المدن التابعة للطرق الصوفية كالعثمانية في قسنطينة.

ويذهب روبير آخرون إلى أن السلطات الفرنسية قد قامت بغلق بعض الزوايا اعتباطيا، تبعا للضغط عليها من الكولون، بعد 1870. ولعل ما زاد في إضعاف دور الزوايا التعليمي قبول بعض رجالها التوظف في الوظائف المدنية الفرنسية بعد الثمانينات. ولكن كل ذلك لم يجعل الزوايا ترفع العلم الأبيض. فقد بقي "في الزوايا خبايا" كما يقولون، ومن هذه الخبايا سيتخرج جيل مطعم بالتأثير العربي الإسلامي وبالجو العام الفرنسي، وسيكون هو العمود الفقري لحركة الإصلاح القادمة. وقد وجد هذا الجيل احتياطيا قويا في خريجي المعاهد الإسلامية الذين كانوا مهمتين وغرباء في بلادهم، إلى أن فتح الفرنسيون مجال التعليم من جديد في عهد كامبون، بشرط طلب الرخصة حسب قانون أكتوبر 1892، فأقدم الجزائريون على إحياء التعليم في مختلف مجالاته في الزاوية والمسجد والمدرسة.

تلك الآراء ومواقف الفرنسيين وبعض الأوروبيين من التعليم العربي الإسلامي في الجزائر ومصيره. وقد اعتنى عدد من الجزائريين أيضا بهذا التعليم، بل دعاته، انتقد منهجه ودعا إلى إصلاحه وتطويره ومن الجزائريين من وظفته السلطة الفرنسية للدعوة إلى التعليم الفرنسي فقط. ولكن معظم الجزائريين لم يدعوا إلى نبذ تراثهم التعليمي، بل دعوا لتطويره لكي يتماشى مع الروح الإسلامية نفسها ومع روح العصر. ومن هؤلاء عبد القادر المجاوي في رسالته (إرشاد المتعلمين) وبعض كتبه الأخرى، ومحمد بن أبي شنب في ترجمة لبعض النصوص المتعلقة بالتربية عند المسلمين، ومحمد السعيد بن زكري في رسالته (أوضح الدلائل) وكل هؤلاء فعلوا ذلك قبل ظهور الحركة الإصلاحية الباديسية. وفي عهد هذه الحركة وقع تطوير التعليم العربي الإسلامي فعلا، وحلت المدرسة، كما قال جوزيف ديبارمي، محل السيد (أو المكتب)، وحل المعهد محل الزاوية، بل أن الزاوية طورت نفسها أيضا لتواكب العصر والحاجة.

وقد لخص الشيخ أبو يعلي الزواوي حالة هذا التعليم في جمل قصيرة ومفيدة سنة 1367هـ في مقالة نشرها في البصائر. فوصف التعليم العربي الإسلامي بأنه كان بدون إشراف الحكومة في العهد العثماني وأنه كان يُكتفي بتعليم القرآن والعربية تبركا فقط، وأن الزوايا وغيرها لم تكن تتبع إدارة موحدة ولا برنامج يضبط مراحل التعليم، ثم قال: "وبينما نحن كذلك... إذا استولت علينا فرنسا فصار الأمر فيغتا على إبالة، فتمادى عدم الفرض على طلب العلم وفقدان الباعث... فالحكومة الفرنسية اعتنت بلسانها فبثته وأيدته وعززته، فتوقف الكثير من الناس، ولم يرغبوا فيه خشية أن يتفرنجوا ويتفرنسوا ويتخلقوا بخلق الإفرنج المباينة للعربية والإسلامية. ثم هم كذلك إلى ما بعد ثورة عام 1871، فتم الاستيلاء على جميع الوطن جبرا وقهرا، فتمكنت الحكومة في البادية، التي كانت بمعزل عن التعليمين العربي والإفرنجي، فأسست المدارس الفرنسية، وألزمت الناس ببعث أولادهم إلى تلك المدارس إجبارا، وقررت لذلك عقوبات المتخلف فتم التفوق على العربية وخلفتها الفرنسية، وأقيمت مقامها، والأولاد الذين كانوا يقرأون العربية تركوها فصاروا يقرأون الفرنسية منذ نحو ثلثي القرن. ثم من الطامة الكبرى أن قد صار المعلمون في تلك المدارس الفرنسية ينهون عن العربية بأنها تتعب الأولاد وتشوشهم وتكلفهم ما لا يطيقون، وأن لابد من الاقتصار على الفرنسية، وأن من خالف ذلك أو قاوم أو نازع يعاقب بالأنديجينية، فانعدمت العربية..." [1].

أ. المدارس القرآنية:

ما هو مصير المدارس القرآنية مثلا في المدن التي استولى عليها الفرنسيون كالجزائر وقسنطينة وبجاية وغيرها. كان بمدينة الجزائر أكثر من مائة مدرسة قرآنية عند الاحتلال. ولكن مصيرها كان مصير المساجد والزوايا، هو الهدم أو التحويل عن الغرض الأصلي بجعلها مخازن ودكاكين، أو إعطائها إلى جمعيات فرنسية. وكان معظم المدارس القرآنية

---

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الثالث، مرجع سبق ذكره، ص ص.34-35.

ملاصقة للجامع أو الزاوية، فهي جزء منه أو منها، وهي داخلة في الاستفادة من الأوقاف من جهة الصيانة والإضاءة والتجهيز بالماء ونحوه.

وهذه قائمة لبعض المدارس القرآنية التي هدمت منذ الاحتلال في مدينة الجزائر، مع تاريخ هدمها، ولاحظ أنها تذكر إلى جانب المسجد أو الزاوية التي كان مصيرها في الغالب واحدا[1]:

1- مدرسة تابعة لجامع ساباط الحوت (جامع البطحاء)، شارع القناصل تاريخ الهدم 1854.

2- مدرسة جامع السلطان، شارع تريكولور، تاريخ البيع والهدم 1838.

3- مدرسة جامع خير الدين (جامع الشواش)، قرب مدخل الجنينية، هدمت مع قصر الجنينة 1831.

4- مدرسة جامع ستي مريم (جامع ابن نيقرو)، تاريخ الهدم 1838.

5- جامع مدرسة فرن ابن شاكر، شارع طولون، بعد جعله ثكنة حول إلى مدرسة للبنات المسلمات.

6- جامع سوق الكتان، شارع الباب الجديد، بعد استعماله من المصالح العسكرية، جعل مدرسة فرنسية (ودادية) ثم هدم.

7- مدرسة جامع الشيخ الثعالبي (وهو غير الزاوية الحالية)، شارع لاشارت، تاريخ الهدم 1859.

8- مدرسة جامع الرحبة القديمة، كان الجامع يستعمل مدرسة قرآنية، هدمت وضمت إلى إحدى الدور، 1840.

9- مدرسة بجوار الجامع المذكور السابق، أعطيت لملاك أوروبي، 1841.

10- مدرسة جامع عبدي باشا، منذ 1870 وهو ثكنة عسكرية.

---

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الثالث، مرجع سبق ذكره، ص ص.37-39.

11- مدرسة مسيد الغولة، ألحقت بمكاتب الكاتب العام للحكومة.

12- مدرسة القهوة الكبيرة أو مدرسة (مسيد) ابن السلطان، هدمت 1836.

13- المدرسة العنانية (المولى بوعنان) كانت ملحقة بالجامع الجديد مصيرها غير معروف لنا.

14- مدرسة حي القيسارية، هدمت منذ بداية الاحتلال ودخلت في ساحة الحكومة (ساحة الشهداء).

15- مدرسة جامع السيدة، بناها ساري مصطفى، هدمت مع الجامع سنة 1830. وهي أول عملية هدم لمؤسسة دينية – علمية.

16- مدرسة (مسد) الديوان مصيرها غير معروف لنا.

17- مدرسة ساحة الجنينة قرب زاوية الشرفة (الأشراف) لا نعرف مصير المدرسة لكن الزاوية المذكورة باعها وكيلها، كما قيل، إلى أحد الأوروبيين سنة 1832، وفي 1841 صادرتها السلطات وضمتها إلى المكاتب الرسمية.

18- مدرسة (مسيد) الدالية، خربت 1839.

19- مدرسة زاوية الشبارلية. هدمت ودخلت في بازار (سوق) أورليان سنة 1840.

20- مسجد الركرك، يقوم مقام مدرسة قرآنية هدم 1839.

21- مدرسة جامع الحاج حسين (أحد الباشوات، المدعو ميزمورطو)، هدمت المدرسة والجامع سنة 1836، استمر الهدم 18 شهرا.

22- مدرسة كوشة بولعبة، هدمت 1841.

23- مدرسة مسجد سيدي الهادي، جعلها الفرنسيون مدرسة عربية – فرنسية، ثم هدما معا 1855.

24- مدرسة شيخ البلاد، من أحدث وأهم المدارس، هدمت 1848.

25- مدرسة (مسيد) كوشة الوقيد، دخلت في الساحة التي أقامها الجيش الفرنسي بأعلى المدينة.

26- مدرسة (مسيد البرميل)، هدم سنة 1855.

إن هذه المعلومات استقيناها من ألبير ديفوكس الذي كتب عن الموضوع خلال الستينات. وبدون شك فإن عددا آخر من المدارس القرآنية كان مصيره أيضا الهدم والتعطيل والخراب لاغتصاب الأوقاف.

ويقول رحالة أوروبي زار مدينة الجزائر سنة 1854، أنه لم يبق من حوالي مائة مدرسة سوى النصف. ولا نظن انه بقي الكثير بعد ذلك. فقد استعمل الفأس والمطرقة والجراف في المساجد والقباب والزوايا، وكانت المدارس تنهار معها بالتبعية. وكان معظم المدارس القرآنية في أعلى المدينة تبعا للمؤسسات الدينية والسكان. ولاشك أن سكان المدينة لم يهملوا أولادهم بعد ذلك، فقد أصروا على لسان المفتي الكبابطي سنة 1843 على ضرورة تعلم أولادهم القرآن قبل كل شيء، ولعل بعضهم اضطر إلى جلب المعلمين (المؤدبين) إلى منازلهم.

أما في الريف والمناطق غير المحتلة فقد استمرت المدارس القرآنية على أداء وظيفتها في مقاومة عنيدة، رغم أحداث المقاومة والثورات المتوالية. يقول الاسكندر بيلمار عن موقف الأمير عبد القادر من التعليم: لقد جعل التعليم مهمة أساسية، باعتباره سلطانا ومسلما، كما جعل من مهامه الأساسية رفع شأن الدين والعلم.

ولكي ينتعش الدين الذي حارب به الفرنسيين، أنشأ الأمير مدارس يتعلم فيها الأطفال الصلوات وقواعد الإسلام والقراءة والكتابة. أما الذين يرغبون منهم في مواصلة التعلم، فكان عليهم أن يتوجهوا إلى الزوايا أو المساجد. ومعنى هذا أن الأمير رتب التعليم من الابتدائي القرآني إلى الثانوي المسجدي إلى العالي أيضا. وقد كان خبيرا في ذلك ويعرف مراحل التعليم من زاوية جده في القيطنة، وكان هو قد درس على نفس الوتيرة، وكان يشارك بإلقاء الدروس على جنوده في التفسير وغيره. وبذلك كانت المدن التي تحت يده إلى حوالي 1843. مليانة، المدية، تلمسان، معسكر، تاقدامت...الخ. كلها تنشط في التعليم القرآني

كأساس للدراسات الثانوية والعالية بالمنهج الإسلامي. ومنذ واقعة الزمالة (1843) كان التعليم القرآني قد انحصر في الخيام رغم صعوبة الحياة ومطاردات العدو[1].

ب. التعليم في المساجد:

إذا كانت المدارس القرآنية قد استمرت في المدن، كما ذكرنا، رغم الصعوبات فإن مراحل التعليم الأخرى قد عرفت تدهورا كبيرا لأسباب منها نفي أو هجرة العلماء، ومنها تدجين الباقين إذ أنهم أصبحوا موظفين يتقاضون أجورهم ومرتباتهم من الإدارة الفرنسية بعد أن كانوا مستقلين يتقاضون ذلك من مداخيل الأوقاف. وقد عرفنا أن هذه المداخيل قد استولت عليها الدولة الفرنسية وصادرت أملاك المساجد والزوايا نفسها التي كانت أماكن للعبادة والتعليم وإدارة القضاء. وكان التعليم الثانوي والعالي أول ضحايا هذه التطورات، من يدرّس؟ أين يدرّس؟ من يدفع؟ من يسمى؟...الخ. ولقد دامت هذه الحالة من الذبذبة والفوضى والإهمال إلى حوالي 1851.

ولكن بين 1830 وذلك التاريخ (1851) انقرض جيل كامل من العلماء والطلبة والوكلاء. انقرضوا أو تبددوا نتيجة الحروب المتواصلة، وتقطعت بهم السبل في المنافي والمهاجر، أفرادا وعائلات: ولنذكر من الأفراد ابن العنّابي والكبابطي والسكلاوي وحمدان خوجة، والقاضي عبد العزيز، وعائلة المشرفي وعائلة الأمير عبد القادر وعائلة ابن المرابط...الخ. وكثير من الأفراد والعائلات لم تهاجر من الوطن وإنما انتقلت إلى الأماكن التي لا يسيطر عليها الفرنسيون مثل عائلة ابن الحفاف، وابن رويلة، وأحمد البدوي والشريف الزهار وسيدي علي مبارك.

---

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الثالث، مرجع سبق ذكره، ص ص.45-46.

من جهة أخرى عرفنا أن هدم عشرات المساجد أو تحويلها إلى كنائس ومستودعات أو منحها للجيش والجمعيات الدينية الفرنسية، كل ذلك حرم العلم من مقرامه ومن موارده أيضا، لأن كل بناية كان لها ريعها ووكيلها ومدرسها.

فدروس مساجد الحاج حسين باشا وعبدي باشا، وجامع السيدة كلها قد توقفت وكذلك دروس مسجد كتشاوة ومسجد علي بتشين وجامع القصبة... فقد توقفت لأنها قد تحولت إلى كنائس. وكذلك جامع سوق الغزل بقسنطينة وجامع خنق النطاح بوهران وجامع العين البيضاء بمعسكر. وهناك دروس أخرى قد توقفت أيضا لأن المساجد قد حولت إلى ثكنات ومخازن وإسطبلات. وحتى الجامع الكبير والجامع الجديد بالعاصمة لم يسلما من العبث والإهانة، إذ كلاهما استنقص منه وأغلقت منه بعض الأبواب ثم حجبا عن الأنظار من جهة البحر، وأخيرا هددا بالزوال تماما سنة 1905. وقل مثل ذلك في مساجد قسنطينة وبجاية وعنابة ووهران والمدية ومعسكر...الخ[1].

إن المدينة الوحيدة التي سلمت مساجدها تقريبا هي تلمسان، ومع ذلك فقد منحت مداخيلها أيضا كغيرها إلى أملاك الدولة وحول بعضها إلى متحف أو اعتراه البلى. أمام هذه المعاملات للمساجد لا أحد كان ينتظر استمرار الدروس فيها. فلا العلماء ولا الفقهاء كانوا مستعدين لمواصلة مهمتهم في جو من الإرهاب والبطش وعدم الاستقرار، ولا الفرنسيون كانوا سيسمحون بذلك وهم يحاولون وضع أيديهم على كل شيء في البلاد، ولا الطلبة الذين لم يعد يطيب لهم المقام في مدن تحت قبضة العدو. وهكذا كان الاحتلال وما تلاه من إجراءات وإرهاب ومصادرة سببا في توقف دروس المساجد في المدن.

ومادام الفرنسيون قد وضعوا أيديهم على المساجد منذ اللحظة الأولى للاحتلال، فإنهم قد وضعوا أيديهم أيضا على فئة العلماء والفقهاء الذين كانوا يدرسون فيها. ويبدو أن الفرنسيين لم يسمحوا باستئناف الدروس في المساجد إلا خلال الأربعينات، ولكن في حدود

---

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الثالث، مرجع سبق ذكره، ص ص.58-59.

ضيقة جدا. فحوالي 1843 سمحوا لثلاثة فقط من "الطلبة" بإعطاء دروس في المساجد الثلاثة (؟) بمدينة الجزائر. ولا تخرج هذه الدروس عن الفقه وقواعد الدين للعامة وليس للراغبين في العلم، كما كان الحال. ولا ندري الآن أسماء المدرسين ونعتقد أن الكبابطي قد كان أحدهم قبل نفيه.

وقد جرت تعيينات مشابهة في قسنطينة أيضا. فعين الشيخ مصطفى بن جلول مدرسا بجامع سيدي الأخضر (يناير 1850)، وعين الشيخ المكي البوطالبي مدرسا بالجامع الكبير هنالك في نفس الوقت. كما عين الطاهر بن النقاد على مدرسة جامع سيدي الأخضر، ومحمد بن أحمد العباسي على مدرسة جامع سيدي الكتاني. بالإضافة إلى وظائف أخرى في الإفتاء والقضاء.

وقد شعرت السلطات الفرنسية بهذا الفراغ في الدراسات الإسلامية ابتداء من وسط الأربعينات وقال بعضهم أنه إذا استمر الوضع على ما هو عليه، فإن الفرنسيين لن يجدوا من يعينوه قاضيا، وهو ما كان يهمهم أكثر من التدريس. ولذلك عكفوا على دراسة الوضع. وقد خرجوا بتوصيات شملت القضاء والتعليم وتنظيم المساجد، أو بعبارة أصح شملت الدين والتعليم والعدل. ويهمنا هنا التعليم فقد لاحظوا أنه لا توجد لشباب الجزائريين مؤسسة للتعليم فوق الابتدائي، وليس هناك رجال أكفاء يقومون بالفتوى والقضاء ويمكنهم كسب النفوذ للسياسة الفرنسية، وهذا أمر ضروري لسياستنا.

ولاحظوا أيضا أن إهمال التعليم الإسلامي في المدن قد نتج عنه تقوية المرابطين والزوايا في الأرياف. فقد كانت زوايا المرابطين تستقبل الراغبين في التعلم بدل الذهاب إلى المساجد في المدن التي استولى عليها الفرنسيون.

كان المدرسون في الماضي يعينهم الداي باقتراح من الناظر من بين أفضل العلماء. وكانوا يتقاضون مرتباتهم من الأوقاف. وهي تبلغ بين 60 و200 فرنك سنويا، وكانت لهم سكنى مجانية، كما يجوز لهم الجمع بين وظائف التدريس والقضاء والإفتاء. وكانوا يتمتعون

باحترام كبير. وبالإضافة إلى رواتبهم فأن لهم امتيازات أخرى تتمثل في الزيت والماء والحلويات خلال شهر رمضان ولكن منذ الاحتلال توقف كل ذلك عليهم للظروف التي ذكرناها.

وكان التعليم العالي مزدهرا في بعض المدن مثل قسنطينة إلى الاحتلال. فقد كان فيه حوالي 700 طالب، من بينهم حوالي 150 يتقاضون منحا. ولهم سكنى مجانية، إضافة إلى امتيازات أخرى في رمضان والمواسم. وكان حوالي ثلثي الطلبة من خارج المدينة (غرباء). فماذا بقي من هؤلاء بعد الاحتلال؟ لقد توجه الطلبة إلى زوايا منطقة زواوة وزوايا الجنوب طلبا للعلم نظرا لاستيلاء الفرنسيين على جميع الموارد في المدينة. أنه لم يبق بها منهم سوى 60 طالبا. كما أن العلماء أنفسهم قد تشتتوا أو هاجروا، ومنهم من قضى نحبه، ومنهم من انقطعت عنه الموارد.

أما برنامج الدراسة للتعليم الثانوي والعالي فلا يخرج عن المواد العربية والإسلامية. فالثانوي يشمل عادة النحو والتفسير وحفظ المتون والمطالعة ومبادئ الفقه والتوحيد والحديث. ومبادئ الفلك والحساب. ويقضي التلميذ فيه حوالي سبع سنوات. أما دروس التعليم العالي فتتألف من الفقه وأصول الدين والتوحيد والحديث، والحساب والفلك، والجغرافية والتاريخ الطبيعي والطب العام[1].

3–المقاومة الثقافية للأمير عبد القادر:

لقد قلنا سابقا بأن حركة التعليم في الناحية الغربية قد أصيبت بالشلل، نتيجة الحروب القاسية أثناء المقاومة التي قادها الأمير عبد القادر. فهذه تلمسان ومعسكر ومستغانم ووهران، تعرضت جميعا إلى خروج أهلها منها عدة مرات، ومنهم بالطبع المعلمون والتلاميذ.

---

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الثالث، مرجع سبق ذكره، ص ص.60–61.

وتوقفت مدرسة مازونة عن وظيفتها مدة طويلة، وتعرضت المكتبات والمساجد والزوايا والمدارس إلى النهب والهدم والهجران. وقد اعتمد الأمير عبد القادر على فئة العلماء والمثقفين في إدارته، فجعل منهم القضاة والخلفاء والكتاب، ورغم اهتمامه بالتعليم في الخيام وفي المدن التي كانت تحت يده، فإن حركة التعليم قد تأثرت بشدة، ونفس الشيء يقال عن مليانة والمدية اللتين كانتا تابعتين لحكم الأمير إلى سنة 1840.

ومن الزوايا الريفية في الجهة الغربية زاوية القيطنة التي توقفت أيضا عن أداء مهمتها في التعليم أثناء المقاومة، سيما بعد 1836. وقد عاشت هذه الظروف زاوية سيدي محمد بن عودة ناحية زمورة الغربية، وزاوية سيدي العربي نواحي مينة، والتي يمتد نفوذها من مستغانم إلى أم السنام (الأصنام قديما)، وزاوية أولاد سيدي دحو، بمعسكر وزاوية أولاد سيدي الشيخ بالبيض، وزاوية أولاد سيدي عمار بن دوبة (كاشرو)...الخ[1].

ولقد أسس الأمير عبد القادر نظاما تعليميا بين جميع القبائل، أساسه القرآن في كل مراحل التعليم سواء كان ابتدائيا أو ثانويا أو عاليا، حيث يورد لنا تشرشل في هذا السياق قولا للأمير في التعليم من منطلق الواجب فيقول: "واجبي كحاكم مسلم أن أؤيد وأبعث العلوم والدين ولذلك فتحت المدارس في المدن وبين القبائل وفيها يتعلم الأطفال الصلوات ويحفظون تعاليم القرآن وفروضه يعرفون جيدا القراءة والكتابة والحساب".

وقد بلغ عدد المدارس التي بناها الأمير بتلمسان وحدها خمسون مدرسة ابتدائية ومعهدان كبيران للتعليم الثانوي والعالي هما: (مدرسة الجامع الأعظم ومدرسة أولاد الإمام).

بالإضافة إلى تفكيره في بناء مدرسة عليا للطب، غير أن حلمه هذا لم يتحقق بسبب قصر فترة السلم بعد معاهدة تافنة، كما لعب المسجد دوره في التدريس وليحقق النجاح لمشروعه التعليمي ويضمن التحاق الأغلبية به، جعل التعليم مجانا لرغبة بعض الطلبة

---

[1] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الثالث، مرجع سبق ذكره، ص ص.31-32.

المجتهدين في مواصلة دراستهم، علاوة على هذا فقد كان يخصص رواتب للطلبة حسب معارفهم ودرجاتهم، وهي وسيلة ذكية لجلبهم وخلق التنافس الشريف بينهم، فكانوا يشجعون لتفوقهم بمنح خاصة، مما جعل الناس يقبلون على العلم بكثرة.

كما حرص على الجانب المعنوي لهؤلاء الطلاب، وأعطى أوامره باحترام المثقفين والعلماء، أينما وجدوا مع إعفائهم من الضرائب لحاجتهم للمال من أجل ظروف دراسية مستقرة، كما كان أيضا يجري امتحانات دورية لمعرفة المجتهدين.

وقد كان هذا التقديس للمعرفة والدراسة والثقافة، في زمن الحرب والسلم على حد سواء، بل كان يقوى أكثر أيام الحرب. وفي هذا الإطار يقول دينيزين وهو شاهد عيان: "أن الأمير أرسل ثلاثين شابا عربيا إلى مرسيليا ليتعلموا هناك الفنون والمهن على حسابه الخاص"[1].

لقد كان الأمير مؤمنا بضرورة التعلم وهو يقول: "في كل علم منفعة إما في المعاد أو في المعاش أو الكمال الإنساني إذ كل علم يفيد النظر عقلا مزيدا وجميع العلوم الصناعية والنظرية تفيد عقلا" ويقول أيضا أن: "نتائج الأفكار لا تقف عند حد وتصرفات العقول لا نهاية لها".

وكان الأمير حريصا على طلبة العلم، وكان يعفو على المحكوم عليهم إذا كانوا من طلبة العلم، فقد عفا الأمير عدة مرات على مدرسين استحقوا عقوبة الموت، تقديرا للعلم[2].

إن هذا الحرص الشديد جعله يرتب المعلمين في سائر المدن والقرى لتدريس العلوم المتعددة يضع لهم رواتب تختلف حسب درجاتهم العلمية، الأمر الذي شجع الناس على طلب العلم، وأعطى للمدرس مرتبة عالية، في المجتمع وحثهم على احترام أهله. وكان معظم

---

[1] عائشة بن ساعد، **البعد الروحي لمقاومة الامير عبد القادر**، مرجع سبق ذكره، ص318.

[2] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الثالث، مرجع سبق ذكره، ص61.

خلفائه من المدرسين والمتفقهين أمثال مصطفى بن التهامي ومحمد بن عيسى البركاني، وأحمد الطيب بن سالم، والحاج سيدي علي السعدي، والحاج محي الدين بن مبارك(1).

كما كان الأمير يبذل قصارى جهده، في جمع الكتب والمحافظة على المخطوطات من الضياع حتى أنه أمر جنوده بأن يوافوه بكل كتاب يعثرون عليه، وكان يعاقب من وجد بصدد إتلاف مخطوط، معاقبة شديدة ويشجع في نفس الوقت بجوائز كبيرة من يأتيه بمخطوط أو يحافظ عليه من الضياع. وقد بلغ عدد كتبه 500.000 مخطوطة مجلدة تجليدا فاخرا، أضافها لما أحضره معه من كتب في رحلته المشرقية، بعد جهد كبير، بعضها أهدي إليه، فيذكرنا بيروجير أنه سلم كتاب دلائل الخيرات للأمير وكيف كانت غبطته به بالغة.

ونظرا للحجم الثري لهذه المخطوطات وقد شكلت بالفعل نواة هامة لمكتبته في تاكدامت. حيث كان يهدف إلى إنشاء جامعة ومكتبة مركزية بها، تجمع بين العلوم الدينية والعلوم الحديثة العقلية لأنه كان يرى فيها مشروعا لمركز سلطة هام، لكنه حرصا على أرواح ساكنيها، نقلها تماشيا مع أحوال الطوارئ إلى الزمالة. وبلغ عدد ما فيها من مجلدات قرابة الخمسمائة ألف كتاب – كما سبق وأن ذكرها – لكن معركة عين طاقين عام (1259هـ–1843م)، وبالهجوم على الزمالة كانت المكتبة أول هدف، للمشاة من الجنود الذين تخفوا بألبسة جيش الأمير عبد القادر وهاجموها، فخسر بذلك الأمير كتبه، وحزن عليها حزنا شديدا لكونه تتبع مسار الجيش الفرنسي من خلال أوراق كتبه المبعثرة والممزقة والتي كلفته جهدا بالغا لجمعها منذ رحلته الأولى للحج وتذكرنا بما فعله الإسبان عند دخولهم الأندلس وما فعله المغول عند احتلال بغداد، وتذكر الأميرة بديعة حفيدة الأمير في كتابها عن الأمير عبد القادر، أن أحد الصحفيين ذكر أنه رأى الجنود الفرنسيين بعد تدمير مكتبة الأمير الشهيرة ينقلون جزءا من محتوياتها من كتب علمية ومخطوطات نفيسة(2).

---

(1) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء الثالث، مرجع سبق ذكره، ص ص.61–62.

(2) عائشة بن ساعد، مرجع سبق ذكره، ص ص.319–320.

كما قال الأمير حول فضيلة العلم: "لا شيء أقبح من الإنسان مع ما فضله الله به من القدرة على تحصيل الكمال بالعلم أن يهمل نفسه، ويعريها من هذه الفضيلة. وكما أن العلم هو كمال الإنسان، كان كل إنسان محبًا للعلم بالطبع ويشتهيه ويفرح إذا نسب إلى العلم".

فمرتبة العلم وتعليمه عند الأمير تبلغ درجة اللذة الروحية، لا يعيقها سوى العادات السيئة، واستيلاء الشهوات على عقول الناس، وإرجاع هؤلاء إلى جادة الصواب فلابد من تسبيق العلوم الشرعية، وإعطائها حصة الأسد في تكوين الناس بغسل كل الشوائب، والرجوع إلى الدين، يقول الأمير عن هذا الأمر: "وإياكم أن تظنوا أن العلوم الشرعية مناقضة، ومنافرة للعلوم العقلية، بل أي شيء جاء عن الأنبياء مما شرّعوه للناس، لا يخالف العقول السليمة".

لكن الأمير لم يكن مقتنعا بتدريس العلوم الشرعية فقط فالعلم لا يتعارض في رأيه مع الشرع أبدا، بل هما مكملان لبعضهما ويقول على لسانه: "لا غنى بالعقل عن العلوم الشرعية ولا غنى بها عن العقل والذي يدعو الناس إلى التقليد المحض مع عزل العقل، جاهل والمكتفي بمجرد العقل عن العلوم الشرعية مغرور، فإياكم أن تكونوا من أحد الفريقين وكونوا جامعين بينهما فإن العلوم العقلية كالأغذية، والعلوم الشرعية كالأدوية".

إذن فالأمير كان يعرف قيمة العلم ولا يبخل به على أتباعه ولم يهمل حتى العلوم الدنيوية في ذلك[1].

كما كان يدرك شروط التعليم الذي يتطلب النفس الكاملة ويرفض النفس الضعيفة وغير القادرة على رؤية الحقيقة بسبب غشاوة الجهل، فكيف تعرف الفرض في الدين بدون علم، فلا يعرف كذلك فضل الجهاد إلا بالعلم.

---

[1] عائشة بن ساعد، **البعد الروحي لمقاومة الأمير عبد القادر**، مرجع سبق ذكره، ص320.

وكما كان يؤمن بأن العلوم التي لا تعترف بوجود الله، ليست علومًا إلاّ باعترافها به وبعقيدة عميقة بالله، ونهايتها هي السعادة الحقيقية للإنسان موفرا بذلك لطلبة العلم المحيط الضروري للدراسة، إيمانا منه بثمرة النجاح التي هي أداة لتحرير الإنسان والإنسانية.

وهو مؤمن بأن العلم دليل الإيمان والعمل شرط لتولي المناصب وهو ذاته العلم الذي يرفض التبعية. وحتى وهو بعيد، كان يراسل علماء الجزائر، ويحرص على استعادة كتبه التي شاعت بسقوط الزمالة ومن هذه المساعي رسالته إلى مفتي بجاية الذي وجد كتاب صحيح البخاري والذي يخص الأمير وأراد إعادته له، فاتصل به مشيدا بعمله، ومطالبا به مهما كان الثمن الذي سيدفعه فيه بقوله: "فإنه بلغني أن صحيح البخاري من كتبي، اتصل بيدك وعرفت خطي عليه وإنك قلت إن وجدت من يبلغه من صاحبه فأرسله إليه... وإن كنت تزيد الثمن الذي دفعت".

فإذن ركز الأمير أثناء جهاده على التعليم واعتبره وظيفة أساسية تنهض بها المجتمعات والأمم. وقد سعى إلى تغيير المناهج حرصا على حصول الفائدة، فطريقة الأمير في التدريس هي خلافا للمعلمين العاديين الذين لا تمتد قواهم العقلية إلى أكثر من ملاحظات وتعليقات على الكتب المقدسة، فإن عبد القادر أثار استغراب طلابه باختياره النصوص الفلسفية من أعمال أفلاطون وأرسطو وكان يختار هذه النصوص من الخاصة التي كان بدأ في إعادة جمعها بعناية من خلال إقامته في "بروسة" وهذا ما جعل طلابه يزدادون تعلقا به لأنه "نهج على غير الطريقة المعتادة في التفسير والشرح".

فقد كان يبث في هؤلاء المتعلمين روحا جديدة للقيام بنهضة تعليمية كبرى[1]. وعلى كل فإن الأمير عبد القادر ووالده الشيخ محي الدين وجده الشيخ مصطفى بن المختار،

---

[1] فريدة قاسي، "ملامح الفكر الإنساني عند الأمير عبد القادر"، **أعمال الندوة العلمية: الأمير عبد القادر وتيارات فكرية غير عربية إسلامية في الجزائر**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ومخبر البحث في الدراسات الأدبية والإنسانية بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر، 2006م، ص116.

نشروا الطريقة الصوفية القادرية في معظم أنحاء الغرب الوهراني، وكونوا معهد القيطنة العلمي المشهور وزاويته التي كانت تستقبل طلاب العلم والمعرفة من السوس الأقصى وشنقيط والسودان وتوات فضلا عن المغرب الأقصى ونشروا العلم والفكر والتربية والثقافة والتصوف، وحاربوا البدع والضلالات والمنكرات والظلم والطغيان[1].

---

[1] يحي بوعزيز، "الطريقة القادرية للأمير عبد القادر"، **أعمال الملتقى الوطني حول الحياة الروحية للأمير عبد القادر**، مؤسسة الأمير عبد القادر والأكاديمية الجامعية لمدينة الجزائر، 29 يونيو – 1 يوليو 1998 – الجزائر، ص39.

الفصل الرابـع

فكر الأمير عبد القادر

المبحث الأول

التكوين الفكري للأمير وآراؤه النظرية

1- التكوين الفكري للأمير عبد القادر:

ينحدر الأمير من أسرة عالمة، فأجداده العشرة بدءًا من عبد القوي وانتهاء بمحي الدين كانوا جميعا من العلماء يرتحلون في طلب العلم، وطالما أن نسب هذه الأسرة ينتهي إلى الانتساب النبوي فقد ساعد أن يتبوأ أفرادها منزلة اجتماعية خاصة ألجأتهم إلى ضرورة التسلح بالعلم والسعي في تحصيله والدعوة إلى الجهاد وممارسته حتى الاستشهاد.

وكان والد الأمير سيدي محي الدين رجلا مهابا محترما ليس لكونه قادريا، وإنما لكونه عالما فقيها وحكيما شجاعا امتاز بالسلوكيات الإسلامية وعلو المنزلة العلمية وهيبة قبيلة بني هاشم التي يمتد نسبها إلى الأدارسة.

فأمر طبيعي ظهور هذه الآثار الوراثية على أولاده ومنهم عبد القادر حيث ظهرت عليه في سن مبكرة صفات من ذكاء وسرعة بديهة وشجاعة ومهارة بفنون الفروسية من ركوب الخيل والسباحة واستعمال السيف إلى جانب نفس أبية وإيمان قوي ومحبة وجدانية وعقلية لخالق هذا الكون ومبدع تلك الطبيعة التي نشأ في أحضانها.

هذه الحياة الإيمانية القوية التي نشأ فيها والعائلة المتماسكة الدافئة كان لها أثر في نضج الأمير عند اكتمال رجولته، حيث زرعت في أعماقه أهمية كبرى في التفكير بكل ما أبدعه الله سبحانه وتعالى في هذه الطبيعة من جمال أخاذ ونظام متناسق مبدع، فكان ينظر إليها بأسلوب المفكر المتأمل.

في هذا المناخ نشأ الأمير وتعلم القرآن والحديث والسير والتراجم واللغة كما درس بعد ذلك المنطق والفقه وعلم الكلام وتبحر في علوم اللغة[1].

---

[1] فريدة قاسي، "ملامح الفكر الإنساني عند الأمير عبد القادر"، **أعمال الندوة العلمية: الأمير عبد القادر وتيارات فكرية غير عربية إسلامية في الجزائر**، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر، 2006، ص ص.105-106.

لقد عدد لنا الرجل شيوخه وما درس عليهم وطرق دراسته، وقد استمر تحصيله للعلم في المغرب العربي نحو ستة شر عاما، قبل أن يرحل إلى المشرق للحج وطلب العلم مارا بمراكز علمية هامة (قسنطينة، تونس، القيروان، الإسكندرية، طنطا، القاهرة، مكة، المدينة، القدس، دمشق، بغداد).

وبعد أن توقف نضال الأمير أتيحت له الفرصة للتفرغ لتحصيل العلم والتبحّر فيه، وتأليف الكتب والقصائد الشعرية وظل يحمل القلم إلى وفاته – رحمه الله –.

ومن أهم مصادر فكر الأمير الأساسية القرآن والحديث النبوي وما ورد فيهما أصل مواقفه ونبع فكره، وماعدا ذلك يقبل المخالفة والنقد والتقصي شكلا وموضوعا، وهو يرى أن لكل قادر على الفهم والنظر والتعبير أن ينظر في القرآن الكريم ويعبر دون مصدر ما دام يستند على قدر معقول من الاستدلال. وهو يعتقد أن في القرآن أصول العلوم التي بها صلاح الدنيا والآخرة ونظامها في علم الطب والجبر والمقابلة وأصول الصنائع كالخياطة والحدادة والبناء والتجارة وغير ذلك.

أما بالنسبة للمصدر الثاني حيث يلمس بلاغة الحديث لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – أعطي جوامع الكلم وينابيع العلم. عرف الأمير عبد القادر بأنه رجل علم ورأي، كما عرف بأنه رجل حرب وحكم، ومن هذه النافذة الثقافية جاءه العلماء في منفاه وطلاب المعرفة وكثرت محاورته ومراسلاته.

ويرى "غوستافودوقا" أن بداية نبوغ الشخصية العلمية والفلسفية للأمير تكشف عنها فترة ما بعد اعتقاله بأمبواز حيث جدد الأمير حياته الأدبية والفكرية.

فأثناء سجنه نسي مسألة إطلاق سراحه، وتحول إلى الكتب والدراسة وممارسة الشعائر الدينية وكانت ثمرة أعماله الفكرية[1] تأليفه مجموعة من الكتب دلّت على تاريخ الجزائر

---

[1] فريدة قاسي، **ملامح الفكر الإنساني عند الأمير عبد القادر**، مرجع سبق ذكره، ص107.

الثقافي من ذلك العصر الذي تصوره المدرسة الاستعمارية وكُتابها على أنها عصر جمود فكري تمثله الزوايا والطرق الصوفية.

كان الأمير في تأليفه ابن البيئة التي نشأ فيها وهي بيئة ثقافية إسلامية وتربوية إيمانية واجتماعية متماسكة أثرت في تكوينه النفسي والفكري والاجتماعي والسياسي.

ومن أهم مؤلفاته "رسالة المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد" كتبها الأمير في سجن أمبواز 1852 وكتاب "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل". وكتب الأمير "ببروسة" التركية (1855) وكتابه الشهير "المواقف".

2- آراء الأمير ونظرياته الفكرية:

طرق الأمير محاور الصراع بين الشرق والغرب، ويبدو أنه افتتح عصرا لمناظرات حول القضايا الدينية قبل أن تنشب بسنوات بين "الأفغاني" و"رينان" وبين "محمد عبده" وبين "لوبون".

ومن خلال هذه المحاور ظفرنا بوثائق وقرائن على ثقافته وآرائه الشخصية حول الأخلاق، المرأة وعلى مدى تمكن نزعة الفروسية منه، فهو لا يتكلم مجرد نظريات بل مارسها فكرا وشعرا وعلما وأحكاما وتنفيذا دون كثير من المتناظرين.

وتعتمد طريقة مناظرته على الإفاضة الدقيقة المنظمة للأدلة والشواهد، والإحاطة بالعديد من المراجع الشرعية والأدبية والتاريخية والكتب المقدسة، التي تعد معرفة ما فيها جزءا ضروريا لمثل هذه المناسبات في ثقافته قبل نفيه.

كما تعتمد على مشاهداته وخبراته ومقارناته بين المجتمع الغربي والمجتمع الشرقي، والإقرار بالفروق التي تعيب الشرقيين، أو بعناصر معينة فيه والتزام ميزة ما في هذا المجتمع المتخلف عن ذلك المتقدم[1].

---

[1] فريدة قاسي، **ملامح الفكر الإنساني عند الأمير عبد القادر**، مرجع سبق ذكره، ص ص.110-111.

كان الأمير في مبارياته الفكرية والسياسية يلتمس الدليل المعقول والتعليل المعقول لكل ما سيقول دون توقف وتخوف وكأنه ما يزال في ميدان حرب عوان بين ثقافتين جد متصارعتين. ومن القضايا التي عالجها الأمير نجد:

أ. الدين:

عندما صدرت ترجمة "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" لأول مرة بالفرنسية من خلال كتاب "عبد القادر" لـ "غوستاف دوقا" اكتشف المترجم من خلالها مفكرا عربيا أصيلا ورجل ثقافة نبيلة متفتحة تكمن قوة شخصيته في الرؤية الخلافية للمنظور اللاتيني للفلسفة والمنطق، من خلال المزاوجة التي أقامها الأمير بين شروط المنطق ومتطلبات الدين الإسلامي، منتهيا إلى أن قيم ومعاني هذا الدين الإسلامي تنبع من معين واحد، وأن رسالة الأنبياء والرسل لم تكن تهدف إلى تقويض المعرفة العلمية والفلسفية بل جاءت في مجملها لتكريس حرية الإنسان المتمثلة في التسامح والحب والتعاون بين الشعوب.

وأهمية هذه الترجمة تكمن في أن "غوستاف" يقدم في بعض الأحيان أوجه التشابه بين ما ذكره الأمير في كتابه وما يذكره بعض الفلاسفة الفرنسيين ممن كانوا ينتمون إلى جامعة السوربون، ويعبر المقطع الآتي عن هذه الفكرة بجلاء: "يتحدث عبد القادر كفقهاء السوربون، فهو في انسجام تام مع فكر الباب، إنه يشبههم تماما".

« Abdel Kader parle comme un théologien de Sorbonne, il est un parfait communion de doctrine avec le pape ».

كما أن الأمير عبد القادر من خلال اتصاله برجال الكنيسة "مادلين" عام 1852 بباريس يكون قد جدد الفعل التواصلي بين الديانات والذي قام به عمر بن الخطاب منذ أحد عشر قرنا خلت في بيت لحم بالقدس، من حيث التعبير عن سماحة الدين الإسلامي واحترامه للآخر، والتعامل بالحسنى مع أصحاب الديانات الموحدية[1].

---

[1] فريدة قاسي، **ملامح الفكر الإنساني عند الأمير عبد القادر**، مرجع سبق ذكره، ص112.

إن المتأمل في التسامح الديني الذي عرفه الأمير عبد القادر أثناء وجوده في الجزائر وأثناء وجوده خارجها، فموقفه من رجال الدين الفرنسيين في الجزائر، وتصريحه في كنيسة المادلين حيث قال: "حينما بدأت مقاومتي للفرنسيين كنت أظن أنهم شعب لا دين له، ولكن تبينت غلطتي، وعلى أي حال فإن مثل هذه الكنائس ستقنعني بخطئي".

وتكشف بعض المواقف كتدخله أثناء فتنة الشام، أن الرجل كان مطلعا على التيارات الفكرية وروح العصر والأديان السماوية الثلاثة، ونزعات الناس، في الوقت الذي عرف فيه بالتصلب والتمسك إلى أقصى حد بالمبادئ الأساسية الإسلامية. وذكر مقولته حول هذه الفتنة: "إن الأديان وفي مقدمتها الدين الإسلامي أجلّ وأقدس من أن يكون خنجر جهالة أو معول طيش أو صرخات نذالة تدوّي بها أفواه الحثالة من القوم... أحذّركم أن تجعلوا لشيطان الجهل فيكم نصيبا أو يكون له على نفوسكم سبيلا".

ومما يؤكد هذا التوجه ما كتب على النصب التذكاري الذي أقامه الفرنسيون للأمير في "كاشرو" وينسبونه له "لو أصغى إلي المسلمون والنصارى لرفعت الخلاف بينهم، ولصاروا إخوانا ظاهرا وباطنا".

ب. المرأة:

يرى الأمير أن حجاب المرأة ليس حاجبا لها، فالابتذال في البيوت والأسواق ومواطن العمل واللعب يصيب المجتمع بفقدان روح المحبة والشوق والرغبة، وهذه في مذهب المعرفة عنده مأساة اجتماعية وعلمية.

وبالنسبة لقضية توريث الرجل مثل حظ الأنثيين: فالرجل يقوم بجلائل الأعمال كالسلطة ومباشرة القتال، ويدافع عن بلاده وعشيرته، أما المرأة فلا تنفع إلا نفسها في الغالب. وهذا التوريث في الميراث فقط أما دونه فقضية المساواة بينها وبين الرجل واردة. أما عن قضية الطلاق: فلا يحل إلا درءِ للمتاعب وحرصا على القيمة الإنسانية، وقد كانت

له مناظرة مع أحد جنرالات فرنسا وهو الجنرال دوماس الذي نازله في ميدان المعركة بالجزائر، وكان يتردد عليه في قصر أمبواز[1].

وقد اتخذت عنوان "إظهار الحق" كتبت بالفرنسية ونشرت لأول مرة سنة 1860، وترجمت إلى العربية وطبعت بالقاهرة سنة 1917 وفي هذه المناظرة ناقش رأيه في الحجاب الذي رآه ضرورة عمرانية، ورأيه في الميراث والطلاق وتعدد الزوجات ومعنى المساواة بين المرأة والرجل، وتأكيده على أمومة المرأة ومعاملتها معاملة حسنة.

ج. الأخلاق:

في اعتنائه بالتقدم الأخلاقي قبل العلمي والصناعي يكون عبد القادر قد سبق عصره إلى منازلة الغربيين حول أهم محور وهو "الأخلاق".

د. حوار العلماء:

بدأ الأمير في إنشاء شبكة اتصالات مع العلماء الذين لهم نفوذ روحي واسع وهو حديث السن في نحو العشرين من عمره مع والده خلال حجته الأولى (1240هـ/1826م) التي أتاحت له التعرف على الأوساط العلمية والصوفية في المشرق والأخذ عن علمائه وشيوخه في تونس والحجاز والشام والعراق ومصر، ومن أبرز أولئك الذين صحبهم وتتلمذ عليهم، وكان لهم صيت ذائع ونفوذ روحي واسع، أو لهم محدث الشام الإمام العلامة "وجيه الدين عبد الرحمن الكزبري" الذي أخذ عنه الأمير علم الحديث بدمشق.

والثاني مجدد الطريقة النقشبندية في القرن الثالث عشر المحدث الصوفي الشهير "ضياء خالد الشهرزوري" والذي انتفع به في التصوف والحديث، وكان الشهرزوري من أعلام العلماء في الفقه والحديث وعلوم العربية زيادة على إمامته في التربية الروحية التي سلكها على يد شيخه عبد الله الدهلوي.

---

[1] فريدة قاسي، **ملامح الفكر الإنساني عند الأمير عبد القادر**، مرجع سبق ذكره، ص113.

وفي بغداد تعرف إلى علمائها وصحب منهم نقيب أشرافها شيخ الطريقة القادرية السيد محمود القادري الذي أخذ عنه الإجازة في الطريقة مع والده وكان لهذا الشيخ أتباع يعدّون بمئات الآلاف في الشرق الأوسط والأقصى. وتوالت اللقاءات والاجتماعات مع هؤلاء العلماء في دار الأمير وكانت بينه وبينهم محاورات.

لقد بث الأمير في هؤلاء الوعي بمسؤوليتهم وبثّ فيهم روحا جديدة للقيام بنهضة تعليمية كبرى، ولم يكتف بذلك بل سبقهم بالتعليم وبدأ بإلقاء الدروس في الجمعية وفي مدرسة بقرب الجامع الأموي، وبدأت حلقات الدروس تلقى في المساجد وفي الدور، وأصبح الأمير قبلة للعلماء والفقهاء[1]، من أشهرهم الشيخ أمين الجندي، والشيخ عبد الرزاق البيطار، وعبد الغني الرافعي ومحمود حمزة فقيه الشام والشيخ عبد المجيد الخاني وغيرهم.

إن اهتمام الأمير بالعلم والعلماء وكذلك بالمخطوطات القديمة، جعله يوف الشيخ الطيب المبارك، والشيخ حسن البيطار والد عبد الرزاق البيطار "قونية" في تركيا لمقابلة نسخة الفتوحات المكية الأصلية للشيخ محي الدين بن عربي الموجودة هناك مع النسخة التي لديهم، والتي استفاد منها كثيرا علماء دمشق.

هـ. نظرته إلى التراث:

من يستعرض الجوانب الفكرية عند الأمير يجد أنه قد استوعب التراث الإسلامي العربي كله أو جله استيعاب فهم وشرح ونقد أو تحديد أو تذوق. وكان الأمير يرى أن مهمته حماية التراث من العدوان أو الخروج عليه، واستبطان ما فيه من جوانب النور واتخاذها نقطة انطلاق لمعاودة التقدم والملاءمة بين التراث الإسلامي ومظاهر الحضارة الأوربية دون انبهار سابق بها وغفلة كاملة عنها.

---

[1] فريدة قاسي، **ملامح الفكر الإنساني عند الأمير عبد القادر**، مرجع سبق ذكره، ص114.

ومن أجل هذا فإنه كان يحمل على المنشقين على أحكام التراث ومثاليته وأخلاقياته وفي هذا الاتجاه كانت مؤلفاته التي وإن كانت قليلة عددا إلا أنها كثيرة عدة وعتادا.

لقد اتضح للأمير جهادا آخر في ميدان التعلم والتعليم وحماية التراث، وأنه قام لتجلية هذا التراث وتنوّره ما يراه وافيا من الميوعة والضياع ودافعا لمعاودة التقدم والمؤاخاة بينه وبين ما يناسب من مظاهر الحضارة في عصر النهضة الأوروبية دون انبهار ساحق بها، ولا غفلة جاهلة أو كبرياء عنها.

و. جهاد الأمير الثقافي:

كان متعدد المجالات والموضوعات والمناسبات، وقد ركز الأمير أثناء جهاده على التعليم واعتبر وظيفة أساسية تنهض بها المجتمعات والأمم. وقد سعى كما ذكرنا سابقا إلى تغيير المناهج حرصا على حصول الفائدة، فطريقة الأمير في التدريس هي خلافا للمعلمين العاديين الذين لا تمتد قواهم العقلية إلى أكثر من ملاحظات وتعليقات على الكتب[1] المقدسة، فإن عبد القادر أثار استغراب طلابه باختياره النصوص الفلسفية من أعمال أفلاطون وأرسطو وكان يختار هذه النصوص من الخاصة التي كان بدأ في إعادة جمعها بعناية من خلال إقامته في "بروسة" وهذا ما جعل طلابه يزدادون تعلقا به لأنه "نهج على غير الطريقة المعتاد في التفسير والشرح".

وكما ذكرنا فقد كان يبث في هؤلاء المتعلمين روحا جديدة للقيام بنهضة تعليمية كبرى.

ز. إنسانية الأمير عبد القادر:

إن النظرة الإنسانية العميقة للأمير جعلته يقدّر الفرد ويكرّمه، ويغضب كثيرا كلما رأى مسّا بكرامته أو حطا من قيمته أو نيلا من حقوقه.

---

(1) فريدة قاسي، **ملامح الفكر الإنساني عند الأمير عبد القادر**، مرجع سبق ذكره، ص ص.115-116.

وكان للتربية الصوفية التي تلقاها الأمير من أهم العوامل التي سمحت بنفسه وأغنت رصيد إنسانيته وشفافية روحه وحسه.

إن مفهوم التصوف عند الأمير يعتبر "جهاد النفس في سبيل الله، أي لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية، والاطمئنان والإذعان لأحكام التربوية لا لشيء آخر من غير سبيل الله".

وقد سعى الأمير إلى التصوف بمجهوده الخاص، واكتسب تربيته الصوفية عن إرادة ووعي، إذ أنه اعتنق المذهب الصوفي بعد أن تحوّل إلى بغداد، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على قوة شخصية الأمير التي ترفض التقليد والانقياد، ولا تتبنى أي فكر ولا تنخرط في أي عمل إلا بعد دراسته وهضمه هضما مؤسسا على اقتناع ذاتي مبني على العقل والبرهان.

إن النزعة الإنسانية عند الأمير هي النسب الإرادي الذي أراده الأمير أن يكون صلة الوصل بينه وبين أخيه الإنسان شرقيا كان أم غربيا، مسلما أو مسيحيا إذ أن "أساس الديانة وأصولها لا خلاف فيها بين الأنبياء من آدم إلى محمد – صلى الله عليه وسلم – فكلهم يدعون الخلق إلى توحيد الإله وتعظيمه"[1].

إن المتأمل في التسامح الديني الذي عرف به الأمير في أثناء وجوده في الجزائر وخارجها منفيا، يدرك أن الرجل كان على مستوى من الوعي الإنساني المتفهم لحقيقة الإنسان والإنسانية التي لا تؤمن بالحدود والحواجز والعراقيل بين البشر.

وتدليل ذلك تصاريحه – التي سبق ذكرها – في كنيسة "المادلين" بفرنسا، وتدخله أثناء فتنة الشام سنة 1860.

---

[1] فريدة قاسي، **ملامح الفكر الإنساني عند الأمير عبد القادر**، مرجع سبق ذكره، ص117.

فقد شهد له التاريخ بذلك الموقف البطولي الخالد الذي كشف عن رجولته وشهامته وإيمانه وعن طابع الإسلام والعروبة الواضح في شمائله، فقد استطاع أن يحقق أسلوب الفروسية العربية في النجدة والبذل وحماية الدماء، وطابع الإيمان الإسلامي في التسامح والأخوة الإنسانية. هذان المثلان أصدق تعبير على النزعة الإنسانية لدى الأمير، وله حق أن يقول كلمات "لو أصغى إلي المسلمون والنصارى لرفعت الخلاف بينهم، ولصاروا إخوانا ظاهرا وباطنا".

إن مصادر روح التسامح ولطف المعاملة في شخصية الأمير هو تربيته الدينية وتشبعه بقيم الحضارة الإسلامية المتجسدة في عمل الخير ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾.

فالحقوق الإنسانية مرتبطة أساسا بالإيمان بالله وبرسالاته وجوهر هذا الارتباط هو التكريم "ولقد كرّمنا بني آدم".

إن الأمير حريص بنزعته أو بحكم مذهبه الفكري على التواصل الإنساني العام وتبادل الآراء بسماحة ووعي للوصول إلى الكمال المنشود على وحدة الطريق.

ولهذا نبذ الأمير التعصب والجمود والتقليد، ففي منهجه الصوفي لا يكف عن شن حملاته العلمية من أجل تولية الصدق أمر النية والعمل والقول حسب اعتقاده واجتهاده وتعبيره، عسى أن ينتقل القوم من الجمود على ترداد ما يقال إلى الممارسة والخبرة سعيا إلى التمام المنشود في مكارم الأخلاق وصالح الأعمال، واكتساب الوجود قيمته وتحقيق أهدافه[1].

---

[1] فريدة قاسي، **ملامح الفكر الإنساني عند الأمير عبد القادر**، مرجع سبق ذكره، ص118.

ح. شغف الأمير عبد القادر بالحرية:

حمل عبد القادر إلى طولون في الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر 1847 فزج به هو والثمانية والثمانون شخصا المرافقون له أسرى في قلعة لامالق بمدينة طولون على شاطئ البحر المتوسط. ولما احتج الأمير على الوضع المزري الذي سار إليه قيل له: "لا ترع واطمئن". وفي اليوم التالي لسجنه طلب ضابط فرنسي مقابلة معه. فقد جاء الجنرال دوماس مكلفا من قبل ملك فرنسا ليقدم إليه بأسخى العروض إذا رضي فقط أن ينسى الوعد الرسمي الذي أعطاه له الجنرال لاموريسيير والدوق دومال عند استسلامه. فعرض عليه مكانة مرموقة في فرنسا: قصر ملكي وحرص شرفي وكل الأبهة والحاشية الجديرة بأمير.

وكان عبد القادر يستمع إلى الاقتراح المخزي في صمت وازدراء.

وعندما ألح عليه في الرد ركّز عينه فيه. وقال له بحدة وتعجب: "ألم تعد تعرفني؟ أأنت الذي تتحدث معي هكذا؟ عجبا ! إن مواهبك الدبلوماسية التي لا أشك فيها هي مفيدة جدا لفرنسا. ولكني أرجوك أن لا تبددها معي عبثا".

ثم أخذ بطرف برنسه بكلتا يديه ومال نحو النافذة وقال بصوت حاد: "لو حملت إلي باسم ملكك كل ثروات فرنسا من الملايين والألماس وأهكتك أن تضعها كلها في طرف برنسي لفضلت أن أرمي بها جميعا حالا في هذا البحر الذي يلطم بأمواجه جدران سجني على أن أعيد إليكم الوعد الذي أعطي لي من قبلكم رسميا، إنني سأحمل معي ذلك الوعد إلى قبري. أنا ضيفكم فاتخذوا مني أسيرا إن شئتم. ولكن الخزي والعار سيلتصقان بكم لا بي".

ولما سئل هل له رغبة في زيارة باريس، أجاب: "اعلم أن إبراهيم باشا قد زارها وأعجب بغرائبها. ولكن فرنسا كانت بالنسبة إليه بلدا دعي إلى زيارته ضيفا مستمتعا بالحرية. أما أنا فمادمت أسيرا فإن فرنسا بالنسبة إلي زنزانة، فليست لي رغبة في أن أكون ضحية متوجة بأكاليل الزهور".

وقد اقترح أحد رجال السياسة في فرنسا أن تكتب الحكومة إلى الأمير في تغيير[1] شروطه التي اشتركها على الجنرال لامورسيير وقبلها ثم أيدها حاكم الجزائر الدوق دومال ووافق عليها والده، فاستحسنوا ذلك وأمروا المارشال بيجو بأن يتولى هذا الأمر. فكتب إليه رسالة في الموضوع بتاريخ 28 يناير 1849. فأجاب الأمير بما مفاده أنه: "لو جمعت فرنسا سائر أموالها ثم خيرتني بين أخذها وأكون عبدا وبين أن أكون حرا فقيرا معدما لاخترت أن أكون حرا فقير. فلا تراجعوني بمثل ذلك الخطاب، فإنه ليس عندي – بعد هذا الخطاب جواب وإلى الله ترجع الأمور وبيده كشف هذا الديجور".

وبما أننا نتحدث في هذا البحث عن المقاومة الثقافية للأمير عبد القادر فإنه يجدر بنا أن نتحدث عن الإصلاح الذي انتهجه الأمير عبد القادر والذي يشمل المقاومة الثقافية للغزو الثقافي الفرنسي. وعليه سنخصص مبحث حول الإصلاح الذي قام به الأمير في مختلف المجالات الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية، والعسكرية.

---

[1] د. بلقراد، "الجانب الصوفي والثقافي في حياة الأمير عبد القادر الجزائري"، **مجلة التاريخ**، ص ص.77–78.

المبحث الثاني

الإصلاح عند

الأمير عبد القادر

1- الإصلاح عند الأمير عبد القادر:

إن الأمير عبد القادر لم يتزعم حركة إصلاحية بأتم معنى الكلمة، لكنه تنبه إلى ضرورة الإصلاح عندما تولى الإمارة ولاحظ انحراف المسلمين عن الدين، فالإصلاح عنده لم يكن غاية في ذاته بل وسيلة اعتمدها قصد تحسين الأوضاع وتحقيق الانسجام بين الناس حتى يضطلع بوحدة الأمة ضد العدو المشترك.

ولابد هنا أن نشير إلى أن إصلاح الأمير استمد أسسه الروحية من الدين الحنيف بكونه شمل كل الميادين، وعمل على إبراز الطابع الديني في كل القوانين.

وقد كان إصلاحه عمليا لكونه ركز على تغيير السوء بيده بطريقة مباشرة، إذ لم يكن لديه مشروعا محددا يبين فيه الخطة الإسلامية التي سنها. بل هو إصلاح تناول في آن واحد وفي ظروف عسيرة مجالات عدة، ولهذا لا يصح مقارنته بالحركات الإصلاحية التي ظهرت بالمشرق وهذا لأسباب عديدة نذكر منها ما يلي:

أولا – كان الأمير عبد القادر يتمتع بمكانة سياسية (أمير) وعسكرية (قائد) ورجل دين ينحدر من أسرة شريفة مما خول له القدرة على تحقيق الإصلاح الذي كان يريده وهو الاستقامة على الكتاب والسنة. هذا علاوة على أنه جمع السلطات الثلاث دون منافس، فالذي كان يراه صالحا للناس ومتماشيا مع نصوص الشريعة لا يجد ما يعارضه. وفي وجود اعتراض وتشدد فإنه يضطر إلى تصحيح الوضع بيده استنادا إلى الحديث الشريف "من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الإيمان".

وأما زعماء الإصلاح في المشرق فإنهم نادوا بالإصلاح، وأثاروا حركة فكرية في الأمة، لكن لم يتوصلوا إلى التحقيق الفعلي لما كانوا ينادون وهذا لابتعادهم عن السلطة التي لم تكن في حوزتهم[1].

ثانيا – كان إصلاح الأمير عبد القادر محصورا في رقعة جغرافية محددة لم يتجاوز هذه الحدود، في حين كانت الحركات الإصلاحية بالمشرق دعوة موجهة إلى كافة الدول الإسلامية عامة والعربية خاصة.

ثالثا– كانت الحركات الإصلاحية بالمشرق محصورة في مجال معين سياسي أو اجتماعي أو ديني (حسب الدعوة التي دعى إليها المصلح) أما إصلاح الأمير عبد القادر فإنه ضم هذه الميادين كلها لكونه تولى أمر المسلمين وأسس أول دولة جزائرية مسلمة.

2- علاقة الإصلاح بالتصوف:

إن الإصلاح الذي قام به الأمير عبد القادر أثناء فترة الحكم يتميز بالطابع الصوفي الذي يطغى عليه في شتى الميادين، السياسية، والعسكرية والاجتماعية، وقد يتجلى هذا الطابع بكل وضوح في أسلوب القيادة التي مارسها، وفي القوانين التي وضعها، بحيث نجد القيم الصوفية ماثلة في المواقف المختلفة التي وقفها وفي الأوامر التي أصدرها بشأن الدولة لغرض التسيير والتنظيم.

ولما كانت هذه القيم مفاهيم مجردة وبعيدة كل البعد عن أذهان الناس، بحيث يصعب تحقيقها في فترة قصيرة وبطرق عادية مثل التربية والتعليم فإنه عمد في أسلوب حكمه إلى اتخاذ شخصيته نموذجا يقتدى به في الحكم، باعتبار تصرف هذه الشخصية في الأمور تصرفا أمثل، واعتبار مواقفها في الحياة مواقف حقة لأنها في الأصل منبثقة من الروح الإسلامية العالية. وهنا تكمن المقاومة الثقافية أيضا من خلال القدوة والتي كان الأمير

(1) أحمد ملاح، **التصوف والإصلاح عند الأمير عبد القادر**، دراسة تحليلية نقدية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، قسم الفلسفة، ص ص.72–73.

يمثلها، فالأمير عبد القادر لم يدع الرهبانية ولا الولاية كي يجلب اهتمام الناس إليه، هذا برغم المكانة الدينية والاجتماعية التي كانت في جوزته. فقد تسامى عن هذه الإدعاءات كلها واكتفى بالإمارة، ليس من أجل الإمارة فحسب وإنما سعيا وراء تنظيم الأمة[1] ثم إعدادها حتى تستطيع مجابهة العدو وتحرير وطنها من الاحتلال الأجنبي، ثم بنفس الطريقة تحرير نفسها من الإثم والضلال الذي هي فيه.

إن الأمير عبد القادر في فترة الحكم، لم يبحث عن الشهرة ولا عن تكديس الأموال الطائلة، وإنما سعى جاهدا وراء تحقيق وتطبيق المبادئ الإسلامية الحنيفة، ولهذا الغرض فإنه وقف ليضع حدا فاصلا بين العقيدة الإسلامية الصحيحة والمعتقدات الفاسدة التي أساءت للمسلمين، ولما كانت الظروف العسكرية والسياسية والاجتماعية لم تسمح باتخاذ أي موقف عادي في الإصلاح، فإنه جعل من شخصية القدوة الحسنة التي تستطيع بفضل تأثيرها وقوتها إرشاد الحائرين وتنبيه الغافلين.

إن القدوة الحسنة عند الأمير عبد القادر ليست دعوة تعمدها دون سند، لأنه لم يقل بها اعتمادا عليها وإنما قال بها اقتفاءا بروح الآية الكريمة: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾ وفي السيرة النبوية ما يستثني الأمر، لأن الرسول هو أحق البشر بالتقليد وأما الأمير عبد القادر فإنه يرى أن الاحتذاء بسلوك الرسول يحق لكل من أراد الخير لأمته[2]، لأنه سلوك يماثله به في صفات الفضيلة يقول في هذا الموضوع في كتابه المقراض الحاد: "لاشك أن الرسالة قد كملت بمحمد عليه السلام، ولابد أن يكون في أمته في كل دور إنسان هو أقربهم إليه في صفات الفضيلة، فيكون ذلك الشخص بالنسبة إليه كنسبة القمر إلى الشمس.." [3].

---

(1) أحمد ملاح، مرجع سبق ذكره، ص ص.75-76.

(2) نفس المرجع، ص77.

(3) الأمير عبد القادر، **المقراض الحاد**، دار الحياة، بيروت، ص162.

وحتى يكون هذا الشخص أهلا للرسالة يقدم الأمير عبد القادر الشروط التي يجب أن تتوفر فيه حتى يتمكن كما يقول من تكميل أرواح الناقمين ومن خلال هذه الشروط التي يقدمها فإن الطابع الصوفي يتجلى بكل وضوح. إذ يدعو صاحب الرسالة إلى التخفيف من الجسمانيات والتعلق بالروحانيات. وهنا يقول الأمير في المقراض الحاد: "لابد أن يكون صاحب الرسالة قليل الالتفات إلى الجسمانيات، قوي التصرف فيها شديد الانجذاب إلى عالم الروحانيات، فتكون قوته النظرية مكتملة بأنواع الجلائل القدسية، والمعارف الإلهية..." [1].

ونحن نعرف بحكم المواقف الخاصة بالأمير عبد القادر أن هذه الشروط التي حددها لصاحب الرسالة، هي في حقيقة الأمر شروط توفرت في شخصيته. وهو في هذا الباب يصفها لنا بموجب ما ترتب عنها من مزايا حميدة على المجتمع، لأنه في رسالته الإصلاحية سار على هذا النهج، ودعى إلى هذه الدعوة النبيلة التي تلمس في نصوصها وفي أبعادها الطابع الصوفي الواضح يقول الأمير عبد القادر في المقراض الحاد: "...فكل من دعا الخلق إلى الإقبال على الحق، والإعراض عن الخلق، فهو الرسول الصادق.." [2].

وأما الأمير عبد القادر الذي احتذى بحذو رسول الله في رسالته فإنه يبين أهمية القوة العملية والروحية التي ينبغي أن تتوفر في شخصيته صاحب الرسالة، يقول في هذا الباب "...وتكون قوته العملية مؤثرة في أجسام هذا العالم بأنواع التصرفات ثم بعد تكميل هذين المقامين تكون قوته الروحانية مؤثرة في تكميل أرواح الناقصين في قوتي النظر والعمل.."[3].

وحتى تكون هذه القوة فعلا مؤثرة يرى الأمير عبد القادر أنه لابد من أن تتجمع في صاحب الرسالة أربع صفات هي كالتالي "...فأمهات الفضائل هي هذه الأربع العلم،

[1] الأمير عبد القادر، مرجع سبق ذكره، ص162.

[2] نفس المرجع، ص162.

[3] نفس المرجع، ص163.

الشجاعة، والعفة، والعدل فمن جمع هذه الأربعة على الكمال، استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطاعًا، يرجع الخلق كلهم إليه ويقتدون به..." [1].

ومن المعلوم أن الأمير عبد القادر قد جمع هذه الفضائل الأربع، وكرس حياته الروحية كلها من أجل صيانتها، فكان العالم الفذ الذي أحاط علما بعلوم عصره، والشجاع المقدام الذي صمد في وجه الأعداء والخصوم، والرجل العفيف الذي نزه نفسه عن المكدرات والعادل القويم الذي أعطى مثالا عن العدل، إنه على حق الرجل الذي استحق أن يكون القدوة الحسنة لبني أمته[2].

ويمكن القول أن الأمير عبد القادر قد توصل إلى غايته، فقد استطاع بفعل سلوكه أن يؤثر على الناس ويبث فيهم هذه الروح النزيهة التي نلمسها في الطاعة التي أخلصوا بها إليه.

يقول الأمير عبد القادر في الموقف الرابع من كتابه المواقف "كنت ليلة بالمسجد الحرام قرب المطاف، متوجها للذكر وقد نامت العيون، وهدأت الأصوات، فجلس بالقرب مني يمينا وشمالا أناس وجعلوا يذكرون الله تعالى فخطر في قلبي أينا أهدى سبيلا إلى الحق تعالى فبعد الخاطر بقريب أخذني الحق تعالى عن العالم وعن نفسي ثم ألقى إلى قوله ﴿**بل كانوا يعبدون الجنّ**﴾. فعلمت أن عبادتهم كانت مشوبة بأغراض نفسية وحظوظ شهوانية...".

وبهذا القول يشير الأمير عبد القادر إلى صدق إيمانه وإخلاصه لربه فضلاً عن العباد الذين يشركون بالله.

---

(1) الأمير عبد القادر الجزائري، **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، تحقيق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، بيروت، 1966، ص59.

(2) أحمد ملاح، مرجع سبق ذكره، ص ص.78-80.

إن إصلاح الأمير عبد القادر متشبع بهذه الروح المنبثقة من الإيمان الصادق بالله، وهي روح صوفية عالية لا يبلغ مداها إلا الذين خصهم الله بمعرفته.

3- أسباب الإصلاح عند الأمير عبد القادر:

إن الأمير عبد القادر لم يرغب في تولية الإمارة، فقد كان هدفه في الحياة هو التفرغ للعبادة والمطالعة والتدريس. إلا أن مجرى الحياة قد قدر له المصير الذي لم يكن في الحسبان، فالحياة الهادئة لم تكن من نصيبه في اللحظة التي تنازل فيها الأب عن مسؤولية الإمارة لصالحه ولم يفعل سوى أنه استجاب لأمر والده.

فالقول إذن أن الأمير عبد القادر قد أراد الإصلاح هو قول يتنافى مع مطامحه العميقة[1].

وبالرغم أنه لم يرغب في السلطة فلم تكن تولية الإمارة غاية في ذاتها لأن المسؤولية فتحت له باب الإصلاح على مصراعيه ومكنته من الإطلاع عن كثب على كل ما يصنعه في المجتمع، كما أعطته الفرصة السانحة ليكون الأب الروحي للأمة.

ويمكن القول أن فكرة الإصلاح لم تنل اهتمام الأمير عبد القادر إلا بعد مراسيم المبايعة والأخذ بزمام الحكم، فهي إذن لم تكن تلقائية، لأن بواعثها كانت موجودة تمثلت في الظروف العسكرية (دخول الجيش الأجنبي وانعدام القوة المدافعة) مما تسبب في ظهور الفوضى، هذا من جهة، ومن جهة أخرى الظروف الاجتماعية والأخلاقية والدينية السيئة التي اقتضت تصحيح الوضع وعليه فالاستعمار هو السبب الرئيسي لهذه الأوضاع وبالتالي باعثا للإصلاح، غير أن التأمل فيه قليلا يبين لنا أنه ليس سببا كافيا إذا عزلناه عن الجو العام الذي أخذ فيه الأمير عبد القادر زمام الحكم، لأنه كان من الممكن أن ينظم جيشا ويحصر سلطته وهمته في الدفاع وتنظيم الجيش، لكن نحن نعرف أن الإصلاح امتد وشمل

---

(1) أنظر مجلة الثقافة، العدد الخاص ماي 1983، ص133.

شتى جوانب المجتمع، لهذا ليس الغزو الأجنبي هو باعث الإصلاح، وإنما كان هو مجرد ظرف كشف الغطاء بكونه أثار الفوضى – وأيقظ الأمراض الاجتماعية الراكدة. وبهذه الطريقة فقد بين واقع المجتمع المنهار، وأظهر بوضوح انحلاله الأكيد، والحقيقة هو أن أسباب هذا التدهور قد تأصلت في المجتمع منذ عهد بعيد غير أنها لم تظهر إلا بعد غياب السلطة الحاكمة التي كانت تردعها، عندئذ تعاطى الناس لأهوائهم وتكالبوا على الظلم والفساد، فأصبح الوضع كما يقول صاحب التحفة "...كثر فيه الباطل وانتشر وخفي فيه الحق ولم يظهر له أثر..".

إن هذا الوضع المتفاقم هو الذي دعى الأمير عبد القادر إلى اتخاذ موقف صارم إزاءه، وألح إبان أخذه زمام الحكم على القول "...لن آخذ بقانون آخر غير القرآن، لن يكون مرشدي غير تعاليم القرآن"، إن هذا الموقف الصارم الذي وقفه الأمير عبد القادر إزاء هذا الوضع يدل على أنه أدرك أن الأمراض الموجودة في المجتمع يرجع سببها إلى بعد المسلمين عن دينهم[1]، ولاشك أن قوله هذا: "قلوب الناس مرضى ولا علاج لها إلا بالأدوية التي ركبتها الأنبياء"[2].

4- مجالات إصلاح الأمير عبد القادر:

لقد تنبه الأمير عبد القادر مبكرا إلى الطريقة التي ينتهجها لتحقيق مشاريعه، وتنبه إلى ضرورة إنشاء مؤسسات داخل المجتمع حتى يتمكن من تبليغ الرسالة التي كان يبتغيها وأما المبادئ فقد استمدها من الكتاب والسنة، لأن الفوضى العارمة وانحلال المجتمع تطلب موقفا جديا وصارما يستعيد به كرامة الشعب وقد حصر الأمير عبد القادر إصلاحه في الميادين التالية:

– الإصلاح السياسي (وكان غرضه تنبيه الشعب إلى المساواة والشورى والتواضع).

---

[1] أحمد ملاح، مرجع سبق ذكره، ص ص.83-84.

[2] الأمير عبد القادر، **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، مرجع سبق ذكره، ص84.

- الإصلاح العسكري (وكان غرضه إعداد الجيش نفسيا وجسديا).
- الإصلاح الاجتماعي (التنبيه إلى روح العدالة، وروح المعرفة العلمية).
- الإصلاح الاقتصادي (التنبيه إلى الإنفاق في وجه البر، واستخدام الأموال لمساعدة الضعفاء والمحتاجين).

أ. الإصلاح العسكري:

إن الأمير عبد القادر في بداية تأسيس دولته وجه اهتمامه الأول إلى إعداد القوة العسكرية ورغم كون هذه القوة في بدايتها كانت أمرا تطلبه الواقع فليس معنى هذا أن إعدادها كان عشوائيا، فقد كان لها أساسا يشدها ويمتن صفوفها، وهو القانون العسكري الذي وضعه الأمير عبد القادر لغرض التنظيم والانضباط وهذا ما يجعلنا نستبعد كل أمر اعتباطي في مسألة إعداد القوة العسكرية، لأن وجود القانون يوحي بالدرجة الأولى إلى ضرورة الدفاع المنظم.

وقد كان لها هدفا تشكلت لأجله هذه القوة وهو أولاً: العدو الذي دخل الوطن واستلزم الجهاد لمقاومته. ثانيا: القبائل المتعصبة التي أصرت على التمرد والعصيان، بحيث شكلت عائقا في وجه الدعوة إلى الوحدة[1].

إلا أن إعداد القوة العسكرية لم يقتصر على الجهاد ومحاربة المرتدين، بل كانت له مزايا ونتائج حميدة على كل من الفرد والمجتمع. فالجيش نظم المجتمع وعمل على تخليصه من الاضطرابات التي كانت تسوده هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد وفر الشغل لكل من يرغب في التجنيد مما أدى إلى القضاء على ظاهرة البطالة في شتى وجوهها والتشرد في شتى أنواعه، كما عمل أيضا على إدماج مختلف الفئات والتوحيد بينها قصد تحقيق الانسجام وضمان المصير الواحد حتى تذوب كل الفروق الموجودة في بوتقة واحدة.

---

[1] أحمد ملاح، مرجع سبق ذكره، ص ص.89-90.

وأما الفرد فقد بعث فيه روحا جديدة جعلته يشعر بنوع من الواجب الذي نزهه عن كل أشكال الأنانية مثل التضحية من أجل الله والاستغناء عن الدنيا بما فيها بتفضيل الموت.

إذن فمن وراء الإصلاح العسكري الذي قام به الأمير عبد القادر هناك إصلاح اجتماعي، سواء كان ذلك في الجهاد الذي أيقظ الروح الدينية في عقول الناس وجعلهم صفا واحدا ضد العدو المشترك مما نتج عنه تعزيز الإيمان وتمجيد القيم الإسلامية الماضية أو في المهام الأخرى المتمثلة في محاربة الإثم، وحماية مؤسسات الدولة زيادة على تنفيذ القرارات والأوامر التي تصدرها السلطة بشأن الأمة.

فالجيش عند الأمير عبد القادر لم يكن وسيلة اضطهاد مثلما كان عليه الجيش العثماني، وإنما كان معدا للجهاد ثم إلى إصلاح أحوال الأمة، وتنظيم العلاقات بين الناس باستقامتهم على الدين الواحد.

فالأمير عبد القادر سهر طويلا على تكوين رجال الجيش وحرض بكل جدية على تلبسهم بأحكام الشريعة الإسلامية، لذلك فقد دربهم على تعاليمها وكان لهم بالمرصاد يترقب أفعالهم وأعمالهم يثني على ملتزمها ويعاقب مخالفيها. ومن المعلوم أن الأمير عبد القادر لم يحد عن هذه التعاليم قيد أنملة[1].

لكن إصلاح الأمير عبد القادر لم يبق محصورا في الجوانب المادية التي تخص الجيش بل امتد إلى الجوانب الروحية وهذا هو الجانب الأهم حتى يجعل من رجاله رجالا أقوياء يدفعهم إيمانهم إلى التضحية بالنفس والنفيس، هذا علاوة على القوة النفسية التي يبعثها فيهم لتثبيت أقدامهم وزيادتهم صبرا عند المحن وإقداما على الخطر.

---

[1] أحمد ملاح، مرجع سبق ذكره، ص92.

ب. الإصلاح السياسي:

إن النظام السياسي الذي أسسه الأمير عبد القادر في دولته قد أخذ الطابع الإسلامي الأصيل، لأنه تأسس على مبادئ دينية محضة، وتتمثل هذه المبادئ في الطريقة التي أخذ بها الأمير عبد القادر الحكم، وفي الأسلوب الذي مارس به السلطة السياسية. فهو نظام سياسي يضاهي إلى حد بعيد النظم الإسلامية في عهدها الأول.

إن الأمير عبد القادر لم يطالب بتأسيس أي نظام كان لولا الدعوة التي أثارتها الإرادة الشعبية، فالشعب بمبادرة منه وبحثا عن النظام والأمن هو الذي طالب أن يكون على رأسه قائدا يقوده إلى الجهاد وقد أخذ هذا الطلب شكل الإلحاح والإصرار، لأن الوضع السياسي والعسكري زيادة على الفوضى التي تبعت الاحتلال جعلت الشعب في أشد الحاجة إلى شخص ينظم المقاومة[1].

وقد وقع اختيار الجماعة على الحاج محي الدين أب الأمير عبد القادر، إلا أنه اعتذر لعدم قدرته، على القيادة وتنازل لصالح ولده، فتحول الاختيار عندئذ إلى هذا الشاب الذي يقول عنه صاحب التحفة "...ذا حزم وعزم وشجاعة وعقل سليم، وذات سليمة، صالحا لتنفيذ الأحكام".

بهذه الطريقة تم الاختيار وتمت البيعة الشرعية بالمراسيم الشرعية إذن لا يصح اعتبار المبايعة وسيلة استخدمتها طبقة أو فئة معينة لغرض السيطرة على الحكم والمسلمين، وإنما هي في روحها مبايعة بطريقة إسلامية ونابعة عن الإرادة الشعبية قصد تحقيق المطالب المشروعة، وتمجيد القيم الإسلامية الماضية.

---

[1] أنظر مجلة الثقافة، العدد الخاص، ماي 1983، مقال، ص133.

وبالرغم أنه لم يرغب في السلطة فقد استجاب بكل إخلاص إلى الإرادة الشعبية، وكي تشعر الأمة بروح دينها الحنيف أسس لها مجلسا للشورى يتألف من أخلص أبنائها حتى يكون لها الفصل في القضايا المتعلقة بمصيرها.

ومن المعلوم أن وجود مجلس الشورى في النظام السياسي يتنافى والحكم الفردي لأنه يستبعد مسبقا كل أساليب التنكيل بالإرادة الشعبية، فتأسيس هذا المجلس في نظام الأمير عبد القادر يرمز إلى ضرورة العمل بتعاليم الدين وتعزيز الالتزام بها في عهد كانت فيه الدولة في الأقطار الإسلامية رمز الطغيان والاستبداد وإذا كان هذا المجلس يحتوي على جمع من العلماء فهذا يرمز إلى الأهمية التي أولاها للتشريع حتى يكون الحكم دائما مطابقا للحق، وحرصا على الجدية في التسيير المحكم لشؤون الدولة فإنه كان يختار الشخصيات السياسية والقضائية التي تتوفر فيها شروط المسؤولية، وزيادة على العلم الذي كان له الفضل في اختيار الإنسان، فإنه كان يراعي الأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة بناءا على دعوته القائمة على الزهد والتواضع حتى يجعل من أعوانه وحكامه ناسا تابعين له في الأفعال والأعمال والأحوال.

وأما المساواة في هذا النظام فقد وجدت الأرضية التي تبلورت عليها لأن هذا المبدأ انطلق من الحق لكونه مستوحى من الشريعة الإسلامية وعلى أساس هذه القاعدة لم يخش الأمير عبد القادر أي قوة أخرى ماعدا الله في تنفيذ القوانين، وخير ما بدأ به في هذا المجال هو القضاء على مخلفات الأتراك ومنها الامتيازات الطبقية التي كانت تحظى بها الأقلية من الكراغلة ورجال المخزن، كما حاول القضاء على العقلية السائدة المتمثلة في الاعتقادات في النسب والسلالات فقد عامل كل فئات المجتمع – رغم اختلاف انتمائها – على قدم المساواة وقد أعطى الأمير عبد القادر لهذا المبدأ معناه الواسع حيث فتح المجال للمواهب والطاقات دون مراعاة النسب وما مضى من سوابق[1]، فالحاج محمد بن العريبي قد حظي

---

[1] أنظر مجلة الثقافة، العدد الخاص، ماي 1983، ص133.

بمنصب خليفة في منطقة الشلف. وهذا رغم انتمائه إلى قبائل المخزن، فالمساواة في هذا النظام لم تراع الجاه ولا المال ولا الأصل، فهي مساواة تذكرنا بالعهد الأول للإسلام حيث لا حسب ولا نسب إلا بالتقوى والعمل الصالح.

إن الأمير عبد القادر كرجل متصوف ومتشبع بروح دينية عالية لم يكتف في حكمه بالقانون – كأمر ونهي لتحقيق المساواة، لكنه عمل على غرس هذه الروح المتواضعة والشاعرة بضعفها حتى تدرك الأذهان هذا الواقع وتعمل على بلورته، وقد تمكن من تلقين هذا المفهوم بإعطاء المثل في التواضع والورع بالعمل جنبا إلى جنب مع الرعية، والسهر ليلا، والجوع، والصبر عند الأذى وتقديم حق الآخرين قبل حقه، والمخاطرة بنفسه مع رفاق الجهاد، فالأمير عبد القادر جعل من المساواة روحا عالية تفوق القانون وتجعل الإنسان يشعر من تلقاء نفسه بالتواضع والخشوع وبالتالي التشبع بروح التصوف.

ج. الإصلاح الاجتماعي:

وقد اعتمد الأمير عبد القادر في إصلاحه على أسلوب في المعاملة يدعو إلى شيء من التأمل لأنه من جهة يستعمل الفصاحة والدهاء وصواب الرأي لحمل خصومه على طريق الهدى، ومن جهة أخرى فإنه يستعمل العنف وقوة البطش في حالة وجود التعنت والعصيان، فأسلوبه إذن يقوم على قوتين قوة راهبة تثير الخوف في صفوف الأعداء، وقوة رغبة تثير المحبة والتعاطف يقول الأمير محمد: "...ومن العجيب أن تمكن إمارته كان بقوتين، قوة رغبة وقوة رهبة"[1].

إلا أن القوة الأولى كانت هي المعول عليها. ولاشك في القول أن هذا الأسلوب الحذق قد استعمله محمد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في دعوته الإسلامية. فالأمير عبد

[1] محمد بن الأمير عبد القادر، **تحفة الزائر**، ج1، ص22.

القادر استعمل كثيرا أسلوب الرغبة كما يقول صاحب التحفة، وهي قوة تقوم أساسا على الوعظ والإرشاد من جهة والتحذير والإنذار من جهة أخرى(1).

وقد حارب الأمير عبد القادر بقواه المادية والروحية ظاهرتين كبيرتين هما: التعصب القبلي والتماس الحماية الاستعمارية الأمر الذي كان يعتبر خيانة كبيرة خاصة في زمان الحرب، ومن المعلوم أن ظواهر كهذه لا يمكن القضاء عليها بالوعظ والإرشاد، لأن أصحابها أصروا على التمرد والعصيان، ولذلك أوجبت الشريعة الإسلامية استعمال العنف إزاءهم فمن ساعد العدو بأمواله فقدها، ومن ساعده بذراعيه أعدم، تلك هي الأحكام التي أشرف عليها الأمير عبد القادر، وحرص على تنفيذها شخصيا.

وأما إذا وجد الأمير عبد القادر نفسه أمام قضية لا يعرف أي موقف يأخذه إزاءها، فإنه لا يجرؤ على الإقدام عليها رغم قوة سلطانه خشية الوقوع في أخطاء لا ترتضيها الشريعة الإسلامية. ولهذا السبب كان يستشير علماء وفقهاء في الأقطار الإسلامية يطلب منهم توضيحات وأجوبة مفصلة حول قضايا ومسائل مهمة، ولنا في هذا الباب رسالة بعثها إلى السيد عبد الهادي العلوي الحسني قاضي قضاة فاس ونصها كالآتي: "...أجيبوا أدام الله وجودكم، جوابا يشفي المرضى، ويأتي على الغرض محيطا بالتفاصيل والجمل، مبينا لنا ما يكون به العمل مع ملاحظتكم زماننا ووطننا...".

وتضمنت هذه الرسالة مسألة الخوارج الإباضية، ومسألة نسائهم وكيفية معاملتهن، كما تضمنت مسألة أبناءهم إن كانت تسبى أم لا، ومسألة الدفاع إن كان بالأبدان أن بالأموال أو بواحدة منهما وتدل هذه الرسالة وما تحتويه من مسائل غامضة على تبصرة للوضع من جهة، وعلى تواضعه في المعرفة بالاعتماد على آراء العلماء والفقهاء حتى يكون له الحق في اتخاذ المواقف اللازمة. وأما حصر الإصلاح الاجتماعي في ميدانين متباينين هما العدالة والتعليم، فالعدالة كمؤسسة اجتماعية كان لها الفصل في كل القضايا المتعلقة

---

(1) أحمد ملاح، مرجع سبق ذكره، ص ص.103-104.

بأحوال المجتمع ولهذا فإنها عملت على إصلاح كل الجوانب الفاسدة فيه[1]. أما التعليم فقد تطرقنا إليه في الفصل السابق، لذلك لن نتحدث عنه هنا إلا قليلا، فباعتباره مؤسسة فإنه ساعد على إيصال وتبليغ الرسالة الإصلاحية سواء كان ذلك في المدى البعيد أو في المدى القريب.

أولا – العدالة:

بدأ الأمير عبد القادر إصلاحه الاجتماعي بالقضاء على كل مخلفات الأتراك بتأسيس عدالة اجتماعية قوامها الدين الحنيف والقوانين الشرعية السليمة، وكان الغرض من هذه العدالة استعادة الروح الأصيلة التي فقدتها مدة طويلة، وتصحيح بنفس الكيفية الأساليب الجائرة التي مارستها الأتراك، فلذلك لم تكن هذه العدالة مرتبطة بأي اعتبار كان لأنها كانت تنطبق على الجميع بنفس الدرجة والشدة.

يقول الأمير محمد "...كان الأمير محافظا على إقامة الحق، ناشرا لواء العدل على عموم الرعايا، يجرى القصاص الشرعي والسياسي على أصحاب الجنايات بما يستحقونه..."[2].

فالعدالة التي أسسها الأمير عبد القادر لم تخضع لسلطة أخرى غير سلطة الله. فلم تمثل فئة أو طبقة معينة حتى تتخذها ذريعة للجور لأنها كانت تحت الرقابة الشعبية، وأما الأمير عبد القادر نظرا لانضباطه وخشوعه فقد ظل يقول: "...لم أكن سوى منفذا لها.." وقد حرص فعلا على انتشارها في كل مكان وعيّن لهذا الغرض قضاة متنقلين مع رجال الجيش يجرون القصاص الشرعي ويفكون الخلافات الموجودة بين الناس وحتى يتسنى له القضاء نهائيا على كل مظاهر الإثم والإجرام فإنه حمّل كل القبائل مسؤولية الجريمة التي

---

[1] أحمد ملاح، مرجع سبق ذكره، ص ص.105-106.

[2] محمد بن الأمير عبد القادر، **تحفة الزائر**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص220.

ترتكب في منطقتها، وفي حالة العصيان فإن العقاب الشديد يلحق بالقبيلة المذنبة، وقد أصبحت القبائل هي التي تراقب أفرادها حتى لا يرتكبوا إثما.

وإذا كانت هذه العدالة قد امتدت عبر المكان وطبقت على الجميع دون تمييز فإنها امتدت أيضا عبر الزمان حيث أخذت تفصل في قضايا ماضية جرت أيام الفتنة، تبحث في مسائل العدل بكل إنصاف تعاقب المذنب على ما ارتكبه من إثم، وتعيد للمظلوم حقه، يقول الأمير محمد في هذا الفصل: "...وطفق يرد على الناس ما اختلسته بعضهم من بعض وينصفهم مما وقع بينهم من أنواع المظالم والتعديات أيام الفتنة..." [1].

وقد يدلنا هذا المفعول الرجعي للعدالة على هم الأمير عبد القادر على تصحيح وتعويض ما مضى من ظلم وعسف.

لكن أكبر رمز للعدالة خلّد به الأمير عبد القادر اسمه هو إعطاء الأمة الحق في مراقبة تعديات الحكام والخلفاء، وقد قضى بهذا الموقف على سوء التصرف الذي قد ينجم عن المكانة التي يحظى بها الحكام، كما قضى مسبقا على الامتيازات الممكنة التي قد تتسبب في ظهور الظلم، ويتمثل هذا الحق في وجود المنادين في السوق العمومية ينادون أنه لمن كان ضحية للظلم يتقدم بشكواه إلى الأمير[2].

ورغم صرامة الأمير عبد القادر في تنفيذ الأحكام وعلوه عن التعاطف والتآخي في المسائل الشرعية. فإن الناس كانوا يتقبلون أحكامه برضا واطمئنان، يقول الأمير محمد حوله: "...لا تأخذه في ذلك لومة لائم، وكان الناس يتقبلون أحكامه ويتلقونها بانشراح صدر وطيب نفس...".

وبعد أن حارب الأمير عبد القادر كل المظاهر الفاسدة الموجودة في المجتمع، فإنه سارع إلى محاربة المظاهر النفسية الفاحشة سعيا وراء تطهير النفس من الكدورات التي

---

(1) محمد بن الأمير عبد القادر، **تحفة الزائر**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص166.

(2) أنظر مجلة الثقافة، العدد الخاص، ماي 1983، ص237.

تغلبت عليها وكان مراده من وراء ذلك سيطرة العقل على النفس وترفع الإنسان عن غرائزه الوضيعة يقول الأمير عبد القادر مبينا الغرض من وراء ذلك "...أن تنتهي قوة تلك الغريزة... ويقمع الشهوة الداعية إلى تناول اللذة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوة يسمى صاحبها عاقلا..." [1]. وحتى يتوصل إلى هذا الغرض السامي قام الأمير عبد القادر بالإصلاحات النفسية التالية:

- القضاء على الأهواء المختلفة:

منع الأمير عبد القادر لعبة القمار التي رأى فيها قتلا للعزيمة وإيثارا للكسل نظرا لما تجلبه للبعض من أموال دون بذل جهد وعلى حساب الآخرين، ونظرا لما تسببه من بؤس وفقر للبعض الآخر، كما أنها تكون السبب في انحلال العائلة وإهمال الأطفال، زيادة على أنها تعلم الإنسان الجشع والسطو على أملاك الآخرين دون اقتناع، وهذا يزيد بطبيعة الحال من حيوانية الإنسان وتكالبه على الأموال.

منع الأمير عبد القادر الخمر والميسر كي لا يرتبط الإنسان باللغة البدنية ويغالي في الإفراط فيها، فالخمر يمنع الإنسان من الترفع إلى قضايا المعقولات ويبقيه في مستوى الجسمانيات.

كما منع الأمير على رجاله التدخين حتى لا يبق لهم تعلق بالمادة، ويستطيعون بنفسهم مقاومة المغريات والميول، فالانقطاع عن التدخين أو عن أي هوى آخر يروض النفس على التحرر من النزوات التي تقيدها، وهكذا يصبح الإنسان قويا وقادرا على التحكم في نفسه والتصرف في ميولها الخبيثة، فبهذه الطريقة أراد الأمير عبد القادر أن يجعل من الإنسان سيد نفسه وليس رهن الأشياء التي تحيط به.

---

(1) الأمير عبد القادر، **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، مرجع سبق ذكره، ص 50.

أصدر الأمير عبد القادر أوامر بشأن المرأة تمنع كل التصرفات التي تسيء إلى الأخلاق العامة، إلا أنه لم يتوقف عند المنع وحده. بل وجد حلا ملائما لهذا المشكل يتمثل في إلزام المرأة الطائشة على الزواج حتى نجد مراقبا لأفعالها، إلا أن الزواج في حد ذاته لم يكن هو وحده غاية الإصلاح، بل كان الغرض هو البحث عن مجتمع خال من الأمراض التي تمزقه والترقي به نحو القيم الرفيعة المتمثلة في الزهد في كل شيء[1].

وقد أدى هذا الأسلوب إلى تغيير العقلية السائدة والحد من التصرف الشيء والتنازل من الطبيعة الخشنة فترفع الناس بهذه الكيفية إلى روح العدالة، وارتقت بذلك أحوالهم.

ثانيا – التعليم:

إن التعليم أساس الإصلاح ودعامته، ويقول الأمير عبد القادر في كتابه ذكرى العاقل وتنبيه الغافل: "لا شيء أقبح من الإنسان إذا تجرد عن هذه الفضيلة". أي العلم، والعبرة من القول ليس بيان فضل العلم، ولكن إطلاعنا على حقيقة واقعية لاحظها الأمير عبد القادر في مجتمعه، وهي الفوضى العارمة التي سادت الأمة، والتصرفات السيئة التي نجمت عنها، فهذا كله أعطى الصورة الواضحة عن الإنسان الذي يتجرد عن العلم، وحتى يستعيد الإنسان هذا الفضل فإنه أسس التعليم وعزم على إعطائه الفعالية اللازمة لإنجاحه.

لما كان الأمير عبد القادر هو الإنسان المتضلع بالعلم والعارف لمزاياه الحميدة فإنه أنفق من عنده أموالا طائلة وبذل جهودا جهيدة تبين إلى أي مدى كان عازما على تحقيق هذه المهمة الشريفة التي يقول حولها ما يلي "...كان واجبي كحاكم مسلم أن أريد وأبعث العلوم والدين، لذلك فتحت مدارس في المدن وبين القبائل... وكان الأطفال يتعلمون الصلوات ويحفظون تعاليم القرآن... ويعرفون جيدا القراءة والكتابة والحساب...".

---

[1] أحمد ملاح، مرجع سبق ذكره، ص ص.109-110.

وقد عين معلمين وطلبة علم لأداء مهمة التدريس في القرى والمدن حتى يعم التعليم جميع المقاطعات التي تحت سلطته وليست المصاريف الباهظة التي استكلفتها المهمة هي التي تقدر اهتمام الأمير عبد القادر بالتعليم ولكن أسلوب المعاملة الذي أظهره إزاء طلبة العلم هو الذي يوحي بدرجة الاهتمام الذي أولاه لهذا الجهاز، وقد وصل به الأمر إلى الإعفاء عن البعض الذين ارتكبوا إثما لا لسبب آخر غير كونهم طلبة علم[1].

د. الإصلاح الاقتصادي:

إن النظام الاقتصادي الذي أسسه الأمير عبد القادر حقق نجاحا بالغا في تسيير الشؤون الاقتصادية والتجارية للأمة، وأحدث تغييرا في الأذهان والمعتقدات السائدة، حيث أتى بمفهوم جديد وأصيل للحياة الاقتصادية يدعو إلى التجرد عن الذات وبذل الأموال من أجل الصالح العام، وبالتالي تحقيق توازن عادل بين الفرد والجماعة.

ولاشك أن هذا المفهوم لقي صعوبات جمة في النفوذ للأذهان، لأنه يتعارض مع العقلية السائدة التي تنطوي على الأنانية وحب المال، وهذا لكونه دعى إلى موقف اقتصادي لم يكن معهودا عند أمة يتكالب أفرادها على الرزق ويطغى عليهم حب الدنيا.

وقد عالج هذا المفهوم الجديد المسائل الاقتصادية الآتية:

أولا – إلغاء الضرائب اللاشرعية:

إن أول ما بدأ الأمير عبد القادر في إصلاحه الاقتصادي هو القضاء على كل ما خلفه الحكم العثماني من ضرائب مثل اللزمة والغرامة اللتان كانت مفروضتين على أغلبية السكان المحرومين لكون هذه الضرائب لا وجود لها في حكم الشريعة الإسلامية.

---

[1] أحمد ملاح، مرجع سبق ذكره، ص ص.112-113.

يقول الأمير محمد في هذا الموضوع: "...كان يهدم ما كانت الحكومة الجزائرية أسسته من المغارم والضرائب والعوائد..." [1].

وقد احتفظ بضريبتي العشور والزكاة على أساس ان الشريعة الإسلامية أوجبت جبايتها، فالأولى كانت تدفع من المزروعات في موسم الخريف، وأما الثانية من الأنعام بنسب محددة، وأما فيما يخص ضريبتي المعروفة فقد استحدثها الأمير عبد القادر عند استئناف الحرب ضد الفرنسيين، وقد استشار قبل إلزامها علماء من الجزائر والمغرب حتى يتجنب كل أمر اعتباطي في دفعها[2].

ولما كانت هذه الضرائب مباحة شرعا فإنها لم تستثن طرفا إذ ألزمت الجميع على دفعها دون وجود امتيازات، فنظام الأمير عبد القادر أذاب كل الفوارق في جو التعاون والتآزر وإثار الحب والتعاطف في الناس.

ثانيا – تأسيس الخزينة العامة:

لم يكن السبب الحقيقي من تأسيس الخزينة العامة هو تسيير شؤون الدولة والإنفاق على مصاريف الجيش فحسب، لأن الأمير عبد القادر لم يكن غرضه الأخير تغيير الوضع ماديا والوقوف عند هذا الحد، فهذا التغيير الظاهري عنده ليس إصلاحا، وإن كان يبدو في بعض صوره مفيدا فهو في الحقيقة لا يؤد إلى ما كان يبتغيه، إن تأسيس البنية التحتية وحدها مهما كان قوية ومفيدة فهي ليست كافية في تبليغ الرسالة الإصلاحية إذ ينبغي تغيير الأذهان وليس فقط تغيير الأبدان.

لكن الدعوة التي وجهها الأمير عبد القادر إلى الناس والقاضية بضرورة التبرع بالأموال لم يكن لها صدى إلا عند البعض في حين كان البعض الآخر متشددين ومترددين، وأمام هذا الموقف المتشدد على المال والمتستر وراء حجج زائفة لم يعاملهم بعنف، فقد أدرك أن

---

[1] محمد بن الأمير عبد القادر، **تحفة الزائر**، ج1، ص166.

[2] أنظر مجلة الثقافة، العدد الخاص، ماي 1983، ص123.

ما يمنع هؤلاء عن الاستجابة إلى طلبه هو انشغالهم بالدنيا، وصرف نظرهم إليها وهذا لقصور عقولهم عن إدراك المفاهيم العالية التي توجب التضحية بالأموال، والاكتفاء بالقليل، فهذا النوع من الانطواء على الذات، واستيلاء الدنيا على العقول هو الذي جعل الأمير يقول بالمناسبة إن "...قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم فلفساد أمزجتهم ومرض قلوبهم لاشتغالهم بإتباع الشهوات..." [1].

وحتى يقتل فيهم جرثومة هذا الانشغال، ويخفف من حدة التعلق بالدنيا فإنه حث على ضرورة التبرع بالأموال في سبيل الله، وبين أن المال ليس مطلوبا لذاته، بل من أجل العمل به وتسخيره لصالح الخير. وقد بادر هو الأول إلى بيع مجوهرات العائلة في السوق العامة وأعلن أمام الجمهور أن محصولها لصالح الخزينة المالية.

ويمثل هذا السلوك كما يقول أحد الدارسين "...استطاع الأمير أن يقنع أفراد رعيته بالتضحية بأموالهم وأنفسهم وأن يجعل أغلب موظفي دولته يلتزمون بالنزاهة ويقتصدون في الإنفاق..." [2].

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، مرجع سبق ذكره، ص45.

[2] أنظر مجلة الثقافة، العدد الخاص، ماي 1983، ص133.

المبحث الثالث

التصوف عند

الأمير عبد القادر

1- التصوف عند الأمير عبد القادر:

فأهل التصوف والعرفان لم يعرف تصوفهم إلا من خلال أحوالهم ومجاهداتهم التي عاشوها، ومرجعهم في الأخير إلى أن التصوف صدق التوجه إلى الله تعالى بما يرضاه، ومن بين هؤلاء المتصوفة الأمير عبد القادر الجزائري الذي اعتبر التصوف جهاد للنفس في كثير من نصوصه ومواقفه الصوفية التي توحي بذلك[1]، من بينها شرحه لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ سورة الحجرات الآية 15، فهذه الآية تحث على المجاهدة والرياضة، ولا تغني السالك مجاهدة نفسه بغير إخراج المال والزائد في أنواع المجاهدات والرياضات... وأنفسهم أي جاهدوا مستعينين بأنفسهم، فإن النفس مطية السالك في سيره إلى الله تعالى، ولولا وجود النفس ما سار سائر إلى حضرة الحق ولا وصل إليها، فهي الحجاب على العبد، ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ**﴾ هي موصلة إلى ربه، وكذلك عند شرحه لـ: "الآية 190 من سورة البقرة" الأمر بجهاد النفس هو على وجه مخصوص، وحد محدود، ووقت معين، وهو أن لا يكون إلا في سبيل الله، أي لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية"[2]. وفي شرحه كذلك لـ: قوله صلى الله عليه وسلم: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر" يريد الرسول صلى الله عليه وسلم بالجهاد الأصغر جهاد الكفار، وبالجهاد الأكبر جهاد النفس بالتزكية والتخلية والتحلية... فجهاد النفس أكبر لكونه شرطا في صحة جهاد العدو الأكبر... وجهاد العدو الكافر لا يكون خالصا مخلصا من الشوائب المفسدة والحظوظ وإلا فلا يخلص الجهاد... والجهاد الأكبر هو جهاد مخصوص بقوم مخصوصين، اهتدوا

---

(1) فضيلة بلدي عثمان، "**المنهج الصوفي عند كل من النفري والأمير عبد القادر**"، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، 2006-2007، ص134.

(2) الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف**، حققه عبد الباقي مفتاح، ج1، ط1، دار الهدى، الجزائر، 2005، ص ص.203-204.

بأنواع الهداية[1]... والجهاد الأكبر هو جهاد النفس والهوى بإتيان المأمورات واجتناب المنهيات وارتكاب مشاق الرياضات والمجاهدات[2].

ويوجه الأمير عبد القادر تحذيره إلى الصوفي الذي يجاهد من أجل الحظوظ النفسية، وهذا ما صرح به في الموقف 71 حيث قال: "...الأمر بجهاد النفس وقتالها هو على وجه مخصوص... وهو إن لا يكون إلا في سبيل الله، أي لأجل معرفة الله... لا لشيء آخر من غير سبيل الله، كمن يجاهد نفسه بالرياضات الشاقة لأجل طلب جاه عند الملوك، أو لصرف وجوه العامة، أو حصول غنى أو نحو ذلك من الحظوظ النفسية[3].

ويوجه تحذيره كذلك إلى الذين تكون عباداتهم "مشوبة بأغراض نفسية، وحظوظ شهوانية، وأقول تبعا للمحققين من أهل الله تعالى أن كل من عبد الله تعالى خوفا من النار أو طلبا للجنة أو ذكر الله تعالى لتوسعه رزق مثلا... فهذه كلها عبادة معلولة ليس عند الله مقبولة إلا بالفضل والمنة"[4]، فالصوفي هو الذي "...صفت روحه ونفسه، وتزكت بإتباع الكتاب والسنة ظاهرا وباطنا، واستعملت الرياضة والمجاهدة للوصول إلى الهداية"[5].

إذن التصوف عند الأمير عبد القادر جهاد النفس في سبيل معرفة الله تعالى عن طريق الرياضات الشاقة والعبادات الخالصة والحضور الدائم مع الله وهو أول من جمع بين الجهاد والتصوف، وهذا ما ظهر في مراحل حياته التي ذكرناها سابقا، وقال محمد كامل حسن المحامي: "يجمع الأمير عبد القادر بين شطري التصوف الإسلامي، جهاد أعداء

---

(1) الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف، ج1، مرجع سبق ذكره، ص ص.209-210.

(2) نفسه، ص270.

(3) نفسه، ص206.

(4) نفسه، ص112.

(5) نفسه، ص288.

الوطن والسلام، وجهاد النفس الأمارة بالسوء"[1]. وحول ذلك يقول د. محمد الطاهر: "الأمير أول من جمع بين الجهاد والتصوف في الجزائر، فتصوفه تصوف جهاد"[2].

وعن الصوفية يقول: "...هم سادات طوائف المسلمين..." [3] اعتبر الأمير عبد القادر حسب هذا القول الصوفية أهل التصوف والعرفان سادات طوائف المسلمين، فهم أحسن الطوائف التي ظهرت على وجه الأرض من المسلمين سواء المتكلمين أو الفلاسفة[4].

ونجد الأمير قد أطلق على المتصوفة ألقابا عديدة منها:

- أهل الله وهذا يظهر في كثير من مواقفه منها في الموقف 45 حيث قال: "...المحققين من أهل الله"[5]. وقوله كذلك في الموقف 159: "...حملة القرآن أهل الله... فأهل الله كانت لهم حضرة الذات والصفات"[6].
- العارفين بالله في قوله: "...أحوال العارفين بالله"[7]، وقوله: "...من أجل الأذكار عند العارفين بالله"[8]. وقوله كذلك: "ترى العارفين بالله بطريق السلوك"[9].
- أهل القرآن في قوله: "فتسمى أهل القرآن بأهل الحقيقة والصوفية والفقراء..." [10].

---

[1] محمد كامل حسن المحامي، **عظماء الإسلام – الأمير عبد القادر الجزائري**، ط3، المكتب العالمي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1980، ص81.

[2] محمد الطاهر، "تصوف الأمير عبد القادر ثورة جهاد"، **مجلة المجلس الإسلامي الأعلى**، العدد الأول، الجزائر، 1998، ص186.

[3] الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص489.

[4] فضيلة بلدي عثمان، مرجع سبق ذكره، ص136.

[5] الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص167.

[6] نفسه، ص395.

[7] نفسه، ص111.

[8] نفسه، ص155.

[9] نفسه، ص162.

[10] نفسه، ص396.

• ولقبهم كذلك بأهل الكشف والوجود حيث قال: "...ونحن لا نعتبر إلا كلام أهل الكشف والوجود"[1]، وقوله: "...فأهل الله... أهل الكشف والوجود..." [2].

• أهل الوجود والشهود، وهذا يظهر في الموقف 77 حيث قال: "...أهل الوجود والشهود..." [3].

وعن علم التصوف يقول: "...مطلب علم التصوف هو ما لا يقف التحقيق عند مسألة من مسائله، بمعنى أن الطالب لمسألة من مسائله إذا حققها يجعله ذلك التحقق مستعدا لما وراءها فإذا تحقق بما استعد له، مما وراء تلك المسألة استعد كذلك، وهكذا فلا نهاية لمسائل التصوف ومطالبه، دون الذات البحت الغيب المطلق، وهناك منتهى العبارات ومنقطع الإشارات وبحر الظلمات"[4].

فيرى الأمير عبد القادر أن علم التصوف هو مطلب لا يحتاج إلى التحقيق، ولا نهاية لمسائله ومطالبه، لأنه بحر يجد فيه الطالب كل ما يحتاجه من معارف حول الذات البحت والغيب المطلق، وهذه المعارف تكون حسب استعدادات الطالب، واعتبره الأمير عبد القادر كذلك لب العلوم، وهذا في قصيدة له نقتطف منها هذا البيت:

عندي من العلم لبه وجوهره

والناس أعينهم ترنوا إلى الصدق[5]

هذا مفهوم التصوف العملي والجهادي عند الأمير عبد القادر، إذ ليس التصوف عنده تواكلا وتكاسلا وتخاذلا، بل التصوف عنده مرابطة وجهاد في سبيل الله تعالى، الذي أساسه الكتاب العزيز والسنة المطهرة.

---

(1) الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص624.

(2) الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج2، ص282.

(3) الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج1، ص215.

(4) نفسه، ص313.

(5) نفس المرجع، ص244.

أول ما يلفت انتباه القارئ في كتاب الأمير عبد القادر "المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف "كثرة الآيات القرآنية التي وردت فيه، فما من موقف من مواقفه الصوفية إلا ويستظهر آية وآيات حتى العشر آيات وأكثر في الموقف الواحد، وما من صفحة من صفحاته إلا ويستظهر آية وآيات، وهكذا حتى استظهر جميع القرآن الكريم في كتابه وهذا ما أكد لنا في الموقف الأول من مواقفه حيث قال: "...هذه الآية تلقيتها تلقيا غيبيا روحانيا، فإن الله تعالى قد عودني أنه مهما أراد أن يأمرني، أو ينهاني أو يبشرني أو يحذرني أو يعلمني علما، أو يفتيني في أمر استفتيته فيه، إلا ويأخذني مني مع بقاء الرسم ثم يلقي إلي ما أراد بإشارة آية كريمة من القرآن، ثم يردني إلي، فأرجع قرير العين ملآن اليدين، ثم يلهمني ما أراد بالآية، وأتلقى الآية من غير حرف ولا صوت ولا جهة، وقد تلقيت والمنة لله تعالى، نحو النصف من القرآن بهذا الطريق، وأرجو من كرم الله تعالى أن لا أموت حتى أستظهر القرآن... فأنا بفضل الله محفوظ الوارد، في المصادر والموارد، ليس للشيطان علي سلطان إذ كلام الله تعالى لا يأتي به شيطان وكل آية تكلمت عليها إنما تلقيتها بهذا الطريق إلا ما ندر"[1].

وقد حقق الله تعالى رجاءه واستظهر القرآن كله، وتلقاه من الغيب وفسره تفسير إشاري، هذا النوع من التفسير الذي يقوم به المتصوفة خاصة[2]، مثال ذلك قوله في الموقف 13: "...أخذني الحق تعالى عن نفسي، وعن العالم، ثم ردني بعد أن ألقى إلي قوله تعالى ﴿**الْآَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ**﴾البقرة الآية 71[3]، وقوله في الموقف 18: "...توجهت للذكر فأخذني الحق عن نفسي ثم ألقى إلي قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا مِنَ المَثَانِي وَالقُرْآنْ العَظِيمْ (87) لاَ تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾

---

(1) الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص105.

(2) فضيلة بلدي عثمان، مرجع سبق ذكره، ص138.

(3) الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج1، ص124.

الحجر 87-88[1]، وقوله في الموقف 28: قال تعالى: ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي...**﴾ الكهف الآية 109... وعندي من باب الإشارة أن المراد بالكلمات..." [2]، وقوله في الموقف 95: "قال تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ**﴾ البقرة الآية 158، المعنى بطريق الإشارة"[3] وغيرها من الأمثلة التي تبين كيفية تلقي الأمير للقرآن الكريم ونوع تفسيره، وهذا ما يدل على معرفة الأمير الكاملة للقرآن الكريم واستيعابه إلى ما تهدف إليه الآية وإلمامه الكبير بعلم التفسير[4].

وإلى جوار الآيات القرآنية، استعمل الأمير عبد القادر الأحاديث النبوية، التي قام بشرحها بطريق الإشارة منها على سبيل المثال لا الحصر، قوله في الموقف 80: "ورد في الصحيح "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية" يريد عليه الصلاة والسلام بطريق الإشارة أنه..." [5] وقوله في الموقف 360: "وفي الصحيح "أن القرآن أنزل على سبعة أحرف" والمراد من الأحرف هنا على طريق الإشارة..." وهذا ما يدل على إلمامه الكبير بعلم الحديث.

وتصوف الامير عبد القادر هو تصوف جهاد في الجزائر وفي السجن بفرنسا وفي المنفى بالمشرق العربي كما يقول الأستاذ محمد الطاهر عزوي[6] في المداخلة التي تقدم بها في الملتقى الحياة الروحية للأمير عبد القادر حيث تقدم برجاء للجهة المنظمة قائلا: "نرجو ألا ينحصر البحث في لباس الصوف والتصوف وإظهار الزهد والتفرغ للعبادة من

---

[1]الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره ، ص133.

[2] نفس المرجع، ص146.

[3] نفسه، ص259.

[4] فضيلة بلدي عثمان، مرجع سبق ذكره، ص139.

[5] الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج1، ص218.

[6] محمد الطاهر عزوي، "تصوف الأمير عبد القادر تصوف جهاد في الجزائر وفي السجن بفرنسا وفي المنفى بالمشرق العربي"، **ملتقى الحياة الروحية للأمير عبد القادر**، مؤسسة الأمير عبد القادر، جامعة الجزائر، 29 يونيو-01 يوليو 1998، ص ص.87-88.

أجل العبادة كالرهبة التي تعتزل في الدير دون المشاركة في الحياة العملية بالتأثير والتأثر. ومن هنا فإن الأمير عبد القادر ليس متصوفا من هذا النوع، وهو أول من جمع بين الجهاد والتصوف في الجزائر وفي السجن وفي المنفى". فحسبه يتضح ذلك من دراسة مراحل حياته وعبر كتاباته ولقاءاته ومواقفه ودفاعه في غير من مرة عن المظلومين بدون تمييز، ويرجع الفضل في هذا إلى تكوينه الأول على المثل القائل: "التعليم في الصغر كالنقش في الحجر" ويلاحظ من بعض الدراسات، وما أكثرها بأن التصوف هو عنوان الاعتزال عن الحياة، وهو ما تتصف به بعض الشخصيات وبعض الزوايا أو شخصيات القرون الخوالي منذ ظهور التصوف في القرن الثاني الهجري. وتقريبا استمر هذا المفهوم لغاية ما قيض الله أن يظهر رجل في الجزائر في القرن 13هـ/ القرن 19م يغير المفهوم والمصطلح ويرجع ممارسته إلى عهد الخلفاء الراشدين الخمسة.

ولذا يقول الأستاذ محمد الطاهر عزوي نؤكد على أن يدرس تصوف الأمير عبد القادر في هذا الإطار، ولا يمكن أن يفصل عن ذلك لأن مواقفه في الإحسان إلى الأسرى ومواقفه في رفض البقاء في فرنسا، ومعاونته في إطعام الفقراء ببروسة ومواقفه في الدفاع عن المسيحيين في جبل لبنان ودمشق، يدل على أن الرجل ليس من طينة عهود الانحطاط، وإنما من عهود السلف الصالح. وشهرته التي طبقت الآفاق جاءت نتيجة لما يمتاز به من العبقرية في جميع المجالات. والفضل في هذا الشأن ما شهد به الأعداء.

أ. تصوف الأمير عبد القادر كان من تصوف البيئة:

نشأ في بيت يختلف عليه العلماء، توجد فيه مكتبة عظيمة، حفظ فيها القرآن والحديث، وقد تتلمذ في القيطنة على علماء وربته أم تتمتع بالتقوى والشخصية وبإطعام الفقراء والمساكين وبالعطف على المظلومين. ولما كبر أكمل تعليمه في وهران بتوجيه من أبيه. ومن ثم تكونت لديه ملكة الميل إلى التصوف كما كان يشير بذلك في مؤلفاته وكما يقال ابن عادته، وازداد تأثرا بذلك لما زار المشرق العربي مع أبيه لأداء فريضة الحج، حيث

اتصل بالعلماء وزار أضرحة الأولياء وبالأخص في بغداد، وكان يتولى خدمة أبيه بنفسه. وتأثيره بالتصوف جعله يربط بين الشريعة والجهاد. وكان يشرف على زاوية القيطنة بعد موت جده مصطفى وأبيه محي الدين الذي توفي في 1250هـ/1833م.

ب. الجمع بين التصوف والجهاد والسياسة منذ بويع أميرًا:

يستشف بعد الجمع بين التصوف والجهاد والسياسة منذ أن بويع أميرا سواء ف يالبيعة الأولى في رجب 1248هـ،/27 نوفمبر 1832م، أو في البيعة الثانية في 13 رمضان 1248هـ/4 فيفري 1833م، ويستخلص هذا من صك البيعة الأولى ومن تخير زوجته بالرضا بما يشغله عنها. ومن الأوامر التي أصدرها بعد البيعة الثانية إلى سائر القبائل العربية والبربرية، لأنه تأثر بمسار التاريخ الإسلامي منذ بيعة عمر لأبي بكر الصديق في سقيفة بني ساعدة، ويلاحظ عليه بأنه أشرب القرآن والحديث، وفاق كل الحكام والرؤساء في الجمع بين التصوف وتطبيق الشريعة.

وكان قائدا حربيا في جهاده وكان شعبيا في تصرفاته، وشهد له الأعداء بالعدل، وكان يبني تصوفه على العلم والكتاب والسنة والتربية والأخلاق حتى أنه انتشر العلم في عهده. وكان يشجع على حفظ الكتب وتحتوي زمالته على أكبر مكتبة وهو ما لم يقم به أي رئيس أو حاكم أو ملك على تشجيع العلم حتى في مرحلة الجهاد والحرب وهي ميزة يمتاز بها الأمير عبد القادر إذا ما قورن بهم[1].

ولما سقطت زمالته في أيدي الفرنسيين في 16 ربيع الثاني 1259هـ الموافق لـ 15 ماي 1843م شجع خلفاؤه وقادته بكلمات: "والآن صرنا أحرارًا متجردين لا شغل لنا إلا مقارعة الأعداء ومصارعتهم". وكان يمنع الشعب من معاقرة الخمور ويحث على الصلاة في المساجد وفي أوقاتها ويعتبر قدوة لشعبه في كل شيء.

---

[1] محمد الطاهر عزوي، مرجع سبق ذكره، ص ص.89-90.

ج. الخيانة والغدر لم يؤثرا في تصوف الأمير عبد القادر:

رغم الخيانة التي وقعت له من الداخل ورغم الحصار الذي ضرب عليه من الخارج، ورغم استسلامه للعدو بسبب ذلك فإنه بقي متمسكا بدينه إلى الرمق الأخير من حياته، وقد انتصر بفكره التصوفي في مراسلاته وفي سجنه وفي منفاه وفي إنتاجه الفكري على الدوام، فلم يثنه ما تعرض له من المحن.

وأحسن ما نرد به على الذين يحاولون تشويهه والاستنقاص من قيمته هو ما كتبه قدور بن الرويلة كاتبه الخاص: "إن الحاج عبد القادر زهيد في دنياه، لا يتعلق بحطامها، وهو يجد نفسه في الابتعاد عن ذلك. وطعامه عادي وبسيط، ولباسه كذلك، يقوم الليل مصليا مسبحا، ولا أفضل عنده من الصلاة والصيام، تحاشيا للتردي في كل خطيئة، يخاف الله، طيب مع الجميع، لا يريد أن يتكبر على عباد الله، إنه نبيل يتحاشى إظهار ذلك، إنه أمين ولا يريد أن يأخذ شيئا من أموال الدولة، يحكم بالعدل والقسطاس، ينصف أبسط المسلمين، لا يغادر المسجد إلا نادرًا ولا يشرب ولا يأكل ولا يلبس إلا ما أمرت به شريعته، عدالته لينة وصارمة في نفس الوقت وأحكامه مطابقة لما جاء في الشرائع السماوية، لا يتسامح مع من يرتكب غلطة خطيرة، ولا يتورع عن معاقبة ابنه، والقصاص لو اقترف ذلك، يكره من يتبع الطريق المستقيم، ولكنه يحب الإنسان المتدين والذي لا يؤذي أحدا، وهو يستنكر ويتخلى عن أقرب أفراد عائلته إن ارتكب ما حرم الله".

وكان يلقب عند المؤرخين الأوربيين بالإمام العسكري أو الفارس المتصوف، وكان شعاره العلم والعمل والإيمان. وقد غدرت به فرنسا وعوض أن تذهب به إلى المشرق العربي، ذهبت به إلى سجون فرنسا بحاشيته يوم 23 ديسمبر 1847م الموافق 1264هـ[1]، ومع ذلك لم يستسلم وتفرغ للعبادة والكتابة والتدريس، وخيرته فرنسا على أن يبقى فيها، ولكنه رفض رفضا باتا. بقي الأمير متصوفا حتى في منفاه وإلى وفاته كان يزوره العلماء ورجال

---

(1) محمد الطاهر عزوي، مرجع سبق ذكره، ص92.

الدين من مختلف الديانات والمذاهب وكبار الضباط الذين كانوا أسرى عنده أثناء الجهاد في السجن وحينما أطلق سراحه في عهد نابليون الثالث. وفي 21 ديسمبر 1852 ذهب إلى بروسة جنوب البحر الأسود، ومكث فيها ثلاث سنوات، ختن فيها أولاده وأطعم فقراءها وأنفق على من لحق به من الجزائريين ثم انتقل إلى دمشق بعد ثلاث سنوات بسبب الزلزال في 5 ربيع الثاني سنة 1272هـ، وقد استقبل فيها استقبال العظماء.

ولما استقر بها زار المآثر الإسلامية وقبور الأنبياء في الشام، وتحركت في نفس الأمير الحمية الإسلامية فتدخل لتحرير الإمام شميل في القفاز واسترجع دار الحديث الأشرفية وأوقفها على الشيخ يوسف، وكان ملتزما بالتصوف، واشترى دورا وبساتين أنفق ربعها على الفقراء والمساكين، وأطفأ الفتنة بين المسلمين والمسيحيين في جبل لبنان ودمشق سنة 1860م. وبذلك أصبح محل احترام الجميع من طرف المسلمين والمسيحيين والرؤساء والملوك من مختلف دول العالم.

وكان لا ينقطع عن التدوين سواء في السجن بفرنسا أو في بروسة أو في دمشق. وقد ألف كتباً نذكر منها:

1- ذكرى العاقل وتنبيه الغافل في 1855م.

2- المواقف يتكون هذا المخطوط من ثلاثة أجزاء.

3- المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد وقد ألفه في السجن بأمبواز بفرنسا.

4- وترك ديوان شعر جمعه والده محمد وحققه ممدوح حقي بدمشق سنة 1960م[1].

---

[1] محمد الطاهر عزوي، مرجع سبق ذكره، ص ص.93-94.

إذن جعل الأمير عبد القادر الجزائري القرآن الكريم الأصل الأول والمصدر الأساسي في التصوف الإسلامي، وجعل كذلك الحديث النبوي الشريف الأصل الثاني في كتابه أو في معرفته الصوفية.

2- كتاب المواقف للأمير عبد القادر:

كتاب "المواقف" الذي ألفه الأمير خلال مقامه بدمشق، فإنه ثمرة نشاط الأمير التعليمي بها، إذ أنه عبارة عن أحاديث دينية، تنحصر في شرح آية قرآنية أو حديث نبوي، في مختلف المسائل الدينية، من اعتقادية وفقهية وأخلاقية وغير ذلك، يخصص لكل مسألة موقف من المواقف. وتختلف المواقف باختلاف المسائل المطروحة. ويمكن القول أن الطابع الصوفي يغلب، في معظم الأحيان، على ما يثبته الأمير من شرح وتأويل وتعليق[1]، وهو يتألف من 372 موقفا.

ومن الموضوعات التي طرقها الأمير في المواقف، والتي قد تساعدنا على المزيد من التعرف على آرائه وتصور شخصيته، موضوع الجهاد، الذي عالجه عندما شرح الحديث النبوي: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"[2]، وفيه يقول:

"يريد صلى الله عليه وسلم بالجهاد الأصغر جهاد الكفار بالأبيض والأسمر، وبالجهاد الأكبر جهاد النفس بالتزكية والتخلية والتحلية، وإنما سمى عليه السلام جهاد الكفار بالأصغر، مع أن فيه إهلاك النفس، وتفويت الحياة الحاضرة رأسا، إذ الغالب على من انغمس في العدو، ورمى نفسه بينهم، الموت، إلا القليل النادر. ولذا ما عرف بالشجاعة وذكر بالإقدام، مع كثرة المقاتلين، إلا القليل، وإنما سمى عليه الصلاة والسلام جهاد النفس

---

(1) عبد الحميد حاجيات، "الأمير عبد القادر وإنتاجه الأدبي"، **مجلة التاريخ**، عدد خاص بالذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر، 1983، ص92.

(2) الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص.144-146.

بالأكبر، مع أن الغالب فيه عدم تفويت الحياة الحاضرة بالموت، وإنما فيه تفويت راحة وشهوات، وتهذيب أخلاق، وتبديل أحوال ذميمة بأخلاق جميلة.

فإما أن يكون ذلك لكون جهاد العدو الكافر لا يكون خالصا مخلصا من الشوائب المفسدة والحظوظ المبعدة إلا بجهاد النفس وتهذيبها وتزكيتها. فلا يخلص جهاد المجاهد، بل ولا عمل من الأعمال الصالحة ما دامت النفس حية متلطخة بالخبائث، فجهاد النفس أكبر لكونه شرطا في صحة جهاد العدو الأكبر، والشرط مقدم، فهو أكبر من المشروط، لأن قبوله وصحته بوجوده مربوط.

وإما أن يكون عليه الصلاة والسلام سمى جهاد العدو الكافر أصغر باعتبار مقتحميه الخائضين فيه، فإنه ليس كل من قاتل مجاهدا حقيقة، لأن مصابرة العدو تكون من البر والفاجر، بل ومن المنافق والكافر...

وأما جهاد النفس الذي سماه صلى الله عليه وسلم أكبر، فهو جهاد مخصوص بقوم مخصوصين، اهتدوا بأنوار الهداية، وسبقت لهم من الحق العناية، فلا يخوض غمرات هذا الجهاد إلا موفق سعيد، يمشي على الأرض حيا وهو شهيد...". وهناك موضوع آخر ذو أهمية في مجال التعرف على شخصية الأمير، وتفهم بعض المواقف في حياته، وهو موضوع التوكل. وقد طرقه الأمير في شرح قوله تعالى: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾، وقد شرح الأمير هذه الآية الكريمة بقوله:

"أكثر الناس الكلام في التوكل، وأسدها أنه ثقة القلب وحصول الطمأنينة بوصول القسمة الأزلية للعبد بحركة أو سكون، من خير وشر، ونفع وضر، دينا ودنيا وآخرة، قليلا أو كثيرا، مؤقتا محدودا بزمانه ومكانه، وليس هذا إلا من مقام الإيمان بأنه تعالى لا يخلف وعده في قوله: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا...**﴾.

وأما العقل مجردا عن الإيمان فإنه لا يعطي التوكل، بل يجوز أن الله يرزق عبده وأن لا يرزقه، من حيث أنه تعالى لا يجب عليه شيء لأحد. فليس التوكل إلا الثقة والطمأنينة،

لا ترك الأسباب، مع الشك والاضطراب فليس هذا من التوكل المطلوب في شيء، ولو كان ترك السبب والحركة توكلا للزم إذا وضع الخبز بين يدي هذا المتوكل أن لا يتناوله ويرفعه إلى فيه، فإن هذا سبب وحركة لوصول الخبز إلى بطنه. وإذا وضع الخبز في فيه يلزمه أن لا يمضغه ولا يحرك لسانا ولا غيره، فإنها كلها أسباب لوصول الرزق إلى البطن. وما اعتنى القوم رضي الله عنهم بمقام التوكل وعدوه من رؤوس المقامات، وتكلفوا تلك الأسباب إلا ليحصلوا على الثقة وعدم الاضطراب عند فقد الأسباب، وهذه هي الثمرة والنتيجة لما تكلفوه، إذ المقامات لا فائدة في أعيانها، وإنما الفائدة في ثمراتها، فإذا حصلوا على الثمرة رجعوا إلى استعمال الأسباب العادية والحركات المعهودة لحصول ما يطلبون، كسائر الناس، فطلبوا وأجملوا في الطلب، فإذا لم يحصل المطلوب، قالوا: لو شاء الله لكان...".

اعتبر الأمير عبد القادر الخبرة الصوفية غير المناقضة لما حوته النصوص القرآنية والأحاديث النبوية من مصادر مواقفه الصوفية الإسلامية، فيرى أن كل ما تقوله الطائفة العلية له دليل من الكتاب والسنة فطريقتهم مؤسسة على الكتاب والسنة، ويوصي بمحبة هذه الطائفة وعدم معارضتها، فتصديقها ومحبتها عنوان السعادة والأعراض عنها عنوان الشقاوة[1]، ولهذا يكثر النقل عن أصحاب الذوق المتصوفة في كتابه، ومن أبرز الشخصيات الصوفية التي استشهد بأقوالهم وأحوالهم:

أ. سيد الطائفة الجنيد:

الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزار، أبو القاسم، صوفي من العلماء بالدين، مولده ومنشأه ووفاته ببغداد سنة 910م، وعده العلماء شيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة المطهرة، وله كتاب "دواء الأرواح"، اعتمد عليه الأمير في كثير من مواقفه منها الموقف 17 حيث قال: "سئل سيد الطائفة الجنيد رضي الله عنه عن العارف

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص532.

والمعرفة فأشار الجنيد رضي الله عنه إلى أن العارف..." [1] وقام الأمير بشرح قول الجنيد في ذلك.

ب. محي الدين بن عربي الحاتمي:

هو محي الدين بن عربي محمد بن علي بن أحمد بن عبد الله الحاتمي، من ولد عبد الله بن حاتم أبي عدي بن حاتم، الصوفي الفقيه المشهور الظاهري، ولد في الأندلس يوم الاثنين سابع عشر رمضان سنة 650هـ، انتقل من مرسيه وأقام في إشبيلية سنة 568هـ وبعدها ارتحل إلى المشرق ودخل مصر وأقام بالحجاز مدة ودخل بغداد والموصل، وتوفي رحمه الله سنة 638هـ، ليلة الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر ودفن بسفح قاسيون، وله تصانيف كثيرة منها، الفتوحات المكية، فصوص الحكم، تاج الرسائل ومنهاج الوسائل، الإعلام بإشارات أهل الإلهام ومحاضرة الأبرار ومسامرة الأحيار [2].

كان جل اعتماد الأمير عبد القادر على أقوال المتصوفة على إمام العارفين محي الدين بن عربي، حيث اعتبره شيخه وقدوته وإمامه وخزانته في التصوف، وهذا من خلال مواقفه منها قوله في الموقف 376: "...فأجبته لذلك موضحًا كلام سيدنا رضي الله عنه بكلامه، فإنه خزانتنا التي منها نستفيد ما نكتب إما من روحانيته وإما ما كتبه في الكتب.."[3]. وقوله في الموقف 355: "...أحد أخواتي... أراد مني من حل ألفاظ هذا الفص – فص إسماعيل عليه السلام – بما فتح الله به، فأجبته مستعينا بالله تعالى ومستمدا مما أفاضه علينا سيدنا وشيخنا محي الدين... في حياته وبعد موته، فإنه رضي الله عنه بضاعتنا التي منها نمير أهلنا..." [4]، وفي مواقف أخرى بألفاظ عدة منها: ذكر الشيخ الأكبر، فقال الشيخ

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص532.

[2] الشيخ أحمد المقري التلمساني، **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، ط2، دار صادر، بيروت، 1997، ص ص.161-164.

[3] الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج2، مرجع سبق ذكره، ص544.

[4] نفسه، ص372.

الأكبر، وما نسب لسيدنا الشيخ الأكبر، وهكذا اخبرني ختم الولاية شيخنا محي الدين، وقد ذكر أستاذنا محي الدين، وإليها يشير الشيخ الأكبر، وقد تكلم إمام العارفين محي الدين، قال سيدنا في الفتوحات، ولهذا يشير إمامنا وقدوتنا محي الدين...الخ.

ج. الإمام عمر بن الفارض:

هو أبو حفص وأبو القاسم عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، المعروف بابن الفارض، المنعوت بالشرف، كانت ولادته في الرابع من ذي القعدة سنة ست وسبعين وخمسمائة بالقاهرة، وتوفي بها يوم الثلاثاء الثاني من جمادى الأولى سنة اثنين وثلاثين وستمائة له ديوان شعر لطيف وأسلوبه فني رائق، اعتمد كذلك الأمير في مواقفه الصوفية على الإمام بن الفارض، منها الموقف 315 حيث قال: "يشير الغمام ابن الفارض رضي الله عنه بقوله..." [1].

ويرى الأمير عبد القادر أن ابن الفارض ما كان من كمل الورثة، بشهادته على نفسه، وشهادة غيره من الكمل، وهو من أولياء الله تعالى بلا ريب.

د. أبو الحسن الشاذلي (595هـ-656هـ/1165-1258م):

هو علي أبو الحسن بن عبد الله بن عبد الجبار السيد الشريف من ذرية محمد بن الحسن الشاذلي، زعيم الطائفة الشاذلية، نسبه إلى شاذلة قرية إفريقية، نشأ ببلده، فاستغل بالعلوم الشرعية حتى أتقنها، ثم سلك منهج التصوف، وجد واجتهد، قد الإسكندرية من المغرب، وصار يلازم ثغرها من الفجر إلى المغرب، وينتفع الناس بحديثه الحسن، مات في صحراء عيذاب قاصد الحج، فدفن هناك، وقيل بحميزة من الصعيد، استشهد الأمير عبد القادر كذلك على أبو الحسن الشاذلي في بعض مواقفه الصوفية، منها في الموقف 20 حول الاستقامة على كتاب الله تعالى وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث اعتبراهما

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج2، مرجع سبق ذكره، ص ص.256-257.

أبو الحسن الشاذلي العدلين إذا ورد عليه وارد، وفي الموقف 209 حول المشاهدة التي تصحبها المكالمة، أي مكالمة الله تعالى، وخلال حديث الأمير عن الواجب والممكن استشهد كذلك بقوله حول الأغيار...الخ.

ه. أبي حامد الغزالي:

استشهد الأمير بقول الغزالي أبي حامد في مسألة نسبة الفعل الصادر من العبد إلى الله تعالى أو إلى العبد، التي لا يرفع إشكالها الشرع ولا العقل ولا الكشف، ولكن يرى الأمير رأي الغزالي أنهم والمنة لله تعالى رفع عنهم إشكالها بالكشف[1]، وقام الأمير في موقف آخر من مواقفه الصوفية بشرح قول الغزالي: "ليس في مكان أصلا أحسن ولا أتم ولا أكمل مما كان"[2]. ويرى الأمير عبد القادر أن هذا القول صحيح، وقام بشرحه في موضع آخر عندما طلب منه بعض الإخوان.

3- مقامات السلوك عند الأمير عبد القادر:

يعتبر السير إلى الله تعالى سيرا معنويا في مجالات معنوية فـ "ما ثبت ونسب سير سائر لأنه ليس هناك شيء محسوس يسير فيه السالك حتى يقطعه، وإنما هو سير معنوي في مجالات معنوية، وهي النفوس التي يكون سير السالك فيها، وقطعها كناية عن تبديل صفاتها البهيمة بالصفات الإلهية، ولا يتوهم أن السالك سائر إلى الله في مسافة محسوسة، وأن الوصول إلى الله وصول محسوس، فإن هذا وهم باطل، وجهل عاطل... لا مسافة بينك وبينه تقطعها رحلتك وتطويها وصلتك، فلا يصح إطلاق السير إلى الله تعالى... إلا بنوع من المجاز..." [3].

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج1،مرجع سبق ذكره، ص173.

[2] نفسه، ص517.

[3] نفسه، ص144.

والأمير عبد القادر كغيره من المتصوفة في اعتبار "...النفس مطية السالك في سيره إلى الله تعالى، ونعمت المطية لمن وفقه الله وهداه رشده في سبيل الله، هي طريق الوصول إلى الله تعالى ومعرفته، ولو لا وجود النفس ما سار سائر إلى حضرة الحق ولا وصل إليها، فهي الحجاب على العبد وهي موصلة إلى ربه"[1]. إن كثير من مقامات الأمير وأحواله كانت في غالبيتها الساحقة تطبيقا عمليا للناحية النظرية أو القولية فيه، وهذه ناحية أساسية وجوهرية في هذه القضية، فالأمير لم يعرف المقامات والأحوال، ويتحدث عن كل نوع من أنواعها شأن المؤرخين والمصنفين في تاريخهم وتصانيفهم بل خير المقامات والأحوال، وعانى من تجربته معها، معاناة المجرب، ومارسها في حياته تطبيقا أكثر منه قولا نظريا[2]، وقد تحدث الأمير عبد القادر عن طريقته في السير للوصول إلى معرفة الله تعالى، وهذا في مواقف عدة منها قوله في الموقف رقم 18: "...وكنت ممن رحمه الله تعالى، وعرفه بنفسه وبحقيقة العالم على طريقة الجذبة، لا على طريق السلوك، فإن السالك أول ما يحصل له الكشف عن عالم الحس، ثم عن عالم الخيال، ثم يرتقي بروحه إلى السماء الدنيا... ثم إلى العرش وهذه الطريقة – وإن كانت أعلى وأكمل – ففيها طول على السالك، وخطرها عظيم... وأما عن طريق الجذبة فهي أقصر وأسلم... وصل إلى معرفة الله تعالى من غير سلوك ولا شيء... بل بجذبة إلهية، وعناية رحمانية، وهو المولد الذي عرفوه بأنه المجذوب عن إرادته مع تهيء الأمور له، فجاز الرسوم كلها والمقامات من غير مكابدة"[3].

وقوله في الموقف رقم 185: "...والهجرة إلى الرسول أو وارثه واجبة على الأعيان إلا إذا سبقت للعبد عناية أزلية، وكان من الموادين، ورحمة الله تعالى بجذبة رحمانية، وخطفة ربانية، فعرف نفسه فعرف ربه وتسقط عنه الهجرة..." [4].

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص204.

[2] فضيلة بلدي عثمان، مرجع سبق ذكره، ص144.

[3] الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص ص.132-133.

[4] نفسه، ص438.

وقوله في الموقف رقم 215: "...تارة تتقدم معرفة الخلق على الحق وهي طريقة السالكين، وتارة تتقدم معرفة الحق على الخلق وهي طريقة الاجتباء والجذب طريقة المرادين"، وبتتبع مواقف الأمير الصوفية نجده يصف لنا حالات جذباته كما وقعت له، وبتتبع المراحل التي مرت بها حياة الأمير عبد القادر نجدها حياة جامعة لأنواع المقامات والأحوال الصوفية.

وأهم المقامات التي سلكها الأمير عبد القادر هي:

أ. مقام التوبة:

اعتبر الأمير عبد القادر مقام التوبة "...الأساس لسلوك الطريق، والمفتاح للوصول لمقام التحقيق، فمن أعطيه أعطى الوصول، ومن حرم حرم الوصول... وبعد إحكام مقام التوبة بشرائطه، أطلبوا الوسيلة، وهو الشيخ الكامل بالسنة..." [1].

فالتوبة عند الأمير هي: "...الرجوع الحقيقي، وذلك بالتبرؤ من نسبة الرجوع الذي هو معنى التوبة، إلى العدم ونسبته إلى الوجود، كما هي توبة خاصة الخاصة، أو الرجوع له منه إليه كما هي توبة الخاصة، وماعدا هذين الصنفين فتوبتهم بمعنى رجوعهم تطهير لا رجوع لأنهم ما رجعوا بعد توبة الله تعالى عليه..." [2]، فالتوبة عند الأمير هي الرجوع الحقيقي وغير ذلك فهو تطهير وليس توبة. وأنواع التوبة عند الأمير هي التوبة من المعاصي، التوبة من الطاعات، أي من نسبتها إليها مع فعلها، التوبة من طلب الأعواض والأجور، التوبة من التوبة.

وللتوبة درجات عند الأمير عبد القادر وهي:

1- التائبون من المخالفات، ومن طلب الأعواض على الطاعات ونحوهما، فهم المتطهرون التائبون، وذلك مقام العامة.

---

(1) الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص457.

(2) نفسه، ص554.

2-التائبون العارفون بالله تعالى، الذين توبتهم الرجوع منه إليه تعالى، وذلك مقام الخاصة.

3-التائبون العلماء بالله تعالى، الذين توبتهم الرجوع إليه من رجوعهم، أي من نسبة الرجوع إليهم، إذ لا يرجع إلا موجود حقيقة، ولا موجود لهم، فتوبتهم من دعوى الوجود، وذلك مقام خاصة الخاصة.

ب. مقام التوكل:

التوكل عند الأمير عبد القادر هو: "...ثقة القلب وحصول الطمأنينة بوصول القسمة الأزلية للعبد، بحركة أو سكون، من خير وشر ونفع وضر، دينا ودنيا وآخرة..."

ج. مقام التقوى:

التقوى عند الأمير عبد القادر نوعان: تقوى له، إذ أمر الحق تعالى الناس أن يجعلوا نفوسهم وقاية لربهم.

- تقوى به، أي أن يجعلوا تعالى وقاية لهم.

ومراتب التقوى عند الأمير عبد القادر ثلاثة:

- أن يجعل نفسه وقاية للحق تعالى، فينسب كل صادر منه من خير وشر إلى نفسه، فيفرح بطاعته ويحزن لمعصيته، وهذه مرتبة العباد والزهاد الذين خرجوا من الدنيا وقلوبهم مشحونة بالأغيار، فما برحوا من الشرك الخفي، فإنهم يرضون عن نفوسهم ويثيبونها إذا صدرت منهم الطاعة، ويغضبون عليها ويعاقبونها إذا صدرت منهم المعصية، وما ذلك لشهودهم صدور أفعالهم من نفوسهم.
- أن يجعل الحق تعالى وقاية لنفسه في الخير والشر، فينسب الكل إلى الله تعالى لقوله عز وجل: ﴿**قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا**﴾ النساء

الآية 78، وقوله: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ**﴾ النساء 79، وهذه مرتبة علماء الظاهر أصحاب التوحيد العقلي.

- أن يجعل نفسه وقاية للحق تعالى في الشر، فينسبه لنفسه أدبا وتفنيا لا فعلا، ويجعل الحق تعالى وقايته في الخير، فينسب الخير إليه تعالى حقيقة وإيجادا، ولذا قال الخليل عليه السلام: ﴿**وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**﴾ الشعراء 80، وهذه المرتبة مرتبة السادة العارفين، الذين خصهم الله تعالى باكتساب الآداب، وهو الذين اتقوا وأحسنوا بدخول مرتبة الإحسان وحصلوا على محبته تعالى للمحسنين.

د. مقام الصبر:

اعتبر الأمير عبد لقادر الصبر من "المقامات التي لا يفارقها العبد إلى الممات وهو عام على الخير والشر إذ الكل ابتلاء، وفتنة وتمحيص، والصبر على الخير هو الثابت على الحد المشروع، وإشارة العقول، ومن هذا الصبر على المعارف الإلهية والأسرار الربانية، بعدم إذاعتها لغير أهلها، وقليل فاعلها، وأما الصبر على الشر فهو المعروف عند الجمهور، ولا يتبادر إلى الأفهام عند ذكر الصبر مطلقًا"[1].

والصبر عنده كذلك: "حبس النفس على ما تكره النفس إلا ما يلائمها حاضرا ولو أنه خير لها في الآجل، فلابد للنفوس من التألم النفساني الطبيعي"[2]. وفرق الأمير بين الصبر بالله والصبر بالنفس، حيث قال: "...وبين الصبر بالله والصبر بالنفس فرقان فمن كان صبره بالله فهو، وإن تألم ظاهرا، واشتكت أعضاؤه وجوارحه، ودمعت عيناه، فمحل ذلك منه النفس الحيوانية، وهو في باطنه ناعم البال قرير العين، مستنير الباطن لأنه واثق بحسن تدبير الله تعالى له، متحقق بأن ما ورد عليه وأصابه لم يكن ليخطئه، وأنه لابد من نزوله به، لأنه من مقتضى استعداده، وأن استعداده هو الطالب له بلسان حاله موقف بأنه تعالى

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص ص.444-445.

[2] الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص506.

حكيم لا يفعل إلا ما ينبغي، بل يكون الحق تعالى هو الحامل لما أنزله عمن يكون صبره به تعالى... الصبر المحمود المرضي المطلوب من العبد هو الذي يكون بالله فتعمل في تحصيله... وأما من كان صبره بنفسه، فإنه وإن حبس نفسه ظاهرا لما نزل به وأصابه، فهو كسيف البال مظلم الأرجاء، متألم الباطن، متهم لربه فيما أنزله به، مجوز لما ورد عليه، ونزل به، إنه يمكن أن لا يكون، وهذا ليس هو الصبر المرضي المحمود المطلوب من العبد"[1].

إذن تبين أن صبر الأمير عبد القادر هو مقام المتألم ظاهرا والناعم البال قرير العين باطنا، فظاهره يوحي إلى التعلق بالنفس، وباطنه النفسي يوحي إلى أنه مخالفا للنفس ومتعلق بربه تعالى، وهذا هو الصبر بالله المحمود المرضي.

وتبين أيضا أهم مقامات الأمير في التصوف الإسلامي، التوكل، التوبة، والتقوى والصبر إذ وجدناها تقول الباحثة فضيلة بلدي عثمان وجدناها قد حضت عناية كبيرة من طرف الأمير، وهذا كان سببا في اختيارنا لهذه المقامات فقط، وهذا لا يعني أنه لم يتطرق إلى مقامات أخرى ولكنها لم تحض بعناية كما حظيت تلك"[2].

4- أحوال الأمير عبد القادر الصوفية:

أكثر الأحوال بروزا في تصوف الأمير عبد القادر ثلاثة هي:

أ. حال القرب:

يرى الأمير عبد القادر أن: "القرب من الحق تعالى قرب المعنوي، وليس ذلك إلا برفع حجاب الجهل، وإلا فالحق أقرب إلينا من حبل الوريد، فما بعدنا إلا الجهل، ولا قربنا إلا العلم..." [3]، وأن "أهل الله... القريبون منه القرب المعنوي، والمقربون عنده وهم أنصار الله

---

(1) الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص444.

(2) فضيلة بلدي عثمان، مرجع سبق ذكره، ص149.

(3) الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص200.

الملبُون دعوته، المستجيبون إلى طاعته..." [1]. والقرب عنده قربان: – قرب النوافل وهذا ما صرح به في كثير من مواقفه الصوفية منها قوله في الموقف 136: "...أن يشهد العابد نفسه حال العبادة، بل وفي غيرها من سائر الأفعال والأركان إنه بالله... فلا يرى فعلا له ولا لغيره ولا إدراك ألا بالله، فيكون العبد ظاهرا والحق باطنا، وهذا...المسمى... بقرب النوافل، وهو ثابت ذوقا ووجدانا"[2]. ودليله في ذلك قوله – صلى الله عليه وسلم – "ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي من أداء ما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به..." [3].

– قرب الفرائض، وهذا ما صرح به في الموقف 136 حيث قال: "...يشهد العابد نفسه وقواه الباطنة وأعضاؤه الظاهرة، آلة الحق، والحق تعالى المصرف لها، المؤثر بها فيسمع بسمع العبد، ويبصر ببصره، ويتكلم بلسانه إلى آخر الإدراكات، فيكون الحق تعالى ظاهرا والعبد باطنا، وهذا يسمى بقرب الفرائض"[4]. ودليله على ذلك بعد الذوق والوجدان قوله تعالى: ﴿**فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ**﴾ التوبة الآية: 6. ويذهب الأمير إلى أن في "القربى على الله قريب وأقرب، فمن كان قربه النوافل فهو قريب، ومن كان قربه قرب الفرائض فهو أقرب، وقربهم منه تعالى على قدر تخلقهم وتحققهم بأسمائه تعالى"[5].

وإن "الشهود الحاصل قرب النوافل وهو مشهد المشاهدات أن العبد فاعل بالله تعالى... والشهود الحاصل من قرب الفرائض... وهو مشهده أنه تعالى فاعل بالعبد..." [6].

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص395.

[2] نفسه، ص349.

[3] رواه أبو هريرة، أخرجه البخاري.

[4] الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص350.

[5] الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج2، مرجع سبق ذكره، ص111.

[6] نفسه، ص306.

ب. حال المحبة:

وهو الحال الثاني من أحوال الأمير الصوفية، إذ يرى أن "محبة الله تعالى من حيث الذات الغنية عن العالمين، التي لا تطلب العالم ولا يطلبها، محال لأن المحبة لا تكون إلا لمناسبة، ولا مناسبة بين الخلق والذات البحتة، ولا ارتباط بوجه ولا حال، فعلم بهذا أن العبد لا يحب الذات من حيث هي هي، لأن ما يسمى ولا يوصف ولا يعلم لا يحب، والذات تشهد ولا تعلم، ومرتبة الصفات هي المحبوبة لجميع المخلوقات فما أحب محب إلا حضرة الجمال، ونعوت الأفضال... وعند التحقيق ما أحب محب إلا أثار صفات الجمال... ومتعلق محبة العبيد إنما هي مرتبة الألوهية لا غير..." [1]، وملأ الأمير قلبه معرفة الله، وهياما بمحبته، هذه المحبة الإلهية التي عرف حلاوة مذاقها ونعمة عطائها، فلا يستطيع الابتعاد عنها، هي محبة ملكت عليه قلبه، حب الخالق الذي لا إله إلا هو تعالى، وله في ذلك أبيات شعرية يقول فيها:

سألت الطب أخبر كلهم

وهم أهل تجريب وأهل ذكاء

بأن سقيم الحب هيهات ماله

دواء، إذا ما الحب أصبح نائي

عسى ولعل أن يبرد الأسى

فإن رجاء الوصل بعض دواء

ولو لم يكن للعاشقين تقرب

لوقت وصال، ما بقوا لمساء[2]

وإن دام هجر الحب، أو زاد دبينة

فذلك داء لم يزل بالشفاء

وفي من مضوا في شرعة الحب والهوى

له أسوة، فليصبرون لبلاء

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص171.

[2] فضيلة بلدي عثمان، مرجع سبق ذكره، ص151.

ويقول أيضا:

أراني كلما توهمت سلوانا أجدر حشوا حشاي من الشوق نيران

وحول قوله تعالى: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ المائدة الآية 54، يذهب الأمير إلى أن "...هذه محبة مخصوصة منه – تعالى – لهؤلاء القوم، كما أن محبتهم له – وإلا فالحق تعالى يحب جميع مخلوقاته، كما أن جميع مخلوقاته يحبونه، وذلك إلا لمحبوب، فهو تعالى ما مال إلى إيجاد شيء، وتحرك الحركة الإرادية المعنوية إلا محبة في ذلك الشيء، كما أن كل مخلوق يحب المحسنين إليه، ولا محسن إلا هو تعالى، وإن لم يشعر، ويسمى محبا له في نفس الأمر"[1].

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ البقرة الآية 222.

يقول: "...فهذه محبة مخصوصة منه تعالى لهم، جزاء محبته منهم له تعالى... ولكل من المحبين ثمرة، أي محبة الخواص له، ومحبته للخواص، فثمرة محبتهم له القيام بمطالبه تعالى سواء كان الطلب جازما أو غير جازم، والكف عن نواهيه، سواء يكشف لهم عنهم فلا يجدون غيرا ولا سوى لهم"[2]، والمحبة عنده درجات ومراتب فـ: "...أعظم ومكرمة أفخم من محبة الله تعالى للمجاهد وهي محبة خاصة بالمجاهدين، لها آثار في الدنيا والآخرة، كما أن محبة المجاهدين له تعالى محبة خاصة زائدة عن محبة المؤمن غير المجاهد لظهور آثار المحبة من الجانبين وإن كان كل مؤمن يحب الله تعالى والله تعالى يحب المؤمن إن قل ظهور آثار المحبة من الجانبين، فالله تعالى يحب المؤمن ولو كان عاصيا... غير مرتكب الكبائر أهل القطيعة.... ومحبة الله تعالى للمؤمن.

[1] الأمير عبد القادر، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص ص.532-533.

[2] الأمير عبد القادر، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص533.

هي من حيث أنعم الله عليه بالإيمان الذي هو الوسيلة الوحيدة في نيل السعادة الأبدية من قبل أن يخلقه ومن قبل أن يسأله..." [1]. فالمحبة حسب هذا القول محبتان، محبة الله تعالى للمجاهدين وهي المحبة الخاصة الزائدة على محبة المؤمن، ومحبته للمؤمن وهي المحبة العامة التي تعم جميع المؤمنين.

ج. حال المشاهدة:

يرى الأمير عبد القادر أن المؤمن مهما عظم إيمانه لابد أن تنازعه نفسه، ولا يطمئن الأمير عبد القادر "الاطمئنان الكامل إلا بالشهود"[2]، وهذه الحالة هي النوع الثالث من أنواع الهدى الذي أطلق عليها الأمير اسم "أعظم هدى"[3]، فهي عنده هدى أهل الشهود والعيان، التي حصلت له بالكشف والعيان[4]، ويرى أن المشاهدة "لا تستلزم العلم بالمشهود، فقد يشاهد ولا يعرفه، فإن جميع المخلوقات تشهد الحق تعالى في تجليه في الصور، ولا يعرفه إلا الخاصة منهم، كما أن العلم لا يستلزم المشاهدة، تتفاضل المشاهدة بتفاضل الاستعدادات"[5]، فالأمير عبد القادر ذهب إلى أن تفاضلا لمشاهدة يكون حسب استعدادات المخلوقات وإن "الرؤية الحاصلة لمحمد صلى الله عليه وسلم وموسى عليه السلام، هي غير المشاهدة الحاصلة لكل عارف بالله تعالى من نبي وولي وإن تفاوتت مراتبهم في المشاهدة، سواء كانت المشاهدة حال الغيبة عن العالم أو في العالم، والمحققون من العارفين لا يقولون أنهم يرون الحق تعالى حالة شهودهم، بل يقولون أنهم لم يروه قطعا، وإنما يرون صورهم ومراتبهم واستعداداتهم في الوجود الحق تعالى، فلا يشهد الشاهد منا إلا نفسه، لأن المشاهد على قد ما يعلمه منه، وإن كان العلم خلاف الشهود والرؤية، فكل مشهود معلوم

---

(1) الأمير عبد القادر، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص ص.170-271.

(2) نفسه، ص310.

(3) نفسه، ص310.

(4) الأمير عبد القادر، **المواقف**، ج2، مرجع سبق ذكره، ص529.

(5) الأمير عبد القادر، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص293.

ما شهد منه، ما كل معلوم مشهود"[1]، وحدث للأمير مرة أن كان متوجها لذكر الله تعالى ما أضحك وأبكى في الدنيا إلا ليضحك لنا في الآخرة، فلما رجع إلى نفسه علم أن ذلك تسلية وبشارة، ومن هذا تيقن الأمير إلى أن السالك تتلون أحواله دائما، فتارة قبض وتارة بسط وتارة ضحك وتارة بكاء، والموجب لذلك مشاهدتان"[2].

1- مشاهدة ما من الله تعالى إليه من الستر عليه والإحسان إليه، وأنه عبد الله تعالى وأنه سائر إليه ولحضرة قربه، ولحسن ظنه بربه بأنه سيرحمه ويرفع حجبه بنفسه ويجلسه مجلسه، الرضا مع الأحباب المخصوصين بالقرب والكرامة، فهي مشاهدة توجب الفرح والضحك والانبساط.

2- مشاهدة ما منه إلى الله تعالى من سوء الأدب، والتقصير في الأوامر وعدم شكر النعم، مع التفكر في حالته الراهنة، وبعده من حضرة الأحباب، وتراكم الحجب، وغلبة النفس والهوى واستيلاء حب الدنيا والشهوات على قلبه، فمشاهدة هذه الأمور توجب القبض والحزن والبكاء.

فالسالك لا يخلو من هاتين الحالتين أبدا، ولا تظهر له من الحق تعالى علامة الرضا وهو الضحك الخالص، مادام في هاتين المشاهدتين[3].

العارفون في الشهود عند الأمير على طبقات[4]:

- الخاصة الذين يرون الوحدة من غير كثرة إلا عقلا.
- خاصة الخاصة يرون الوحدة في الكثرة ولا غيريه بينهما.
- خلاصة خاصة الخاصة يرون الكثرة في الوحدة.

---

(1) الأمير عبد القادر، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص.170-271.

(2) نفسه، ص310.

(3) نفسه، ص146.

(4) الأمير عبد القادر، **المواقف**، ج2، مرجع سبق ذكره، ص391.

- صفاء خلاصة خاصة الخاصة يجمعون بين الشهودين، وهم في هذا الشهود على طبقات عال وأعلى وكامل وأكمل.

- وأعلى من الجميع من يشهد العين الجامعة ومطلقة عن الوحدة والكثرة والجمع بينهما، وأما مشاهدة الحق قبل كل شيء أو بعده أو معه أو فيه، فكلها ناقصة لما فيه من التجديد بالقبلية والبعدية والمعية والطرقية، والكاملون لا ينفون العالم كما ينفيه أهل الشهود الذين غلبت عليهم مشاهدة الوحدة[1].

ويذهب الأمير إلى أن "للخلق في مشاهدة ربهم نسبتين: نسبة تنزيه ونسبة تشبيه، وبكليهما جاءت الكتب الإلهية والأخبار النبوية، فمن شهد التنزيه فقط من المتكلمين أخطأ، ومن قال بالتشبيه فقط، كالحلولية والاتحادية أخطأ، ومن قال بالجمع بين التشبيه والتنزيه أصاب، فالعامة في مقام التشبيه، والعقلاء في مقام التنزيه، والعارفون بالله تعالى في مقام التشبيه والتنزيه، جمع الله لخاصة بين الطرفين، إذ للحق تعالى تجليات، تجل في مرتبة الإطلاق حيث لا مخلوق، وتجل في مرتبة التقيد بعد خلق المخلوقات... وأمر المشاهد أمر تخيير أن يجمع بين الشهودين، فيكون مشاهدا لكون الوجود الحق ظاهرا ومظهرا لأحوال الأعيان الثابتة، ومشاهدا للأعيان التابعة من حيث أحوالها ظاهرة، ومظهر للوجود الحق، فالكمال من الرجال يشهد الوجهين، وهو الكشف الكامل..." [2]، فالأمير يرى رأي المتصوفة العارفين بالله تعالى في مشاهدتهم لربهم تعالى، إذ ذهب إلى الجمع بين المشاهدتين بمشاهدة تشبيه ومشاهدة تنزيه، وهذا هو الكشف الكامل.

ونجد الأمير عبد القادر في مواقفه الصوفية قد فرق بين جنتين، جنة المعارف والمشاهدة وجنة اللذات المحسوسة[3]، وهذا في النقاط التالية:

---

[1] الأمير عبد القادر، **المواقف**، ج2، مرجع سبق ذكره، ص391.

[2] نفسه، ص.395-397.

[3] الأمير عبد القادر، **المواقف**، ج2، مرجع سبق ذكره، ص ص.177-179.

– من حيث دخول الجنتين، فجنة المعارف والمشاهدة يكون غالبا بالكسب والمجاهدة، أما جنة اللذات المحسوسة يستحقها كل مؤمن بحسب الوعد الصادق، والرحمة العامة سببا في دخولها، وجنة المعارف والمشاهدة فإنها مخصوصة بقوم مخصوصين، خواص المؤمنين، أصحاب المجاهدات والرياضات.

– من حيث أحوال أهل الجنتين، فأهل جنة المعارف الإلهية أشهدهم الحق أولا على نفسهم كغيرهم، فشهدوها فاعلة تاركة، مختارة، ولهذا تراهم في بدايتهم يعاقبون أنفسهم إلا إذا حصل منها تقصير، ثم إذا رحمهم الله وفتح لهم ودخلوا جنة المعارف والمشاهدة عرفوا أنهم ليس لهم من الأمر بشيء من حيث ظاهرهم ومن حيث أنفسهم، كما شهدوا المنة والوهب الصرف أخيرا، فغابوا عن أنفسهم وعن العقل والوهب، واستغرقتهم مشاهدة الواهب فاصطفاهم الحق لنفسه، واختارهم لمجالسته، أما أهل الجنة المحسوسة، فإن الحق أشهدهم أيضا كسبهم واختيارهم، فهم يعملون الصالحات وينسبونها لأنفسهم، قاصدين الوصول إلى الجنة المحسوسة، غافلين عن جنة المشاهدات.

إذن كانت جنة المشاهدة لقوم مخصوصين دون عامة المؤمنين، والجنة المحسوسة لعامة المؤمنين، لأن جنة المشاهدة يدخلها أهلها في الدنيا قبل الموت الحسي وبعد الموت المعنوي، ومحال أن يدخل النار صاحب هذه الجنة[1].

تقول الباحثة فضيلة بلدي عثمان: "يتبين مما سبق تقريره أن الأمير عبد القادر مقامات وأحوال في التصوف الإسلامي، ذهب فيها مذهب المتصوفة العارفين بالله تعالى، حيث شاركهم في مقاماتهم وأحوالهم الصوفية، إلا أنه كان عمليا جهاديا.

---

(1) الأمير عبد القادر، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص179.

5- مجاهدة الأمير عبد القادر:

المجاهدة شرط أساسي من شروط السلوك في طريق التصوف، فلا يحصل للسالك شيء من نعمة الطريق إلا بالمجاهدة، والمجاهدة إما أن تكون ظاهرة كالصوم والصمت والعزلة والتأمل، وإما تكون باطنة وهي تقوم برياضة النفس[1]، وصرح الأمير بذلك في مواقف عدة من مواقفه الصوفية، منها قوله في الموقف التاسع والستين: "ورد الوارد أيام السلوك بهذه الآية قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ**﴾ الحجرات الآية 15، فعلمت أن المراد من هذا الإلقاء الحث على المجاهدة والرياضة، فإنه حصر الإيمان "بإنماً في المجاهدة بما له ونفسه، والمراد بطريق الاعتبار الجهاد الأكبر الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام لأصحابه الكرام "رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"، أي أبذلوا جهدكم وطاقتكم في طلب معرفته والوصول إليه، مستعينين على ذلك بأموالكم، أي ببذل ما زاد حاجاتكم من أموالكم في وجوه البر وأنواع الخيرات، لأن السالك إذا كان له مال زائد على ضروراته تعين عليه إخراجه في وجوهه، ولا تغنيه مجاهدة نفسه بغير إخراج المال الزائد في أنواع المجاهدات والرياضات"[2]، وحول قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾ البقرة 158. فالصفا بمعنى تصفية النفس، حتى يزول شرها وجموحها من الصفات الذميمة، والأخلاق اللئيمة، هي المسمى بالمجاهدة والرياضة، فالمجاهدة بالأفعال الظاهرة، والرياضة بالأمور الباطنة، أي ارتباط النفس وتركهما للصفات البهيمية المرذولة شرعا وطبعا... كالحسد والغضب والرياء"[3]. ويرى أن السالك في "بداية السلوك يكتفي بالكتب المصنفة في المعاملة والمجاهدة المطلقة..." [4]. ويعتبر الأمير أن

---

[1] فضيلة بلدي عثمان، مرجع سبق ذكره، ص156.

[2] الأمير عبد القادر، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص203.

[3] نفس المرجع، ص259.

[4] نفسه، ص458.

"إتباع السنة قولا وعملا وحالا أعظم جهاد للنفس، فلا أشق على النفس وأتعب لها من امتثال الأوامر ظاهرا وباطنا، واجتناب النواهي كذلك، ومخالفتها عند طلب الشهوات غير الضرورية"[1].

قام ابن خلدون بتقسيم المجاهدات إلى علم المعاملة وعلم المكاشفة، فعلم المعاملة هو طريق الخير، وهو العلم بكيفية تطهير القلب من الخبائث والكدرات والكف عن الشهوات وإخماد القوة البشرية بقطع جميع العلائق البدنية، والاقتداء بالأنبياء صلوات الله عليهم في جميع أحوالهم، ويشتمل علم المعاملة على مجاهدتين التقوى والاستقامة، فهل جاهد الأمير عبد القادر مجاهدة التقوى والاستقامة المكونتان لعلم المعاملة"[2].

حسب ما ورد في مواقف الأمير عبد القادر الصوفية وما ذهب إليه فؤاد صالح السيد أن الأمير في مجاهداته لا يسمي الأشياء بأسمائها التقليدية المتداولة، بل يحاول أن يجد لها أسماء جديدة تناسب الحالة الروحية التي عاشتها واختبرتها، بمعنى أن مجاهدتي التقوى والاستقامة لا تأخذان التسمية بل سميت عند باسم جديد إذا اعتبرها رتبة ثانية من رتب الهدى أي وسطى، وقد بين ذلك في الموقف 118 حيث قال: "إن الهدى أنواع، والموصوفون بالهدى أنواع، فمهتد وأهدى وأعظم هدى"[3]، وقد رتبها من الأدنى إلى الأعلى "وكل مرتبة من مراتب الهدى هي ضلال بالنسبة إلى ما هي أعلى منها، فهدى العقل ضلال بالنسبة إلى هدى أهل الشهود والعيان"[4]. فتقابل مجاهدتا التقوى والاستقامة عند الأمير مرتبة الأهدى أي مرتبة الإيمان الوسطى، فهي سماء وسقف للمهتدي، وأرض وقاعدة يرتقي منها صاحبها إلى سماء الأعظم هدى أي مرحلة المكاشفة"[5]، ويعتبر الأمير "الهداية على

---

[1] نفسه، ص207.

[2] فضيلة بلدي عثمان، مرجع سبق ذكره، ص158.

[3] الأمير عبد القادر، **المواقف**، ج1، ص310.

[4] نفسه، ص310.

[5] فضيلة بلدي عثمان، مرجع سبق ذكره، ص158.

الصراط المستقيم جنس لا نهاية لأفراده، لأن الحق تعالى أمر عباده بطلب الهداية إلى الصراط المستقيم في كل ركعة من ركعات الصلاة الفريضة والنافلة، وفي غير الصلاة[1]... وصراط الله المستقيم هو الذي جاءت به الكتب والرسل عليهم السلام، آمرة بإتباعه والمشي عليه، وناهية عن إتباع السبل والمشي عليها"[2]، وقد سار الأمير عبد القادر في مجاهداته في خطى الشرع، وملازمة طريقته، فحيثما سار، سار الأمير، حيثما وقف، وقف الأمير، وفي المعنى هذه الأبيات الشعرية:

عليك بالشرع فالزم طريقته	فحيثما سار سر وأن يقف فقف
إن قال ليس كمثلي شيء، قل هو ذا	أو قل ليس أعين قفل بذا كلفني

وقد طلب الأمير من الحق تعالى أن "يجعل لي نورا أكشف به حتى أعرف ما آتي به، وما أذر، فقال لي في: حين ها هو في الكتاب والسنة، فانتبهت حينئذ لقوله تعالى: ﴿**قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (16)**﴾ المائدة الآية 15-16، فعرفت أنه لا نور يرغب فيه الراغبون مثل الاستقامة على الكتاب والسنة، لأن الله تعالى ضمن النجاة في العمل بهما، وما ضمنها في العمل بالكشف..." [3]، وغايته في ذلك "القيام بوظائف التكاليف والعمل بما رسم المشرع"[4].

---

(1) الأمير عبد القادر، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص124.

(2) نفسه، ص356.

(3) نفسه، ص136.

(4) نفسه، ص427.

فاعتبر أنه "ليس الخير في الدنيا إلا ما أمر به الشارع، ولا الشر فيها إلا ما نهى عنه"[1]، والسالكون طريق علم المعاملة "الأهدى" عند الأمير هم "...أهل الفرقان... أهل رسول الله صلى عليه وسلم وأفعاله ظاهرا، والمشي على طريق أصحابه"[2].

إذن كما تقول الباحثة فضيلة بلدي عثمان الأمير عبد القادر في هذه المجاهدة لا يعبر إلا عما فهمه عن الله تعالى، ويكثر في هذه المجاهدة كذلك من مطالعة كتب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأخبارهم والإطلاع على سيرهم وأحوالهم، وقد جاهد حقيقة مجاهدتي التقوى والاستقامة وبهما يصل على مجاهدة المكاشفة[3].

أما مجاهدة علم المكاشفة فهي علم يرفع الحجاب وأحواله ما بعده أي يرتفع الغطاء حتى تتضح حلية الحق تعالى في معرفة حقائق الوجود كله على ما هي عليه، من ذات الله وصفاته، وأفعاله وأحكامه، وقضائه، وقدره والحكمة من خلق الدنيا والآخرة اتضاحا يحصل به اليقين الذي يجري مجرى العيان من غير نعت واكتساب، فهل وصل الأمير عبد القادر إلى هذه المجاهدة؟

لقد أطلعنا الأمير عبد القادر على غاية الرحلة الصوفية بهذه العبارة الرائعة، "إن في الوجود معشوقة غير مرموقة، الأهوية إليها جانحة، والقلوب بحبها طافحة، والأبصار إلى رؤيتها طامحة، يطير الناس إليها كل مطار، ويرتكبون الأخطار، ويستعذون دونها الموت الأحمر، ويركبون لطلبها المكعب الأسمر، ولا يصل عليها إلا الواحد بعد الواحد، في الزمان المتباعد..." [4]. وحول هذه العبارة يقول فؤاد صالح السيد: "فإذا هذه المعشوقة التي تهواها القلوب، وتطمح على رؤيتها الأبصار، ويتسارع إليها الناس من كل حدب وصوب، فقد كثر السالكون، وقل الواصلون الذين صيروا في مجاهدته الصوفية من التقوى والاستقامة إلى

---

(1) الأمير عبد القادر، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص395.

(2) نفسه، ص395.

(3) فضيلة بلدي عثمان، مرجع سبق ذكره، ص159.

(4) الأمير عبد القادر، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص90.

الكشف والإطلاع، ورفع الجهل ومع ذلك فإن حديثه بقي ضمن نطاق العموميات، لا الخصوصيات والإشارات لا التفاصيل"[1]، ويظهر موقف الأمير عبد القادر من هذه المجاهدة – علم المكاشفة – في مواقفه الصوفية منها قوله في الموقف 13: "...وقد أمرني الحق تعالى بالتحدث بالنعم، بالأمر العام لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ الضحى الآية 11، لأن الأمر له صلى الله عليه وسلم أمر لأمته، إلا ما ثبت اختصاصه به، وأمرني بالخصوص مرارا، بإشارة هذه الآية الشريفة..."[2]. وقوله في الموقف 83 ولكنه في هذه المرة على وجه الخصوص وأكثر تحديدا قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ الضحى الآية 11، هذه الآية الكريمة ألقيت علي بالإلقاء الغيبي مرارا عديدة لا أحصيها... ومما ألقي علي فيها أن المراد بالنعمة هنا نعمة العلم والمعرفة بالله تعالى، والعلم بما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام من المعاملات والأمور المغيبات، ولاشك أن هذه النعمة أعظم النعم، وإطلاق النعمة على غيرها مجاز بالنسبة إليها، والمراد بالتحدث بها إفشاؤها، وبثها لمستحقيها المستعدين لقبولها، إذ ما كل علم يصلح لكل الناس، ولا كل الناس يصلح لكل علم، بل لكل علم أهل، لهم استعداد لقبوله، وهمة التفات إلى تحصيله... أما إذا كانت النعمة مما يظهر بالفعل، أظهرها بالفعل، وإذا كانت مما يظهر بالقول أظهرها بالقول، والتحدث بها على حد ما قيل في الحمد العرفي، أعم من أن يكون باللسان والجنان والأركان..."، فنعم الله تعالى على الأمير عبد القادر هي نعمة العلم والمعرفة، أي علم المكاشفة، هذا العلم الذي لا يجب إفشاؤه للعامة، بل لكل علم أهله، وحسب استعدادهم، وما كل علم يصلح لكل الناس خاصة، وعلم المكاشفة الذي يعيشه الواصل على تلك المجاهدة فقط، إذ لا يستطيع حتى التعبير عما كشف له من الله تعالى لأنها من الأمور الوجدانية والذوقية، ونجد الأمير يحذر من كشف هذه العلوم التي تبقى سرا، بينه وبين ربه، وهذا يظهر من قوله في الموقف الآتي "...فإن من العلوم التوحيدية ما

---

[1] فضيلة بلدي عثمان، مرجع سبق ذكره، ص160.

[2] الأمير عبد القادر، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص124.

لا يجوز إفشاؤه مطلقا، بل هو سر بين الله وبين عبده على الموت..." [1]. وبهذا فالأمير شديد التحفظ من ناحية الخوض في المكاشفات، هذا العلم الذي لا يعرفه إلا أصحابه، أصحاب الذوق والعرفان، هذه الطائفة التي دعا الأمير لمحبتها في قوله: "...فإياك يا أخي أن يصدك صاد أو يعارضك معارض عن محبة هذه الطائفة العلية، والتصديق لكلامهم، فإن محبتهم عنوان السعادة والأعراض عنهم عنوان الشقاوة"[2].

تبين مما سبق تقول الباحثة فضيلة بلدي عثمان[3]: "أن الأمير عبد القادر قام بمجاهدتين كما قسمهما ابن خلدون، مجاهدة علم المعاملة (علم الظاهر)، التي تكون عن طريق التقوى والاستقامة، ومجاهدة علم المكاشفة (علم الباطن)، ومن لم يمر بمجاهدتي التقوى والاستقامة لا يصل إلى مجاهدة الكشف والإطلاع، وقد طلب الأمير في هذه المجاهدات "...الوسيلة... وهو الشيخ في طريق العلم بالله تعالى ولا تغني عنه الكتب، وذلك عند ورود الواردات، وبوارق التجليات والواقعات...فإن المجاهدة بغير شيخ لا يعول عليها، إلا في النادر، فليس هو جهاد واحد عن طريق واحد، لأن الاستعدادات مختلفة، والأمزجة متباينة..."[4].

ومما سبق نجد أن تصوف الأمير عبد القادر هو الدافع الأساسي للمقاومة أو الجهاد الذي خاضه بشقيه المسلح والثقافي بدليل اعتباره التصوف جهادا للنفس في كثير من نصوصه ومواقفه الصوفية ومن بينها شرحه لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ سورة الحجرات الآية 15. وفي شرحه كذلك لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"... فجهاد النفس أكبر لكونه شرطا في صحة جهاد العدو الأكبر.

---

[1] الأمير عبد القادر، **المواقف**، ج1، مرجع سبق ذكره، ص391.

[2] نفسه، ص532.

[3] فضيلة بلدي عثمان، مرجع سبق ذكره، ص161.

[4] الأمير عبد القادر، **المواقف**، ج1، ص485.

الفصل الخامس

المقاومة الثقافية في كتاب المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد

1- أسباب كتابة المقراض الحاد:

يمكننا معرفة أسباب كتابة المقراض الحاد من خلال المقدمة التي كتبها له الأمير عبد القادر وهو في حصن أمبواز سنة 1852م وهذا نصها[1]:

"عندما طلب مني شرح عن معتقداتي الإسلامية، أجبتهم بأنني لا أصلح تلميذا لعلماء المسلمين، فصلا أن أكون من جملتهم. ولكنني سأبذل الجهد، وأذكر كلام الله سبحانه وتعالى، وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم، وكلام التابعين، والخلفاء الراشدين لأنها أمور مرتب بعضها على بعض".

إذن طلب منه الفرنسيون شرحًا لمعتقداته الإسلامية، ومن خلال إجابته لهم نجد أنه يؤكد للفرنسيين بأن المسلمين علماء أفذاذ على عكس ما يتصورونه من أن المسلمين ليس لديهم علماء ولا يهتمون بالعلم، وهذه النظرة الاستعمارية جعلت المستعمرين يسعون إلى فرض ثقافتهم وحضارتهم بالقوة على الشعوب المسلمة التي استعمروها ومن بينها الشعب الجزائري.

2- مواضيع كتاب المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد:

لقد اعتمدنا على النسخة التي حققتها الأميرة بديعة الحسني الجزائري حفيدة الأمير عبد القادر[2]. وقد تحدثت في تعليقها على الكتاب عما شمل عليه فتقول: وقد شملت رسالة الأمير عبد القادر (المقراض الحاد) على المواضيع الرئيسية في الفقه الإسلامي والأخلاقيات الإسلامية والتربية من وفاء وإخاء ورحمة وعدل، وبيّن مكانة الفرد في هذا الدستور الإلهي الذي جعله الله يشكل اللبنة الأساسية في كيان الأمة والمجتمع، هذا الفرد الذي جعله الله

---

(1) الأمير عبد القادر الجزائري، **المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد**، تحقيق الأميرة بديعة الحسني الجزائري، دار الوعي للنشر، الجزائر، 2012، ص77.

(2) الأميرة بديعة الحسني الجزائري وأبو القاسم سعد الله، **فكر الأمير عبد القادر الجزائري**، الجزء الثالث، الدار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص149.

في المنهج الإسلامي مكلفا ومميزا، وقال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ**﴾ الأنعام الآية 165... فهذه الرسالة التي وجهها الأمير من سجنه عام 1852م للقساوسة في فرنسا والمفكرين أراد تضمينها كل هذه الأسس في الدستور الإلهي القرآن واعتقد أنه نجح على جعلهم يقرؤونها ويترجمونها ولم يحتجوا على عنوانها الجريء (المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد) وقبولهم لها وترجمتها ووضع اسمه بين علماء العلم دليل على نجاحه فيما قدّم. وعلى الرغم من ذلك لم يقدموها كمخطوط وإنما مطبوعات مترجمة محتفظين بالمخطط الذي يعتبر تراثا حضاريا راقيا بخطة الجزائري ومضمونه الحضاري.

ولم يجرؤ أحد والحمد لله على تشويه هذه الرسالة ولكنهم لم يبرزوها كما يجب، ولا عجب في ذلك فهي تحمل في طيات صفحاتها أسس حضارة مناقضة لحضارتهم التي بنيت على تقديس كل ما هو مادي، وعلى التعالي والتكالب على جمع المال بأي وسيلة وبخطف لقمة العيش من أفواه الأضعف منهم من الشعوب الأخرى... والدليل على أنهم عندما شاهدوا جمال الطبيعة في الجزائر وغناها، وسهولها الواسعة الخضراء وينابيعها العذبة، وجبالها المكسوة بأشجار الصنوبر والأرز والسنديان، وصحاريها الغنية بالمعادن والذهب، فأرادوها قطعة من فرنسا، وتحويل شعبها إلى عمال في مصانعهم وأجراء في مزارع كان أصحابها يملكونها أعزاء أباة، وخططوا إلى ضم هذه البلاد الرائعة إلى بلادهم، وإرساء حضارتهم المادية المستهترة بكل القيم الإلهية وهدم حضارة شعبها الجزائري ومفاهيمه وقيمه العادلة وبتر جذوره ومحو تاريخه، وأرادوا زرع مشاعر الدونية مقابل الانبهار بعظمة فرنسا وزرعها في نفوس هذا الشعب، لتسهيل عملية الضم والاندماج ولكن ذلك كان دونه خرق القتاد لقد واجهوا شعبا أبيا متمسكا بدينه وقيمه ولغته وفخورا بتاريخ أجداده وجذوره ورموز أمته، وعندما عمرهم اليأس من احتلال كافة التراب الجزائري والقضاء على جيش الأمير عبد القادر ودولته، عمدوا وبالقوة على إجبار دولة شقيقة لهذه البلاد بفتح معارك جانبية ضد

دولة الأمير عبد القادر وجيشها وعاصمته المتنقلة (الزمالة)، وبعد معارك دفاعية مريرة، وجد الأمير وقادة جيشه أنه ليس من مصلحة أحد الاستمرار بهذه المهازل، والمستفيد الوحيد من هدر هذه الدماء هو العدو، إن كانت دماء المدافعين عن حرمة بلادهم، أو من المغلوبين على أمرهم الذين أجبروا بالقوة على فتح جبهة ضد إخوانهم لصالح المحتلين وتحقيق[1] مآربهم الاستعمارية من جهة أخرى، ولم يكتف العدو بقتال الإخوة عمد إلى إجبارهم على حصاره بعد تلك المعركة التي خرج منها الأمير منتصرا، وعندما فوجئ بذلك الحصار في تلك الليلة الظلماء أبى الاستمرار في تلك المهزلة، ورأى أن من الحكمة وقف الحرب والهجرة من البلاد بعد أن وجد نفسه لا يقاتل جنرالات فرنسا وجيوشها الجرارة، وإنما قوات نظامية لدولة شقيقة وقوات مسلحة من أبناء الوطن الذين خدعتهم فرنسا ببريق عظمتها الخيالي، ولكون هذا القائد والأمير الذي انتخبه شعبه سلطانا عليه كان عالما وفقيها، والعقل كان عنده الميزان، والعلم والإيمان كانا عنده عامل الإدراك للمستجدات ولمبدأ الشورى الذي جعل له المكانة المميزة في دولته لمدة سبعة عشر عاما، والدليل على ما ذكرت تقول الأميرة بديعة الحسني الجزائري أن قراراته بوقف الحرب والهجرة كانت بالإجماع. وكانت قرارات سياسية شرعية حكيمة وليست عسكرية لأنه لم يتخذها نتيجة لمعركة هزم فيها، وهذا لم يحدث. ولو لم يتغير وجه الحرب لما اتخذ ذلك القرار بوقف الحرب، وربما كان أوصل فرنسا إلى حالة اليأس من احتلال الجزائر وعادت بقواتها إلى بلادها، وهذا كان هدفه وغايته من متابعة الحرب.

وبعد تلك القرارات السياسية والشرعية بوقف الحرب والهجرة وبعد الغدر الذي تعرض له والأسر والسجن؟، عمد الفرنسيون إلى فرض أنظمتهم على الإدارات والمؤسسات التي كانت سائدة في دولته التي أسسها على هدى القرآن (الدولة الإسلامية)، ولكن الشعب الجزائري رفض هذه التغييرات عام 1849م، وتمسك بنظم وقوانين دولته ومؤسساتها التي

---

[1] الأميرة بديعة الحسني الجزائري، **فكر الأمير عبد القادر الجزائري**، ج3، مرجع سبق ذكره، ص ص.150-151.

أرساها الأمير عبد القادر الرجل الذي انتخبوه سلطانا عليهم. وقاوم الشعب هذه المحاولات وحدثت ثورات دامية في القرن التاسع عشر وأواخر القرن الثامن عشر من أجل الاحتفاظ بهذه المؤسسات والنظم الإسلامية على الأقل. ويذكر المؤرخون أن الفرنسيين أطلقوا على أبناء الشعب الذين تمسكوا بقوانين دولتهم التي أسسها الأمير عبد القادر لقب (الأهالي)، وأصدروا مجموعة من القوانين أسموها (قانون الأهالي L'indigénat، لقهرهم وردعهم).

ولابد لكل من قرأ هذه الرسالة (المقراض الحاد) من ملاحظة أن هدف الأمير لم يكن استعراضا لمعلوماته وإنما تقول الأميرة بديعة الحسني الجزائري الهدف كان الدعوة الإسلامية التي هي واجب على كل مسلم[1].

وأيضا تعريف هؤلاء المستعمرين لبلاده، بدولته التي أرساها على هدى القرآن في الجزائر أراد أن يقول لهم في هذه الرسالة أن الشعب الجزائري يملك حضارة إلهية عريقة لا تقارن بحضارتهم الوضعية الهجينة التي يريدون فرضها بالقوة على شعبه بحجة إنقاذهم من التخلف والتوحش. وقال لهم في مقدمة رسالته. إنني لا أصلح أن أكون تلميذا للعلماء في بلادي الجزائر. ومؤلفاته العلمية، كان لها مناسبات اضطر إلى كتابتها في سجنه بقصر أمبواز بفرنسا، وأقصد تقول الأميرة بديعة الحسني الجزائري (المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد) وكانت موجهة إلى جماعات لا تؤمن بالإسلام ولا بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رسولا، فكان لابد من مخاطبتهم بالأسلوب الذي يفهمون إلى أن يصل إلى غايته، وهي نشر الدعوة الإسلامية التي نزلت إلى الناس أجمعين. ولقد جسد هذه الدعوة بأعماله الملحمية قبلا وفي سجنه أيضا. وكانت عنده سلوكا، ولكنها الآن، بعدما سمع ذلك الكلام من الضابط الفرنسي الذي أبلغه أقوال القسيسين، أصبحت عنده ليست فقط سلوكا وإنما سلوكا لفظيا، وكلمات تكتب، تعبر عن مستودعات الفكر والمعرفة، وعن كينونته، ثم عن هدفه، وكما قال سبحانه وتعالى في سورة إبراهيم ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ**

---

[1] الأميرة بديعة الحسني الجزائري، **فكر الأمير عبد القادر الجزائري**، ج3، مرجع سبق ذكره، ص152.

اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾.

والكلمة الطيبة هي التوحيد، الإيمان بإله واحد لا شريك له، ولكي يصل إلى عقولهم، فتناول الأمير في المقدمات علوم مختلفة، تكلم في الفصل الأول من رسالته (المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد) عن العلم والجهل، ثم عن فضل العلم والعلماء، ثم تكلم عن العقل ليخاطب عقولهم، وقيمة هذا العقل والحدود التي وضعها الله سبحانه وتعالى لهذا العقل. تكلم عن الحواس والإدراك، ثم في الفصل الثاني تكلم عن العلوم الشرعية وحاجة الإنسان إلى الرسل والأنبياء الذين اختارهم الله من بين عباده لإرشاد هؤلاء العباد إلى الطريق السوي وسبيل الخير.

وتكلم عن إثبات الألوهية والنبوة بأسلوب علمي مبسط وبالأدلة الصادقة على الطريق السليم لمعرفة الله ومعرفة الرسول إن كان صادقا أم مدعيا، وفي نهاية الرسالة كتب في تاريخ الأمم، والوفاء عند العرب، وبعلم الاجتماع، وفضل التصنيف وتدوين المعارف، وعن آيات الله في الأرض والسماء، وعن تأثير نور القمر في الإنسان والحيوان والنبات والمعادن والبنابيع، وعن كراهية التنجيم في الشريعة الإسلامية أو الاعتماد عليه والذي كان قدماء الرومان واليونان يعتقدون به، ولا يقصد علم الفلك الذي برع فيه قدماء العرب وخاص كلدان وفينيقيين في أيام البابليين في بلاد الرافدين.

وقال تعالى في سورة النحل: ﴿**وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ الآيتان 15 و16. هذه النجوم التي أودعها الله السماء إذا عميت عليهم السبل في البحار ساعدتهم على النجاة وأشار أيضا إلى تحريم السحر في الإسلام. وما من مؤمن مثقف إلا ويعرف بأن الله سبحانه وتعالى، ندما خلق البشر، لم يفرق في هذا الأمر بين الذكر والأنثى، فالأمير عبد القادر كان من

هؤلاء الذين جاهدوا بأرواحهم وأموالهم في سبيل الله بشهادة كل من عرفه، حفظ القرآن ودرس صحيح البخاري ومسلم، وكان مؤمنا حقا، صادقا، واسع المعرفة بالتاريخ الإسلامي، فكيف لا يعرف أن سيدتنا عائشة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم كانت فقيهة وعالمة، وصححت الكثير من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم التي نسبت إليه، ونُقلت عنها الأحاديث الصحيحة، وكذلك زينب بنت جحش رضي الله عنها. وكل نساء النبي عملوا بما أمرهم الله سبحانه وتعالى في سورة الأحزاب ﴿**وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ**﴾ وفي آيات كثيرة في القرآن أمر الله بالعلم وأشار إلى قيمة العلم والعلماء، فقال في الزمر ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ والكتابة كالقراءة، وهما جزء من كل. وبإجماع جمهور الفقهاء، وما نقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم من أحاديث صحيحة مسندة، وعن خلفائه الراشدين، وما جاء في أمهات كتب الشريعة، والمذاهب الأربعة، لا يوجد نص يحرم العلم على المرأة ويحجبه عنها وعندما خاطب الله سبحانه وتعالى عباده بقوله ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاس**﴾[1] شمل الذكر والأنثى، وعندما قال تعالى في سورة المجادلة: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ لم يفرق بين ذكر وأنثى، وما جمع المذكر في هذه الآيات إلا للتغليب في قواعد اللغة العربية وهو أمر معروف في فقه اللغة. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن الرسول صلى الله عليه وسلم، قال: "من سلك طريقا يلتمس به علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة" رواه مسلم بسنده. فكيف يعقل أن يجهل عالم ديني كالأمير عبد القادر موادا شرعية كان يدرّسها، ويعقد الندوات للحديث عنها، وبموجبها لقب بعالم؟ والأمير كما أسلفت كان يدرّس صحيح البخاري في سجنه لأصحابه، ومنها حديث نقله البخاري (تبليغ العام وفضل حامله).

وكان هدف المسلمين نشر الدعوة وإيصالها إلى الناس أجمعين بشتى الوسائل، فكيف يحجب التعليم عن المرأة وهي كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "النساء شقائق الرجال"

---

[1] الأميرة بديعة الحسني الجزائري، **فكر الأمير عبد القادر الجزائري**، ج3، مرجع سبق ذكره، ص ص.156-158.

في حديث مسند رواه البخاري ومسلم. وهل يجهل الأمير أن الله سبحانه وتعالى لم يفرق بين الذكر والأنثى عندما يقول (يا أيها الناس). وعندما قال تعالى في سورة العلق ﴿**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ إن الله سبحانه وتعالى خاطب الإنسان الذكر والأنثى. وهذه الآيات كانت أول رحمة وهدى ونور نزل على النبي الكريم، وأول نعمة من نعمه، وهي العلم الذي خصّ به الإنسان من ذكر وأنثى، فقال تعالى "علّم الإنسان" ولم يقل علّم الرجل. والعلم لا يكون إلا بالإطلاع والتبيان. فهل يجهل الامير العالم تفسير هذه الآيات التي يقرأها كل يوم في صلاته، والذي أطلق عليه لقب عالم علماء دمشق من ميداني، وحمزاوي، والشيخ طاهر الجزائري، والمشايخ الذين أخذوا عنه إجازاتهم في الفقه الإسلامي. وأول مرة لقب بالعالم بعد ترجمة كتابه (المقراض الحاد) في باريس، وسجل اسمه في سجل علماء العالم، ولقب بالعالم بعد الاستماع إلى ندواته الفقهية في دار الحديث النووي. فهل يمكن لعالم مثله جهل أن في المجتمعات الإسلامية نساء عالمات كان منهن من أعطين إجازات علمية إلى الرجال؟ والدليل على إيمانه بضرورة تعليم المرأة اهتمامه الكبير بتعليم بناته ومنهم كما تقول الأميرة بديعة الحسني الجزائري(1): "جدتي أكبر كريماته، وخطها مازال عندي إلى الآن. وقد أشرف على تعليم حفيدته حفصة التي توفي والدها في حياته، فقد كانت تتقن اللغتين التركية والعربية، وألمت باللغة الروسية أيضا لأن مدرستها كانت روسية.

3- المقاومة الثقافية في كتاب المقراض الحاد:

إن هذه الرسالة التي وجهها الأمير من سجنه عام 1852م للقساوسة في فرنسا والمفكرين أراد منها الدعوة إلى الإسلام ولكن في نفس الوقت تضمنت مقاومة لهؤلاء المستعمرين تتجلى خصوصا في الباب الثالث الذي تحدث فيه عن الأخلاق الإسلامية إلا أنه معنون بـ "الوفاء عند المسلمين" وإن هذا العنوان في حد ذاته رسالة نضالية قوية

---

(1) الأميرة بديعة الحسني الجزائري، **فكر الأمير عبد القادر الجزائري**، ج3، مرجع سبق ذكره، ص159.

للمستعمر، الذي لم يف بعهده الذي قطعه للأمير عبد القادر عندما انتهت الحرب التي دارت بين دولته التي أسسها في الجزائر وبين العدو الفرنسي. ثم بدأ هذا الفصل بآية حيث يقول: "قال الله تعالى في سورة النحل من القرآن ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ**﴾ الآية 91 من سورة النحل. وفي سورة آل عمران قال: ﴿**بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**﴾. وقال في سورة المائدة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**﴾ ثم يورد حديثا للنبي صلى الله عليه وسلم: "من إذا تحدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان، ليس بمسلم"[1].

فالأمير عبد القادر يخاطب القساوسة والمفكرين فيقول لهم: "فالشريعة المحمدية جمعت كل ما جاء في الشرائع السالفة كما قال المسيح عليه السلام: ما جئت لأبطل التوراة ولكن جئت لأكملها. فكذلك محمد عليه السلام: ما جاء ليبطل التوراة والإنجيل ولكن جاء ليكملهما"[2]. فالأمير عبد القادر يبين لهم أن الشريعة المحمدية، هي تكملة للتوراة والإنجيل، وذلك ليطمئن القساوسة فهو يدعوهم إلى أن يعترفوا بالإسلام كدين سماوي وليس إلى التخلي عن الإنجيل والخروج على المسيحية، وهذا على عكس ما كانت تقوم به الحملات التبشيرية في الجزائر المستعمرة، فقد كانت تسعى إلى إخراج الجزائريين من دينهم الإسلامي وبالتالي ثقافتهم الإسلامية.

ثم تحدث الأمير عن مكارم الأخلاق التي دعا إليها الإسلام حيث يقول: "قال الحكيم الترمذي: فما من خلق حسن ولا صفة كريمة يدرك العقل حسنها أولا مما يحصل به طيب الحياة الدنيا إلا وجاء الشرع يمدحها والأمر بها والوعد عليها بالجنة. وما من صفة ذميمة أو لئيمة مما يحصل به التنافر بين العباد إلا وجاء الشرع بذمها والنهي عنها والتوعد عليها بالنار، وذلك مثل الصدق والوفاء والإحسان والإيثار والاقتصاد في الأمور والاشتغال بعيب النفس عن عيوب الناس، والإنصاف من نفسك، وإنفاق المال فيما أمر به الشرع، والأمر

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد**، مرجع سبق ذكره، ص129.

[2] نفسه، ص129.

بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإصلاح ذات البين، وإماطة الأذى عن الناس حتى من الطرقات، والاستشارة والأدب والاحترام والإجلال لأفاضل الناس وإدخال السرور على عباد الله والإرشاد لهم بالتعليم والتربية، وإفشاء السلام، وإكرام الجار، وإجابة السائل العطاء قبل السؤال، واستكثار قليل الخير من الغير، واحتقار تعظيم النفس، وطلب الجاه، وبذل البشر والبشاشة في وجوه الناس، والتواضع والتعاون على الخير، والتؤدة، وتنزيل الناس منازلهم، والصبر والتغافل عن الإساءة والتسامح، وتحمل الأذى وترك الأذى، وترك الكبر، وتجنب الإعجاب بالنفس، وترك معاداة الناس والتكلف، وتجنب مواضع التهم، والثبات في الأمور، وجلب المصالح للعباد، ودفع المفاسد عنهم، والحلم والحياء وحفظ الأمانة والعهد والعرض، والصمت عما لا يعني، والتعقل في المقال، وحسن الظن، وطيب المعاشرة، وخدمة الضيف والأصحاب والفقراء، والرفق ورحمة الضعفاء والصغار، والرضا بالدون من المجالس، والرأفة والزهد في الدنيا، والسخاء والسماحة والصفح عن المذنب، والصدقة، وصلة الرحم، وبالأخوة لا بالصراع والتفرقة، وطهارة الباطن، والعفة، والعدل، والعفو، وعلو الهمة، وقبول الحق، وإن كان مرًا، وقضاء حوائج الناس، وكظم الغيظ، والمداراة، والمخاطبة بلين الكلام، وعن نبينا قوله المتفق عليه: "استنصت الناس أي إصغاء الجليس لحديث جليسه هو من الدين، والمعاشرة بالمعروف، ومعرفة الحق لأهله ولمن عرفه ذلك، والمكافأة والشكر، وترك الحقد والحسد وحب المال، وتجنب العداوة والبغضاء، وترك التذلل للأغنياء، وترك الشح والبخل، وتجنب الغل والكذب والغدر والغش والإخاء، وتجنب الظلم والجفاء والجور والطيش وترك العجلة والبغي، وتجنب الحدة وجحود الحق، وعدم إثارة الفتن بين المسلمين، وتجنب ضيق الصدر، وترك سوء الظن، وتجنب قلة الرحمة وقلة الحياء، وتجنب الحرص والحمق وترك حب الرياسة وتجنب كفران النعمة، وترك طلب العلو على الناس، وترك الطمع، وتجنب الجهل، وطلب العلم فريضة على كل مسلم، وترك المكر، وتجنب الخيانة والمخادعة، وغير ذلك ثم يواصل الأمير عبد القادر فيقول: "هذه الأخلاقيات من تفقه في شريعتنا وجدها في القرآن وفي أحاديث نبينا محمد عليه الصلاة والسلام. ووجد فيها حتى كيف يجب أن يأكل

الإنسان، وكيف يمضغ الطعام، وكيف يمشي على الأرض..." إذن يتبين مما سبق أن الأمير يدعو إلى الإسلام وأيضا للمستعمرين أن الجزائر تنتمي إلى حضارة إسلامية تعتني بالأخلاق السامية من وفاء وعدل وإصلاح في الأرض وهذا ما لا يملكه المستعمرون الذين بشروا بأنهم جلبوا الحضارة إلى الجزائر، فهو يعري المشروع الاستعماري الفرنسي للجزائر، فلسان حاله يقول للمستعمر ممثلا في مفكريه وقساوته نحن أصحاب حضارة فإدعاؤكم بأنكم تحملون لنا الحضارة واه وليس له أصل من الصحة.

ثم يتحدث الأمير عن قوى أربعة إذا اعتدلت في الإنسان نقول عنه أنه حسن الخلق وهي: قوة العلم، وقوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العدل. وهو يقول فيها: "أما قوة العلم فحظها وصلاحها في إدراك الفرق بين الصدق والكذب في القول، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين القبيح والجميل في الأفعال، وإذا انصلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة، والحكمة رأس الأخلاق الحسنة وهي التي قال الله تعالى فيها: ﴿**وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتيَ خيرًا كَثيرًا**﴾ وأما قوة الغضب فحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة، وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت السيطرة والحكمة، أعني إشارة العقل والدين، أي الإيمان.

وأما قوة العدل فهي في كبح قوة الغضب والشهوة تحت إشارة العقل والشرع، فالعقل منزلته منزلة الناصح المشير، وقوة العدل هي القدرة ومنزلته منزلة المنقذ لإشارة العقل، والغضب هو الذي تنفذ فيه الإشارة"[1]، ثم يعطي مثالا لتتضح الرؤية فيقول: "ومثاله مثال كلب الصيد فإنه يحتاج إلى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقيفه بحسب الإشارة لا بحسب هيجان النفس. والشهوة مثالها مثال الفرس الذي يركب في طلب العبيد، فإنه تارة يكون مروضًا ومؤدبا وتارة يكون جموحا، فمثل العقل كمثل فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد**، مرجع سبق ذكره، ص ص.132-133.

ككلبه، ومتى كان الفارس حاذقا وفرسه مروضا وكلبه مؤدبا معلما كان جديرا بالنجاح، ومتى كان هو في نفسه أخرق وكان الفرس جموحا والكلب عقورا، فلا فرسه ينبعث من تحته منقادا ولا كلبه يسترسل بإشارته مطيعا، فهو خليق بأن يعطب فضلا أن يدرك ما طلب، وحمق الفارس مثل جهل الإنسان وقلة حكمته، وجماح الفرس مثال لغلبة الشهوة، وعقر الكلب مثال لغلبة الغضب، فمن استوت فيه هذه الصفات واعتدلت فهو حسن الخلق وكبح جماح الغضب يعبر عنها بالشجاعة، وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنها بالعفة، فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة سمي تبورًا، وإن مالت إلى النقصان سمي جبانا، وإن مالت قوة الشهوة إلى طرف الزيادة سمي شرهًا وإن مالت إلى النقصان سمي جمودًا، والمحمود هو الوسط، قال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾ الآية 143 سورة البقرة.

ثم يقول الأمير عبد القادر عن أمهات الأخلاق وأصولها أنها أربعة: الحكمة والشجاعة والعفة والعدل(1)، وبهذا فالأمير يخاطب المستعمرين من خلال قساوسته ومفكريه فيقول لهم بأن الجزائر تنتمي إلى حضارة عريقة تعنى بالأخلاق على عكس ما يروّجه المستعمرون بأن الشعب الجزائري شعب متوحش يحتاج إلى الفرنسيين لكي يجلبوا له الحضارة. ثم يواصل في شرحه لهذه الأخلاق فيقول: "ونعني بالحكمة حالة النفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية، ونعني بالعدل حالة النفس وقوتها في كبح جماح الغضب والشهوة، وحملهما على مقتضى الحكمة وضبطهما على حسب الشريعة الإسلامية بالشجاعة والعفة والإيمان، كون قوة الغضب وسيلة منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها، ونعني بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل وإتباع الشرع. فمن اتبع هذه الأصول الأربعة ستصدر عنه الأخلاق الجميلة كلها، إذ من الاعتدال تصدر قوة العقل وحسن التدبير وجودة الذهن وثبات

---

(1) الأمير عبد القادر الجزائري، **المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد**، مرجع سبق ذكره، ص133.

الرأي وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأمور، ومن إفراطها تصدر الجربذة والمكر والخداع والدهاء، ومن تفريطها يصدر البله والغباوة والحمق والجنون"[1].

ثم يقول الأمير عن المتخلق بأمهات محاسن الأخلاق الأربعة التي ذكرها سالفا، أنه يستحق أن يكون قدوة حسنة يرجع الخلق كلهم إليه. أما من انفك عن جملة هذه الأخلاق كلها واتصف بأضدادها استحق غضب الله، لأنه قد قرب من الشيطان اللعين، ولم يبلغ هذه الدرجة من الكمال في هذه الأخلاق إلا الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وآخرهم خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال: إنما بعثت لأتمم محاسن الأخلاق[2]. فالأمير عبد القادر يواصل شرحه في الإسلام، دين هذه الأمة الجزائرية والذي هي متمسكة به فيستشهد بالآيات القرآنية قائلا: قال الله تعالى له مخاطبا: ﴿**وإنّك لَعَلَى خلقٍ عَظيمٍ**﴾، والناس متفاوتون في القرب والبعد منه، فكل من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله بقدر قربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو المسلم في الحقيقة، وكل من فقدت منه هذه الأوصاف فهو بعيد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بمسلم ولا بمؤمن، فكيف يظن ظان أو يتوهم متوهم فيمن عجن الله طينته بالمحاسن العظيمة وخلقه مطبوعا على كل خلق تستحسنه العقول السليمة، أن يكون فيما شرعه نقص تنكره العقول الكاملة، فهو عليه الصلاة والسلام رحمة أرسلها الله للعباد، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: "إنما أنا رحمة مهداة إلى الخلق". وقال تعالى يخاطبه: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ الآية 107 من سورة الأنبياء. فهو رحمة لمن دخل في دينه ولمن لم يدخل فيه بعد"[3]. فيتبين أن الأمير عبد القادر يتحدث عن قدوة المسلمين وهو الرسول صلى الله عليه وسلم وعن أنه رحمة للعالمين وهو بهذا يقول أن الحضارة الإسلامية حضارة عالمية تتسم

---

(1) الأمير عبد القادر الجزائري، **المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد**، مرجع سبق ذكره، ص134.

(2) نفس المرجع، ص135.

(3) نفس المرجع، ص135.

بالرحمة والمحاسن العظيمة على حد تعبيره. ثم نجد أن الأمير وضع عنوانا هو "الجهاد في الإسلام ليس هدفه السيطرة والقتل" ومن هذا العنوان نجد أن الأمير يخاطب الفرنسيين المستعمرين مبينا لهم ما هو الجهاد في الإسلام؟ وكأن لسان حاله يقول بأنكم أيها المستعمرون المحتلون لبلادنا بالقوة والسيطرة والقتل، نحن (أي الشعب الجزائري) لسنا مثلكم فقتالنا هو دفاع عن النفس في وجه من قاتلنا. إذ يقول: "والفتوحات الإسلامية كان هدفها نشر هذه الشريعة المباركة بالموعظة الحسنة والعدل والمساواة من دون إكراه في الدين، قال تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ الآية 190 سورة البقرة. قال الحكماء الأقدمون والعلماء المسلمون كما نقله الإمام السهروردي: إذا كان الخير الكبير يلزمه شر قليل لا يجوز على المبدع إهماله، لأن في ترك خير كثير في سبيل القليل من الشر شرا كثيرا، كالنار فيها منافع كثيرة وإن كان يلزمها أحيانا حريق ثوب قديم، فإهمال المصالح الكلية والخيرات الكلية لا تجوز إن كان هناك منفعة جزئية، فضرر الجزء يحسن إذا كان فيه دفع مفسدة عن الكل". ثم يواصل الأمير إعطاء أمثلة جواز الجهاد في الإسلام لرد أذى المستكبرين الظالمين وهو يعني العدو الفرنسي فيقول: "ألا ترى أن العقل يجيز قطع الأنملة إذا كان فيها فساد الذراع، ويحسن قطع الذراع من أصله إذا كان ذلك يجلب مصلحة للبدن كله الذي هو الأكثر. وإذا كان هذا عدل ولا جو فيه وحسن ولا قبح فيه فكذلك ذاك، والقول بأن الحكمة في الجهاد ليس إلا دفع الضرر ونشر العدل، عدل الإسلام في العالم ونشر حضارته الإنسانية أولا بالحسنى والموعظة الحسنة، ثانيا بالدفاع عن هذه الشريعة الإلهية بالسيف، الدفاع على أسس عادلة ليس فيها ظلم لأحد من إنسان ونبات وحتى حيوان"[1].

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد**، مرجع سبق ذكره، ص136.

إذن الأمير عبد القادر عرف الجهاد في الإسلام فهو دفاع عن الدين الإسلامي ممن يعملون على محاربته أي المستعمر الفرنسي، فالأمير يوضح سبب جهاده وأن جهاد شقين عسكري (بالسيف) و"ثقافي" يقوم على نشر الحضارة الإسلامية بالحسنى والموعظة الحسنة.

ثم يذكر الأمير عبد القادر بعض الأدلة على جواز الجهاد فيقول: "وقوله عليه الصلاة والسلام دعوا الحبشة"، رواه أبو داود عن ابن عمر، قال في شرح هذا الحديث: وذلك أن الحبشة ضعيفة لا يخشى منها ضرر على الإسلام، فأمر عليه الصلاة والسلام بالكف عن قتالهم، قال الخطابي، والجمع بين هذا وبين قوله تعالى: قاتلوا المشركين كافة، إذا الآية مطلقة والحديث مقيد فيحمل المطلق على المقيد ويجعل الحديث مخصصا لعموم الآية، وحكى ابن شعبان عن مالك أنه قال لا يغزوا الحبشة وقاله ابن القاسم".

يضيف الأمير عبد القادر في ذكر أدلة جواز الجهاد الشرعية فيقول: "ومنها أنه لو كان القتال لغير دفع الضرر وكان لأجل المخالفة في الدين كانت الجزية لا تقبل من الحربي مع بقائه على دينه، وإذا قبل شروطها يحرم قتاله ولا تجوز أذيته ومنها أنه لو كان القتال لأجل الدخول في الدين لكانت المرأة تقتل مع أنها لا تقتل وتترك على دينها، وقانون الحرب في الإسلام يحرم قتل المرأة والطفل والرجل العجوز ويحرم حرق الأشجار المثمرة وتعذيب الأسير والتمثيل بجثة القتيل، لأن الأصل عدم إتلاف النفوس، وإنما أبيح من القتال ما يمنع المفسدة. ومن لا يقاتل عادة لا يُقتل لعدم ضرره، والمرأة سواء بقيت بدار الحرب أو خرجت مع العسكر لا يجوز قتلها، كما قاله القرطبي في شرح مسلم ولو قاتلت بالحجارة ونحوها لا يجوز قتلها. وكذلك القسيسون والرهبان كل هؤلاء المذكورون لا يقتلون، ويعطى لهم ما يكفيهم في عيشهم ولباسهم من أموال المحاربين. فإن لم تكن فيجب على المسلمين أن يعطوهم ما يكفيهم. هذه من قوانين الحرب في الإسلام التي تقيد بها الفاتحون.

وكان عليه الصلاة والسلام إذا بعث جيشا أو سرية يقول لهم: اغزوا باسم الله ولا تمثّلوا ولا تقتلوا امرأة ولا صبيا. وأوصى أبو بكر رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان لما أرسله إلى الشام أن لا يقتل امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما ولا يقطع شجرة مثمرا ولا يخربن عامرا.

ثم يواصل الأمير تفصيل معنى الجهاد في الإسلام دينه ودين الدولة التي شيدها في الجزائر فيقول: و"منها أنه لا يجوز القتال لأجل أخذ أموال العدو ولا يجوز القتال غضبا وغيظا على العدو، كما قاله العارف بن أبي جمرة، لأن هذه نقائص وخسائس يتنزه عنها دين الإسلام. وذكر العارف بن عطاء الله أن عليا بن أبي طالب رضي الله عنه كان إذا ضرب عدوه في الجهاد لا يعاود له ثانية حتى ينظر ربما أنه مات من الأولى، واندفع ضرره الذي هو مقصود الشرع في الأمر بالقتال، فتكون الضربة الثانية قبيحة لا دخل لها في الحسن"[1].

وعليه فإن الأمير عبد القادر أورد كل هذه الأدلة ليبين لنا المقصود من الجهاد والقتال وهو دفع الضرر والظلم عن الأمم والدفاع عن الإسلام وهذا ما كان يقوم به طوال سبعة عشر سنة من الجهاد ضد العدو الفرنسي. إذ يقول الأمير عبد القادر: "فتبين من هذه الأمور التي ذكرناها والنصوص التي جلبناها أنه ليس المقصود من الجهاد والقتال إتلاف العباد ولا تخريب البلاد ولا الرغبة في الأموال، وإنما المقصود به دفع ضرر عن الأمم والظلم ورفع كلمة الإسلام، ولو توهم حصول ذلك من غير قتال ما وجب القتال لأن الحكم يسير مع العلة وجودا وعدما، كما إذا أطاع العدو بدفع الجزية فإنه يحرّم قتاله لأنه قد تحقق عدم الضرر منه حينئذ"[2].

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد**، مرجع سبق ذكره، ص137.

[2] نفس المرجع، ص137.

ثم إن الأمير يتطرق إلى الوفاء بالعقود وهذا بمثابة صفعة في وجه المستعمرين الذين نقضوا العهد الذي أبرموه مع الأمير عبد القادر وهو يقول في هذا الموضوع ما يلي: "قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّها الذِينَ آمَنُوا أوفُوا بِالعُقُودِ**﴾ الآية 1 سورة المائدة. معنى الآية الأمر بالوفاء وهو القيام بمقتضى العهد، والعقود هي العهود الموثقة، أمر الله عباده المؤمنين بالوفاء فيما يعقدون. قال تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا**﴾ الآية 177 سورة البقرة.

قال البيضاوي: البر كل فعل مرض والآية كما ترون جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها دالة عليها، فإنها بكثرتها وتشعبها منحصرة في ثلاثة أشياء: صحة الاعتقاد وحسن المعاشرة وتهذيب النفس، ولذلك وصف المستجمع لها بالصدق نظرا إلى إيمانه واعتقاده، وبالتقوى اعتبارا لمعاشرته للخلق، ومعاملته مع الحق، وإليه أشار عليه الصلاة والسلام بقوله: "من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان". وهذه الآية تضمنت ستة عشرة قاعدة فقهية"[1]. ثم يتحدث الأمير عبد القادر عن الذين ينقضون العهود ومكانتهم الدنيا في الإسلام فيقول باستدلاله بالآيات القرآنية ما يلي: "وقال تعالى في ذم الذين ينقضون العهود ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (55) الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ**﴾ الآية 55-56 سورة الأنفال. معنى الآية، ذم من لا يفي بالعهد. وقوله وهم لا يتقون أي لا يخافون سبة الغدر، ولا يبالون بما فيه من العار والنار.

وقال تعالى: ﴿**وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ الآية 152 سورة الأنعام. وقال تعالى: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ الآية 199 سورة

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد**، مرجع سبق ذكره، ص139.

الأعراف. قال ابن جزي: المعنى خذ من الناس في أخلاقهم وأقوالهم ومعاشرتهم ما يتيسر لا ما يشق عليهم، وأمر بالعرف أي بالمعروف وهي أفعال الخير، وأعرض عن الجاهلين أي لا تكافئ السفهاء بمثل قولهم أو فعلهم واحلم عليهم"[1]. ثم يواصل الأمير كلامه عن نقض العهد في الإسلام وهو بهذا ينبه المستعمر الفرنسي إلى العار الذي أتاه من خلال عدم وفائه بالعهد الذي كان بينه وبين الأمير، ونحن نلاحظ مدى تفصيل الأمير لهذا الموضوع، فهو يناضل بقلمه كما ناضل من قبل بسيفه وعليه نقول لمن يظن أن الأمير توقف عن النضال والجهاد بسجنه أنه مخطئ فالأمير من خلال كتابه المقراض الحاد يناضل، فهو يقول أمام الملأ بأن العدو الفرنسي ناقض للعهود، وهو الذي تباهى بأنه صاحب حضارة عالمية ترعى حقوق الإنسان وتسعى إلى نشر قيما في الدول المستعمرة ومنها الجزائر.

ويواصل إذن الأمير في سرد أدلته وهي من القرآن والسنة النبوية إذ يقول: "ولما نزلت هذه الآية (الآية 199 سورة الأعراف) سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام عنها فقال: لا أدري حتى أسأل. ثم رجع فقال: يا محمد ربك يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك. وعن جعفر الصادق: أمر الله نبيه عليه السلام فيها بمكارم الأخلاق. وقال تعالى: ﴿**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ**﴾ الآية 58 سورة الأنفال. قال المفسرون: معنى الآية أمر الله تعالى نبيه إذا عاهد قوما من العدو وظهرت من العدو علامة نقض العهد أن يطرح لهم العهد ويخبرهم إخبارا مكشوفا أنه نقض العهد الذي بينه وبينهم، ولا يعاجلهم بالحرب وهم

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد**، مرجع سبق ذكره، ص139.

على توهم ببقاء العهد، حتى يعلمهم ويأخذوا حذرهم ويستعدوا، ومن لم يفعل هذا يكون خائنا في العهد، والله لا يحب الخائنين في العهود"[1].

ويواصل الأمير سرد الأدلة على وجوب الوفاء بالعهود قائلا: وقال تعالى: ﴿**براءة مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (1) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ**﴾ الآية 1-2 سورة التوبة. قال أهل التفسير: كان عليه السلام قد عاهد الكفار المشركين إلى آجال معدودة، فمنهم من وفى فأمر الله أن يتم عهده، ومنهم من نقض أو قارب النقض فجعل له أربعة أشهر يسير آمنا وبعدها لا يكون له عهد.

قال تعالى: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**﴾ قال البيضاوي في معنى الآية كأنه قيل لهم بعد أن أمروا بنبذ العهد مع الناكثين ولكن الذين عاهدوا منهم ثم لم ينقضوكم شيئا من شروط العهد ولم ينكثوا ولم يقتلوا منكم ولم يضروكم قط ولم يظاهروا عليكم أحدا من أعدائكم فأتموا إليهم عهدهم إلى تمام مدتهم ولا تجروهم مجرى الناكثين. إن الله يحب المتقين على أن تمام عهدهم من باب التقوى. وقال تعالى: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ الآية 6 سورة التوبة. قال البيضاوي معنى الآية وإن أحد من المشركين المحاربين استجارك واستأمنك وطلب منك جوارك فأمنه حتى يسمع كلام الله ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر ثم أبلغه مأمنه موضع أمنه إن لم يسلم ذلك الأمن فإنهم قوم لا يعلمون ما الإيمان وما حقيقة ما تدعوهم إليه، لابد من إيمانهم ريثما يسمعون ويتدبرون"[2]. فيتبين من هذا الدليل الأخير كيفية تعامل الأمير عبد القادر مع أعدائه المستعمرين، فقوانين الحرب في دولته

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد**، مرجع سبق ذكره، ص140.

[2] نفس المرجع، ص140.

التي أسسها في الجزائر مستمدة من الكتاب والسنة النبوية وكانت كلها أخلاقا سامية كما رأينا في (شخصية الأمير عبد القادر) من شهادات أعدائه أنفسهم وسمو أخلاقه معهم.

ثم يواصل الأمير سرد الآيات التي تبين كما أسلفنا قوانين الحرب التي كان يعتمد عليها في مقاومته العسكرية فيقول: "وقال تعالى : ﴿**إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُواْ الْأَلْبَابِ (19) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ**﴾ آية 21 سورة الرعد. معنى الآية أنه لا يتفطن إلا أصحاب العقول المبرأة عن معارضة الوهم الذين لا ينقضون ما وثقوه من المواثيق بينهم وبين عباد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، كالإيمان بجميع الأنبياء ومراعاة حقوق جميع الناس، أكانت بالعهد والميثاق أو بغير ذلك.

وقال تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ**﴾ الآية 91 سورة النحل. قال البيضاوي: أوفوا بعهد الله، كل أمر يجب الوفاء به ولا تنقضوا الإيمان مطلق الإيمان، وقال ابن جزي والإيمان هنا ما يحلفه الإنسان في حق غيره أو في معاهدته لغيره، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا أي رقيبا ومتكفلا بوفائكم بالعهد، إن الله يعلم ما تفعلون في نقض الإيمان والعهود.

قال تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا**﴾ الآية 54 سورة مريم. وقال تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا**﴾ الآية 34 من سورة الإسراء. قال البيضاوي مسؤولا يطلب من المعاهد ألا يضيعه ويفي به، أو مسؤولا عنه يسأل الناكث ويعاتب عليه.

وقال تعالى: ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾ الآية 8 سورة المائدة، المعنى لا يحملنكم شدة بغضكم للكفار على ترك العدل فيهم، فتعدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل كقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد، اعدلوا هو أقرب للتقوى، صرح

لهم الأمر بالعدل وبيّن أنه بمكان من التقوى بعدما نهاهم عن الجور وبين أنه مقتضى الهوى وقال تعالى: "إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله".

وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾ الآية 2 سورة الصف"[1].

تكلم الأمير عن العدل ومدى أهميته في التعامل مع الناس ولاسيما الأعداء ولقد كانت شيمته العدل في تعامله مع المستعمر الفرنسي إلى آخر لحظة من المقاومة العسكرية التي قادها وحتى في تعامله الدبلوماسي معهم.

ثم أورد الأمير في سياق حديثه عن الوفاء بالعهد إحدى الروايات التي ذكرت حول كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس فيقول: "أن النبي صلى الله عليه وسلم في السنة السادسة للهجرة قال: أيها الناس أيّكم ينطلق بكتابي هذا إلى صاحب مصر؟ فقال حاطب بن أبي بلتعة، أنا يا رسول الله. فأخذ حاطب الكتاب وجاء به حتى دخل على المقوقس بالإسكندرية بعد أن ذهب إلى مصر فلم يجده، فسأل عنه فأخبر أنه في مجلس مشرف على البحر، فركب حاطب سفينته وحاذى مجلسه وأشار بالكتاب إليه، فلما رآه أمر بإحضاره إليه. فلما جيء به نظر إلى الكتاب وقرأه وقال الحاطب: ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه من قومه وأخرجوه من بلده إلى غيرها. واستعاد الكلام من حاطب مرتين فقال له حاطب: ألست تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله تعالى، لماذا لم يدع على اليهود عندما أرادوا قتله؟ قال: أحسنت أنت حكيم جاء من حكيم. ثم قال له حاطب: إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له اليهود وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى عليهما السلام إلا كبشارة عيسى بمحمد عليهما السلام. وما دعاءنا إياك إلى القرآن إلا كدعائكم لأهل التوراة إلى الإنجيل، ولسنا ننهاك عن دين المسيح عليه

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد**، مرجع سبق ذكره، ص ص.141-142.

السلام. فقال المقوقس: إني نظرت في أمر هذا النبي، وكنت أظن أنه سيخرج من الشام. وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم وثيابا وطيبا وألف مثقال من الذهب وفرسا وبغلة وأرسل مع الهدية طبيبا. فقبل صلى الله عليه وسلم الهدايا وأعاد الطبيب قائلا له: ارجع إلى بلادك نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا فلا نشبع. وذكر كتاب السيرة عن المغيرة بن شعبة أنه لما خرج مع بني مالك للمقوقس وذلك قبل إسلام المغيرة بن شعبة، قال لهم المقوقس: كيف خلصتم إلى محمد وأصحابه بيني وبينكم؟ قالوا ألصقناهم بالبحر قال: فكيف صنعتم فيما دعاكم إليه؟ قالوا: ما تبعه منا رجل واحد. قال: ولم ذلك؟ قالوا: جاءنا بدين مجرد لا يدين به الآباء ولا يدين به الملك، ونحن على ما كان عليه آباؤنا قال: فكيف صنع قومه؟ قالوا: تبعه أحداثهم وقد لاقاه من خالفه من قومه وغيرهم من العرب في مواطن، مرة تكون عليهم، ومرة تكون لهم. قال: ألا تخبرونني إلى ماذا يدعو؟ قالوا: يدعو إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له ونخلع ما كان يعبد الآباء ويأمر بصلة الرحم ووفاء العهد وتحريم الزنى والربى. ولا يأكل ما ذُبح لغر الله قال هو نبي مرسل للناس كافة، ولو أصاب القبط الروم تبعوه، وقد أمرهم بذلك عيسى بن مريم، وهذا الذي تصفون منه بعثت به الأنبياء من قبله؟ وستكون له العاقبة حتى لا ينازعه أحد ويظهر دينه إلى منتهى الحق ومنقطع البحور. قلنا: لو دخل الناس كلهم معه ما دخلنا فقال: إثم، ثم قال: كيف نسبه في قومه؟ قلنا: هو أفضلهم نسبا. قال: فكيف صدق حديثه؟ قلنا: ما يسمى إلا الأمين من صدقه قال: انظروا إلى أموركم أترونه يصدق فيما بينكم وبينه ويكذب على الله، وماذا قال اليهود؟ قلنا: خالفوه قال: هم قوم حسّد حسدوه وهم يعرفون من أمره مثلما نعرف. قال المغيرة، فقمنا من عنده وقد سمعنا كلاما ذللنا لمحمد"[1].

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد**، مرجع سبق ذكره، ص143.

نلاحظ من خلال رواية الأمير عبد القادر لهذه القصة تأكيده على وجوب الوفاء بالعهد في الإسلام، كما أن كل الأنبياء جاءوا بذلك أيضا وذلك من خلال سؤال المقوقس صاحب مصر عما يدعو إليه النبي محمد صلى الله عليه وسلم والإجابة التي رد بها أعداء الرسول (ص) كانت: "يدعو إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونخلع ما كان يعبد الآباء ويأمر صلة الرحم ووفاء العهد وتحريم الزنى والربى، ولا يأكل ما ذبح لغير الله"، فرد عليهم المقوقس بأن هذا ما جاء به كل الأنبياء من قبله.

إن الأمير عبد القادر يواصل سرد الروايات التاريخية التي تؤكد على ضرورة الوفاء بالعهود فيقول: "وذكر في كتب السيرة أن المسلمين لما قاتلوا الفرس طاردوهم فلحق سماك بن عبيد عظيما من عظمائهم يقال له دينار، فسأله الأمان فأمنه وأدخله على أمير الجيش حذيفة، فصالحه على البلد وقال إن لكم لوفاء بالعهد وأخاف عليكم خمسة أشياء، الخبء والبخل والغدر والخيلاء والفجور، وأضاف: يأتيكم الخبء من قبل القبط والخيلاء من قبل الروم والبخل من قبل فارس والغدر والفجور من قبل الأهواز. وذكر أبو جعفر الطبري أن جند الإسلام لما حاصروا جنديا صبور واخذوا يناوشونهم القتال وإذا بالمسلمين يوما يفاجؤون بأبوابها تفتح، ثم خرج الناس وخرجت الأسواق وأنبتت أهلها، فأرسل إليهم المسلمون أن ما لكم؟ قالوا رميتم إلينا بالأمان فقبلناه فقال المسلمون ما فعلنا وقال أهل جند ياسبور ما كذبنا، فسأل المسلمون فيما بينهم فإذا عبد يرعى الغنم أصله منها هو الذي كتب لهم أمانا ورمى به إليهم من فوق السور، فقال المسلمون: إنما هو عبد قال العدو: نحن لا نعرف حركم من عبدكم فقد جاءنا أمان فنحن عليه"[1].

ويذكر الأمير عبد القادر روايات أخرى عن الوفاء بالعهود في التاريخ الإسلامي. إلى أن يقول فيما يتعلق بنقض العهد: "فالإمام إذا استشعر خيانة العدو ينقض العهد نبذ العهد

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد**، مرجع سبق ذكره، ص144.

ورده إليهم وجوبا، وأخبرهم أخبارا مكشوفة فإنه لم يبق عهد بينه وبينهم ليتأهبوا ويأخذوا حذرهم. قال الشيخ خليل: وإن استشعر خيانة نبذه وأنذرهم. قال القاضي أبو بكر بن العربي إن قيل كيف ينقض العهد المتيقن بالخوف هو ظني، قيل إذا ظهرت آثار الخيانة والنقض منهم ودلت على ذلك دلائل وجب نبذ العهد خوف الوقوع في التهلكة بالتمادي. وسقط اليقين هنا بالظن للضرورة بهذه الجزئيات التي ذكرناها تدل وتبين أن الوفاء والصدق له مكانة عظيمة في شرع الإسلام"[1].

ثم يخبر الأمير عبد القادر المستعمر الفرنسي عن أن الأمة العربية أكثر وأشد الأمم التي تفي بالعهد وتستقبح الغدر وهذا تصريح واضح للأعداء عن فداحة فعلتهم بحق الأمير وأهله وأنصاره. وفي هذا الصدد يقول الأمير: "والأمم وإن كانت تفي بالعهد وتستقبح الغدر والكذب فالأمة العربية أكثر وأشد من جميع الأمم في ذلك لأنهم في جاهليتهم كانت لهم نفوس زكية، وأخلاق مرضية، وفعال كريمة، وهمم عظيمة، وعقول راجحة وآراء ناجحة، وشرف صميم، وأنفة من كل خلق ذميم، طبعوا على خصال الفضل والمروءة قبل أن تكون بينهم النبوة. قال مؤلف الدر والعقيان، الإمام الحافظ التونسي، روى عن شبيب بن أبي شيبة قال: كنا في مجلس اجتمع فيه كثير من الأشراف فورد علينا ابن المقفع وكان من أشراف الفرس، وحكمائها وعلمائها وعقلائها فقال لنا: من أفضل الأمم؟ فنظر بعضنا إلى بعض وقلنا لعله يميل إلى أصله، فقلنا فارس، فقال ليسوا هناك ملكوا كثيرا من الأرض، وحووا عظيما من الملك ولبثوا في ذلك دهرا فما استنبطوا بعقولهم شيئا فقلنا الروم إذا. فقال أصحاب صنعة، فقلنا الصين، فقال: أصحاب طرفة فقلنا الهند فقال: أصحاب فلسفة، فقلنا: الترك، فقال: أصحاب تربية، فقلنا: الخزر فقال: نعم سائمة، فقلنا: فمن؟ فقال: أفضل الأمم

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد**، مرجع سبق ذكره، ص146.

العرب، فضحكنا، فقال: إني ما أردت موافقتكم، ولكن إذا فاتني حظي من النسب، فلا يفوتني حظي من المعرفة والأدب"[1].

إذن نلاحظ أن الأمير عبد القادر يعتز بنسبه وانتمائه إلى الأمة العربية وهو يعرفهم بتاريخها فيقول عنهم كما أوردنا آنفا "أنهم في جاهليتهم كانت لهم نفوس زكية، وأخلاق مرضية، وفعال كريمة، وهمم عظيمة، وعقول راجحة، وآراء ناجحة، وشرف صميم، وأنفة فقلنا الروم إذا فقال أصحاب صنعة، فقلنا الصين، فقال: أصحاب طرفة فقلنا الهند فقال: أصحاب فلسفة، فقلنا: الترك، فقال: أصحاب تربية، فقلنا: الالخزر، فقال: نعم سائمة، فقلنا: فمن؟ فقال: أفضل الأمم العرب. فضحكنا، فقال: إني ما أردت موافقتكم، ولكن إذا فاتني حطني من النسب، فلا يفوتني حظي من المعرفة والأدب"[2].

إذن نلاحظ أن الأمير عبد القادر يعتز بنسبه وانتمائه إلى أمة العربية وهو يعرفهم بتاريخها فيقول عنهم -كما اوردنا آنفا- "أنهم في جاهليتهم كانت لهم نفوس زكية، وأخلاق مرضية، وأفعال كريمة، وهمم عظيمة، وعقول راجحة وآراء ناجحة، وشرف صميم، وأنفة من كل خلق ذميم، طبعوا على خصال الفضل والمروءة قبل أن تكون بينهم النبوة". فالأمير عبد القادر ينفي عن الشعب الجزائري الذي ينتمي إلى الأمة العربية صفة التوحش التي أراد المستعمر إلصاقها به، كما أنه ينسب إليها الأخلاق الفاضلة التي عمل المستعمر كل ما في وسعه لكي ينفيها عن هذه الأمة.

وفي آخر هذا الباب المتعلق بالوفاء بالعود عند المسلمين يورد بعض الأقوال والحكم التي تتعلق بالصدق والوفاء بالعهد والعدل والمروءة والشهامة حيث يقول: "قال بعضهم: وجاهة العقل اوقع في النفوس، ومخالفة الفعل للقول تنكس الرؤوس، وقال بعضهم وعد

---

(1) الأمير عبد القادر الجزائري، **المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد**، مرجع سبق ذكره، ص147.

(2) نفس المرجع، ص 147.

الكريم نقد وتعجيل، ووعد اللئيم مطل وتعليل. وقال بعضهم: شر الناس من يفتقد الأمانة ولا يتجنب الغدر والخيانة. وقال بعضهم: سعادة الإنسان في سلامة الصدر وصدق اللسان. وقال بعضهم: الفاضل يعجل بالوعد قولا ويعقبه بالإنجاز فعلا. وقال بعضهم: الخلف إنما يتصل باللئام من الأنام، ويأباه لخسته وشناعته وهو من أركان النفاق ومساوئ الأوصاف ورديء الأخلاق، وقال بعضهم: الكذب يزيل الهيبة ويذهب بهاء الوجه..." [1].

ومما سبق يتبين بأن الأمير عبد القادر قاوم بقلمه كما قاوم من قبل بسيفه، فهاهو يعزي ويفضح أفعال المستعمر الفرنسي الذي يحاول بالقوة إخضاع الشعب الجزائري له بجعل أبنائه عبيدا للفرنسيين، كما حاول محو ثقافته العربية الإسلامية، إلا أن الأمير عبد القادر كان له بالمرصاد فها هو يعتز بثقافته العربية الإسلامية التي تفي بالعهد وتستقبح السيطرة على الشعوب.

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد**، مرجع سبق ذكره، ص147.

الفصل السادس

المقاومة الثقافية في كتاب

ذكرى العاقل وتنبيه الغافل

1-أسباب كتابة ذكرى العاقل وتنبيه الغافل:

كان للأمير كما يقول الدكتور عبد الحميد حاجيات[1]، أثناء اعتقاله بفرنسا أنصار من الفرنسيين، أعجبوا ببطولته، واقتنعوا بشهامته ونبله، ودافعوا عنه إلى أن أطلق سراحه، ونال الأمير احترام الجمهور الفرنسي وتقديره، فاكتسب شعبية لا مثيل لها، وأصبح رجل الساعة وصار كبار الدولة يتنافسون في الحصول على صداقته، فينظمون الحفلات على شرفه ويستدعون الطبقة الراقية إليها. ولقد حظي الأمير بإعجاب الجميع لما أبداه من رباطة جأشه، ودماثة أخلاقه، ورقة مشاعره، وبداهة أجوبته.

ولما استقر في مدينة برسا، أبلغته الجمعية الآسيوية، من باريس أنها قررت قبوله كعضو من أعضائها، وعالم من علمائها، فرأى الأمير عبد القادر أن يؤلف كتابا ويبعث به إلى هذه الجمعية لتكون عضويته فيها قائمة عن مساهمة فعلية في المجال الفكري، وأرسل إليها كتابا عنوانه "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل"، وقد طبع بدون تاريخ وترجم إلى الفرنسية مرتين، أولاهما سنة 1858، والثانية سنة 1877.

2-مواضيع كتاب "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل":

لقد قسم الأمير كتابه هذا إلى ثلاثة أبواب وخاتمة[2]، وفي كل باب: فصل، وتنبيه، وخاتمة. أما المقدمة، ففي الحث على النظر وذم التقليد، وأما الباب الأول، ففي فضل العلم والعلماء، وفيه فصل في تعريف العقل، الذي به إدراك العلوم. وتكملة في القوى الأربع، التي إذا اعتدلت في الإنسان، يكون إنسانا كاملا. وتنبيه في: فضل إدراك العقل، على إدراك الحواس، وفضل مدركات العقل على مدركات الحواس. وخاتمة في: انقسام العلم، إلى محمود ومذموم. وأما الباب الثاني، ففي العلم الشرعي وفيه فصل في: إثبات النبوة، التي هي منبع العلوم الشرعية. وفيه تنبيه في: معرفة النبي، وما يتعلق بالنبوة. وخاتمة في:

---

[1] د. عبد الحميد حاجيات، **الأمير عبد القادر وإنتاجه الأدبي**، مرجع سبق ذكره، ص88.

[2] الأمير عبد القادر الجزائري، **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، مرجع سبق ذكره، ص ص.30-31.

المكذبين للأنبياء. وأما الباب الثالث: ففي فضل الكتابة وفيه فصل في: الكلام على كتابات الأمم، ومن وضعها، وما ينجر إلى ذلك. وتنبيه في: بيان حروف الكتابة العربية، وخاتمة في: احتياج الناس إلى التصنيف، وما يتعلق به. فأما في الباب الأول فهو يتضمن الحديث عن العلم وفضله والعقل وميزته على الحواس، وانقسام العلوم إلى محمودة ومذمومة.

وفيه يقول مبينا فضل العلم: "وأما شرف الإنسان، وخاصيته التي يتميز بها عن جميع الموجودات فهي العلم، وبها كماله. إذ كمال كل شيء وإنما يكون بظهور خاصيته التي امتاز بها عن غيره، ونقصانه هو خفاء تلك الخاصية... وخاصة الإنسان هي معرفة حقائق الأشياء على الوجه الذي هي عليه بحيث يرتفع عن بصيرته حجاب الشك ويتيقن حقائقها منكشفة له وبكمال هذه الخاصية ونقصانها يفضل بعض أفراد الإنسان بعضا إلى أن يعد واحد بألف (كما ورد في قول الشاعر).

ولم أرى أمثال الرجال تفاوتت　　　إلى المجد حتى عد ألف بواحد

وقوله:

والناس ألف منهم كواحد　　　وواحد كالألف إن هو أمر

ولا شيء أقبح من الإنسان مع ما فضله الله به من القدرة على تحصيل الكمال بالعلم، أن يهمل نفسه ويعريها من هذه الفضيلة.

ولم أر في عيوب الناس شيئا　　　كنقص القادرين على الكمال"[1]

ثم تحدث الأمير عبد القادر عن الفضائل التي ينبغي توفرها لدى الإنسان الكافل فقال قوة العقل هي إحدى القوى الأربع التي، إذا اعتدلت في الإنسان يكون إنسانا كاملا، وهي قوة العقل وقوة الشجاعة وقوة العفة وقوة العدل. فأمهات الفضائل هي الأربعة: العلم والشجاعة والعفة والعدل، فمن جمع هذه الأربعة على الكمال استحق أن يكون بين الخلق

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، نقلا عن عبد الحميد حاجيات، مرجع سبق ذكره، ص89.

ملكا ومطاعا يرجع الخلق كلهم إليه ويقتدون به"[1]. ثم يضيف قائلا: "ومن تعرى عن هذه الأربعة كلها، واتصف بأضداده، استحق أن يخرج من بين العباد، ويطرد من البلاد". وهذه الجملة الأخيرة، التي لا توجد إلا في النسخة المخطوطة، قد تبدو في غاية التشدد والعنف، الأمر الذي جعل ناشر الكتاب يحذفها في طبعته، غير أنها تتفق، إلى حد بعيد، مع ما اتصف به الأمير من حزم وصرامة في تطبيق الشريعة.

ثم يعالج الأمير موضوع طرق إدراك الحقائق، ويقارن بين الحس والعقل فيبين أن الحس قد يخطئ في إدراكه فإنه يدرك الصغير كبيرا كالنار البعيدة في الظلمة...، ويرى الموجود معدوما كالتراب في الصحراء فإنه يرى ماء... ثم يواصل الأمير حديثه قائلا: "ولهذا قال أفلاطون وأرسطو وبطليموس وجالينوس: الحسيات غير يقينية، بمعنى أن جزم العقل بالحسيات ليس بمجرد الحس، بل لابد مع الإحساس من أمور تنضم إلى الحس لا تعلم ما هي، وحينئذ يجزم العقل بما جزم به من المحسوسات. وهذه القوة العقلية، باعتبار إدراكها للكليات والحكم بينها بالنسبة السلبية والإيجابية، تسمى العقل النظري، وباعتبار استنباطها للصناعات الفكرية مما ينبغي أن يفعل أو يترك، تسمى العقل العملي. وقد اعتن علماء فرنسا ومن حذا حذوهم باستعمال العقل العملي وتصريفه، فاستخرجوا الصنائع العجيبة والفوائد الغريبة، فاقوا بها المتقدمين وأعجزوا المتأخرين، رقوا بها أعلى المراقي، وحصل لهم بها الذكر الباقي، فلو استعملوا مع هذا العقل النظري في معرفة الإله وصفاته، وفي معرفة حكمته في خلق السموات والأرض وما يلزم للإله من الكمال وما يتقدس عنه من النقص، وما يمكن في حقه أن يفعله وأن لا يفعله، لكانوا حازوا المرتبة التي لا تدرك والمزية التي لا تشرك، ولكنهم أهملوا استعمال هذه القوة النظرية حتى أنه لا يسمع منهم لها ذاكر، ولا يعثر عليها في كتبهم ناظر..." [2].

---

[1] نفس المرجع، ص89.

[2] الأمير عبد القادر الجزائري، **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، مرجع سبق ذكره، ص ص.30-31.

أما الباب الثاني، فإنه يهدف إلى إثبات العلم الشرعي، ويدور خاصة حول إثبات النبوة، وحاجة الإنسان إلى العلوم الدينية، فيما يصلحه في حياته الروحية ومعاملته للناس وغير ذلك، ويطرق موضوع اختلاف الناس في الدين وتعصب بعضهم ضد الآخر، وموقفه من ذلك فيقول:

"الدين واحد باتفاق الأنبياء، وإنما اختلفوا في بعض القوانين الجزئية فهم كرجال أبوهم واحد وأمهاتهم متعددة، فتكذيب جميعهم أو تكذيب البعض وتصديق البعض قصور. ولو أصغى إلي المسلمون والنصارى لرفعت الخلاف بينهم، ولصاروا إخوانا ظاهرا وباطنا، ولكن لا يصغون إلى ما سبق في علم الله أنه لا يجمعهم على رأي واحد.. ولو جاء من يريد معرفة طريق الحق، وكان يفهم لساني فهما كاملا. لأوصلته إلى طريق الحق من غير تعب لا بأن يقلدني، بل يظهر له الحق حتى يعترف به اضطرارا. وعلوم الأنبياء من حيث خطابهم للعامة دائرة على ما يصلح الناس في معاشهم ومعادهم وما جاءوا ليجادلوا الفلاسفة، ولإبطال علوم الطب ولا علوم النجم ولا علوم الهندسة، وإنما جاؤوا باعتبار هذه العلوم على وجه لا يناقض التوحيد ونسبة كل ما يحدث في العالم إلى قدرته وإرادته سبحانه. فما جاؤوا لمنازعة من يقول الجسم مركب من العناصر الأربعة، ولا من يقول أن الأرض كروية الشكل، ولا من يقول أن خسوف القمر بسبب توسط الأرض بينه وبين الشمس، فإن أمثال هذه الأمور لا تضاد ما جاءت به الأنبياء، وبحث الأنبياء في العالم إنما هو عن كونه حادثا أو قديما، ثم إذا ثبت حدوثه، فسواء كان كرة أو بسيطا، وسواء كانت السماوات وما تحتها ثلاث عشرة طبقة أو أقل أو أكثر، فالمقصود كونه من فعل الله. ومن قال هذا مناقض للدين، أو المنازعة فيه من الدين، فقد جنى على الدين، وضرر الشرع من جهة من ينصره لا بطريقة أكثر ممن يطعن فيه[1].

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، مرجع سبق ذكره، ص ص.107-108.

ويختم هذا الباب بقوله: "إن المكذب للأنبياء المستغني بعقله عما طووا به من الأعمال والعبادات، مغرور، وكل ما جاء في فضل العلم وذم الجهل، فهو دليل على ذم الغرور، لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل، إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء على خلاف ما هو عليه..." (1).

وأما الباب الثالث والأخير، فإنه يتناول موضوع الكتابة وفضلها، وأنواع الكتابات عبر العصور، ومنزلة الكتابة العربية منها، وينتهي هذا الباب بخاتمة انتصر فيها الأمير للتجديد والإبداع، فقال: "من الناس من ينكر التأليف والتصنيف وكتابة العلوم في هذا الزمان. وهذا الإنكار خطأ، إذ لا وجه لإنكار التصنيف إذا صدر من العلماء الكاملين البالغين مرتبة التصنيف، وإنما يحمل هذا المنكر على إنكار التنافس والحسد الجاري بين كل متعاصرين، ولله در من قال:

قل لمن لا يرى المعاصر شيئا إن ويرى الأوائل التقديما
ذاك القديم كان حديثا وسيبقى هذا الحديث قديما

ثم ينتقل إلى الحديث، عن التصانيف، وأنواعها من حيث الحجم ومن حيث النوع، وكيفية التصنيف، منتهيا بعرض موجز حول نشأة حركة تدوين العلوم في الإسلام، وحركة ترجمة كتب الحضارات القديمة في الدور الأول من الخلافة العباسية وأخيرا، تعالج خاتمة الكتاب، موضوع انقسام الناس بحسب العلوم والمعارف واختلاف المذاهب، مستعرضا أمم العالم المشهورة بدورها الحضاري والفكري، كالهنود والفرس واليونان والروم والفرنج والعرب والعبرانيين.

وتنتهي الخاتمة بنظرية مفادها أن تفاوت الناس في العقول والأخلاق والمعارف راجع إلى اختلاف موقع بلدانها من خط الاستواء، وما يترتب عن ذلك من اختلاف في تأثرها بحركة الكرة الأرضية حول الشمس.

---

(1) الأمير عبد القادر الجزائري، **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، مرجع سبق ذكره، ص109.

يقول الدكتور عبد الحميد حاجيات: عن كتاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل "ينبئنا عن سعة ثقافة الأمير، ومواقفه من الحضارة الغربية المعاصرة له، ومدى تأثره بما امتازت به هذه الأخيرة من اختراعات وازدهار صناعي وعلمي. والذي يمكن استخلاصه هو أن الأمير لم يحد عن أصالة الثقافة العربية الإسلامية، وإنما حاول الخروج من التقوقع والتزمت، والتفتح على ما طرأ من تقدم على الحضارة الإنسانية، بغية الالتحاق بركب الدول المتقدمة"(1).

3- **المقاومة الثقافية في كتاب "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل"**:

ربما المقاومة الثقافية في هذا الكتاب تتجلى من خلال حديثه عن أصول العلوم من الفلاحة، الحياكة، السياسة والحجامة فهو يخبر علماء باريس بأن الجزائر مجتمع يحتوي على العلماء والعلوم على عكس ما يصوره المستعمر الفرنسي من أن هذا الشعب متوحش ليس لديه علوما ولا صنائع وفي هذا الصدد يقول: "ولما كان العلم، هو كمال الإنسان، كان كل إنسان، محبا للعلم بالطبع، ويشتهيه، ويفرح إذا نسب إلى العلم، ولو قليلا،... ويحزن إذا دفع عن رتبة العلم، ويلتذّ الإنسان بالعلم، لذاته ولكماله، لا لمعنى آخر، وراء الكمال..."(2). ونجد الأمير هنا يتحدث عن العلم والعلماء وعن فضل العلم، وهو يقول: "وإذا ثبتت فضيلة العلم، كان تعلمه أفضل، وبيانه، أن مقاصد الخلق، مجموعة في انتظام الدين والدنيا، ولا نظام للدين، إلا بانتظام الدنيا. وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين، وأعمالهم وصناعاتهم وحرفهم، تنحصر في ثلاثة أقسام: أحدها، أصول لا قوام للدنيا إلا بها، وهي أربعة، الزراعة وهي للمطعم، والحياكة، وهي للملبس، والبناء، وهو للمسكن. والسياسة، وهي للتآلف والاجتماع والتعاون على أسباب أمر المعيشة.

---

(1) عبد الحميد حاجيات، مرجع سبق ذكره، ص92.

(2) الأمير عبد القادر الجزائري، **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، مرجع سبق ذكره، ص41.

القسم الثاني: ما هي مهيأة لكل واحد، من هذه الصناعات، وخادمة لها، كالحدادة، فإنها تخدم الزراعة، وجملة من الصناعات، بإعداد آلاتها وكالحلاجة والغزل، فإنها تخدم الحياكة، بإعداد عملها. القسم الثالث: ما هي متممة للأصول، كالطحن والخبز للزراعة، وكالقصارة والخياطة للحياكة، وذلك بالإضافة إلى قوام أمر العالم الأرضي... وأشرف الصناعات، أصولها السياسة. ولذلك تستدعي، هذه الصناعة، من الكمال في من يتكفل بها، ما لا تطلبه سائر الصناعات. فلذلك يستخدم صاحب هذه الصناعة، جميع أصحاب الصناعات"[1].

ثم يتحدث الأمير عن التفاضل بين هذه العلوم فيقول: "وشرف العلوم والصناعات، يدرك بثلاثة أمور: إما بالالتفات إلى الآلة، التي يتوسل بها إلى معرفتها، كفضل العلوم العقلية، على العلوم اللغوية، إذ تدرك الحكمة بالعقل، واللغة بالسمع، والعقل أشرف من السمع. وإما بالنظر إلى عموم النفع، كفضل الزراعة على الصياغة، وإما بالنظر إلى المحل، الذي فيه التصرف، كفضل الصياغة على الدباغة"[2].

كما أن الأمير تحدث في هذا الكتاب عن القوى الأربع التي لا يكتمل الإنسان إلا بها وهي: قوة العقل، وقوة الشجاعة، وقوة العفة، وقوة العدل وقد كان قد تناولها بالدرس في كتابه المقراض الحاد... كما رأينا سالفا. ثم إن الأمير يتحدث عن العلوم الشرعية وأهميتها للإنسان، وهو يقول في هذا الصدد: "فالعلوم التي تحل في العقل، تنقسم إلى: عقلية وشرعية. أما العقلية، فنعني بها: ما تحكم به غريزة العقل، ومن غير تقليد وسماع. وهي تنقسم إلى: ضرورية، كعلم الإنسان، بأن الشخص الواحد، لا يكون في مكانين في آن واحد. وبأن الشيء لا يكون موجودا معدوما... وإلى علوم مكتسبة، وهي المستفادة بالتعلم والاستدلال والنظر.

---

(1) الأمير عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، مرجع سبق ذكره، ص47.

(2) نفس المرجع، ص48.

وأما العلوم الشرعية، فهي المأخوذة عن الأنبياء، وذلك يحصل بالتعلم، لكتب الله المنزلة، مثل: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان. وفهم معانيها، بعد السماع. وبها يكمل العقل، ويسلم من الأمراض"[1].

والأمير يتحدث عن العلوم الشرعية بوصفها العمود الفقري للأمة الإسلامية بل للحضارة الإنسانية، وبذلك فهو يشير إلى أن المستعمر لا يستطيع النيل منها والقضاء عليها في المجتمع الجزائري. ثم يتحدث عن الكتابة وفضلها فيقول فيها: "والكتابة أشرف، وأنفع، من الإشارة واللفظ. لأن القلم، وإن كان لا ينطق، فإنه يُسمع أهل المشرق، وأهل المغرب. فما جمعت العلوم ولا قيّدت الحكمة ولا ضبطت أخبار الأولين، ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة، إلا بالكتابة، ولولا الكتابة، ما استقام للناس دين ولا دنيا... ومن فضل بيان البنان، أن ما تثبته الأقلام، باق مع الأيام، وبيان اللسان، تدرسه الأعوام. وقوام الدين والدنيا، بشيئين: السيف والقلم. والسيف، تحت القلم. ولله در من قال:

كذا قضى الله للأقلام مذ بُريت

أن السيوف لها – مذ أرهفت – خدم[2]

يتبين مما سبق أن الأمير عبد القادر يقر بأهمية القلم إلى جانب السيف فلسان حاله يقول أنه مازال مجاهدا مادام يرفع القلم في وجه الأعداء.

والأمير يواصل سرد أهمية الكتابة في تطور العلوم فيقول: "عقل الإنسان الواحد، لا يقدر على استنباط العلوم الكثيرة، فصار الإنسان، إذا استنبط مقدارا من العلم، أثبته بالكتابة. فإذا جاء إنسان آخر، ووقف عليه، قدر على استنباط شيء آخر، زائد على ذلك الأول، فظهر أن العلوم إنما كثرت بإعانة الكتابة"[3].

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **ذكرى العاقل وتنبيه** الغافل، مرجع سبق ذكره، ص83.

[2] نفس المرجع، ص ص.116-117.

[3] نفس المرجع، ص119.

ثم يتحدث الأمير عبد القادر عن الكتابة العربية في ضوء حديثه عن كتابات الأمم فيقول: "وأما الكتابة العربية، فالصحيح، أن أول من خطّ بالعربي مرامر بن مرّة. وكان يسكن الأنبار. ومن الأنبار، انتشرت الكتابة في العرب. واصل الخط العربي، هو الخط الكوفي. والنقط، حادث في الخط العربي، حدث بعد الإسلام. والذي نقل الكتابة، من الأنبار إلى الحجاز، حرب بن أمية، جد الملوك الأموية. وهذه الطريقة الموجودة الآن، أخرجها من خط الكوفيين، وأبرزها في هذه الصورة، أبو علي محمد بن مقلة، وزير المقتدر بالله العباسي. ثم جاء بعده، أبو الحسن علي بن هلال، المعروف بابن البواب، فهذّب هذه الطريقة، وكساها طلاوة وبهجة، وهذه الكتابة العربية، قريبة الحدوث لأن العرب كانوا أهل حفظ ورواية. أغناهم حفظهم عن الكتابة. وكانت أشعارهم هي دواوين تواريخهم[1]، وضابطة لأيامهم وحروبهم. ولم يكن فيها عالم معروف، ولا حكيم مذكور.

إن الأمير عبد القادر معتز بانتمائه إلى الأمة العربية الإسلامية فهو يقدم نفسه للعالم من خلال كتابته عن لغته العربية، كما أنه يناضل ويقاوم مقاومة ثقافية من خلال كتابته عن اللغة العربية ولسان حاله يقول: "اللغة العربية هي لغة الجزائريين وهم معتزون بها، ومتمسكون بها، ولا يريدون أن تحل اللغة الفرنسية محلها". فها هو يتحدث عن الحروف العربية قائلا: "حروف الكتابة العربية، أكثر من حروف جميع كتابات الأمم فإنها ثمانية وعشرون حرفا وهي: "أبجد، هوّز، حُطي، كلمن، سعفص، قرشت، تخذ، ضظغ" ويعبرون عنها "بأبجد". وهي عبارة عن ثمان كلمات مشهورة، مفتتحة بهذه الكلمة جمع فيها حروف الكتابة العربية، بلا تكرير. وقد جرت العادة بتعليمها المبتدئين، بعدما علموهم حروف الهجاء، مفرداتها ومركباتها الثنائية، على ترتيب مألوف للطباع، منشط لهم، على أخذه وضبطه. والفائدة في ذلك، هو التنبيه للمبتدئ، بعد تعلّمه المفردات والثنائيات، أن في الكلام، تركيبات ثلاثيات ورباعيات، غير منتظمة على نظام مألوف ليستأنس بوقوع المخالفة

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، مرجع سبق ذكره، ص124.

بين الحروف، فيسهل عليه الشروع في الكلام المطلق. وفيه فائدة أخرى، وهي إيناس المبتدئين بألفاظ مستعملة، في معنى من المعاني، بعدما كانوا يستعملون تركيبات من الحروف مهملة، لا معنى لها. ويؤيد هذا، أن معنى أبجد، أخذ، ومعنى هوّز ركّب. ومعنى حطي، وقف على المقصود. ومعنى كلمن، صار متكلما. ومعنى سعفص، أسرع في التعلم. ومعنى قرشت، أخذه بالقلب. ومعنى تخذ، حفظ. ومعنى ضظغ، أتمّ. وتكون كلها على صفة الماضي، من الثلاثي أو الرباعي. فمعنى المجموع على ترتيبها: "أخذ، ركب، وقف على المقصود، صار متكلما، أسرع في التعلم، أخذه بالقلب، حفظ، أتمّ. وعلى هذا، يمكن اعتبار فائدة أخرى فيها، وهي تأليف المبتدئين بالمعاني المربوطة، بعضها ببعض، بنوع من الارتباط، ليتفطن المتعلم الذكي، إذا عرفها إلى أن الأهم له، اللائق به، في حال التعلم، ما يُفهم من هذه الكلمات من: الأخذ، والتركيب، والوقوف على المقصود، وتكرار التكلم، والإسراع في التعلم، والإقبال عليه بالقلب، وحفظه له والقيام بحقه من الإتمام وغيره.

وأما قول صاحب القاموس، وأبجد إلى قرشت، وكلمن رئيسهم، ملوك مدين. وضعوا الكتابة العربية، على عدد حروف أسمائهم، هلكوا يوم الظلة... إلى أن قال: ثم وجدوا بعدهم: ثخذ ضظغ، فسموها الروادف !! فهو قول غريب، من صاحب القاموس، بعيد عن الصواب، لا تخفى غرابته، من وجوه كثيرة وهذه الكلمات الثمانية، فدعوا عليها، من قديم الزمان، الحساب المشهور "بالجمل" (بضم/ الجيم، وفتح الميم). فإن جميع حروف الهجاء، المجموعة فيها: ثمانية وعشرون حرفا، فجعلوا سبعة وعشرين حرفا منها: لأصول مراتب الأعداد، من الأحاد والعشرات والمئات. وواحدا للألوف فلم يحتاجوا – معها – إلى ضمّ شيء آخر إليها أصلاً، فضلا عن تكرارها، كما احتاج أهل الهند، في أرقام حسابهم إلى ضم علامة صفر في عشراتهم، وصفرين في مئاتهم، وثلاثة في أحاد الآلاف وهكذا.

فيحصل المقصود في جميع المراتب، من نفس هذه الحروف، بالأفراد والتركيب والتقديم والتأخير، كما هو مقرر معروف"[1].

وبعد حديث الأمير عبد القادر عن الكتابة العربية شرع في الحديث عن مرحلة التدوين في التاريخ الإسلامي فهو كما أسلفنا معتّز بثقافته الإسلامية وتاريخ الحضارة الإسلامية إذ يقول: "لما انتشر الإسلام، واتسعت مملكته، وحدثت الفتن، شرعوا في تدوين الحديث النبوي، وقوانين الشريعة، واشتغلوا بالنظر والاستدلال، والاستنباط، وتمهيد القواعد والأصول، وترتيب الفوائد والفصول. وكان ذلك مصلحة عظيمة. ومع هذا فالسند عند علماء الإسلام، شرط في العمل. بما في الكتب، والاحتجاج بها. والسند، هو أن يعطي المصنف، كتابه إلى آخر، ويقول له: أخنت لك أن تروي عني هذا الكتاب ويعطيه الذي أخذه عن المصنف، إلى آخر بهذا الشرط. وهكذا نسبة كل علم. وإذا عدم هذا السند في كتابه يكون غير معتبر، ولو تكون فيه العلوم الكثيرة..." وأما علوم الأوائل، والفلاسفة فإنها كانت في صدر الإسلام، مهجورة إلى دولة بني العباس. وكان أول من اعتنى منهم بالعلوم، أبو جعفر المنصور. وكان مقدما في علم الفلسفة والنجوم. ثم لما وصلت الخلافة إلى المأمون بن الرشيد، تمم ما بدأ به جده. واستخرج العلم، من معادنه بعلو همته، فراسل ملوك الروم، وسألهم كتب الفلاسفة، فبعثوا إليه من كتب: أفلاطون، وأرسطو، وسقراط، وجالينوس، وأقليدس، وبطليموس... وغيرهم. وأحضر لهذه الكتب مهرة المترجمين فترجموا له، على غاية ما أمكن. ثم ألزم الناس قراءتها، ورغّبهم في تعلمها".[2] إذن نجد الأمير يسرد قصة تدوين العرب لعلومهم وترجمتهم لكتب أرسطو وأفلاطون فهو بهذا يقول أن الأمة العربية الإسلامية ومن بينها الجزائر أمة علم وحضارة راسخة في تاريخ البشرية.

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، مرجع سبق ذكره، ص ص.129-131.

[2] نفس المرجع، ص ص.138-140.

والأمير عبد القادر في خاتمة كتابه ذكرى العاقل وتنبيه الغافل يتحدث عن انقسام الناس بحسب العلوم والمعارف واختلاف المذاهب فيقول:

"اعلموا أن الناس قسمان: قسم اعتنى بالعلوم، فظهرت منهم أنواع المعارف فهم صفوة الله من خلقه، وقسم لم يعتن بالعلوم، عناية يستحق بها اسمه. فالأول، أمم، منهم: الهند، والفرس، واليونان، والروم، والإفرنج، والعرب، والعبرانيون، وأهل مصر. والثاني بقية الأمم"·

وعلى هذا فالأمير اعتبر العرب من الأمم التي اعتنت بالعلوم وهذا على عكس ما كان يروج له الاستعمار الفرنسي بأن الجزائريين شعب لا تاريخ له ولا حضارة لديه، وفي هذا مقاومة ثقافية من الأمير ضد الأساطير التي كان يبثها المستعمر. وفيما يلي كلام الأمير عن العرب: "وأما العرب فهم من ولد سام بن نوح وهم الأمة الرحالة، الخيام، لسكناهم، والخيل، لركوبهم، والأنعام لكسبهم. يقومون عليها، ويقتاتون بألبانها، ويتخذون اللباس والأثاث من أوبارها وأشعارها. ويحملون أثقالهم على ظهورها ويبتغون الرزق – في غالب أحوالهم – من الصيد، وقطع الطرق والغارات على من جاورهم من الأمم، ومساكنهم ما بين البحر المحيط، من المغرب، إلى الأقصى اليمن والهند، من المشرق. وما بين ذلك، كمصر، وصحارى برقه، وإفريقية، والزاب، والمغرب الأقصى، والسوس. فما انتقلوا إلا في المائة الخامسة وكانت لهم دول عظيمة وآثار كريمة. وصل ملكهم إلى طنجة، من المغرب. وإلى سمرقند من المشرق، في الجاهلية وكانوا في الجاهلية، أصنافا: صنف اعترف بالخالق، وأنكر البعث وصنف عبدوا الأصنام، وصنف عبدوا الملائكة وكان منهم من يميل إلى اليهودية، ومنهم من يميل إلى النصرانية، ومنهم من يميل إلى الصابئة. وكانت بقيت عندهم، بقايا من دين إسماعيل ابن إبراهيم الخليل فكانوا لا ينكحوا الأمهات ولا البنات، والأخوات، ولا يجمعون بين الأختين، وكان يحجون البيت ويغتسلون من الجنابة، ويداومون على المضمضة، والاستنشاق، والسواك والاستنجاء، ونتف الإبط، وحلق العانة، والختان، ويقطعون يد السارق، ويعطون دية المقتول، مائة من الإبل، ويطلقون، وتعتد المرأة، التي

مات زوجها، لسنة، وكانت علومهم علم الأنساب، والنجوم، وتعبير الرؤيا، ونظم الأشعار، والخطب. وليس يصل إلى أحد من أهل المشرق والمغرب، خبر إلا بالعرب. وذلك أن من سكنوا مكة، أحاطوا بأخبار أهل الكتابين: التوراة والإنجيل. ومن سكن الحيرة علم أخبار فارس، ومن سكن الشام، عرف أخبار الروم واليونان وبني إسرائيل. ومن سكن البحرين، علم أخبار الهند والسند وكانوا يفتخرون بالبيان في الكلام، والفصاحة في المنطق، والوفاء بالعهد وإكرام الضيوف، وعلو الهمة... يجود أحدهم بقوته، ويتفضل بمجهوده، ويشارك في ميسوره ومعسوره، ويصف الشيء بعقله، فيكون قدوة. ويفعله فيصير حجة. ويحسّن ما شاء، فيحسن، ويقبّح ما شاء، فيقبح، رفعتهم عقولهم، وأعزتهم هممهم، حتى نالوا أكرم الفخر، وبلغوا أشرف الذكر، فلما شرفهم الله، بالرسول محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) وهم على هذه الأخلاق الجميلة، والفضائل الجليلة، تنافسوا في زيادة الفضائل، وتسابقوا إلى نيل العلوم والمعارف، فاكتسبوا منها، ما لم يكتسبه الأوائل. وأثروا الآثار العظيمة في أقرب مدة، من بناء المدائن وعمل القناطر وفتح الخلجان. فقد أجرى موسى بن نصير، البحر، اثني عشر ميلا، إلى دار الصناعة بتونس، وصنع مائة مركب، وغزا صقلية وأخذها. ووصل عمرو بن العاص بين النيل وبحر القلزم، في مدة سنة، وجرت فيه السفن، من خلافة عمر ابن الخطاب، إلى ما بعد خلافة عمر بن عبد العزيز. احتقره من الخليج، الذي في ناحية القسطاط. وقال له: خليج أمير المؤمنين، وساقه إلى القلزم. ثم ضيعه الولاة وترك، وغلب عليه الرمل، وانقطع. وصار منتهاه إلى ذنب التمساح.

وتيسر لهم من التصنيف، في أنواع العلوم، ما لم يتيسر لأحد قبلهم، حتى إن منهم من بلغت تصانيفه في أنواع العلوم: ثلاثة آلاف مصنف وزيادة. يحكى أن خزانة الكتب بمصر، في دولة صحيحة، بلغت ألفي ألف مصنف، وستمائة ألف مصنّف. وفي بعض التصانيف مائة مجلد، إلى ثلاثمائة مجلد، كتفسير الرازي، وغيره. وبلغ ملكهم، حيث لم يبلغ

ملك أمة قبلهم من آدم إلى الآن. ثم بدا فيهم النقص. غير الله بهم، حيث غيروا بأنفسهم، شأن الأمم... وكل شيء بلغ الحدّ، انتهى[1].

وعلى هذا فإن الأمير عبد القادر من خلال كتابه ذكرى العاقل وتنبيه الغافل أظهر للعالم بأن الجزائر لها تاريخ تعتز به، وحضارة إسلامية تنتمي إليها، اعتنت بالعلوم كما بينا فيما سبق. كما أن كلام الأمير عبد القادر عن الكتابة العربية شارحا بعض ما يتعلق بها فيه، اعتزاز بها ورفض قاطع لمحوها من طرف الاستعمار الفرنسي الاستيطاني الذي عمل منذ دخوله إلى الجزائر على محو مقومات الشخصية الجزائرية من عروبة وإسلام وذلك من خلال هدم المساجد والمدارس وتهجير للعلماء كما رأينا في الفصل الثالث (حول المقاومة الثقافية للأمير عبد القادر).

---

[1] الأمير عبد القادر الجزائري، **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**، مرجع سبق ذكره، ص ص.157-161.

الفصل السابع

المقاومة الثقافية من خلال

شعر الأمير عبد القادر

1- شعر الأمير عبد القادر:

لقد نظم الأمير عبد القادر شعرا في شبابه ضاع معظمه لسببين على الأقل هما: انهماك الأمير في بناء دولته الفتية وحربه ضد المستعمر الفرنسي من جهة، واستيلاء العدو على مكتبة بيته في مدينة "الزمالة" التي أودع فيها مذكراته الخاصة، وربما بعض أشعاره من جهة ثانية.

ويؤيد تفسيرنا هذا قول ابنه محمد جامع ديوان "نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر" "وهذا آخر ما عثرت يدي عليه من معظمه، حيث أنه لم يعتن بجمعه أيام الحياة، ولذا أعجزني جمع بعضه، وأكثره قد حل به الشتات".

يقع ديوان النزهة المذكور، في ثمان وخمسون صفحة، اقتصرت الأولى منها على ذكر عنوان الديوان واسم المطبعة التي قامت بطباعته. وابتدأت الصفحة الثانية بالبسملة فالحمد فالصلاة على رسول الله تبع ذلك مقدمة جامع للديوان التي لم تتجاوز بضعة أسطر قال فيها: "قد سنح بفكري أن أرتب ما عثرت عليه يدي من كلام سيدي ومولاي ناصر الدين الأمير عبد القادر بن محي الدين ولم أتعرض لذكر ما له من النظم في الحقيقة، واللطائف، حيث أنه أثبتها في كتابه المسمى بالمواقف".

المعروف أن معظم قريض الأمير في الحقيقة واللطائف جاء في الشطر الثاني من حياته، حيث ألف كتاب "المواقف" فيكون قد جمعه وأثبته في الكتاب. وقول ابنه هذا يكرس الضياع في فترة شبابه التي أمضاها في وطنه يبني الدولة ويحارب الاستعمار، لا في "أيام حياته" بالمعنى الواسع، الذي ورد في قوله السابق "لم يعتن بجمعه في حياته". وهكذا يستقيم لنا الرأي في أن الضياع وقع فيما نظمه أثناء شبابه، وبالذات في حياته السيفية، أما فترة

الأربع سنوات التي عاشها في المنفى، على قصرها زمنيا بالقياس إلى حياته، فالأرجح أنه كان يدون ما نظمه فيها، لتوفر أسباب التدوين لديه[1].

وفيما سنذكر قصائد الأمير حتى نتعرف على شعره:

كان الأمير على صلة متينة مع علماء المشرق العربي وأدبائه، طيلة الشطر الثاني من حياته، وهو الذي قضاه في مدينة دمشق، وقد أهدى إليه مفتي الديار الدمشقية السيد محمود الحمزاوي كتابا ألفه في علوم الفقه والتفسير، فنال إعجاب الأمير ونظم فيه المقطوعة التالية:

سرح سوادك، والطروس سماء
ما للسمالك، لدى العروس علاء
حمدا للمهم أوحد العلماء
محمود، علوما مالها إحصاء
هو أعلم العلماء، وأحد عصره
هو، طود سر هدى له إهداء
وهو الإمام، وأهل كل محامد
ما دعد ما علوي. وما أسماء
أهدي الورى السحر الحلال وكم له
همم، لها دوما على وولاء
لله ما أحلى، وأملح موردا
ومحامدا، لعلومها إملاء
والله ودهم، وأعطاهم حمى
سرا علاه، للسماك سماء
لله ما أحلى، وأملح موردا
أهداه، وهو إلى الهموم دواء[2]

---

[1] زكريا صيام، **ديوان الأمير عبد القادر**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، لم تذكر مكان النشر، ص ص.59-60.

[2] زكريا صيام، مرجع سبق ذكره، ص.95-96.

في التاسع والعشرين من شهر مايو (أيار) سنة ألف وثمانمائة واثنين وثلاثين، جهز السيد محي الدين والد الأمير سرية للقاء العدو في وهران، فأرسل عبد القادر بن زيان لاستكشاف القوات المعادية ، فوجدها تعسكر في ساحة المدينة، بالموضع المعروف "بخنق النطاح"، وأتى بالأخبار إلى السيد محي الدين، فجمع الناس وسار بهم إلى مكان يطل على العدو، وبات المسلمون يوقدون النار على التلال، حتى كانت صبيحة اليوم التالي، فزحف كل من الفريقين باتجاه الآخر، ودارت بينهما رحى الحرب الشديدة، واستبسل جيش المسلمين وكان الأمير واحدا من فرسان تلك المعركة، وقد حمل عليه فارس من الأعداء برمح مر في خلو ابطه الأيسر، فشد عليه بعضده وهو على الفرس، فقده بسيفه نصفين، وما أن تولى نهار ذلك اليوم حتى وقعت الهزيمة في صفوف الأعداء وتحقق النصر للمسلمين وامتلأت أيديهم بالغنائم. وقد تركت هذه المعركة أثر كبيرا في نفوس المسلمين عامة وفي نفس الأمير خاصة فنظم المقصورة التالية:

توسد بمهد الأمن، قد مرت النوى
وزال لغوب السير، من مشهد النوى
وعر جيادا، حادا بالنفس كرها
وقد أشرفت – مما عراها – على التوى
ألا، كم جرت طلقا بنا تحت غيهب
وخاضت بحار الال، من شدة الجوى
وكم من مفازات يضل بها القطا
قطعت بها، والذئب من هولها عوى
وقد أصبحت مثل القسى ضوامرا
وتلك سهام للعدى، وقعها شوى
إلى أن بدت نيران أعلامنا لها
وفي ضوء نيران الكرام، لها صوى

ولاسيما أهل السيادة مثلنا

بنو الشرف المحض المصون عن الهوى

فقالت، أيا ابن الراشدي، لك الهنا

كفى فاترك التيسار، وأحمد وجى النوى[1]

ألا يا ابن خلاد، تطاولت للعلى

وباينت مأواك الكريم وما حوى

فمن أجل ذا، قد شد في ربعنا لها

عقال، ونادينا لك العز قد نوى

وحل بكهف لا يرام جنابه

فمن حل فيه، مثل من حل في طوى

فأنا أكاليل الهداية والعلى

ومن نشر علياها، ذوى المجد قد طوى

فنحن لنادين، ودنيا تجمعا

ولا فخر، إلا مالنا يرفع اللوا

مناقب مختارية، قادرية

تسامت، وعباسية، مجدها احتوى

فإن شئت علما، تلقني خير عالم

وفي الروع أخباري غدت توهن القوى

لنا سفن، بحر الحديث بها جرى

وخاضت، فطاب الورد، ممن بها ارتوى

وإن رمت فقه الأصبحي، فعج على

مجالسنا، تشهد لواء العنادوا

وإن شئت نحوا، فانحنا تلق ماله

غدا يذعن البصرى، زهدا بها روى

[1] زكريا صيام، مرجع سبق ذكره، ص ص.99-101.

ونحن سقينا البيض في كل معرك

دماء العدا، والسمر أسعرت الجوى

ألم تر في (خنق النطاح) نطاحنا

غداة التقينا، كم شجاع لهم هوى

وكم هامة ذاك النهار قددتها

به حسامى، والقنا طعنه شوى

وأشقر تحتى كلمته رماحهم

ثمان، ولم يشك الجوى بل وما التوى

بيوم قضى نحب أخي فارتقى إلى

جغان له فيها انبى الرضا أوى

فما ارتد من وقع السهام عنانه

إلى أن أتاه الفوز، راغم عن غوى

ومن بينهم، حملته حين قد قضى

وكم رمية كالنجم، من أفقه هوى

ويوم قضى تحتا جواد برمية

وبي أحدقوا لولا أولو البأس والقوى

وأسيافنا قد جردت من جفونها

وردت إليها بعد ورد، وقد روى

ولما بدا قرني بيمناه حربة

وكفى بها نار، بها الكبش قد شوى

فأيقن أنى قابض الروح، فانكفا

يولي، فوافاه حسامي مذ هوى

شددت عليه شدة هاشمية

وقد وردوا ورد المنايا على الغوى

نزلت "ببرج العين" نزلة ضيقهم

فزادوا بها حزنا وعمهم الجوى

ومازالت أرميهم بكل مهند

وكل جواد همه الكر، لا الشوى

وذا دأبنا، فيه حياة لديننا

وروح جهاد، بعدما غصنه ذوى[1]

جزى الله عنا كم شهم، غدت به

"غريس" لها فضل أتانا وما انزوى

فكم أضرموا نار الوغى بالظبا معى

وصالوا، وجالوا، والقلوب لها اشتوا

وأنا بنو الحرب العوان لنا بها

سرور، إذا قامت، وشانئنا عوى

لذاك، عروس الملك كانت خطيبتي

كفجأة موسى بالنبوة، في طوى

وقد علمتني خير كفء لوصلها

وكم رد عنها خاطب بالهوى هوى

فواصلتها بكرا لدى تبرجت

ولى أذعنت، والمعتدى بالنوى ثوى

وقد سرت فيهم سيرة عمرية

وأسقيت ظاميها الهداية، فارتوى

وإني لأرجو أن أكون أنا الذي

ينير الدياجن بالسنا، وبعدما لوى

بجاه ختام المرسلين محمد

أجل نبى، كل مكرمة حوى

عليه صلاة الله ثم سلامه

وآل، وصحب، ما سرى الركب للوى

---

[1] زكريا صيام، مرجع سبق ذكره، ص ص.106-107.

وما قال بعد اليسر والجد منشد

"توسد بمهد الأمن قد مرت النوى"[1]

ليس بدعا – حسب زكريا صيام – أن ترى حرص الأمير على حمد الله وشكره في أبيات طال عددها أو قصر، فقد كانت عادة لديه أن يستهل أعماله النثرية ورسائله الإخوانية والرسمية بالبسملة والحمدلة وأن يختتمها بذكر الله والصلاة على رسوله، وامتدت تلك الظاهرة إلى مواضع كثيرة من شعره، يقول:

الحمد لله الذي قد خصني

بصفات كل الناس، لا النسناس

الجود والعلم النفيس وإنني

لأنا الصبور لدى اشتداد الباس

وتحدثي: شكرا لنعمة خالقي

إذ كان في ضمني جميع الناس

نظم الشاعر قصيدته هذه، في التصوف، متناولا فيها بعض الآراء لديه نحو وحدة الوجود، ومذكرا بأحوال يوم القيامة وأهوال ساعة الحساب.

أمطنا الحجاب: فانمحا غيهب السوى

وزال أنا وأنت وهو، فلا لبس

ولم يبق غيرنا، وما كان غيرنا

أنا الساقي والمسقي والخمر والكأس

تجمعت الأضداد في وإنني

أنا الواحد الكثير، والنوع والجنس

فلا تحتجب بما ترى، متكثرا

فما هو إلا شخصنا النزه القدس

---

[1] زكريا صيام، مرجع سبق ذكره، ص ص.108-109.

فما كنت ناظرا بنا، أنت ناظر
إلينا، وإلا أنت أعمى به طمس
هو الدين توحيدي، فلا تحسبن غيري
يوحدني، غيري هو الشرك والرجس
فما دمت غيرنا، فأنت شريكنا
وهل ثم، غير يا بليد به هوس
ففارق وجود النفس، تظفر بالمنى
وزايل ضلال العقل، إذ أنه الحبس
وما توحيدي المقبول قولا، وإنه
لفعل، فلا يغررك جن ولا إنس
وما هو إلا أن تصير إلى الفنا
وتصعق، ليس ثم روح ولا حس[1]
تشاهد أهوال القيامة جهرة
تهيأ لك الأكفان والغسل والرمس
هناك تصير موقفنا وموحدا
وتعرف ما هي الذنابة والرأس
ويفنى الذي قد كان من قبل فانيا
ويبقى الذي لازال قبل، هو الاس
فإن كنت ذا، فأنت ذا الملك الذي
له عنت الوجوه، أصواتها همس

وبينما كان الأمير وأهل المدينة (بروسة) في أرغد عيش إذ نزلت بهم طامة الزلزال، واستولى الهدم والحريق على البيوت والمساجد والأسواق، ولما تفاقم الأمر وتتابعت الهزات قرر الانتقال إلى مدينة دمشق واتخاذها مقرا له ولأهله. وقد عز عليه فراق المدينة وأهلها،

---

[1] زكريا صيام، مرجع سبق ذكره، ص ص.215-216.

فكتب هذه القصيدة يبث فيها حنينه ويسجل وفاءه لمدينة احتضنته ما يقرب من ثلاث سنوات فقال:

أبى القلب أن ينسى المعاهد من برسا
وحُبى لها بين الجوانح، قد أرسى
أكلفه سلوانها، وهو مغرم
فهيهات، أن تسلو، وهيهات أن ينسى
تباعدت عنها، ويح قلبي بعدها
وخلفتها، والقلب خلفى بها أمسى
بلاد لها فضل على كل بلدة
سوى من يشد الزائرون لها الحلسا
فما جازها فضل، ولا حل دونها
سواها نجوم، وهي أحسبها شمس
علي، محال بلدة غيرها أرى
بها الدين والدنيا طهورا ولا نجس
وجامعها المشهور، لم يك مثله
به العلم مغروس، به كم ترى درسا
وسلطانها أعنى الأمير رئيسها
به افتخرت "برسا" فأعظم به رأسا[1]
ومنزله الأعلى حكى لي روضة
به الفخر قد أمسى به الفضل قد أرسى
بها آل عثمان الجهابذة، الالى
أشادوا منار الدين وابتذلوا النفس
ليبكهم للدين، من كان باكيا
فما شام هذا الدين في عصرهم نحسا

---

[1] زكريا صيام، مرجع سبق ذكره، ص ص.218-219.

فكم عالم فيهم وكم من مجاهد
فكم من ولي قد تخيرها رمسا
ألا ليت شعري هل أحل رياضها
و"بنارباش" هل أطيب به نفسا؟
فيصبو بها في العيد من ليس صابيا
ويفرح محزون الفؤاد ولا يأسى
وكيف "بكركة" بعدنا وقصورها
تراها الثريا، إذا توسطت القوسا؟
ومن تحتها، نهر جرى متدفقا
يشابه "ثعبان" وقد خشى الحسا
فهبني أسلو أرضبها بتكلف
فلست بسال للأهالي، ولا أنسى
ومن أجلهم حبي لها وتشوقي
وإن غلاء الدار، بالجار، قد أمسى
أناس بهم، أهلي سلوت، وبلدتي
وفي كل آن قد رأي ناظري أنسا
وفارقت أهلي مذ تجمع شملنا
وأمنت، لا غما أخاف، ولا نكسا
مكارم أخلاق وحسن شمائل
وليس طباع، واللطافة لا تنسى
سقى الله فيا رحمة وكرامة
أراض بها حل الأحبة من برسا... [1]

وقدم العالم الجليل محمد الشاذلي القسنطيني إلى فرنسا ليكون مؤنسا للأمير في أسره "بأمبواز" فما أن شاهده الأمير حتى غمرت قلبه فرحة عارمة، وانطلق لسانه مرحبا بمقدم الشاذلي فقال:

---

[1] زكريا صيام، مرجع سبق ذكره، ص ص.

أهلا وسهلا بالحبيب القادم

هذا النهار لدى، خير مواسم

جاء السرور مصاحبا لقدومه

وانشراح ما قد كان قبل ملازمي

أفديك بالنفس النفيسة، زائرا

من غير ما من، ولست بنادم

طالت مساءلتي الركاب، تشوقا

لجمال رؤية وجهك المتعاظم

لا غروكا أن أحببتكم من قبل ما

شاهدتكم، أنتم جمال العالم

كانت – على سمعي – تغار نواظري

حتى رأيتك أنت، أنت مكالمي

عندي الأيادي البيض، حيث أريتني

ما كان قبلا، في يقين العالم

والآن، صرت من اليقين، بحقه

وبعينه، إن السرور منادمى

أسمى قطب العارفين لك العلا

متبوئا منه، أجل معالم

أنت الذي في الفضل أصبح مفردا

لعلاه، ما من مدع ومزاحم

لازلت ميمون النقيبة، طالعا

بالسعد، ذا فضل وخدن مكارم[1]

---

[1] زكريا صيام، مرجع سبق ذكره، ص ص.287-288.

2- المقاومة الثقافية من خلال شعر الأمير عبد القادر:

قال الدكتور زكريا صيام: "إن عظماء الرجال لا تنحصر شخصية الواحد منهم، في جانب معين من البطولة، كالسياسة أو الحرب وما إلى ذلك من مجالات الحياة... ولكنها قد تستحوذ على أكثر من جانب، وكلما تعددت جوانب تلك الشخصية، تفوق بها صاحبها على غيره من العظماء. والأمير عبد القادر لم تكن شخصيته ذات جانب سياسي أو عسكري أو اجتماعي أو ديني أو علمي أو أدبي، ولكنها كانت هؤلاء جميعا"[1].

إن أول قصيدة له دونت – كانت – حسب الأميرة بديعة الحسني الجزائري[2] في قصيدة شهداء معركة خنق النطاح، فقال فيها:

ألم تر في خنق النطاح، تطاحنا
غداة التقينا، كم شجاع لهم هوى
وكم هامة، ذاك النهار قددتها
بحد حسامي، والقنا طعنه شوى
وأشقر تحتى كلمته رماحهم
مرارا ولم يشك الجوى وما التوى
بيوم قضى نحبه أخي فارتقى إلى
جنان له فيها بني الرضا أوى
ومن بينهم حملته حين قضى
وكم رمية كالنجم، من أفقه هوى

---

[1] زكريا صيام، "الأصالة والتجديد في شعر الأمير عبد القادر"، **مجلة الثقافة**، وزارة الثقافة، الجزائر، عدد خاص 75، 1983، ص291.

[2] الأمير بديعة الحسني الجزائري، **فكر الأمير عبد القادر الجزائري**، الجزء الثالث، مرجع سبق ذكره، ص338.

ها هو ذا يفتخر بما كان يمتاز به من علم وشجاعة، وأشاد بذلك قائلا[1]:

فنحن أكاليل الهداية والعلى
ومن نشر علياهم ذوي المجد قد طوى

ونحن لنا دين ودنيا تجمعا
ولا فخر إلا ما لنا يرفع اللوى

فإن شئت عاما تلقني خير عالم
وفي الروع أخباري غدت توهن القوى

لنا سفن بحر الحديث به جرت
وخاضت فطاب الورد ممن به ارتوى

وإن رمت فقه الأصبحي فعج على
مجالسنا تشهد لداء العنا دوا

وإن شئت نحوا فانحنا تلق ماله
غدا يذعن البصرى زهدا بما روى

ونحن سقينا البيض في كل معرك
دماء العدا والسمر أسعرت الجوى

وأنا بنو الحرب العوان بها لنا
سرور إذا قامت وشانئنا عوى

وذكر خلاله الحميدة وعلو همته وإقدامه، فقال:

لنا في كل مكرمة مجال
ومن فوق السماك لنا رجال

ركبنا للمكارم كل هول
وخضنا أبحرًا ولها زجال

إذا عنها تواني الغير عجزا
فنحن الراحلون لها عجال

---

[1] عبد الحميد حاجيات، الأمير عبد القادر وإنجاحه الأدبي، مرجع سبق ذكره، ص 83.

ورثنا سؤددا للعرب يبقى
وما تبقى السماء ولا الجبال
ومنا لم يزل في كل عصر
رجال للرجال هم الرجال
لقد شادوا المؤسس من قديم
بهم ترقى المكارم والخصال
لهم همم سمت فوق الثريا
حماة الدين دأبهم النضال
سلوا عنا الفرانس تخبرنكم
ويصدق إذا حكت منها المقال
فكل لي فيهم من يوم حرب
به افتخر الزمان ولا يزال

إن شعر الأمير أصدق تعبير عن حماسه وانصرافه الكلي للجهاد والمقاومة، وقد حدث أن أبدت زوجته قلقها عليه، فلما بلغه ذلك قال[1]:

تسائلني أم البنين وإنها
لأعلم من تحت السماء بأحوالي
ألم تعلمي يا ربة الخدر أنني
أجلي هموم القوم في يوم تجوال
وأغشى مضيق الموت لا متهيبا
وأحمي نساء الحي في يوم تهوال
أمير إذا ما كان جيني مقبلا
وموقد نار الحرب إذا لم يكن صالي
إذا ما لقيت الخيل إني لأول
وإن جال أصحابي فإني لها تالي

---

[1] عبد الحميد حاجيات، مرجع سبق ذكره، ص84.

أدافع عنهم ما يخافون من ردى
فيشكر كل الخلق من حسن أفعالي
ومن عادة السادات بالجيش تحتمي
وبي يحتمي جيشي وتحرس أبطالي
سلي عني جنس الفرنسيس تعلمي
بأن مناياهم بسيفي وعسالي
سلي الليل عني كم شققت أديمه
على ضامر الجنبين معتدل عالي
سلي البيد عني والمفاوز والربى
وسهلا وحزنا كم طويت بترحالي
فما همتي إلا مقارعة العدا
وهزمي لأبطال شداد بأبطالي
فلا تهزئي بي واعلمي أنني الذي
أهاب ولو أصبحت تحت الثرى بالي

كذلك مدح الأمير أولئك الفرسان والجنود الذين قاوموا معه جيش الاحتلال، وحاربوه بشجاعة وبسالة نادرتين، فقال عنهم[1]:

أفدي أناسا ليس يدعى غيرهم
حاشا العصابة والطراز الأول
يكفيهم شرفا وفخرا باقيا
حمل اللواء الهاشمي الأطول
إن غيرهم بالمال شح وماسخا
جادوا ببذل النفس دون تعلل
الباذلون نفوسهم ونفيسهم
في حب ملكنا العظيم الأجلل

[1] عبد الحميد حاجيات، مرجع سبق ذكره، ص85.

الصابرون الصادقون لدى الوغى
الحاملون لكل ما لم يحمل
النازلون بكل ضنك ضيق
رغمًا على الأعدا بغير تهول
ما منهم إلا شجاع قارع
أو بارع في كل شيء مجمل
كم جاهدوا كم طارحوا وتجلدوا
للنائبات بصارم وبمقول
كم شردوا كم بددوا وتوعدوا
تشتيت كل كتيبة بالصيقل
يا رب إنك في الجهاد أقمتهم
فبكل خير عنهم فتفضل

ولقد مدح الأمير عبد القادر رجال العلم والصلاح، فوصف مزاياهم العلمية والدينية، وأعرب عن المودة التي يكنها لهم، فقال مثلا، مادحا الشيخ الصوفي محمد الفاسي الشاذلي[1]:

شمائله تغنيك إن رمت شاهدا
هي الروض لكن شق أكمامه القطر
تضوع طيبا كل زهر بنشره
فما المسك ما الكافور وما الندما العطر
وما حاتم قل لي وما حلم أحنف
وما زهد إبراهيم أدهم ما الصبر
صفوح بغض الطرف عن كل زلة
لهيبته ذل الغضنفر والنمر

[1] عبد الحميد حاجيات، مرجع سبق ذكره، ص85.

ذليل لأهل الفقر لا عن مهانة
عزيز ولا تيه لديه ولا كبر
حريص على هذي الخلائق جاهد
رحيم بهم بر خبير له القدر
فذلك فضل الله يؤتيه من يشا
وليس على ذي الفشل حصر ولا حجر
وذا وأبيك الفخر لا فخر من غدا
وقد ملك الدنيا وساعده النصر

يوجه الأمير، وهو رهن الاعتقال بفرنسا، تهنئة لكاتبه قدور بن طويلة، بمناسبة إطلاق سراح هذا الأخير من الأسر، ووصوله إلى المدينة المنورة فيقول[1]:

أخي نلت الذي قد كنت تطلبه ... وفزت دوني بما ترجو وترغبه
وساعدتك الليالي لا شقيت قدوم ... قرير عين بوصل لست تسلبه
قد طاب في طيبة الغرا مقامكم ... جوار محبوبنا من كنت ترقبه
يا هل ترى مثلما فزتم أفوز وهل ... تعلو سعودي على نحسي فتقلبه

وبعد ابتكاره لتلك المدينة المتنقلة (الزمالة)، تقول الأميرة بديعة الحسني الجزائري[2]: بعدما أصبحت حصونه غير صالحة لأحد الطرفين المتقاتلين، من تناوب الاستيلاء عليها وبعد اكتمال تأسيس المدينة من الخيام، أراد الترفيه عن سكانها الذين ربما كانوا يفضلون السكن في البيوت الحجرية، من أهل وفرسان وقادة، بلغ عددهم في بداية إنشائها ستون ألفا بين رجل وامرأة وطفل، فنظم هذه القصيدة، وهي ليست مجرد أبيات شعرية، وإنما هي تراث إنساني، جمع بين روعة الأصالة، وبراعة التجديد بما امتلكه من ثروة لغوية هائلة وخيال خصب. فقالت الدكتورة نور سليمان، في مجال النقد، بكتابها (الأدب الجزائري)، شعر الأمير عبد القادر، أمير السيف والقلم، أكثر متانة من شعر معاصريه نظرا للثقافة الدينية

---

(1) عبد الحميد حاجيات، مرجع سبق ذكره، ص86.

(2) الأميرة بديعة الحسني الجزائري، **فكر الأمير عبد القادر الجزائري**، ج3، مرجع سبق ذكره، ص 338.

واللغوية شعرية، وقال آخرون أن سر خلود أبيات الأمير أنها نبعت من خضم لغة (الضاد) الواسعة، لغة القرآن الكريم، فظهرت من خلالها فحولة الشعراء، ورزانة الحكماء، والتراكيب المنبعثة من بيئة أجداده، فذكر في أحد أبياته، كلمات هي بحد ذاتها تراثا أدبيا عريقا فقال[1]:

وما كل شهم يدّعي السبق صادق

إذا سبق للميدان بان له الخسر

وعند تجلي النقع يظهر من علا

على ظهر جردبل، ومن تحته حمر

وما كل من يعلو الجواد بفارس

إذا ثار نقع الحرب والجو مغيّر

وما كل سيف ذا الفقار بحدّه

ولا كل كرّار عليّا إذا كرّوا

وما كل طير طار في الجو فاتكاً

وما كل صياح إذا صرصر الصقر

فذلك فضل الله يأتيه من يشاء

وليس على ذي الفضل حصر ولا حجر

وعلى هذا فإن الأبيات التي عرضناها تدل على أن الأمير عبد القادر لم يتوانى في مقاومة العدو الفرنسي، كما أن هناك أبياتا أخرى عبر من خلالها عن احترامه للصالحين من رجال العلم فأعرب عن المودة التي يكنّها لهم، كما أنه عبّر في أبيات أخرى عن شوقه إلى المدينة المنورة حيث مثوى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

(1) الأميرة بديعة الحسني الجزائري، **فكر الأمير عبد القادر الجزائري**، ج3، مرجع سبق ذكره، ص 339.

3- صلات الأمير عبد القادر بقادة العالم من خلال رسائله:

كانت للأمير عبد القادر صلات دولية واسعة، مكثفة ومتعددة، ومتنوعة مع كثير من ساسة العالم، وقادته العسكريين والسياسيين والمفكرين وحظي بالتقدير والإكبار من طرف الجميع بفضل مواقفه البطولية الخالدة، في الحرب، والسلم، وسعة إطلاعه، وتفهمه للمشاكل، وعمق ثقافته وتفكيره، وبعد نظره في القضايا والأبعاد السياسية والعسكرية.

رغم كثرة ما كتب وألف عنه، فإن جوانب كثيرة من نشاطه العسكري، وحياته السياسية، ما تزال مجهولة، وما يزال الباحثون ينقبون ويكتشفون ويزيحون الستار والغطاء عن البعض منها مرة على مرة في أبحاثهم ودراساتهم الجديدة، ذلك لأن الأمير كان كثير الاتصال، والمراسلات للدول، والملوك، والأمراء، والحكام، والرؤساء والوزراء، والعلماء، والكتاب، والسياسيين، والدبلوماسيين، سواء خلال معركة الكفاح المسلح بالجزائر (1830–1847م) أو في منفاه بفرنسا ودمشق الشام (1848–1883م).

ففي خلال كفاحه ومقاومته للاستعمار الفرنسي بالجزائر، راسل الملك الإنجليزي والحكومة الإنجليزية عن طريق قناصلها بطنجة، ومدريد، وطلب منهما التأييد والمساعدة المادية، بعد أن شرح لهما شراسة جيش الاحتلال الفرنسي، وخداع قادته، وعرض على الحكومة الإنجليزية أن يمنحها ميناء تنس أو غيره، لاستثماره مقابل حصوله على الأسلحة والذخائر الحربية.

وفعل ذلك مع الحكومة الأمريكية، وراسلها بواسطة قنصلها بطنجة، وشرح لها خيانة الفرنسيين وعدم وفائهم للعهود، وطلب منها أن تدعمه وتؤيده بالأسلحة مقابل منحها ميناء، أو منطقة على الساحل لصالح الأسطول البحري الأمريكي(1).

---

(1) يحي بوعزيز، مرجع سبق ذكره، ص 10.

وراسل السلطان العثماني عبد المجيد، والصدر الأعظم، بإلحاح من حمدان بن عثمان خوجة، وشرح لهما وضع البلاد، والنكبات المتوالية التي يلحقها جيش الاحتلال الفرنسي بها، ثم طلب منهما مساعدة وتأييدا ودعما عسكريا وسياسيا[1].

فيما يلي نماذج من رسائله:

- رسالته للسلطان عبد المجيد، ممثل الخلافة الإسلامية:
- (شوال 1257هـ/الموافق لـ ديسمبر 1841م)، من رباط مستغانم[2].
- وجّه الأمير الرسالة للسلطان عبد المجيد خان ممثل الخلافة الإسلامية، ليصف له حال البلاد والعباد باعتباره ممثلا للوحدة والرابطة الإسلامية، والمسؤول عن المدافعين عن دين الخلافة الإسلامية. فمضمون هذه الرسالة إذن، هو طلب العون، والاعتراف الصريح بالانتماء للرابطة الإسلامية.

بدأ الأمير خطابه كعادته بالبسملة والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يعرف بنفسه للسلطان فيقول: "من خادم حضرتكم وخادم المجاهدين، عبد القادر بن محي الدين منحه الله رضاه ثم رضى رسوله، ثم رضاكم في الدنيا، ويوم الدين آمين". ويثني بعدها على سلطان المسلمين معترفا بالخلافة، متواضعا له فيخاطبه بـ "سلطان سلاطين الإسلام وحامي بيضة أمة محمد عليه السلام، وضوء الملوك الشامخ، وركنهم الثابت الراسخ شمسهم التي تستمد منها كواكبهم ... خير من قاد الجيوش ورتب العساكر... وكان لعين الإسلام بمنزل الإنسان... سيدنا وابن سيدنا إلى الجد عثمان السلطان عبد المجيد خان....وسلام على سيدنا ورحمة الله وبركاته"[3].

---

[1] أحمد توفيق المدني، "أبطال المقاومة الجزائرية: حمدان خوجة، أحمد باي، الأمير عبد القادر والدولة العثمانية"، **مجلة التاريخ**، العدد 04 – أفريل 1977، ص ص.96-125.

[2] نفس المرجع، ص100

[3] أجمد توفيق المدني، مرجع سبق ذكره، ص100.

ولا يغفل الأمير عن ضرورة تعزية السلطان الجديد في موت والده، ... وتهنئته بالخلافة وتمنياته بدوامها بقوله: "وإنا نهنئك بالخلافة التي لا يلحقها بحول الله وقوته قدر، الميمومة البقية على جميع الحقايق من بشر وشجر ومدر، ونعزوك في الوالد أمير المؤمنين برد الله ضريحه".

بعد هذه المقدمة يحاول الأمير أن يشرح وضع الجزائر منذ عهد الإنكشارية وتمردهم على خلافة الإسلام، وكيف عاقبهم الله جزاء ذلك، موضحا موقفه الصريح منهم، حيث كانوا السبب الرئيسي في ضياع البلاد وطمع العدو الكافر بها وإفساده لأوطان الإسلام وأهلها. فيشرح له ذلك قائلا: "إن الينيشارية كانوا بالجزائر، ولما خرجوا عن طاعة أمير المؤمنين، والدك المرحوم، عاقبهم الله بسوء فعلهم، فسلط عليهم من لا يرحمهم. العدو الكافر الغشوم، فبدد شملهم واجتث آمالهم... وسمت به همته، أخزاه الله إلى ملك جميع الإيالة واسترقاق المسلمين تارة بالمكايد والحيل وتارة بالقهر والاستيطان"[1].

ثم يبرر عدم الاستنجاد حينها بالسلطان العثماني وحاجتهم الملحة، التي دعتهم للاستنجاد بسلطان المغرب على حد قوله: "...وحال الكافر والبحر، بين المسلمين وبين سلطانهم مع شدة حاجتهم إلى من يقوم بهم ويدافع عن حريتهم وأولادهم وأوطانهم. فعند ذلك استغاث الناس بالسلطان الشريف". ويكمل فيخبره بأن هذا النداء لم يلق الاهتمام اللازم، لأن السلطان لم يباشر الأمر بنفسه، فوقعت الفوضى في البلاد وكان الأمر سلبيا أكثر منه دفعا، وانقلبوا من حيث جاؤوا ورجعوا من حيث فاؤوا فوقع إذ ذاك الهرج بين المسلمين، وكثر الخلاف وتقطعت السبل وظهر البغي والاعتساف".

حينها تحركت الغيرة الإسلامية لدى رجال العلم والدين، وتحمسوا لجهاد ضد الكفار، وكيف ألحت الضرورة على اختيار أمير الجهاد. وكيف نودي بعبد القادر أميرا، ومباشرته للمعارك والجهاد بنوعية الأصغر والأكبر ودور محي الدين في هذه الانطلاقة الجديدة

---

(1) نفس المرجع، ص 100.

فيخبره: "فلما رأى والدي عموم المصيبة في الدين واشتغال المسلمين فيما بينهم عن قتل الكفار المعتدين، بذل جهده في إصلاح ذات البين... وشن الغارات على الكفار.. فلما رأى الكافر ذاك زاد في قوته وشؤونه... واحتاج الناس إذ ذاك إلى من يضبط جهادهم... فاجتمعوا أعيان الوطن، وطلبوا ذلك من الوالد. فنفر منهم نفور الفقير الشارد مع ما كان فيه من الرحمة على المسلمين والإشفاق، لأنه كان أورع أهل الوقت، فطلبوا منه تعيين بعض أولاده لذلك، فأشار إلي لما سبق لي من الشقاوة في أم الكتاب. هناك فامتثلت أمره، وإن كان أمرا إذا لم أعص له مدة عمري أمرا، وشمرت عن ساعد الجد والاجتهاد وبذلت للمسلمين نصحي في جمع الكلمة وردع البغاة وإنه للدفع عن المسلمين وقمع الكفار العتاة. فدفع الله عن الإسلام بذلك من الشر بعضه وشيد من أركان الدين ما كان الكفار يحاول نقضه"(1).

ثم يعلم السلطان بأسباب جنوحه للسلم بعد أن ركع العدو طالبا، تحت قوة سيوف المجاهدين وبناديقهم للصلح، مما خدم الأمير كثيرا في مركز قوته، لكن لا أمان لغادر حيث نقض العدو عهده "لما رأى الكافر منا تلك القوة والجدة، واحتال في حل عزائمنا بطلب الصلح مدة فأجبنا لذلك على شروط علو الإسلام فيها ظاهر مضبوط، فتحملها لظنه أن الصلح، يحل من المسلمين العزايم... فبقي في الصلح نحو من سنة، ثم غدر وخرج للحرب... ولما رأى عدو الله ما بلغه من المشقة وما لحقه من الحصار والقتال مع بعد المشقة، طلب الصلح من المسلمين على ما لا يدفعه للمجاهدين".

ثم يبرر الأمير قبوله للصلح للمرة الثانية مما هدف إليه وما تحقق من ملموس وفائدة فيقول: "فأجبناه رجاء أن نستريح لمثلها ونستعد بالسلاح والكراع لنيلها. وقد جعل الله في ذلك للمسلمين صلاحا ولأمور الدين نجاحا، واجتمعت كلمات المسلمين....تسير المرأة وحدها مسيرة شهر لا تخاف إلا الله، ولا تخشى من الله أحد نكرا".

---

(1) أحمد توفيق المدني، مرجع سبق ذكره، ص102.

وبعدها كيف أنه لم يسمح بأخذ قسنطينة لتجاوز من العدو فانتقض الصلح من جديد، نظرا لعدم تكافؤ القوى المادية.

بحنكة الحاكم الدبلوماسي، أراد الأمير إعلام إمام وخليفة المسلمين بما يجري ليستحمل كل فرد مسؤولياته أمام الله، وكيف أن الإخوان في الدين والجوار، يهون عليهم مصير دار الإسلام ويخونون الدين[1].

فيقول له في هذا الصدد: "ونحن نقول المسلمون جسد واحد فترك أمرهم إلينا ولأولئك فانتقض الصلح بيننا واشتعلت نار الحرب... وإن جيش الكفار المقابل يناهز الماية ألف سلاح تام وصواعق ومدافع تصير الواحد ضعيفا، وإنه إذا جمع قوته، وقصد بعض مواضع فلا نقدر أن نرده إذ ليس لنا قوة بارود أو سلاح. ولا مدافع... لكن يذيقه المسلمون شديد النكال... ولا استكانوا ولا حزنوا مع الضعف الذي لا يحتاج إلى شاهد من قلة المال والسلاح الذي يعلمه الغايب والشاهد... فقد نفذت في سبيل الله أموالهم وفنيت في الجهاد رجالهم... والكافر لقوته إذا أخذت له محلة جدد أخرى وإذا أهلك له جيش استحلف الآخر، وإذا احتاج لشيء أمده به سلطانه فهو لا شغل له إلا تدبير المكايد للمسلمين وما يأمره به شيطانه"[2].

مضيفا أن ثقته سقطت في سلطات المغرب بعد أن صار يساعد عدوه، ضده ويمنع المسلمين من دعمه.

"ونحن أسلمنا إخواننا المسلمون وتركونا أسارى في يد العدو فهم لنا ظالمون، وتبرأ مِنّا مَن كان قريبا لنا من الملوك، ومنعونا شراء ما نتقوا به على الكافر، خوفا منه، ومنعونا حتى السلوك. طلبناهم الإعانة بالرجال، فلم يقبلوا واستعناهم بالأموال فلم يفعلوا، وطلبنا

---

(1) عائشة بن ساعد، مرجع سبق ذكره، ص188.

(2) أحمد توفيق المدني، مرجع سبق ذكره، ص. 102-103.

منهم السلف، فكان عين المحال، ومنعوا رعاياهم من إعانتنا... كأن المسلمين ليسوا بجسد واحد"(1).

وينهي الأمير خطابه آملا قرب الفرج ويطلب من السلطان المدد السريع لتزكية الجهاد، وتجدد المواجهة القوية من جديد، متوجا طلبه بالدعاء الخالص للخليفة بالتوفيق وأن يلتفت لأبناء الجزائر، يشعرهم بالفعل بحكمه ورعايته. "والمسلمون بهذا القطر لا ينظرون من غيرك إفراج. ولا لهم ملجأ يلجؤون إليه غير حصنك العالي الأدراج. فأبصارهم لإعانتك وإمدادك طامعة وقلوبهم بمحبتك وذكرك طافحة. فإن قيل مال عندك المال الوافر، وإن قيل جيش، عندك العسكر البحر وإني وحياتك السعيدة، لولا خوفي على المسلمين من العدو، ما لازمت سكونا ولا هدوءا حتى أقف بين يديك... وأقص من أخبار المسلمين بهذا القطر عليك لإبلاغ لهم إلا بالله ثم بك... ومحال أن يرجع كتابهم بعد الوقوف بين يديك صفر اليدين. فأنت الغيث، المدرار... وإنا من عيالك والله سايلك (كذا) عنا فأزال ما أثقل الظهر منا وعنا"(2).

ويؤكد الأمير على رسائله السابقة التي ربما قد ضاعت، وضلت الطريق إلى هدفها في مركز الخلافة، بإصرار قائلا: "ترانا نكرر المكاتب إذا لم ندر من لم يصل منها من لم يحصل إليك. فكم من كتاب كتبناه، ولم يأتنا من حضرة سيدنا جواب نسل الله أن يجعل المانع خيرا لا مانع سخط وعتاب"(3).

يعتذر الأمير عن عدم إمكانية إرسال هدية تليق بمقام السلطان و"أن هديته الحقيقية هي استعادة هذه القطعة من دار الإسلام". "ومرادنا نبعث لحضرة سيدنا هدية مع من يقوم

---

(1) أحمد توفيق المدني، مرجع سبق ذكره، ص105.

(2) نفس المرجع، ص105.

(3) نفس المرجع ، ص105.

مقامنا في تقبيل يديك الكريمة، ومن كثرة الحروب لم يتيسر لنا ذلك، والله المسؤول في تبليغ مرادنا فيما هنالك وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما"[1].

- رسالته للصدر الأعظم في: (9 شوال 1257هـ - الأربعاء 24 نوفمبر 1841م):

راسل الأمير مجددا الدولة العثمانية طلبا للعون والمساعدة التي يعتبرها واجب، يفرضه عليه الشرع والدين الإسلامي.

فبعد الثناء على الوزير الفاضل[2]، يخبره الأمير بحال إخوانهم في الدين، وحال الشعب الذي تخلى عنه الجميع، ولم يعد يتفقده أحد من حماته، وغض الإخوان والجيران الطرف عليه، وهو يُغتصب ويؤسر من قبل العدو الغاصب الذي راح يستبيح حرماته ويستعبده فيخاطبهم الأمير فاتحا كلامهم: "من خديم خضرتكم وخديم المجاهدين بوطن الجزائر الذي صار لقربان الكفر وذيابه جزاير ولم تتفقده سادته وحماته. وتغافلت عنه أنصاره، وفرسانه وحماته فهم في أيدي العدو الكافر أسرى يفعل فيهم ما يشاء ويصلهم أغلالا وأصرا"[3].

ويذكر الصدر الأعظم بمكاتبه للسلطان العثماني طالبا منه الدعم والتوصية عنده فيقول له: "وإنا قد كاتبنا سيدنا فخر الزمان، بأحوالنا وسردنا عليه بعض أهوالنا، فكن لنا لوجه الله ورسوله معينا. واسقنا من زلالك ماء معينا، وأزل لهفنا، وارحم ضعفنا".

كما يوضح أن لب المشكلة ليست في الجيش فإن الجزائر كلها مجاهدة لكن ينقصه السلاح المتوفر عند الدولة العثمانية، التي من واجبها دعم المسلمين في دار الحرب، وأن النتائج التي يحققونها ستكون إيجابية حتما، وأن هذا الصراع أزلي بين عقيدة وعقيدة. وهو

---

[1] أحمد توفيق المدني، مرجع سبق ذكره، ص105.

[2] الصدر الأعظم: هو عين الأعيان وهو لقب حمله الوزير الأول في الدولة العثمانية منذ عهد سليمان القانوني، راجع محمد ثابت أفندي وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، وزارة المصارف العمومية، القاهرة، بدون تاريخ، ص 162.

[3] أحمد توفيق المدني، مرجع سبق ذكره، ص 109.

يحتاج العون والمساعدة من راعي الخلافة على حد قوله: "فإن العساكر وافرة، والخزاين عامرة، ونحن من عيالكم، وتعلقنا بأذيالكم فأدركونا قبل القوات، وأنعشونا عددكم قبل الوفاة وسلوا فينا بفضلكم رحم الإسلام، وراعوا فينا وجه النبي عليه الصلاة والسلام، فإنه ليس للمسلمين حصن غير حصنكم، يلجؤون إليه. وأنتم المكلفون بالإسلام، وليس هناك أحد تتكلون في هذا الأمر عليه والله سايلكم عن أمثالنا الضعفاء، وأنتم .... ملجأ الهاربين سلفاً وخلفاً، وإن أكف خدامكم المجاهدين لاستمطار فضلكم ممدودة، وحاشا وجودكم وكرمكم أن ترجع بالحرمان مردودة"[1].

ويختم الأمير رسالته بالاعتذار عن عدم قدرته على إرسال هدية لترادف الحروب متأسفا لذلك: "مرادنا نبعث هدية لحضرتكم العلية بالله وبعث من يقوم مقامنا في تقبيل يدكم الكريمة الندية، ومن ترادف الحروب علينا لم يتيسر لنا ذلك، والله المرغوب بتبليغ مرادنا فيما هنالك"[2].

- رسائله إلى الإيالة التونسية:

كان الأمير عبد القادر مهتما اهتماما بالغا بعقد صلات ود وصداقة مع كل جيرانه وخاصة أبناء تونس، الأمر الذي جعله يتراسل معهم، وقد ساعدته هذه العلاقات في التوسط لبعض المهاجرين الجزائريين عند السلطة التونسية محققا بذلك التواصل الروحي مع المهاجرين من خلال شخصيات تونسية ومن الشخصيات التي راسلها وتواصل معها نذكر الوزير مصطفى خزندار وخير الدين باشا:

رسالته للوزير مصطفى خزندار في: (رجب 1272هـ/1855م) [3].

---

[1] أحمد توفيق المدني، مرجع سبق ذكره، ص110.

[2] نفس المرجع، ص110.

[3] أحمد توفيق المدني، "الأخوة الجزائرية التونسية أواخر أيام الأمير عبد القادر"، عدد خاص بذكرى وفاة الأمير عبد القادر، عدد 75، 1983، الجزائر، ص159.

أرسل الأمير للوزير مصطفى خزندار بشأن قرابة له من أمه يسعى لهم من أجل تحسين وضعيتهم. فالأقربون أولى بالمعروف. بعد الحمد لله والصلاة على رسوله، والثناء عليه يدخل الأمير مباشرة في طلبه الخيّر. بخصوص أهل أمه الذين هاجروا إلى تونس أملا أن تحسن السلطات التونسية حالهم، بمنحهم أرضاً زراعي حيث يقول: "فإن لي قرابة من جهة الأم، هاجروا إلى تونس، وهم من الأشراف العلماء والفقراء فنطلب من سيادتكم أن تشملهم رحمتكم... كما هي عادتكم وتنتظرون أرضا يعيشوا بزراعتها ويستقرون بها كسائر الرعايا. ولكم الأجر والشكر من الداعي بالخير ولسائر أمراء الملة المحمدية".

تترجم هذه الرسالة، تصور الأمير للوطن، حيث يراه واحدا ممتدا في أي مكان يكون المسلم فيه، فهو تحت راية الإسلام.

رسائله لأصدقائه وشركاء المحنة:

إن الأمير عبد القادر لا يميز بين المسلمين وغيرهم فلم يتصرف قط، من الحرب أو بعدها، كمتعطش للدماء أو الحكم ولم يشعر الآخرين أنه رجل مهزوم منفي، بل كرجل مثالي تستحق الإنسانية منه التقدير والحب لأن ثقافته وإيمانه هو الذي جعله يحمي 15000 مسيحي في فتنة الشام لسنة (1277هـ/1860م) فأعطى للبشرية التي عاصرته القدوة في كيفية الحياة، وعلمها كيف تواجه العقول المظلمة المتطرفة.

ولذلك تحركت صوبه المراسلات من المعجبين بما فعل، واهتم بدوره بالرد عليهم، ولعل أهم هذه الرسائل هي تلك التي أرسلها للإمام شامل الداغستاني[1] شريك المحنة والظروف.

لقد رد الأمير على رسالة شامل الداغستاني بجواب يدل على احترامه للأخوة الإسلامية وعلى تقديره لظروف هذا الرجل أكثر من غيره للتشابه العجيب بينهما في مسار الحياة والجهاد والأسر.

يخاطبه بعد الحمد والصلاة على الرسول الكريم، بكلمات تعبق أخوة في الله، وبالدعاء الصادق لنفسه وله بأفضل ما ورد في الأثر بقوله:

" إنه من الفقير إلى مولاه عبد القادر بن محي الدين الحسني الأخ في الله تعالى. المحب من أجله الإمام شامل كان الله لنا ولكم في المقام والرحيل".

وبكل تواضع يشكر الأمير رسالة أخيه، مبينا أن ما قام به لصالح مسيحي دمشق لا يعدو غير واجب يمتثل فيه المسلم لأوامر دينية.

في حديثه عن الذي بلغه عنه يقول: "والذي بلغكم عنا ورضيتم به منا، من حماية أهل الذمة والعهد والذب، عن أنفسهم وأعراضهم بقدر الطاقة والجهد، كما في كريم علمكم مقتضى الشريعة السنية، والمروءة الإنسانية، فإن شريعتنا متممة لمكارم الأخلاق فهي

---

[1] الإمام شامل الداغستاني: ولد بين (1210هـ/1214هـ/الموافق لـ 1795-1799م) في داغستان ببلاد الشيشان، تربى تربية دينية إسلامية في الزاوية النقشبندية، بويع على الإمارة سنة (1250هـ/1834م)، وأخذ لقب الخليفة ولقب أمير المؤمنين. كانت له تنظيمات أقوى. من تنظيمات الأمير عبد القادر، اهتم بالعلم والجهاد معا نظرا لكثرة الخيانات، اضطر للتفاوض مع الروس في 1837 لكن المفاوضات فشلت وأعادها سنة (1255هـ/1839م). بمنح أحد أبنائه كرهينة لكنهم خانوه باختطافه وإرساله إلى قصر القيصر نيكولا الأول (1275هـ/1858م) لجأ إلى قلعة فدنو ولم يبق معه إلا 400 مريد فاضطر للاستسلام(1276هـ/سبتمبر 1859م) ونفي في كالوفا جنوب غرب موسكو حتى (1286هـ/1869م) حيث سمح له بالذهاب للحجاز أين استقبله السلطان العثماني ورافقه الخديوي إلى جدة ومنح بالمدينة المنورة واقترب من الأماكن المقدسة حتى توفي في (1288هـ/.. فيفري 1871م). دفن بالمدينة قصراً المنورة وأنظر:
M. Canard, « Chamil et Abdelkader », Annales de l'institut d'Alger des orientales, T.XIV, Alger, 1956, pp.231-256.

مشتملة على جميع المحامد المرجية للإتلاف واستمال جميع الأطواق على الأعناق والبغي في كل الملل المذمومين ومرتعه وخيم ومرتكبه حلعم لكن يقضي على المرء أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن".

يبدي الأمير رأيه بخصوص أسباب هذه الفتنة، ويرجعها إلى العصر الذي أصبح بشره بعيدا عن السبيل الحق. فإذا كان خطأ الأوروبيين علمنه الأشياء فالمسلمون خطأهم الانحطاط ذو الأوجه الكثيرة والتي يدعون أن الدين هو سبب هذه المشاكل فلطخ هؤلاء الإسلام بذنوبهم، ونسبوها إليه بعملهم غير المسؤول، معبرا عن أسفه الشديد لمن ماتوا جراء هذا الجهل، بقوله: "فإنا لله وإنا إليه لراجعون على فقدان أهل الدين وقلة الناصر للحق والمعين، حتى صار الظن من لا علم له أن أصل دين الإسلام الغلطة والقسوة والبلادة والجفوة فصبر جميل و الله المستعان".

كما أراد الأمير التخفيف عن شامل فأعرب له عن تمنياته بأن تأذن له السلطات الروسية بالهجرة للأماكن المقدسة، ليقوي فيه الثقة والإيمان بالله وليحثه على التوجه إليه وحده ليفك أسره قائلا: "وسمعنا أنكم طلبتم تسريحكم إلى الحرمين الشريفين فنسأل الله أن يصيب مطلوبكم وينيلكم مرغوبكم... وإمبراطور روسيا من أعظم ملوك الأرض شأنا. وأحرصهم على تخليد المفاخر في بطون الدفاتر فنرجو لكم من حضرته الفخمه حصول الأرب بلا نصب ولا تعب كما فعل معنا من سني الأفعال ما لم يخطر لأحد في بال، والمرجو في الحقيقة – هو الله المعبود ولا معبود سواه[1].

---

[1] عائشة بن ساعد، مرجع سبق ذكره، ص ص 195-196.

نماذج من رسائله لأصدقائه الفرنسيين:

رسالة الأمير لبواسوني[1] (ثمانية من جمادى الثانية 1279هـ/1862م) ليس من الغريب أن يراسل الأمير بواسوني تهنئته بالعام الجديد. فقد ربط علاقته القوية به خلال أسره وقد نستطيع تسمية هذه الرسالة وإدراجها ضمن الرسائل الإخوانية التي تعود الأمير على إرسالها لأصدقائه من الأوروبيين ومن بينهم بواسوني رفيق أسره بأمبواز.

فيبدأ الأمير رسالته بتحية قوية لصديقه محملة بالدعاء والأماني والكلمات الجميلة قائلا: "أسعدك الله سعودا دائما وجعل الإنعام والأفضال ملازما حضرية المحب الأوفى والخل الأصفى السيد البارون الكرونيل أبى سنه". ليباشر الأمير كأي صديق يراسل صديقه، ويستفسر عن أحواله وأحوال أهله ومعارفه فيقول له: "أما بعد السؤال عن ذاتكم الشريفة وعن الأهل والأولاد والإخوان"، كما يرسل إليه الأمير السلام ويهنئه بمناسبة حلول العام الجديد، مع خالص التمنيات له ولأسرته فيقول له: "من الكاتب والوالدة والأولاد وأمهم وساير أهلنا فإنا نبارك لكم ونهنئكم بدخول العام ونسأل الله تعالى لكم فيه وفيما بعد غاية الإنعام وبلوغ المراد والتمتع بالأهل والبنين في أرغد عيش وأهناه".

ثم يلومه الأمير عن سبب قطع الاتصال به زمنا ويؤكد له على أنه واظب على الكتابة إليه مرارا لكنه لم يتلق الجواب عن رسائله لكنه يتمنى أن يكون المانع خيرا ويعرب عن تمسكه بهذه الرابطة قائلا: "وأنكم قطعتم عنا أخباركم ومكاتبكم منذ مدة مديدة وكاتبناكم مرار وما رأينا جوابا نرجو أن يكون المانع خيرا والسلام من المحب عبد القادر بن محي الدين"[2].

---

[1] بواسوني: البارون من عائلة أرستقراطية ولد في باريس في: (19 جوان 1811/1226هـ)، أصبح ضابطا في المدفعية، وتولى في قسنطينة شؤون المكتب العربي وإدارة الشؤون الأهلية، بدأ حياته العملية سنة (1302هـ/1884)، لكتابة أشعار الأمير وتنظيماته العسكرية كان عارفا باللغة العربية ولهذا رشح من طرف الدوق دومال لمرافقة الأمير إلى فرنساوكذلك بعدها للمشرق راجع: أبو القائم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1830-1945، الجزء 6، ص 363.

[2] عائشة بن ساعد، مرجع سبق ذكره، ص ص.200-201.

خاتـــــمة

خاتمة:

إن الأمير عبد القادر من الشخصيات العظيمة في القرن التاسع عشر، قاوم الاستعمار مقاومة عسكرية وثقافية، كان دافعها الأساسي تصوف الأمير حيث كان متشبتا بالقيم الإسلامية.

ولقد أسس الأمير عبد القادر نظاما تعليميا بين جميع القبائل، أساسه القرآن في كل مراحل التعليم سواء كان ابتدائيا أو ثانويا أ, عاليا، وهذا رغم ظروف الحرب القاسية، فهذه تلمسان، معسكر ومستغانم ووهران، تعرضت جميعا إلى خروج أهلها منها عدة مرات، ومنهم بالطبع المعلمون والتلاميذ وتوقفت مدرسة مازونة عن وظيفتها مدة طويلة، وتعرضت المكتبات والمساجد والزوايا والمدارس إلى النهب والهدم والهجران، وقد اعتمد الأمير عبد القادر على فئة العلماء والمثقفين في إدارته، فجعل منهم القضاة والخلفاء والكتاب. ومن الزوايا الريفية، في الجهة الغربية زاوية القيطنة التي توقفت أيضا عن أداء مهمتها في التعليم أثناء المقاومة، سيما بعد 1836.

وكان الأمير حريصا على الجانب المعنوي لهؤلاء الطلاب، وأعطى أوامره باحترام المثقفين والعلماء، أينما وجدوا مع إعفائهم من الضرائب لحاجتهم للمال من أجل ظروف دراسية مستقرة.

وقد كان هذا التقديس للمعرفة والدراسة والثقافة، في زمن الحرب والسلم على حد سواء، بل كان يقوى أكثر أيام الحرب، وفي هذا الإطار يقول دينيزين وهو شاهد عيان: "أن الأمير أرسل ثلاثين شابا عربيا إلى مارسيليا ليتعلموا هناك الفنون والمهن على حسابه الخاص"[1].

كما أن الأمير كان يملك مكتبة بلغ عدد ما فيها من مجلدات قرابة الخمسمائة ألف كتاب لكن معركة عين طاقين عام 1843، وبالهجوم على الزمالة كانت المكتبة أول هدف،

---

(1) أنظر الفصل الثالث من هذه الدراسة.

للمشاة من الجنود الذين تخفوا بألبسة جيش الأمير عبد القادر وهاجموها، فخسر بذلك الأمير كتبه، وحزن عليها حزنا شديدا.

كما أن المقاومة الثقافية للأمير تتجلى من خلال كتابه المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد، فنجده يقاوم بقلمه كما قاوم من قبل بسيفه، فهاهو يعتز بثقافته العربية الإسلامية التي تفي بالعهد وتستقبح السيطرة على الشعوب، فلسان حاله يقول: "عار عليكم لأنكم لم تفوا بعهدكم معي". وأنتم الذيم تدعون الحضارة والاتصاف بالأخلاق السامية.

كما وجدنا أن المقاومة الثقافية تتجلى أيضا من خلال كاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، فهو يظهر للعالم بأن للجزائر تاريخ تعتز وحاضرة إسلامية تنتمي إليها، اعتنت بالعلوم، كما أن كلام الأمير عبد القادر عن الكتابة العربية شارحا بعض ما يتعلق بها فيه اعتزاز بها ورفض قاطع لمحوها من طرف المستعمر الفرنسي الذي سعى منذ احتلاله للجزائر إلى محو مقومات الشخصية الجزائرية من عروبة وإسلام وذلك من خلال هدم المساجد وتحويل بعضها إلى اصطبلات وهدم المدارس وتهجير العلماء...

أما فيما يتعلق بالإجابة عن السؤال: هل قام الأمير عبد القادر بتحديث المجتمع الجزائري؟ وكيف تجلى هذا المشروع إن وجد؟ قد قلنا فيما سبق أن الأمير عبد القادر لم يتزعم حركة إصلاحية بأتم معنى الكلمة، لكنه تنبه إلى ضرورة الإصلاح عندما تولى الإمارة ولاحظ انصراف المسلمين عن الدين، فالإصلاح عنده لم يكن غاية بل وسيلة اعتمدها قصد تحسين الأوضاع وتحقيق الانسجام بين الناس حتى يضطلع بوحدة الأمة ضد العدو المشترك، وقد كان إصلاحه عمليا لكونه ركّز على تغيير السوء بيده، إذ لم يكن لديه مشروعا محددا يبين فيه الخطة الإصلاحية التي سنها، بل هو إصلاح تناول في آن واحد وفي ظروف عسيرة مجالات عدة. لهذا لا يصح مقارنته بالحركات الإصلاحية التي ظهرت بالمشرق.

وعلى كل فالأمير عبد القادر شخصية عظيمة ذات جوانب عديدة فها هو الدكتور زكريا عبد الرحمن صيام يقول عنه: "والأمير عبد القادر لم تكن شخصيته ذات جانب سياسي أو عسكري أو اجتماعي أو ديني أو علمي أو أدبي، ولكنها كانت هؤلاء جميعا".

البيبليوغرافيـة

المراجع باللغة العربية

1- الكتب:

- القرآن الكريم
- (ابن التهامي) مصطفى، سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.
- (ابن عربي) محي الدين، فصوص الحكم، موقم للنشر، 1990.
- (اتيين) برونو، الأمير عبد القادر الجزائري، ترجمة ميشيل خوري، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، 2001.
- (أباظة) نزار، الأمير عبد القادر الجزائري، دار الفكر، دمشق، 1994.
- (أندرس) موريس، منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، ترجمة بوزيد صحراوي وآخرون، دار القصبة، الجزائر، 2004.
- (بروكلمان) كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1998.
- (بن رويلة) قدور، وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب ويليه ديوان العسكر المحمدي الملياني، تحقيق محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1968.
- (تشرشل) شارل هنري، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
- (الجزائري) الأمير عبد القادر، ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، شرح وتحقيق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، بيروت، 1965.
- (الجزائري) الأمير عبد القادر، ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، تحقيق زكريا صيام، 1988.

- (الجزائري) الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، تحقيق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، بيروت، 1966.
- (الجزائري) الأمير عبد القادر، المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد، تحقيق الأميرة بديعة الحسني جزائري، دار الوعي للنشر، الجزائر، 2012.
- (الجزائري) الأمير عبد القادر، المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف، تحقيق عبد الباقي مفتاح، ط1، ج1، دار الهدى، الجزائر.
- (إبراهيم) عثمان، مقدمة في علم الاجتماع، دار الشروق، الأردن، 2004.
- (ابن خلدون) أبو زيد عبد الرحمن، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979.
- (بوعزيز) يحي، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.
- (بوعزيز) يحي، الجديد في علاقات الأمير عبد القادر مع إسبانيا وحكامها العسكريين بمليلة، دار البعث، الجزائر، 1980.
- (بوعزيز) يحي، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995.
- (نيموربك) أحمد، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، لجنة النشر للمؤلفات التيمورية، القاهرة، 1968.
- (سعد الله) أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، بدون تاريخ نشر.
- (سعد الله) أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثالث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دون تاريخ النشر.
- (سعد الله) أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978.

- (سعد الله) أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتب، الجزائر، 1992.
- (سعد الله) أبو القاسم، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
- (سعيدوني) ناصر الدين، ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000.
- (سعيدوني) ناصر الدين، عصر الأمير عبد القادر، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين، الكويت، 2000.
- (السيد) فؤاد صالح، عبد القادر متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
- (السيد) فؤاد صالح، الأمير عبد القادر الجزائري، الجزائر، 1985.
- (الشرقاوي) محمد عبد الله، الصوفية والعقل، مكتبة الزهراء، بيروت، 1995.
- (عبد الله) عبد الرزاق إبراهيم، الطرق الصوفية في القارة الإفريقية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 2004.
- (العربي) إسماعيل، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975.
- (العربي) إسماعيل، معركة سيدي إبراهيم ومصير أسراها، مؤسسة الفنون المطبعية، الجزائر، 1986.
- (العربي) إسماعيل، الأمير عبد القادر الجزائري، مؤسس الدولة وقائد الجيش، وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، 1964.
- (الجزائري) الأمير عبد القادر، المواقف في بعض إشارات القران إلى الأسرار والمعارف، تحقيق عبد الباقي مفتاح، الجزء الثاني، دار الهدى، الجزائر، 2005.

- (الجزائري) محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، الجزء الثاني، دار الوعي، الجزائر، 2012.
- (الجزائري) محمد بن عبد القادر، نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر، مطبعة المعارف، مصر، دون تاريخ نشر.
- (الجيلالي) عبد الرحمن بن محمد، تاريخ الجزائر العام، الجزء الرابع، دار الأمة، الجزائر، 2008.
- (الجزائري) بديعة الحسني، فكر الأمير عبد القادر الجزائري، الجزء الثالث، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012.
- (الجزائري) بديعة الحسني، فكر الأمير عبد القادر الجزائري، الجزء الأول، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012.
- (الجزائري) بديعة الحسني، فكر الأمير عبد القادر الجزائري، الجزء الثاني، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012.
- (الجزائري) بديعة الحسني، الجذور الخضراء، دار السلام، دمشق، 1994.
- (الجزائري) بديعة الحسني، ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير عبد القادر لشارل هنري تشرشل، دار الفكر، دمشق، 2001.
- (الجزائري) بديعة الحسني، ناصر الدين الأمير عبد القادر الجزائري بن محي الدين سيرته المجيدة في حقبة من تاريخ الجزائر، ط2، مطبعة السلام، دمشق، 1992.
- (حقي) عدنان، الصوفية والتصوف، ط2، دمشق، دون تاريخ النشر.
- (حمدان) خوجة بن عثمان، المرآة، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
- (سعد الله) أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول، دار العرب، الإسلامي، بيروت،
- (العروي) عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، الدار البيضاء، دون تاريخ النشر.
- (العسلي) بسام، الأمير عبد القادر الجزائري، دار النفائس، دمشق، 1986.

- (العسلي) بسام، الأمير عبد القادر الجزائري: 1222-1300، ط2، بيروت، 1983.
- (غلي) الوزير محمد السيد، الأمير عبد القادر الجزائري ثقافته وأثرها في أدبه، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
- (غرايبية) عبد الكريم، سورية في القرن التاسع عشر (1840-1876)، الجيل للطباعة، دمشق، 1961.
- (الفاتح) حسن الشيخ، في الزهد والتصوف، دار الجيل، بيروت، 1991.
- (الفاوي) عبد الفتاح أحمد، التصوف عقيدة وسلوكا، مكتبة الزهراء، دار الجيل، بيروت، 1995.
- (محمد) صالح عبد اللطيف، أجوبة التسولي عن مسائل الأمير عبد القادر في الجهاد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996.
- (المرابط) جواد، التصوف والأمير عبد القادر الحسني الجزائري، دار اليقظة العربية، دمشق، 1966.
- (مناصرية) يوسف، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب (1847-1882)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.
- (نويصر) مصطفى، الأمير عبد القادر في ذكراه المئوية 1983، مديرية الدراسات التاريخية وإحياء التراث، الجزائر، 1983.
- (هلال) عمار، الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1988.

2- الرسائل الجامعية:

- (ابن ساعد) عائشة، البعد الروحي لمقاومة الأمير عبد القادر الجزائري، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2003-2004.

- (بغدادي) عامر، دولة الأمير عبد القادر الجزائري (1832-1848)، بحث تكميلي لنيل الماجستير، كلية الشريعة والعلوم الاجتماعية وقسم العلوم السياسية، السودان، جامعة أم درمان الإسلامية، 1987.
- (بلدي عثمان) فضيلة، المنهج الصوفي عند كل من النفري والأمير عبد القادر، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، 2006.
- (بن حراث) عبد القادر، أغراض ديوان الأمير عبد القادر، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1966.
- (بورابعة) مسعود، نماذج من مخلفات الأمير عبد القادر (مجموعة المتحف المركزي للجيش)، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2008-2009.
- (تلمساني) بن يوسف، الطريقة التجانية وعلاقتها ببايلك الغرب والأمير عبد القادر (1782-1839)، مذكرة السنة الأولى ماجستير، جامعة الجزائر، 1986-1987.
- (ملاح) أحمد، التصوف والإصلاح عند الأمير عبد القادر، دراسة تحليلية نقدية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، بدون تاريخ.

3- المعاجم والموسوعات:

- (ابن منظور) جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1994.
- (بودون) ريمون و(بوريكو) ف، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة سليم حداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986.
- (غيث) محمد عاطف، قاموس علم الاجتماع، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، 1979.
- (مارشال) جوردن، موسوعة علم الاجتماع، ترجمة أحمد عبد الله زايد وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، بدون ذكر مكان النشر، 2000.

- (مان) ميشيل، موسوعة العلوم الاجتماعية، ترجمة عادل مختار الهواري وسعد عبد العزيز مصلوح، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، الشطبى، 1999.

4- الدوريات:

- (باغلي) بن أحمد محمد، "أسئلة الجنرال دوماس حول وضعية الأسرة المسلمة بالجزائر"، في أعمال الملتقى الدولي حول الأمير عبد القادر والقيم الإنسانية، عدد خاص، دار الحكمة، الجزائر، 2001.
- (بركات) أنيسة، "الجانب الأدبي من شخصية الأمير"، مجلة التاريخ، عدد خاص بوفاة الأمير عبد القادر، 1983.
- (بلحاج) حمزة صالح، "الأمير عبد القادر الجزائري ومنظومة القيم"، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة والإعلام، العدد 114، 1997.
- (بلغراد) محمد، "الجانب الصوفي والثقافي في حياة الأمير عبد القادر الجزائري"، مجلة التاريخ، عدد خاص بوفاة الأمير عبد القادر الجزائري، 1983.
- (بوعبدلي) المهدي، "أضواء على حياة الأمير عبد القادر"، مجلة التاريخ، العدد 2، 1975.
- (بوعبدلي) المهدي، "وثائق أصيلة على حياة الأمير عبد القادر"، مجلة الثقافة، العدد 75، 1983، الجزائر.
- (بوعزيز) يحي، "الأمير عبد القادر والحوار في خدمة الإنسانية"، في أعمال ملتقى الأمير عبد القادر والقيم الإنسانية، دار الحكمة، الجزائر، 2001.
- (بوعزيز) يحي، "جهود الأمير عبد القادر وحلفائه في تدعيم الجبهة الشرقية القسنطينية" الأصالة، العدد 48، الجزائر، 1977.
- (بوعياد) محمد، "عبد القادر الإنسان..."، الثقافة، العدد 75، 1983.

- (الجزائري) إدريس، "شمولية شخصية الأمير ونظرته لمفاهيم عدة تفرض الإعجاب"، مجلة مسالك، مؤسسة الأمير عبد القادر، العدد 2، جويلية 1998.
- (حاجيات) عبد الحميد، "الأمير عبد القادر وإنتاجه الأدبي"، مجلة التاريخ، عدد خاص بالذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر، 1983.
- (قاسي) فريدة، "ملامح الفكر الإنساني عند الأمير عبد القادر"، أعمال الندوة العلمية الأمير عبد القادر وتيارات فكرية غير عربية إسلامية في الجزائر، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر، 2006.
- (لعجال) طارق، "خطاب الإخاء الديني في فكر الأمير عبد القادر"، أعمال الندوة العلمية للأمير عبد القادر وتيارات الفكر غير عربية إسلامية في الجزائر، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر، 2006.
- (المدني) أحمد توفيق، "أبطال المقاومة الجزائرية، جمدان خوجة، أحمد باي، الأمير عبد القادر والدولة العثمانية، مجلة التاريخ، العدد 4، الجزائر، 1977.
- (المدني) أحمد توفيق، "الأخوة الجزائرية التونسية أواخر أيام الأمير عبد القادر، مجلة الثقافة، عدد خاص بذكرى وفاة الأمير، العدد 75، الجزائر، 1983.
- (مفتاح) عبد الباقي ، "الأمير عبد القادر الجزائري مع الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي"، مجلة مسالك، العدد رقم 5، 2002.
- (مفتاح) عبد الباقي ، "الأمير عبد القادر مرجع المتصوفة ومفتاح الأسرار الغيبية"، مجلة مسالك، العدد 6، جوان 2003.
- (مناصرية) يوسف، "مهمة ليون روش في المغرب ومحاولة الإيقاع بين السلطان مولاي عبد الرحمن والأمير عبد القادر (1847-1845)"، مجلة التاريخ، عدد خاص بمناسبة الذكرى المئوية لوفاة الأمير، 1983.

المراجع باللغة الأجنبية:

I. Ouvrages :

- Abdelkader (Emir), Autobiographe, Edition Darl El Summa, 1997.
- Azan (P), l'Emir Abdelkader, de fanatisme musulman au patriotisme français (1808-1883), Hachette, Paris, 1925.
- Benachenhou (A), L'Etat algérienne en 1830 des institutions sous L'Emir Abdelkader.
- Charles (Henry Cherchill), La vie d'Abdelkader, SNED, Alger, 1974.
- Emérit (Marrel), L'Algérie à l'époque d'Abdelkader, Larose, 19..
- Estailleur, (P), Emir magnanime Abdelkader le croyant, librairie Arthème Eayard, 1959.
- Dupuch, (S), Abdelkader au château d'Amboise, Ibris press, Paris, 2002.
- Ferrah (Abdelaziz), L'Emir Abdelkader, Marinser, Alger, 1999.
- Kaddache (Mahfoud,) L'Emir Abdelkader, Ministère de l'information et de la culture, 1974.
- Zouzou (Abdelhamid), Vit quotidienne à Mascara à travers les ports du premier consul français auprès de l'Emir Abdelkader, Edition Houma, Alger, 2014.
- Zouzou (Abdelhamid), Correspondance de l'Emir Abdelkader avec le Général Desnichels et document relatif à l'époque d'Abdelkader, Edition distribution Huma, 2003.

II. Encyclopédies et dictionnaires :

- Encyclopadie (universalis), Editeur à Paris, France, 1990.
- Akun (A) et Ansart (P), Dictionnaires de sociologies, Edition le seuil, Paris, 1999.

III. Les revues :

- Azan (P), « Les débuts d'Abdelkader », in bulletin de la société de géographie d'Oran, T.XII, 1921.
- Bourouiba, (R), « Places fortes et Etablissements militaires fondés par l'Emir Abdelkader », in Madjallat etarikh, (centenaire de mort de l'Emir Abdelkader 1883-1983), Numéro spécial centre matériel d'études historiques, Alger, 1983.
- Canard, (M), « Chamil et Abdelkader », In annales de l'institut d'Alger des orientales, Alger, 1956.
- Emerit (M), « Un problème de distance morale : la résistance Algérienne à l'époque d'Abdelkader », in revue d'information historique, n°127, Paris, 1953.
- Kaddaiche (M), « Abdelkader franc maçon » par X. Yocons notes de lecture, in revue histoire et de civilisation du Maghreb, N°3, 1967.
- Nadir (A), « Les ordres religieux et la conquête française (1830-1851), in : Revue algérienne des sciences juridiques, économique et politiques, épisode 4, 1972.
- Tessier (H), « L'entourage de l'Emir Abdelkader et la dialogue islamo chrétien », in Islamo Christiana, Roma Instituta, Pisttudi. Arabi, T1, 1975.
- Yves (G), « Les préliminaires de la négociation de la Tafna », In Revue Africain, N°60, année 1919.
- Yves (G), « Abdelkader et le Marsi en 1838 », In revue africain, N°60, 1919.
- Yrono (X), « les préliminaires dès la négociations de la tafna, in Revue africaine, N°64, 1923.

الملاحق

الصورة رقم 01.

التسمية: سيف

المقاسات: الطول 110 سم، العرض 4 سم، طول المقبض 13 سم.

المادة: الحديد

الصانع أو المكتشف: حرفي فرنسي

المصدر: إهداء

مكان الحفظ: المتحف المركزي للجيش

الوصف: سيف مقوس رائع من الحديد المتين ذو مقبض معدني مزخرف.

الصورة رقم 02

التسمية: سيف

المقاسات: الطول 105 سم، العرض 2.5 سم، السمك 0.4 سم.

المادة: الحديد

الصانع أو المكتشف: حرفي فرنسي

المصدر: إهداء

مكان الحفظ: المتحف المركزي للجيش

الوصف: سيف مستقيم على شاكلة سيوف فليسة ذو مقبض عاجي.

الصورة رقم 03.

التسمية: بندقية

المقاسات: 130 سم و العرض 80 سم

المادة: الخشب و الحديد

الصانع أو المكتشف: حرفي بريطاني

المصدر: إهداء

مكان الحفظ: المتحف المركزي للجيش

الوصف: بندقية مذهبة من الخشب المتين، تنفصل الى جزئين، لتوضع داخل حقيبة معدة خصيصا لذلك.

الصورة رقم 04.

التسمية: كتاب المواقف فوق مكتب الأمير

المقاسات: 24 × 16 سم

المادة: ورق

المؤلف: الأمير عبد القادر

المصدر: إهداء

مكان الحفظ: المتحف المركزي للجيش

الوصف: مخطوط منفذ بخط اليد على صفحات متوسطة الحجم.

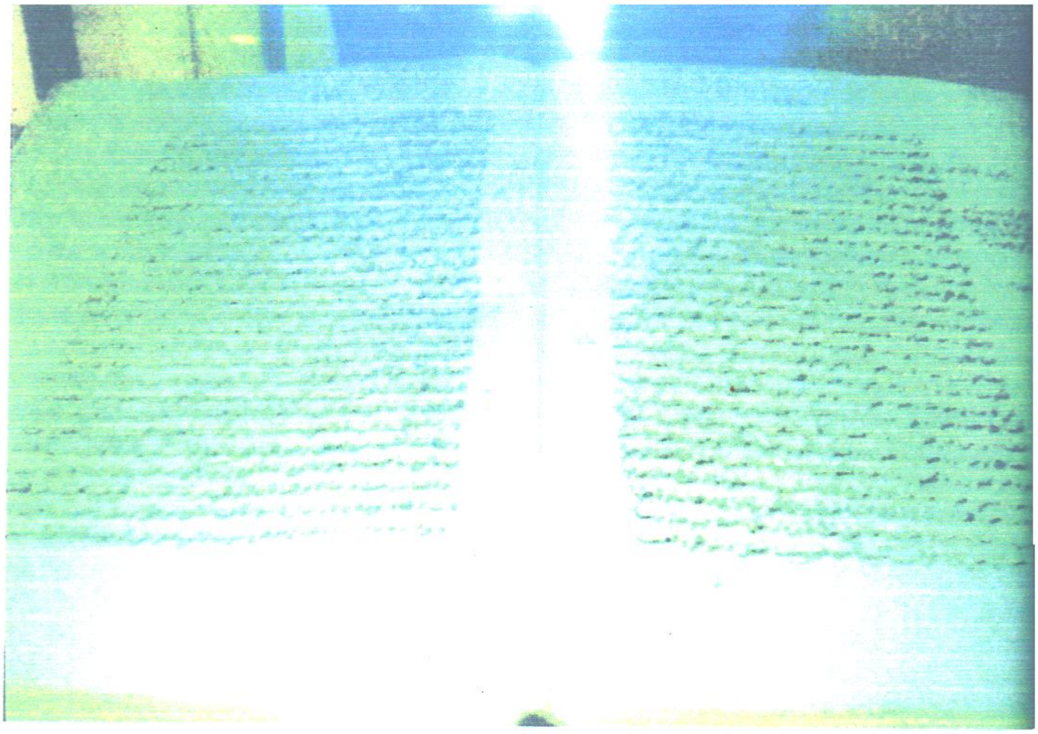

الصورة رقم 05.

مخطوط المواقف للأمير عبد القادر

المتحف المركزي للجيش

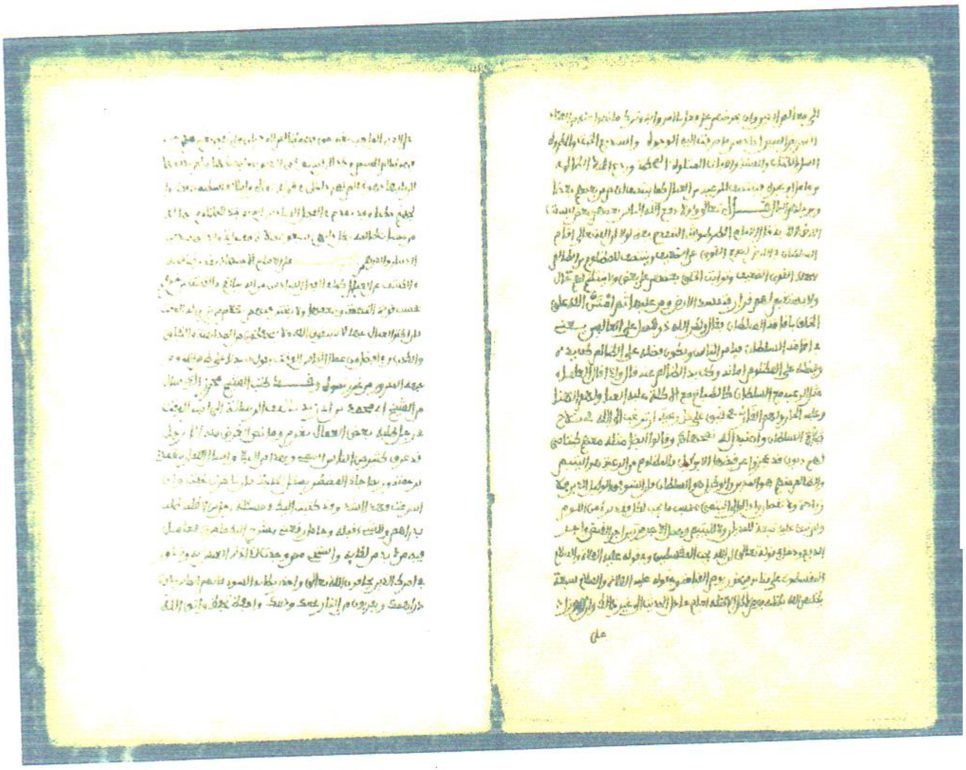

الصورة رقم 06

التسمية: مخطوط المواقف

المقاسات: 24 سم × 16 سم

المادة: الورق

المؤلف: الامير عبد القادر

المصدر: إهداء

مكان الحفظ: المتحف المركزي للجيش

الصورة رقم 07.

جزء من مخطوط المواقف معروض فوق مكتب الأمير.

المتحف المركزي للجيش.

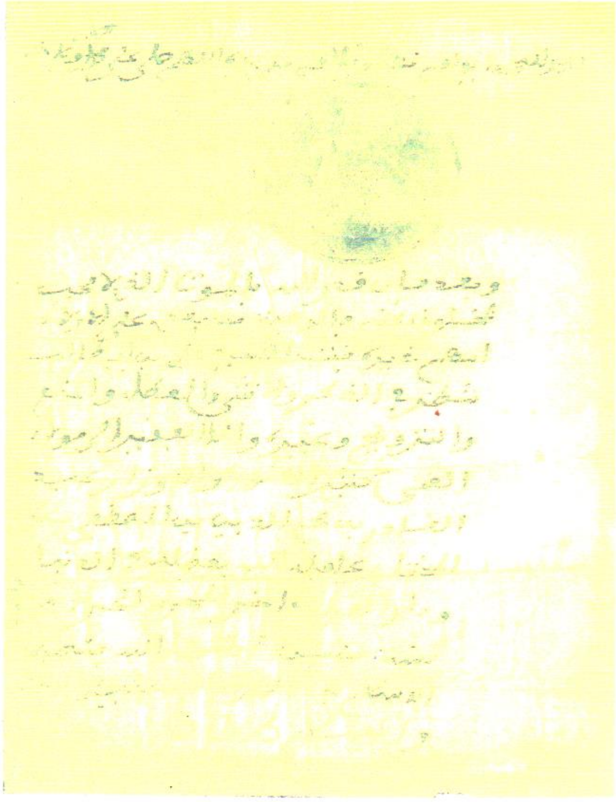

الصورة رقم 08.

التسمية: وثيقة الوصية

المقاسات: 15 × 10 سم

المادة: الورق

الصانع أو المكتشف: الأمير عبد القادر

المصدر: إهداء

مكان الحفظ: المتحف المركزي للجيش

الوصف: وثيقة من الورق ذو الحجم الصغير، متكونة من 13 سطرا ، منفذة بخط الأمير عبد القادر، موجهة لحرمه خيرة.

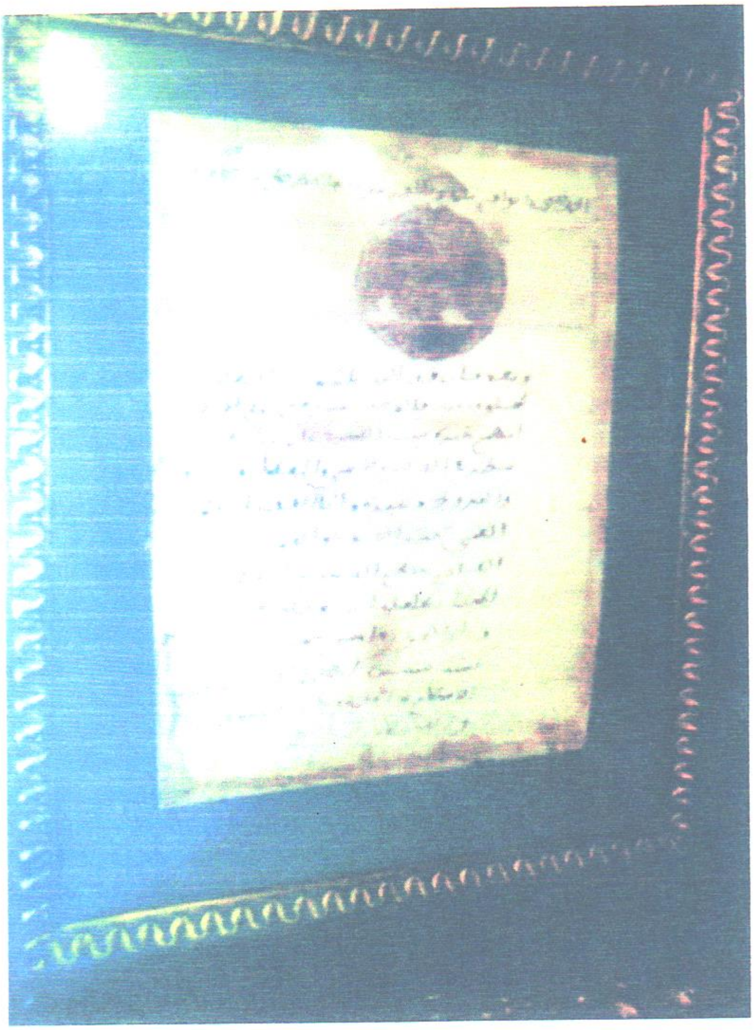

الصورة رقم 09.

وثيقة الوصية داخل إطار بني، موجهة من قبل الأمير لحرمه خيرة

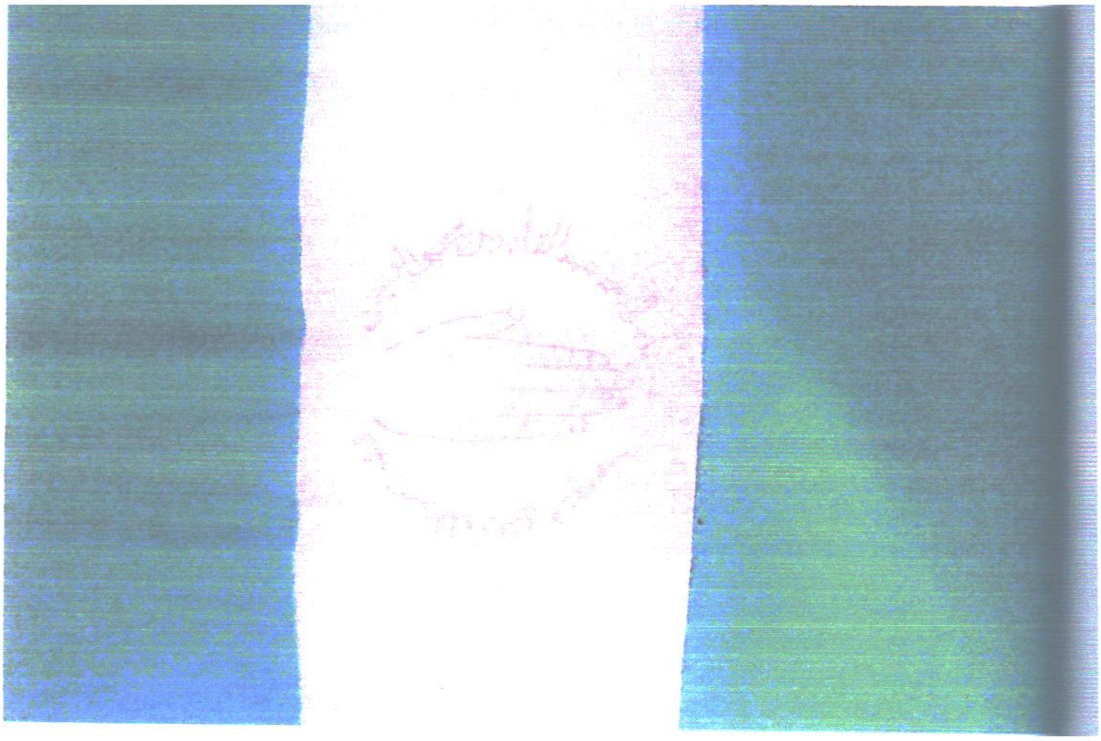

الصورة رقم 10.

إعادة حياكة لراية دولة الأمير عبد القادر

المتحف المركزي للجيش

الصورة رقم 11.

التسمية: راية جهاد دولة الأمير

المقاسات: 260 × 170 سم

المادة: الكتان

الصانع أو المكتشف: غير معلوم

المصدر: إهداء

مكان الحفظ: المتحف المركزي للجيش

الوصف: راية عملاقة من الكتان الأسود عليها كتابة باللون الأصفر، بدأت تتمزق بفعل السنين.

الصورة رقم 12.

التسمية: دراعة (قميص طويل مفتوح)

المقاسات: 150 سم × 120 سم.

المادة: الكتان

الصانع أو المكتشف: غير معلوم

المصدر: إهداء

مكان الحفظ: المتحف المركزي للجيش

الوصف: دراعة من الكتان مفتوحة من الأمام ذات أزرار من الكتان أيضا، للارتداء خاصة في الجو المعتدل.

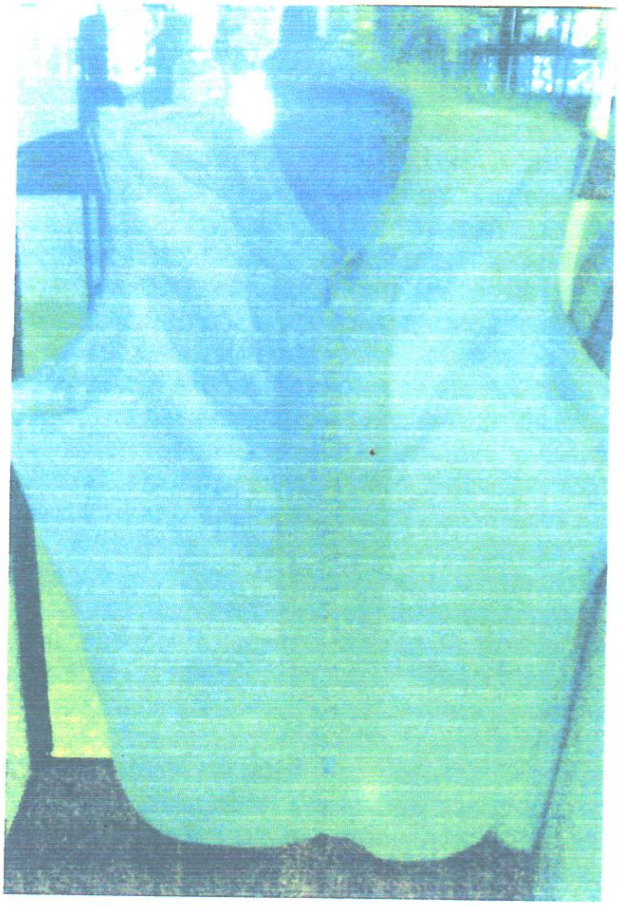

الصورة رقم 13.

التسمية: صدرية

المقاسات: 60 × 80 سم

المادة: الكتان

الصانع أو المكتشف: غير معلوم

المصدر: إهداء

مكان الحفظ: المتحف المركزي للجيش

الوصف: صدرية من الكتان الأبيض بدون أكمام، كان يرتديها الأمير خاصة أثناء الجو المعتدل.

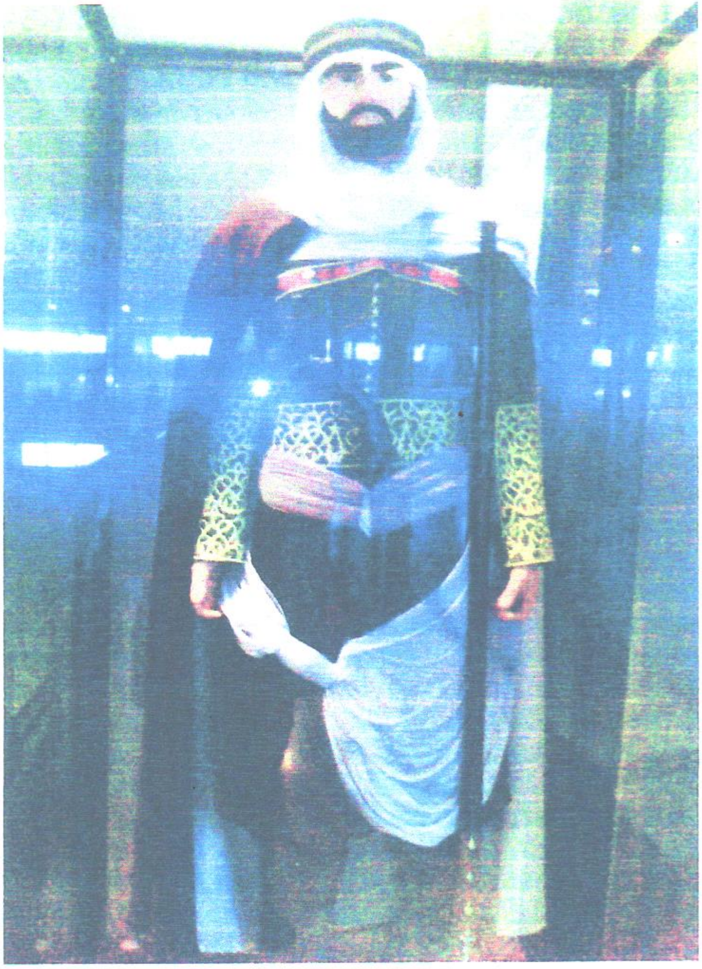

الصورة رقم 14.

تركيب للباس قائد من جيش الأمير عبد القادر

المتحف المركزي للجيش

الصورة رقم 15.

لباس لأحد قادة جيش الأمير مرفق بمسدس (بشطولة) من إنتاج معامل الأمير.

المتحف المركزي للجيش

الصورة رقم 16.

التسمية: سجادة للصلاة أو زربية

المقاسات: 110 × 70 سم

المادة: الصوف و الخيط المذهب

الصانع أو المكتشف: حرفي قوقازي

المصدر: إهداء

مكان الحفظ: المتحف المركزي للجيش

الوصف: سجادة للصلاة بمقاس معتدل ذات خلفية زرقاء مطرزة بأشكال نباتية تحفظ في حالة جيدة.

الصورة رقم 17.

التسمية: سجادة للصلاة أو زربية

المقاسات: 110 سم و العرض 70 سم

المادة: الصوف و الخيط المذهب

الصانع أو المكتشف: حرفي قوقازي

المصدر: إهداء

مكان الحفظ: المتحف المركزي للجيش

الوصف: سجادة للصلاة بمقاس معتدل ذات خلفية زرقاء، مطرزة بأشكال نباتية مختلفة، تحفظ في حالة جيدة.

الصورة رقم 18.

التسمية: سجادة للصلاة أو زربية

المقاسات: 130 سم و العرض 80 سم

المادة: الصوف و الخيط المذهب

الصانع أو المكتشف: غير معلوم

المصدر: إهداء

مكان الحفظ: المتحف المركزي للجيش

الوصف: سجادة للصلاة بمقاس معتدل ذات خلفية بيضاء مطرزة بأشكال نباتية و هندسية مختلفة الالوان، تحفظ في حالة جيدة.

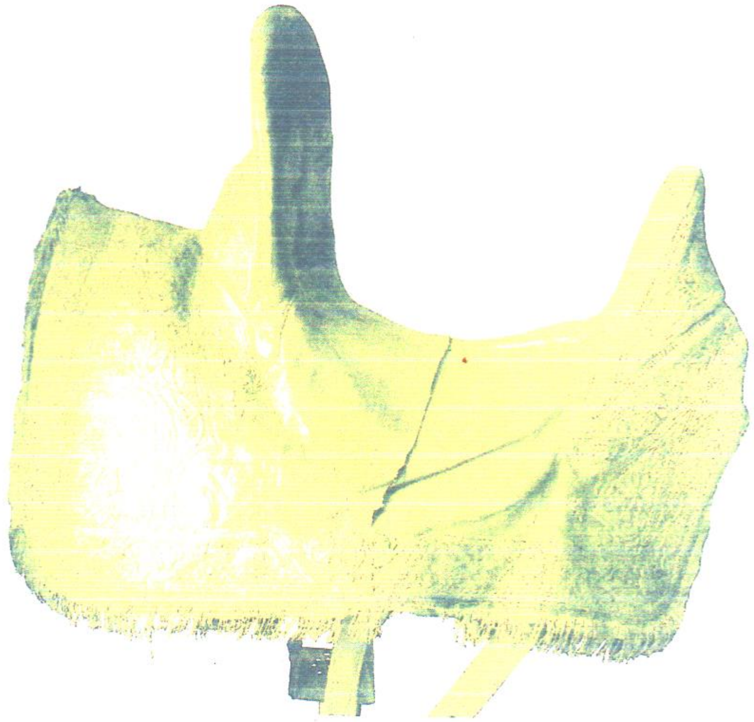

الصورة رقم 19.

التسمية:: سرج الامير

المقاسات: حجم متوسط

المادة: الجلد

الصانع أو المكتشف: غير معلوم

المصدر: إهداء

مكان الحفظ: المتحف المركزي للجيش

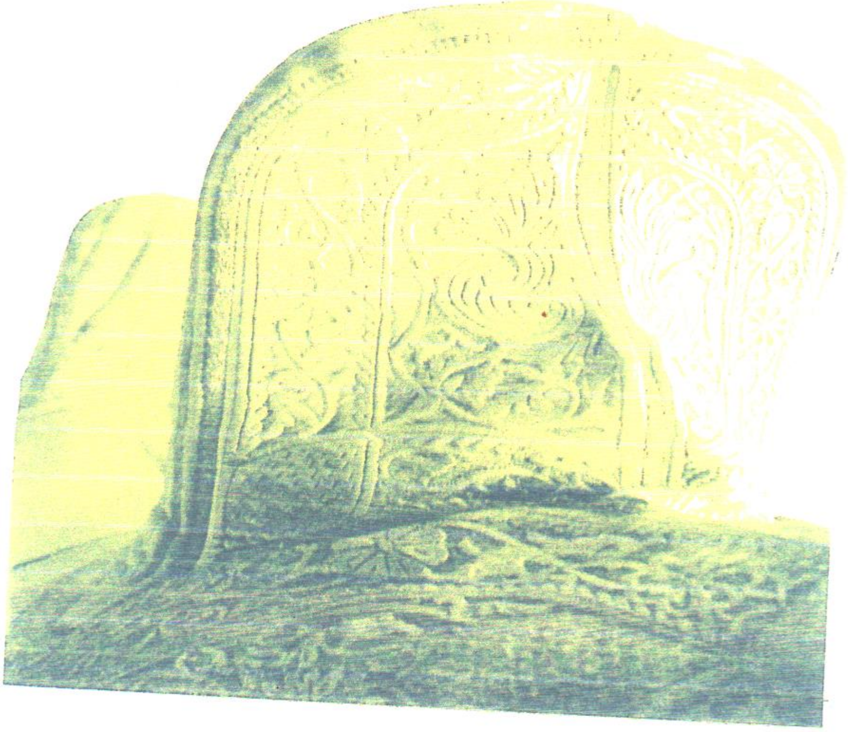

الصورة رقم 20.

واجهة من سرج الأمير عبد القادر

المتحف المركزي للجيش

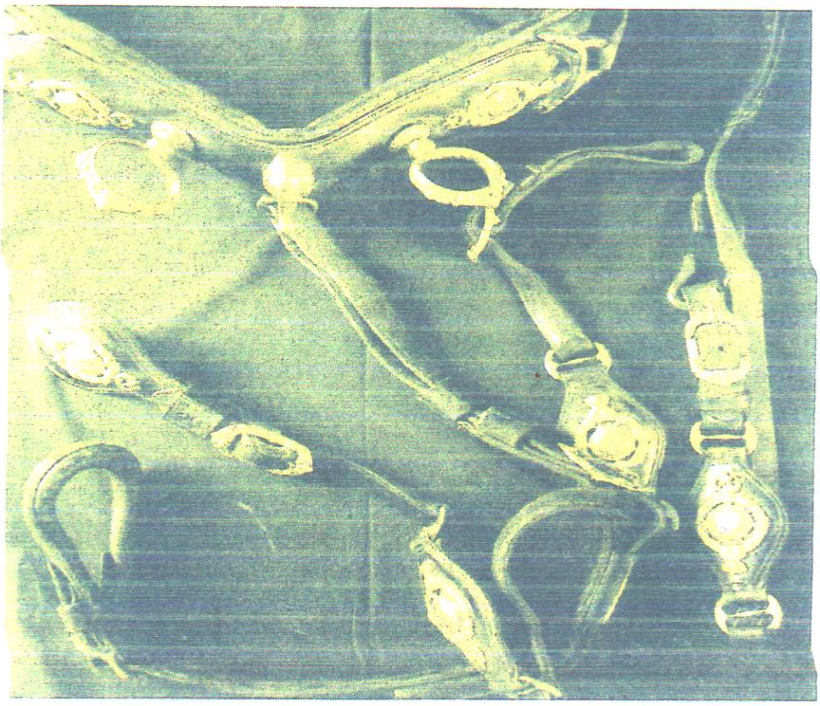

الصورة رقم 21.

جانب من طقم فرس الأمير عبد القادر.

المتحف المركزي للجيش

الصورة رقم 22.

أحزمة و ركابيات من طقم فرس الأمير عبد القادر
المتحف المركزي للجيش

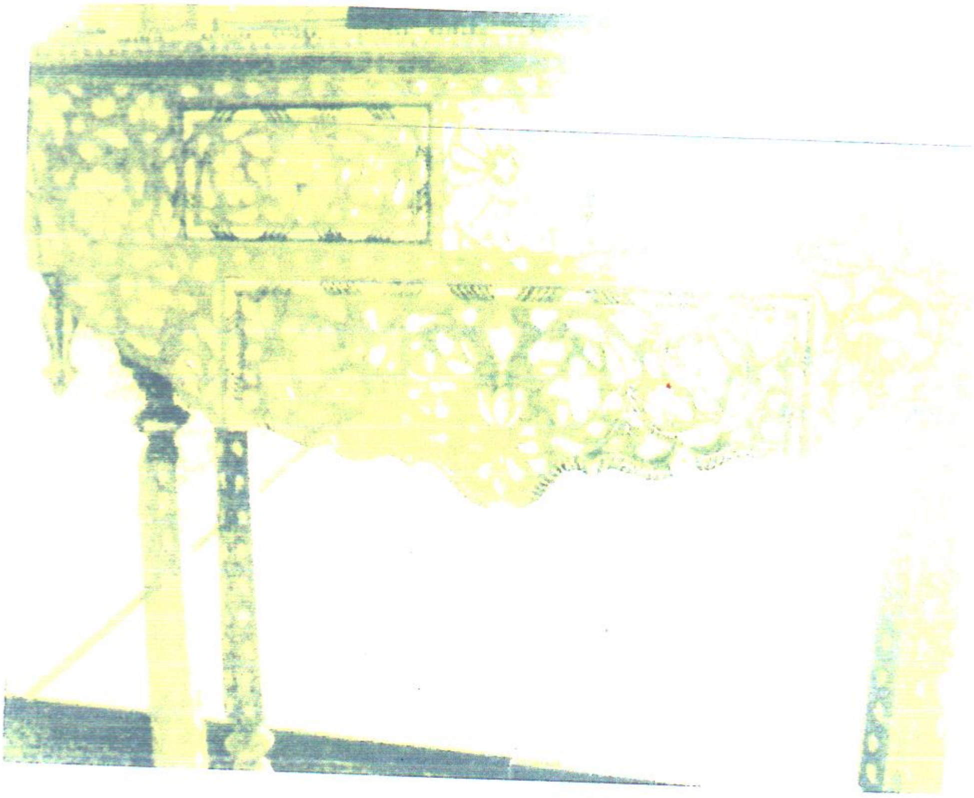

الصورة رقم 23.

الواجهة الأمامية لمكتب الأمير عبد القادر

المتحف المركزي للجيش

الصورة رقم 24.

التسمية: مكتب لحفظ الأشياء

المقاسات: الطول 70 سم، الارتفاع 45 سم، العرض 75 سم

المادة: الخشب و العاج و الصدف

الصانع أو المكتشف: غير معلوم

المصدر: إهداء

مكان الحفظ: المتحف المركزي للجيش

الوصف: مكتب مرصع بالصدف ذو ثلاث دفات معد لحفظ الأشياء.

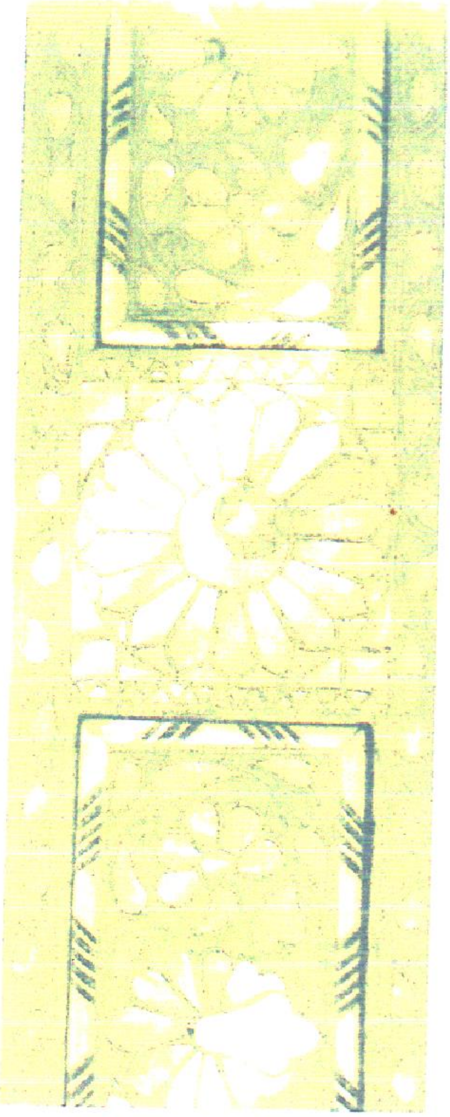

الصورة رقم 25.

التسمية: واجهة من مكتب الأمير

المقاسات: 70 × 45 × 75 سم

المادة: الخشب و الصدف و العاج

الصانع أو المكتشف: غير معلوم

المصدر: إهداء

مكان الحفظ: المتحف المركزي للجيش

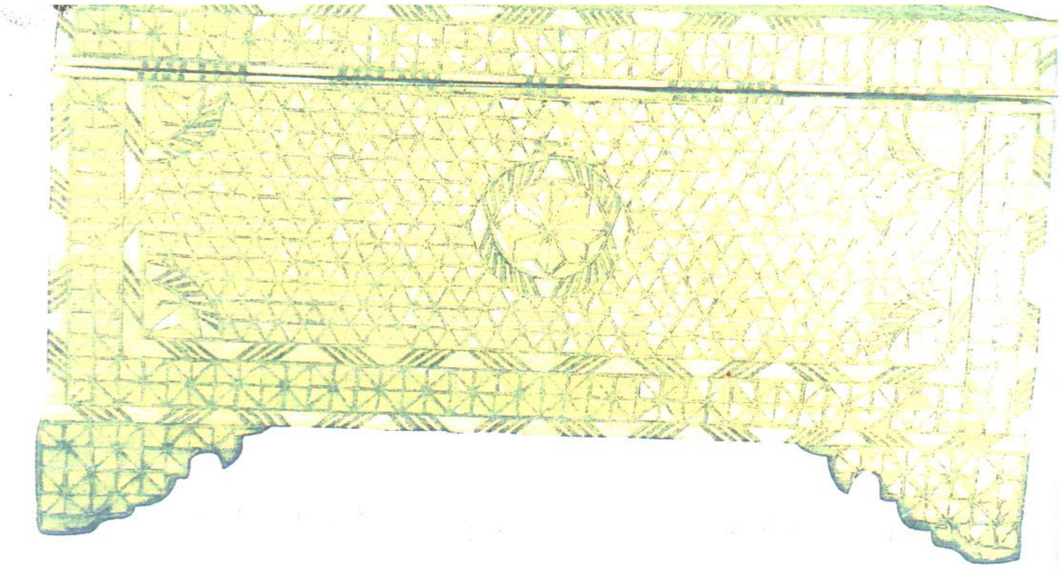

الصورة رقم 26.

صندوق مرصع بالصدف جميل جدا كانت تستعمله حرم الأمير خيرة لحفظ أشيائها الثمينة.
المتحف المركزي للجيش.

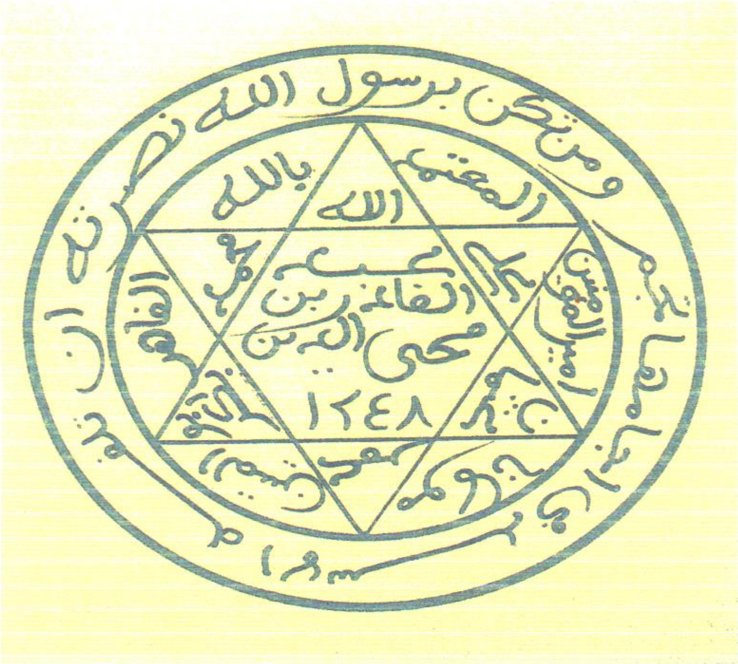

صورة رقم 27

تكبير لنجمة خاتم الأمير عبد القادر

عن الأمير عبد القادر ملحمة الحكة، منشورات زكي بوزيد.

الصورة رقم 28.

صندوق حرم الأمير عبد القادر مرصع بالصدف.

الصورة رقم 49.

فارس من خيالة الأمير عبد القادر

المتحف المركزي للجيش

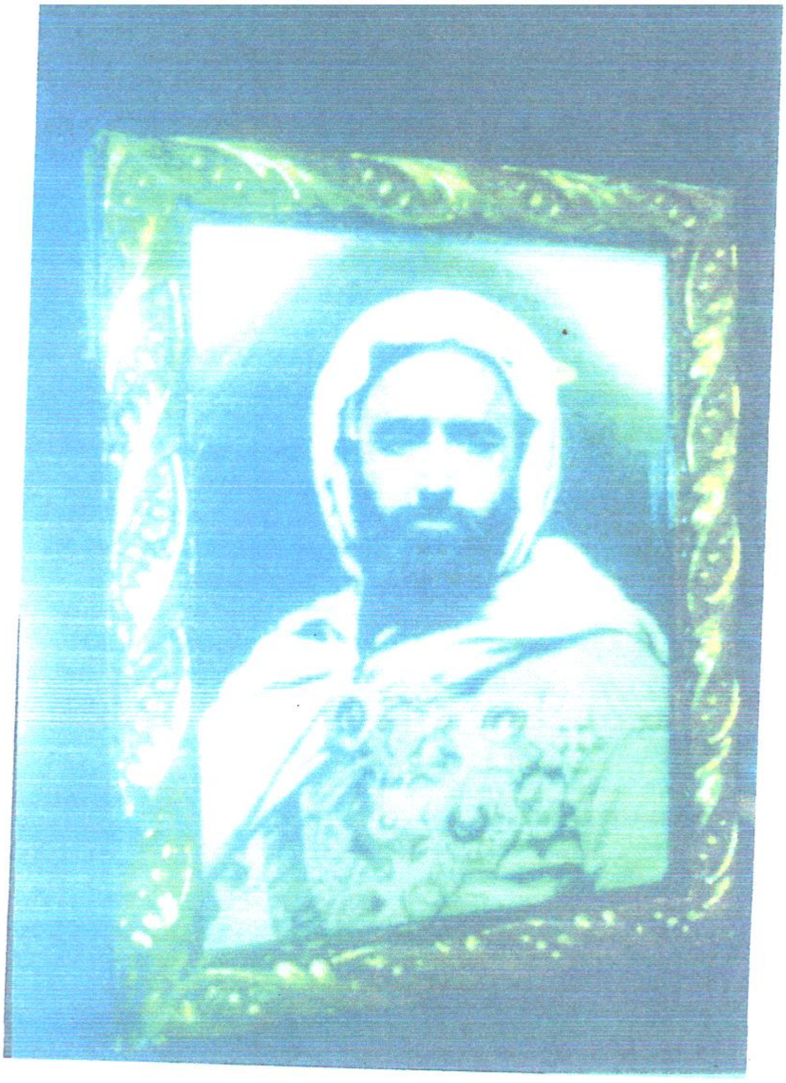

الصورة رقم 30.

صورة أصلية للأمير عبد القادر

المتحف المركزي للجيش

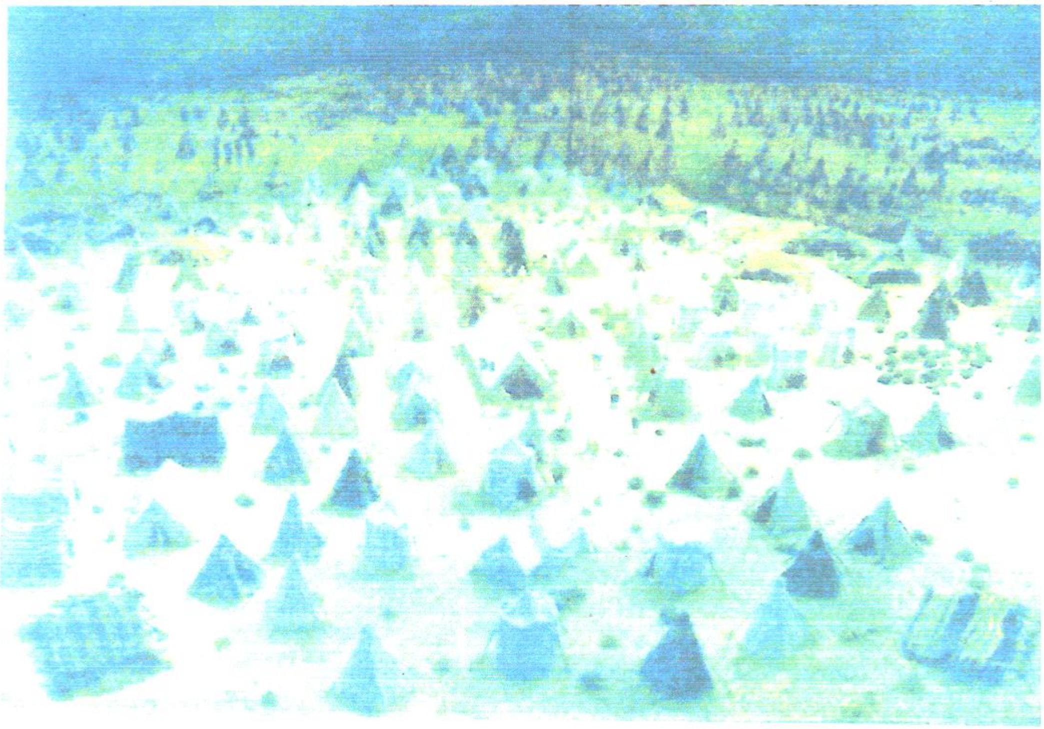

الصورة رقم 31.

إعادة تجسيم لعاصمة الأمير المتنقلة المعروفة باسم الزمالة

المتحف المركزي للجيش

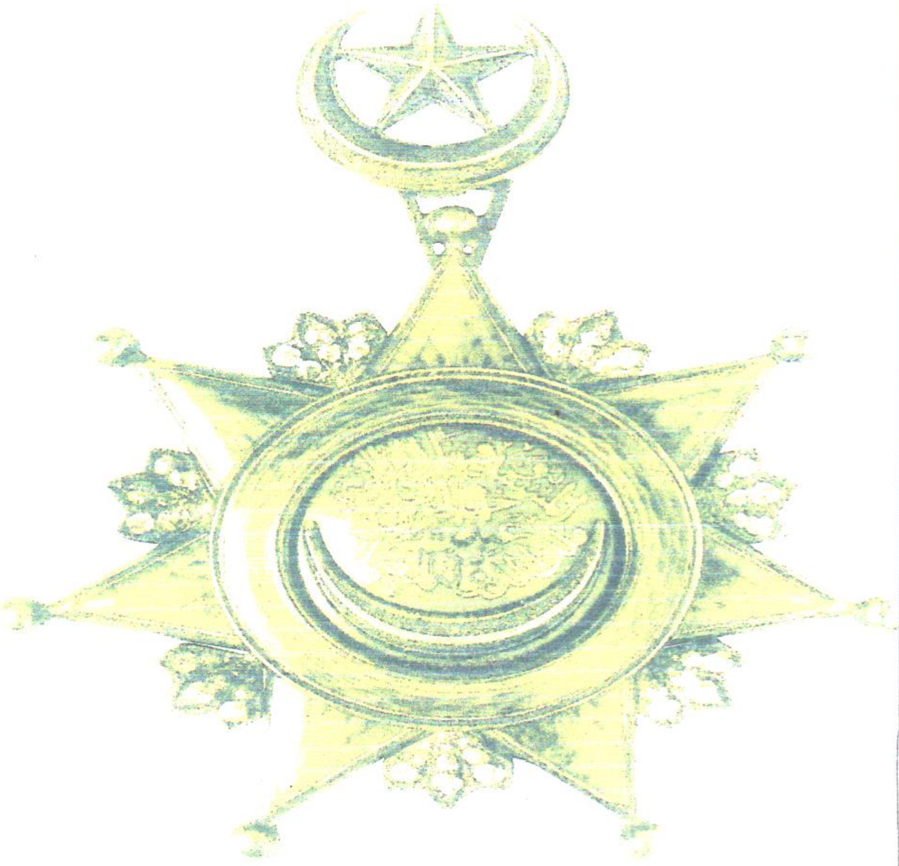

الصورة رقم 32.

و سام أهداه السلطان العثماني إلى الأمير نظير إسهاماته في خدمة الأمة الإسلامية و البشرية جمعاء.

المتحف المركزي للجيش

الصورة رقم 33.

سكة مضروبة في عهد الأمير عبد القادر
مجموعة المتحف المركزي للجيش

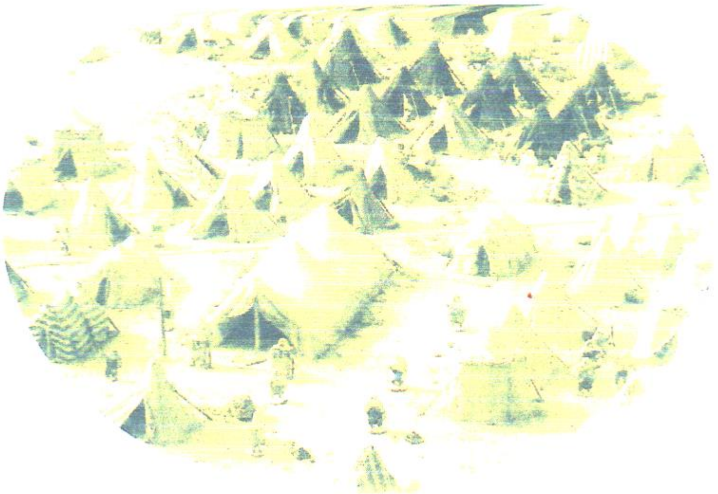

الصورة رقم 34.

إعادة تصور لعاصمة الأمير المتنقلة (الزمالة)
المتحف المركزي للجيش.

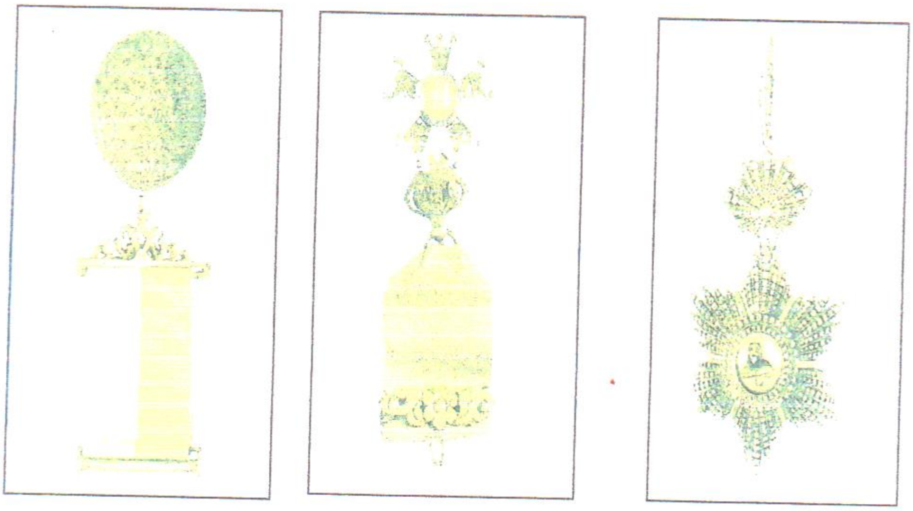

الصورة رقم 35.

أوسمة و نياشين أهديت للأمير من قبل السلاطين العثمانيين.

المتحف المركزي للجيش

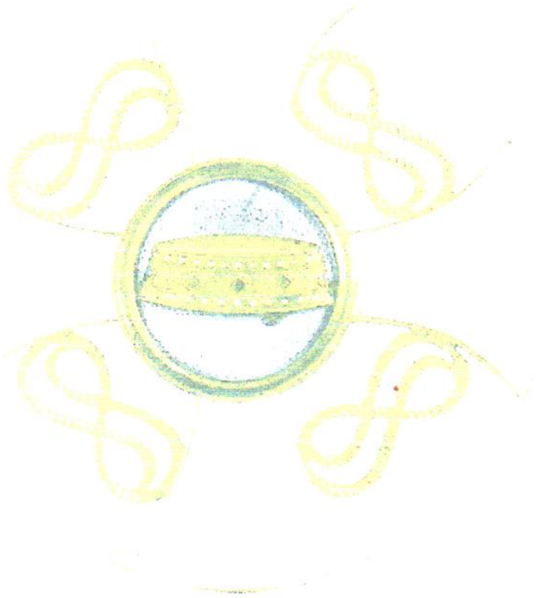

الصورة رقم 36

وسام شرف أهدته الفدرالية السويسرية إلى الأمير عبد القادر

المتحف المركزي للجيش

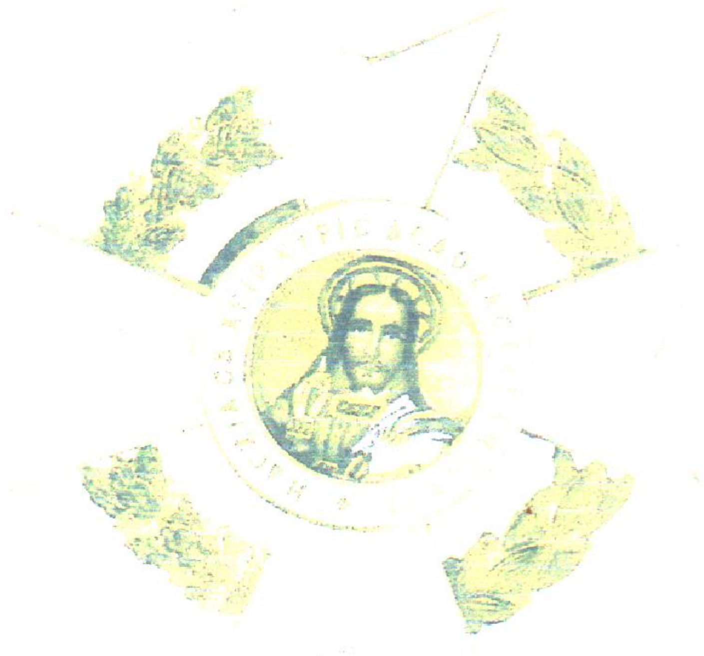

الصورة رقم 37

وسام شرف أهداه ملك اليونان أتون الأول إلى الأمير عبد القادر

المتحف المركزي للجيش

الصورة رقم 37

سيف مستقيم مع غمده اهدي للأمير
المتحف المركزي للجيش

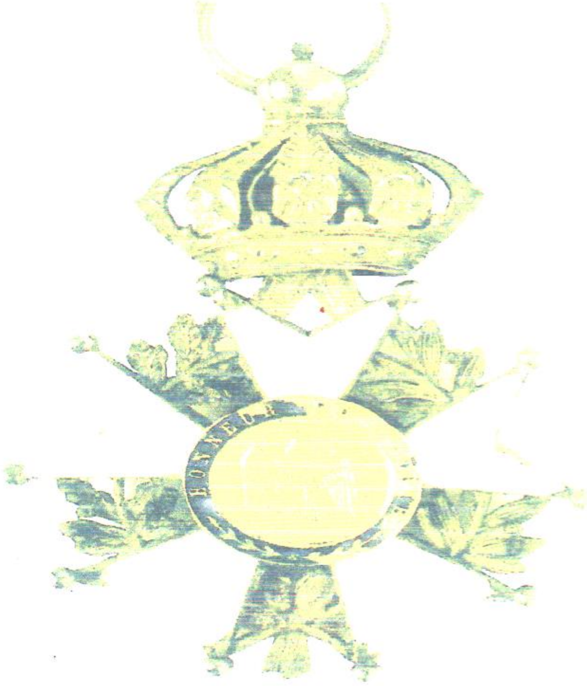

الصورة رقم ٣٩ .

مرف الدولة أهداه أتون الأول ملك اليونان إلى الأمير.

، المركزي للجيش.

الصورة رقم 40

صورة أصلية للأمير عبد القادر، وجدت في مكتبة بالبرازيل و صلت للجزائر عن طريق السفارة.
المتحف المركزي للجيش.

الصورة رقم 1/1.

صورة أصلية للأمير عبد القادر
المتحف المركزي للجيش

الصورة رقم [illegible]

صورة أصلية للأمير عبد القادر

المتحف المركزي للجيش

صورة للأمير عبد القادر فى شبابه

الحسن
إدريس
محمد
أحمد
عبد القوي
يعقوب
طاووس
مسعود
محمد
بشار
يوسف
خالد
عبد القوي
أحمد
علي
محمد
عبد القادر بن المختار
محمد
مصطفى
الأمير عبد القادر

إنتماء الأمير للأدارسة

محمد بن عبد الله رسول الله(ص)

فاطمة زوجة علي بن أبي طالب(رض)

الحسين

الحسن
الحسن المثنى
عبد الله المحض
موسى الجونى
يحيى
عبد الله
موسى
صالح
عبد القادر الجيلانى
عبد الرزاق
عبد القوى
محمد
محمد
عبد القادر
أحمد المختار
عبد القادر
المختار
أحمد
محمد
مصطفى
محيى الدين
الأمير عبد القادر

نسب الأمير عبد القادر وإنتمائه لآل البيت

الملحق رقم:

نموذج من كتاب سيرة الأمير.

بسم الله الرحمن الرحيم — صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

الحمد لله فاتح ابواب النعم وبه دفع النقم ويرفع الهمم والصلاة والسلام على سيد العرب والعجم

2592 سيدنا ومولانا محمد المرسل للفصيح والاعجم وعلى آله وصحبه وشيعته وحزبه وبعد فان بعض اصدقائنا

التمس مني كتابة مقدمة لتاريخ ما جرى بيننا وبينهم في فتح الجزائر من مصالحة ومكالمة ببيان السبب

على ما هو من [illegible] بالحادثة [illegible] الاكرم [illegible]

الغرض [illegible] ونصه [illegible] عبد الله [illegible] فلان بعدها كتب الحمد لله والصلاة والسلام

على جميع النبيين الى المعظم المحترم السيد الحاج عبد القادر بن محي الدين اعزه الله وارشده امين

اما بعد [illegible] وسع [illegible] جميع [illegible]

[illegible] السيد الحاج محي الدين رحمه الله ونذكر في كتابه [illegible] تاريخ ما صار من الامور

العجيبة التي تتعلق باحوال [illegible] الى المشرق وتوليته سلطان

سلطنة العرب وتاويله مع ترتيب العسكر وبناء [illegible] والحرب [illegible] — أمر

[illegible] الجنود [illegible] من العامة [illegible] والمدينة مع الجيش [illegible]

[illegible] والجيش [illegible] من سواد العراق [illegible]

المملكة [illegible] مقصود [illegible] مع امور الدنيا وما [illegible] وما [illegible] عن [illegible]

— ومنه وانه [illegible] في الماضي وما [illegible] في [illegible] وما [illegible] لهم في

مصالح المسلمين [illegible] الاحكام [illegible] وينفصل [illegible] مع

سلطان العرب [illegible] ان شاء الله [illegible] كذب

الكذابين [illegible] والفوائد وفي المكاتب [illegible] القول والفعال [illegible] تكثير كذب

الكاذبين [illegible] من [illegible] الحسن [illegible] خامس عشر

جمادى الآخرة سنة اربع وستين ومائتين والف [illegible] مولانا [illegible]

[illegible] واستوعب [illegible] كلها [illegible] الله مقامه واعلا [illegible] عوائده [illegible] بصالح

الحال والمآل [illegible] جميع ذلك على حسب ما طلب [illegible] بالجواب [illegible]

[illegible] بتوفيق الله [illegible] الدين بحول الله وقوته [illegible]

[illegible] ما طلب [illegible] الجواب في مقدمة وسبعة فصول [illegible]

[illegible] هذا [illegible] ان لم يكن فيه نفع ديني او دنيوي فلا ضرر فيه [illegible]

نموذج من كتاب المواقف .

الجزء الأول من المواقف الروحية
والالقاءات السبوحية
للعارف الكبير والمحقق الخبير
الشهير سيدي الامير السيد
عبد القادر بن سيدي
محي الدين المغربي
الجزائري الحسني
روح الله
روحه
آمين

2593

الحمد لله وحده ذكر ابن خلكان في وفيات الاعيان بيتين
للامام العالم الخليل بن احمد رحمه الله تعالى وهما

لو كنت تعلم ما اقول عذرتني ... او كنت اجهل ما تقول عذلتك
لكن جهلت مقالتي فعذلتني ... وعلمت انك جاهل فعذرتك

فهذان البيتان لسان كل عارف ومحقق
جوابا لكل جاهل منكر متعنت متملق

لا ينبت منه روحه حتى لو ان احدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه قال فيبقى شرار الناس في خفة الطير واحلام
السباع لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا فيتمثل لهم الشيطان فيقول الا تستجيبون فيقولون فما تامرنا فيامرهم
بعبادة الاوثان وهم في ذلك دار رزقهم حسن عيشهم ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه احد الا اصغى ليتا ورفع
ليتا قال واول من يسمعه رجل يلوط حوض ابله فيصعق ويصعق الناس ثم يرسل الله مطرا كانه الطل او الظل
فتنبت منه اجساد الناس ثم ينفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون ثم يقال يا ايها الناس هلموا الى ربكم
وقفوهم انهم مسئولون ثم يقال اخرجوا بعث النار فيقال من كم فيقال من كل الف تسعمائة وتسعة
وتسعين قال فذلك يوم يجعل الولدان شيبا وذلك يوم يكشف عن ساق واخرج من حديث ابي بردة عن ابيه
قال صلينا المغرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قلنا لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء قال فجلسنا
فخرج علينا فقال ما زلتم ها هنا قلنا يا رسول الله صلينا معك المغرب ثم قلنا نجلس حتى نصلي معك
العشاء قال احسنتم او اصبتم قال فرفع راسه الى السماء وكان كثيرا مما يرفع راسه الى السماء
فقال النجوم امنة للسماء فاذا ذهبت النجوم اتى السماء ما توعد وانا امنة لاصحابي فاذا ذهبت
226 اتى اصحابي ما يوعدون واصحابي امنة لامتي فاذا ذهب اصحابي اتى امتي ما يوعدون ولنجعل هذا اخر كلامي ه
والحمد لله رب العالمين

2592

C71600

اذهله واقلقه فاستغفر ربه من هذا الظن الذي صدر منه فلتة لا غير ولذا كان
التعبير بالنداء فالاستغفار والانابة متفرعات عن الظن اذ ليس للكامل ان يظن
بربه هذا فانه انما يأتي ما يأتي بالقاء الالهي اما بواسطة ملك او من جهة الوجه
الخاص به فهو على بصيرة وبينة في كل ما يأتي ويذر واوامر الحق تعالى للكمل لا تكون
حبائل للمكر ولكن الحق تعالى قد يأمرهم باشياء في بواطنهم ويمنعهم منها ظاهرا
لحكم والحكمة هنا هي الا يطلب احد من الخلفاء الكاملين بعد داوود عليه السلام
الظهور بالاسم الذاتي وهو المكمل مائة فانه اذا منعه داوود وهو المنصوص على خلافته
في القرآن وهو الذي كمل الله به ظهور الخلافة فانها من عهد ادم عليه السلام وهي
تتزايد في الظهور الى ان كمل ظهورها بداوود عليه السلام فغيره ممن لم ينص الحق
تعالى على خلافته اولى بالمنع فاياك ان تسمع لخرافات القصاص وجهلة المؤرخين
ومن قلدهم من بعض المفسرين المولعين بنقل امثال هذا عن اهل الكتاب فان
مقام النبوة اعلى من ان يتكلم فيه برأي او قياس واعز من ان يدركه لغير نبي فهو
علم العلماء من مقام النبوة الاسماء الا ما يعلم الناس من النجوم وعند ظهورها في الماء
فالحذر الحذر من الخوض في النبوة والانبياء مطلقا فالله يعصمنا واياكم من الزلل
في القول والعمل وبعد كتابتي لهذا الموقف بقليل ورد علي الوارد في الواقعة
قوله وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية

تم الجزء الاول من المواقف
بحمد الله وعونه
ويليه الجزء الثاني
المفتتح بقوله
موقف قال الله تعالى
ويضرب
الامثال
للناس

2593

ملحق رقم [illegible]

حكم الأمير

01

032619

الحمد لله وحده

قال حكيم من العرب

خير الامور اوسطها اليه يرجع

العالي ويلحق السافل والسلام

من عبد القادر بن محيي الدين لاربع

خلون من صفر عام 1269

02

الحمد لله وحده

قال حكيم من العرب

الفضل للمبتدي بخيره وان احسن

المقتدي بغيره والسلام من عبد القادر

بن محيي الدين لاربع خلون من صفر

عام 1269

03

الحمد لله وحده

قال حكيم من العرب

يعيش المرء باصغريه قلبه ولسانه

والسلام من عبد القادر بن محيي الدين

لاربع خلون من صفر عام 1269

04

الحمد لله وحده

قال حكماء العرب

[illegible] سواء [illegible]

في [illegible] [illegible] بلغت

[illegible] والسلام على من يقف على

[illegible] [illegible] بن

[illegible] الدين [illegible] شهر رمضان [illegible]

05

الحمد لله وحده

قال حكيم من العرب

لكل عمل خيرا وشر ثواب ولكل
كلام جواب والسلام من عبد القادر
ابن محيي الدين لاربع خلون من صفر
عام 1259

06

الحمد لله وحده

قال حكيم من العرب

لا يزال الناس بخير ما تباينوا
فإذا تساووا هلكوا والسلام من
عبد القادر بن محيي الدين لاربع
خلون من صفر عام 1259

07

الحمد لله وحده

قال حكيم من العرب

الدنيا حلم والآخرة يقظة والموت متوسط
فمن حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها
خسر ومن نظر في العواقب نجا والسلام
من عبد القادر بن محيي الدين لاربع خلون
من صفر عام 1259

08

الحمد لله وحده

قال بعض حكماء العرب

جبلت القلوب على حب من أحسن
إليها وبغض من أساء عليها
والسلام على من يحفظ هذا الكلام
من عبد القادر بن محيي الدين في شهر
رمضان عام 1260

٥٩

الحمد لله وحده

قال بعض حكماء العرب

امران يسلبان الحركة الحريتة (؟) وهما
قبول الاحسان وابتناء الشر فان
من احسن اليك ملكك ومن اجتنيت
وتركت اليه خفت ان يغشيه

والسلام على من يقف على هذا الكتاب
من عبد القادر بن محي الدين بشهر رمضان
عام ١٢٦٠ ...

٨٥

الحمد لله وحده

قال حكيم من العرب

ان من اكثر من ذكر الموت قنع بالقليل
من الدنيا ومن علم ان الكلام محل قل
كلامه الا فيما ينفعه والسلام من
عبد القادر بن محي الدين لاربع خلون
من صفر عام ١٢٥٩

٨٨

الحمد لله وحده

قال بعض حكماء العرب

لا الاساءة والاحسان يذكران بكل لسان
ومن زرعهما جنى ثمرتهما عند كل
انتقال

والسلام على من يقف على هذا الكتاب
من عبد القادر بن محي الدين بشهر رمضان
عام ١٢٦٠

١٩٢

الحمد لله وحده

قال حكيم من العرب

لا تضيعوا اموالكم وتصلحوا اموال
غيركم ومالكم ما قدمتموه في سبيل الله
ومال غيركم ما تركتموه وراءكم والسلام
من عبد القادر بن محي الدين لـ... خلون من صفر عام ١٢٥٩

الملحق رقم:

سقاي الأمير في مدينة الشام.

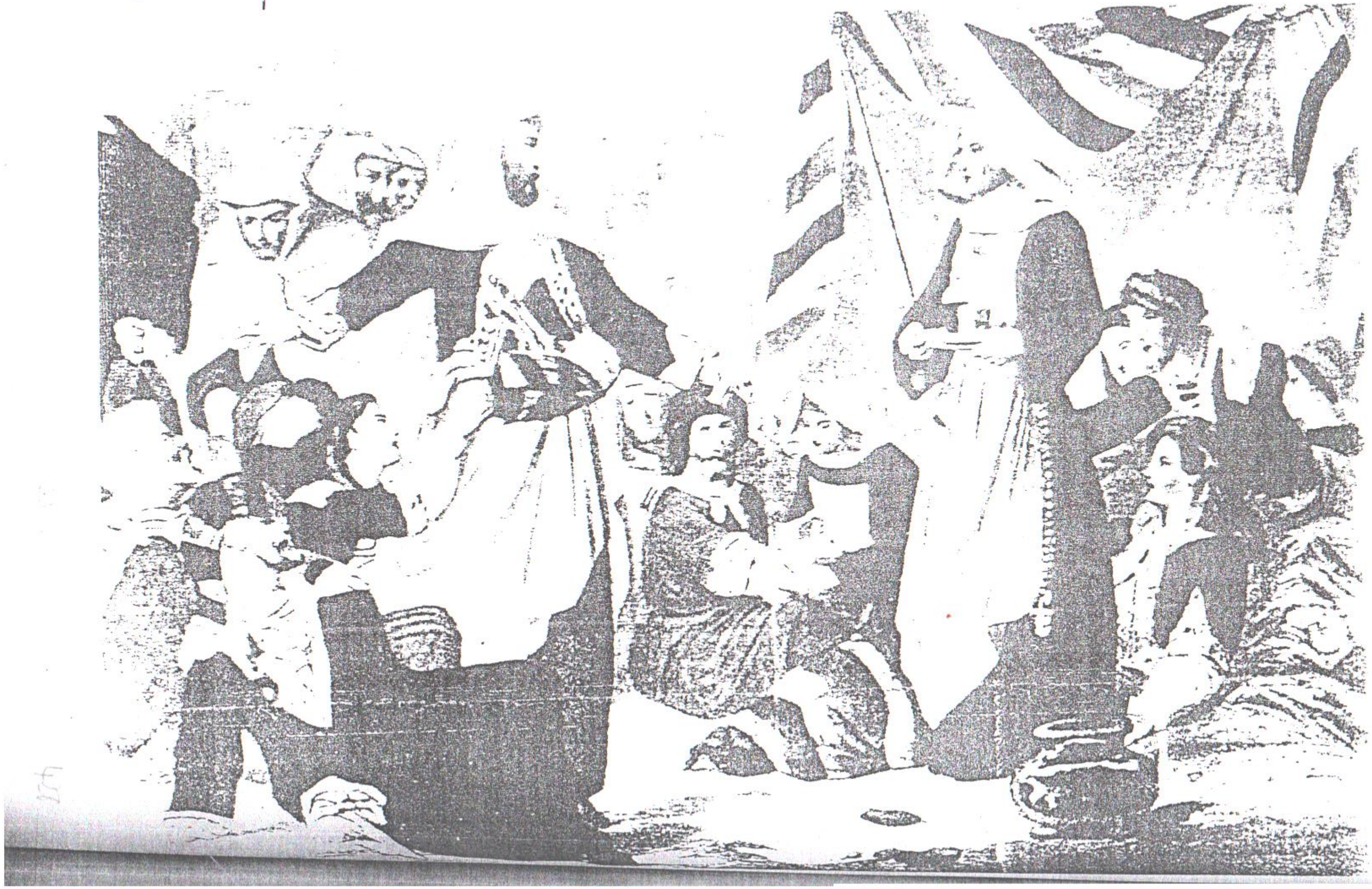

الملحق رقم:

الحمد لله   صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

من أمير المؤمنين المجاهدين مولانا السيد الحاج عبد القادر بن محيي الدين نصره
الله، إلى أمير الجنرال دي ميشال عظيم جيوش الفرانسيص بمستغانم السلام
على من اتبع الهدى وبعد فقد بلغنا ما بعثت به من جهة الغلو
مع محبنا القايد الجيلوه بن عزوز وكتابك أخبرنا فيه وفهمنا جميع ما احتواه
ومن أنك مكتوبك وشرت من عونك ومن جهة أصحابنا واحتيالهم على أعزاء
جيشك وأن بعضهم منزلة منك للخروج للقاء أصحابنا وتجرئهم بأنه حيث
تأشيلة معاكز أن يكون العرب أمثالكم الكبار الوثوق بدينهم والصلاح في رأيهم
وتدبيرهم ووجدنا منه أهل رياسة وثبات وسياسة وتحققنا أوصافه
الخبيرة وما تبدي من استراحة الجنسين والصلح بين العسكرين هو غاية الأمل
حتى أنفع عليه الموافقة التامة ولا نرى بعضنا الآن ما يسرك من جانب
الخدعة والحيلة ولا نقض لعهودنا ومواثيقنا ويكون منا في جملتك
دون ما نحن من الحرمة والمودة وها نحن إن شاء الله عازم على الرجوع ومنزل
قبولنا بحضرة فبعثنا لك تهل التي من تحت إن يكون العقد مقدما على ما يلزم
به من مقصوده ولا يتعطل الربح والمواساة منك الينا ومنا اليكم والله
الموفق تاريخ من شوال عام 1249

الأمير عبد القادر إلى الجنرال دي ميشال بتاريخ الأول من شوال 1249 هجريـــة/15 فيفـــري

الملحق رقم:

LE BORDJ
EL BIAR

LETTRE DE L'EMIR
AU Cel BOISSONNET

1279.

رسالة الأمير لبواسوني.

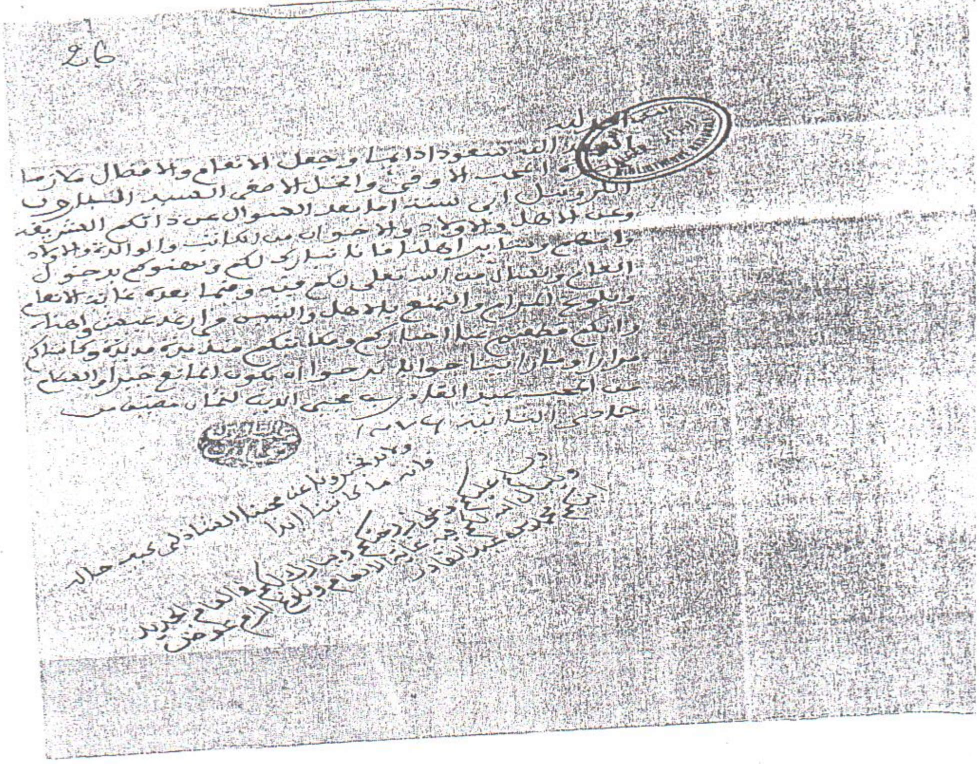

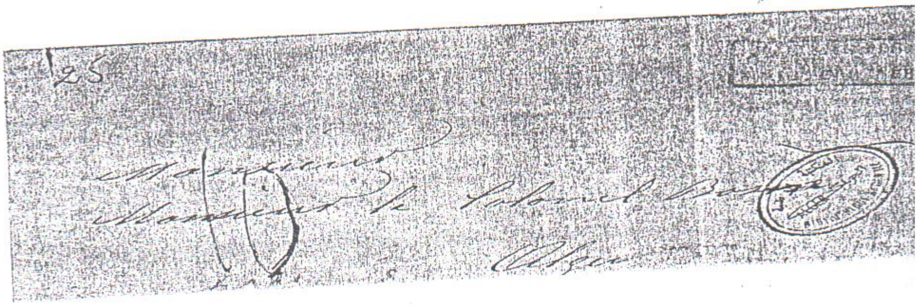

[illegible]

رد الأمير علي أسئلة لوج هنري.

الملحـــق رقم: [illegible]

الملحق رقم: [illegible]

نص صك البيعة:

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد الذي لا نبي بعده.

الحمد لله، الذي جعل نصب الإمام من مهمّات الدين، لتصان به النفوس والأموال، وتجتمع كلمة المسلمين. والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وآله وأصحابه أجمعين.

وبعد: فقد قال (صلى الله عليه وسلم) إن الله يحمي بالسلطان، مالا يحمي بالقرآن. هذا، في الزمان الذي فاض فيه العدل. ونضب فيه الجهل. فما بالك بزماننا !! الذي كثر فيه الباطل، وانتشر فيه. وخفي فيه الحقّ، ولم يظهر له أثر؟ ! حتى إن أعداء الله الكافرين، ملكوا كثيرا من بلاد السلام. وتشتت الكلمة. واختل النظام. ولم يجد الناس لقتالهم سبيلا. ولا من يكون للجهاد دليلا. فلجئوا إلى الله تعالى. وسألوه أن ييسر لهم من يقوم بأمر دينهم، فما وجدوا من تتفق عليه كلمة أهل الحل والعقد، سوى السيد محي الدين بن مصطفى بن المختار لكماله، وكثرة ما عنده من الأعوان والأنصار. فطلبوا منه: أن يبايعوه على السمع والطاعة، فاعتذر إليهم بكبر سنه. وبعد زمان طويل تكرر فيه طلبهم مرات. ووقع إلحاحهم تارات. ورأى أن النظر في هذا الأمر، قد تعين عليه. وأتاه بعض علماء "غريس" وهو من الصالحين، فقال له إن أولياء الله تعالى قد اتفقوا على نصب ولدي "عبد القادر" لنصر دين الله. ورأى أن ولده مستعد لهذا الأمر فحينئذ وافقهم على نصبه ونصرته، لكونه ذا حزم وعزم وشجاعة وعقل سليم وذات سليمة، صالحا لتنفيذ الأحكام. فاجتمع أهل الحل والعقد، وبايعوه من غير طلب منه للإمارة. ولا تابعة للنفس الأمارة.

بل بايعوه رغما عليه. و طلبوا والده بالله تعالى. و توسلوا إليه برسول الله (صلى الله عليه وسلم) مدة تزيد عن سنتين، فوافقهم على بيعة ولده، تطييبا لخواطرهم، و رعاية لرفع الظلم عن الضعيف، و دفعا للفساد و التعنيف. فحضر للبيعة: جميع أهل "غريس الحشم" شرقي وغربي ووعباسي و خالدي و ابراهيمي و حساني و عوفي وجعفري و برجي وشقراني وغيرهم ... كبني السيد "دحو" وبني السيد أحمد بن عليس و "الزلامطة" و"مغراوة" و "خلوية" و"المشارف" وكافة أهل وادي الحمامز و أعلنوا جميعا: بطاعته و نصرته والرعاية له، بحيث أنهم يحمونه، بما يحمون به أنفسهم و أموالهم. و أن ينصروه نصرا مؤزرا. و اتفق علماء الإقليم على بيعته و طاعته، و لم يخالف منهم أحد، و هم في حال طوعهم واختيارهم. وفرحوا به أشد الفرح، نظرا لما كانوا عليه من الضيق و الترح. و كل من سمع به من أهل الأفاق يزداد فيه رغبة، و ذلك لعلمهم بقوة عقله، و شدة نجدته، و صلاح رأيه. فعلى من بايع أن يبذل جهده في نصرته و عضده، لقول الصادق الأمين: الدين النصيحة، لله و لرسوله و لأئمة المسلمين. و من نكث على نفسه. حضر ما ذكر من العلماء ووالأشراف، السيد الأعرج و السيد محمد بن حوا بن يخلف و إخوته، و السيد محمد بن الثعالبي، و السيد عبد الرحمن بن حسن الدحاوي و اخوته والسيد محمد بن عبد الله بن الشيخ المشرفيو قرابته، و كافة أولاد السيد أحمد بن علي، حاصله جميع علماء "غريس" و أشرافه حضروا لهذه البيعة الميمونة، و رضوا بها. و حضرها كاتبه محمد بن عبد القادر، عامله الله بلطفه في الباطن و الظاهر، في الثالث من رجب الفرد، سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف (1248) هجرية الموافق للسابع و العشرين من نوفمبر (تشرين الثاني) سنة اثنتين ووثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية (1832).

الحمد لله وحده

وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

سلام على ... وخاصة الحبيب أهل الاحسان الذي بلغ الله به مقصوده

أباه على كل ... منصوركم على الأعداء من الطاغية ... الأيام والأكابر ...

... على رؤوس الأشهاد ... منزلة ... الأمان ...

... على مولانا ... من ... الأهوال ... الأعمال ...

... عليكم أنواع الانعام ... النبي العدنان ... الكرم والاحسان ...

... صالح دعاء ... أهل الخير ...

... الجوار ... الرجوع ... كتاب ...

... منصورون ... الفرج ... والعيال ...

... تعالى ... مولانا ...

... من الى ... الهول ... انا ...

... وجلواته ... عند الله ... الحسنة ...

... الله ... رضات الله ورسوله ...

... على الله ... الموضوع ... الخاتم ...

... سنة 1260

رسالة الأمير لسلطان المغرب.

الملحق رقم:

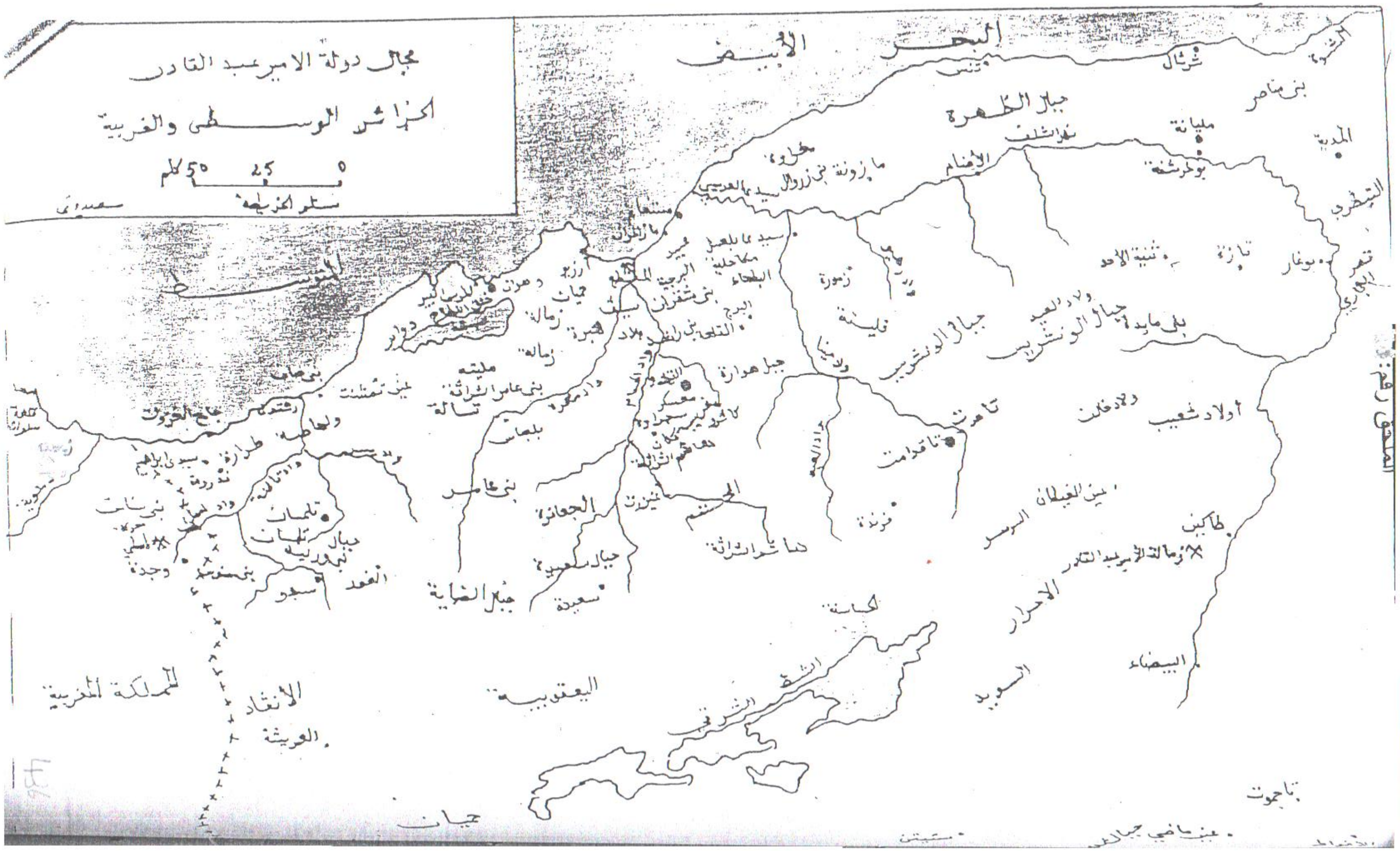
مجال دولة الامير عبد القادر
الجزائر الوسطى والغربية
0 25 50 كلم
سلم الخريطة
البحر الأبيض
المتوسط
جبال الظهرة
جبال الونشريس
شرشال
بني مناصر
مليانة
المدية
بوغار
تازة
تاقدمت
تاهرت
أولاد شعيب
مستغانم
وهران
معسكر
تلمسان
وجدة
المملكة المغربية
الأنقاد
العريشة
اليعقوبية
الشط الشرقي
البيضاء
الأحرار
جبل هوارة
سعيدة
جبال سعيدة
جبل الضاية
بني عامر
تاجموت

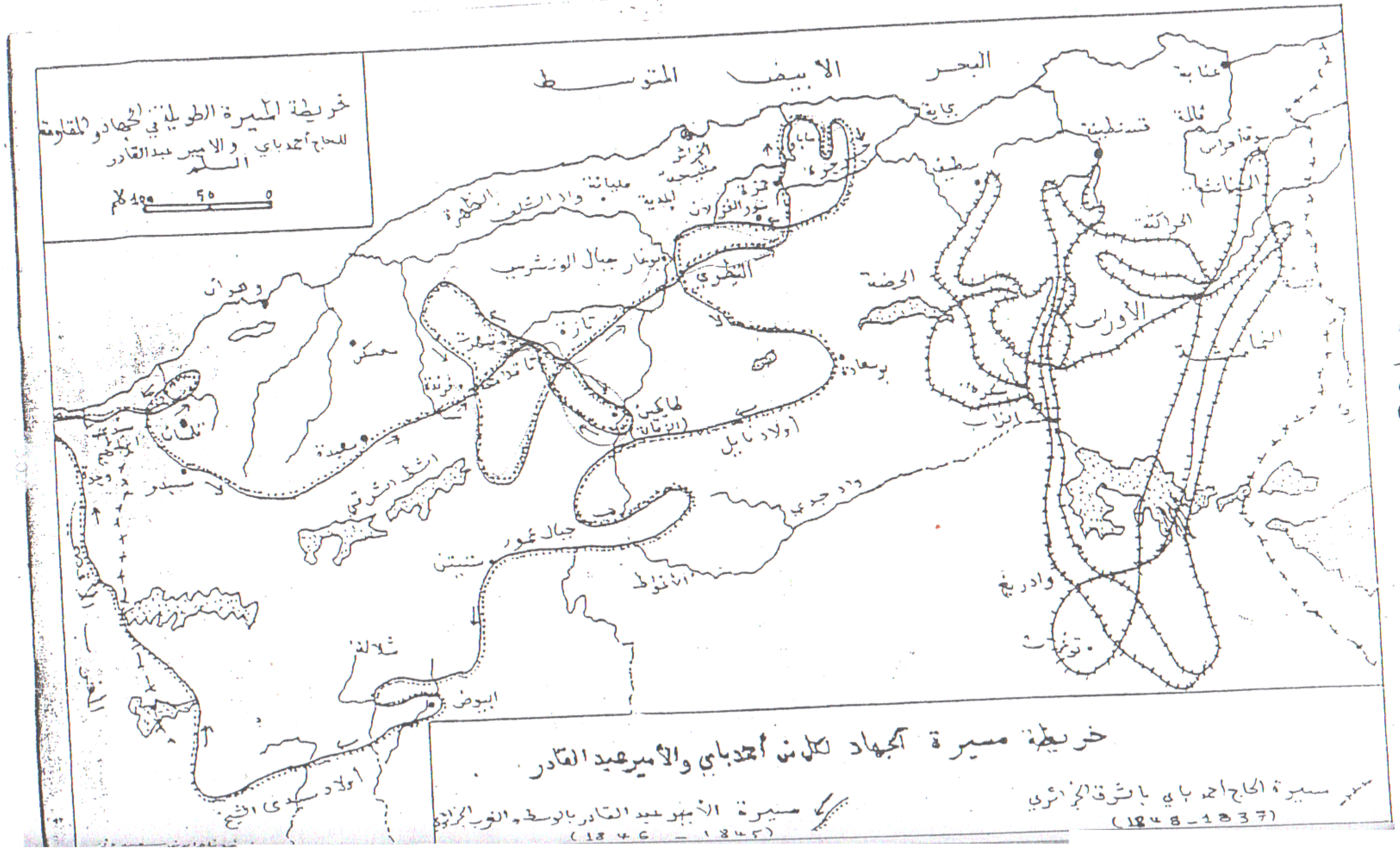

خريطة مسيرة الجهاد لكل من أحمد باي والأمير عبد القادر

الملحق رقم:

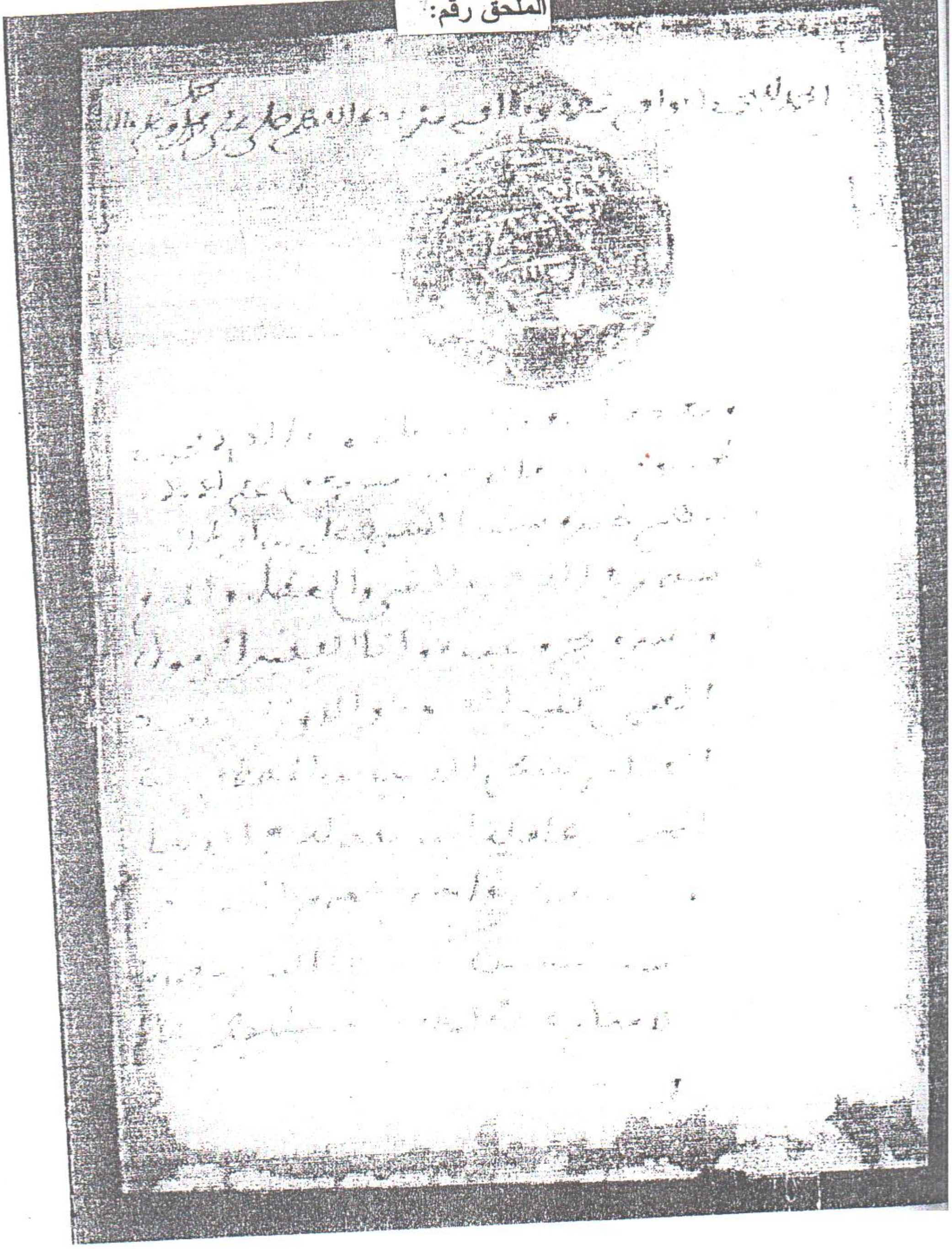

وصية الأمير بخط يده لزوجته قبل ذهابه للجهاد

الملحق رقم

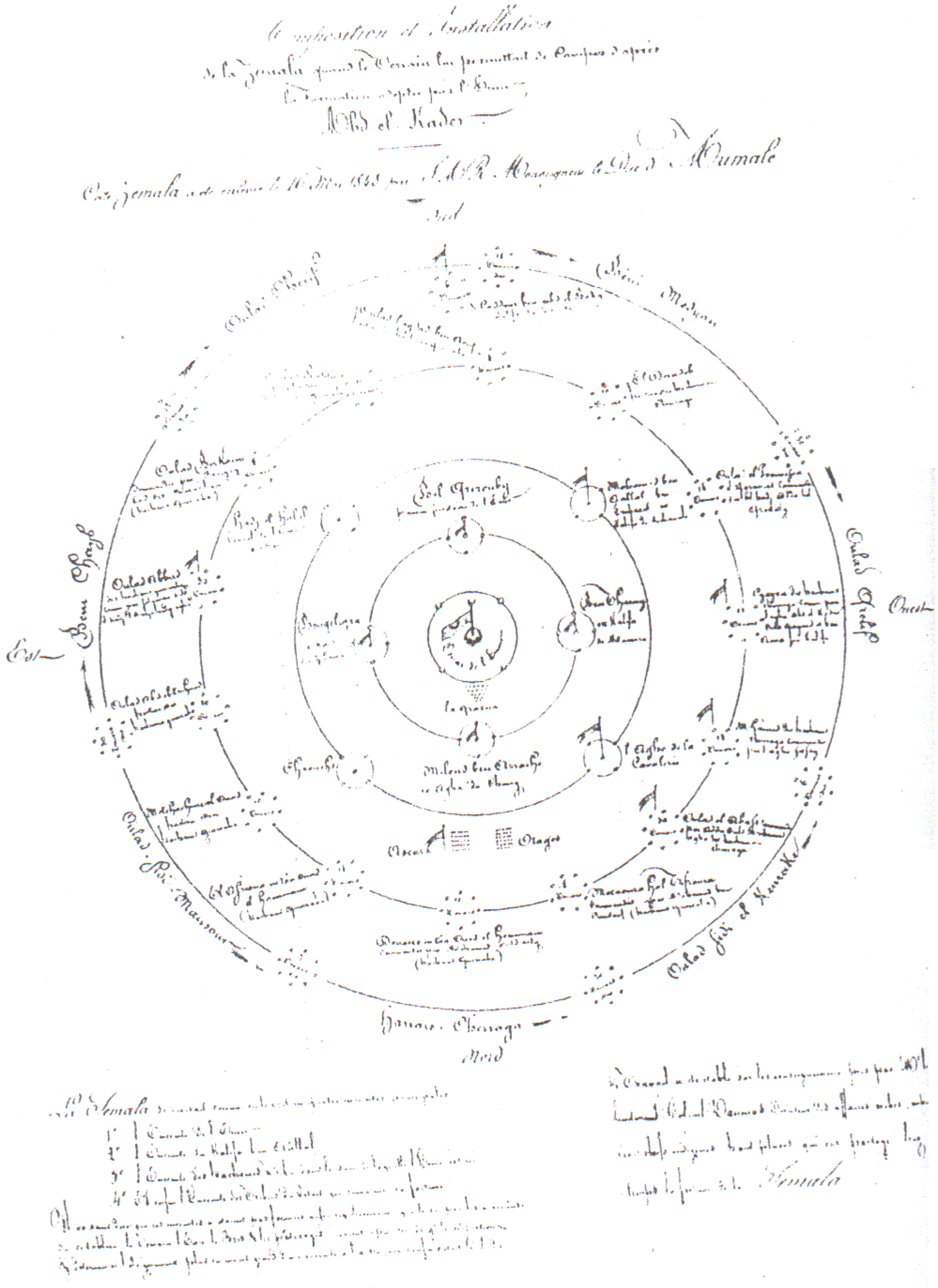

زمالة الأمير عبد القادر

الملحق رقم:

صورة عن وثيقة ديميشال.

[illegible] d'Oran [illegible] ont arrêté les conditions suivantes.

الجنيرال الحاكم جيوش الفرنصيص في بلاد وهران وامير المومنين السيد الحاج عبد القادر بن محي الدين رضيوا في الشروط الاتية اذناه.

Art. 1

A dater de ce jour les hostilités entre les Français & les Arabes cesseront. Le Général Commandant les troupes françaises & l'Emir Abd el Kader ne négligeront rien pour faire régner l'union & l'amitié qui doivent exister entre deux peuples que Dieu a destinés à vivre sous la même domination. A cet effet des représentants de l'Emir résideront à Oran, Mostaganem & Arzew; de même que pour prévenir toute collision entre les Français & les Arabes, des officiers français résideront à Mascara.

شرط اول

من اليوم وصاعدا يبطل العراد بين الفرنصيص والعرب. الجنيرال الحاكم جيوش الفرنصيص وامير المومنين عبد القادر كل واحد من ناحيته يعمل جهده لكي تحصل المودة والعهد الذي يلزم ان تكون بين شعبين اللذين مقدر عليهم من عند الله ان يعيشوا تحت حكم واحد. ولاجل هذا امير المومنين لازم يرسل من عنده ثلاثة قناصل واحد لوهران وواحد لارزيو وواحد لمستغانم والجنيرال كذلك يرسل [illegible] قناصل لمعسكر بيش ما يكون النزاع [illegible] والعرب.

Art. 2.

La Religion & les usages musulmans seront respectés & protégés.

شرط ثاني

الدين وعوايد المسلمين يكونوا ديما محرومين ومحامى عليهم

Art. 3.

Les Prisonniers seront immédiatement rendus de part & d'autre.

شرط ثالث

مرابط الفرنصيص يتسرحوا حالا وكذلك مرابيط العرب

Art. 4.

La liberté du Commerce sera pleine & entière.

شرط رابع

السوق يكون مسرح ولا احد يعارض لحد

Art. 5.

Les militaires de l'Armée française qui abandonneraient leurs drapeaux seront ramenés par les Arabes. De même les malfaiteurs Arabes qui, pour se soustraire à un châtiment mérité fuiraient leurs tribus & viendraient chercher un refuge auprès des Français seront immédiatement remis aux Représentants de l'Emir aux trois villes maritimes occupées par les Français.

شرط خامس

كل العسكر الذين يهربوا من الفرنصيص يستحق العرب ان يردوهم لعند الفرنصيص وكذلك المجرمين الذين يهربوا من عند العرب بيش ما يتعاقبوا على الطع عملوها ويجوا عند الفرنصيص حالا يسلموهم الفنصل الامير ان كان في وهران او ارزيو او مستغانم.

Art. 6.

Tout Européen qui serait dans le cas de voyager dans l'intérieur sera muni d'un passeport visé par les Représentants de l'Emir & approuvé par le Général Commandant, afin qu'il puisse trouver dans toute la Province aide & protection.

شرط سادس

كل واحد روحي [illegible] يسافر في البلاد يكون معه تزكرة مطبوعة بطابع قنصل الامير وكذلك بطابع الجنيرال الحاكم البلاد حتى الذي تكون معه هذه التزكرة يحرموه ويحاموا عليه في كل البلاد. وهذه نسختين

Fait en double expédition à Oran, le 26 février 1834.

Le Général Commandant,

[signature]

ARCHIVES HISTORIQUES DÉPÔT DE LA GUERRE

الملحـــق رقم:

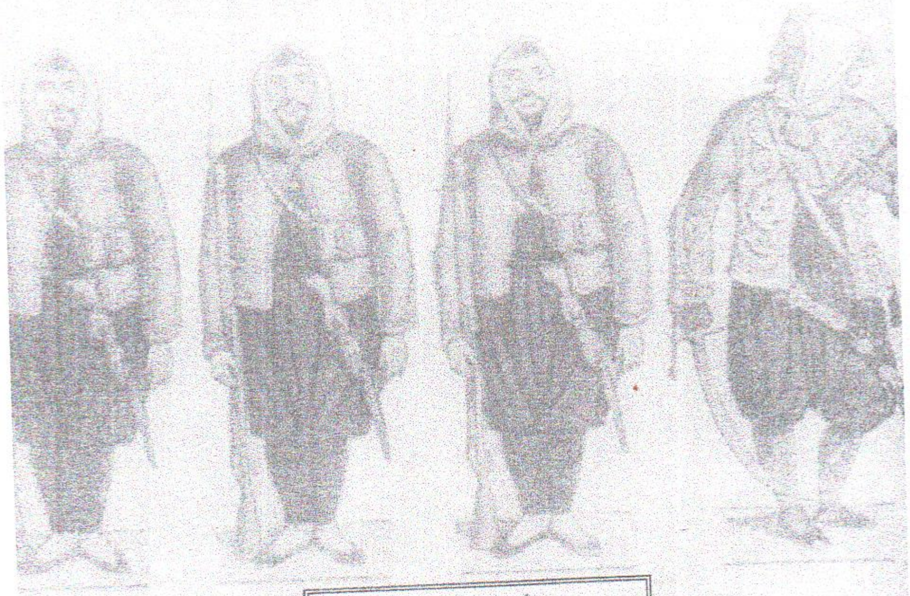

جنود الأمير عبد القادر

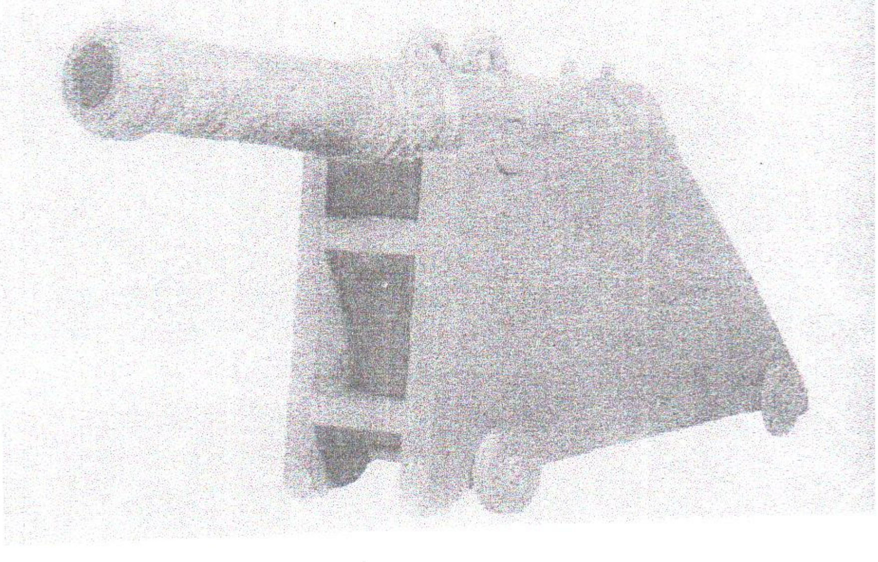

الملحق رقم:

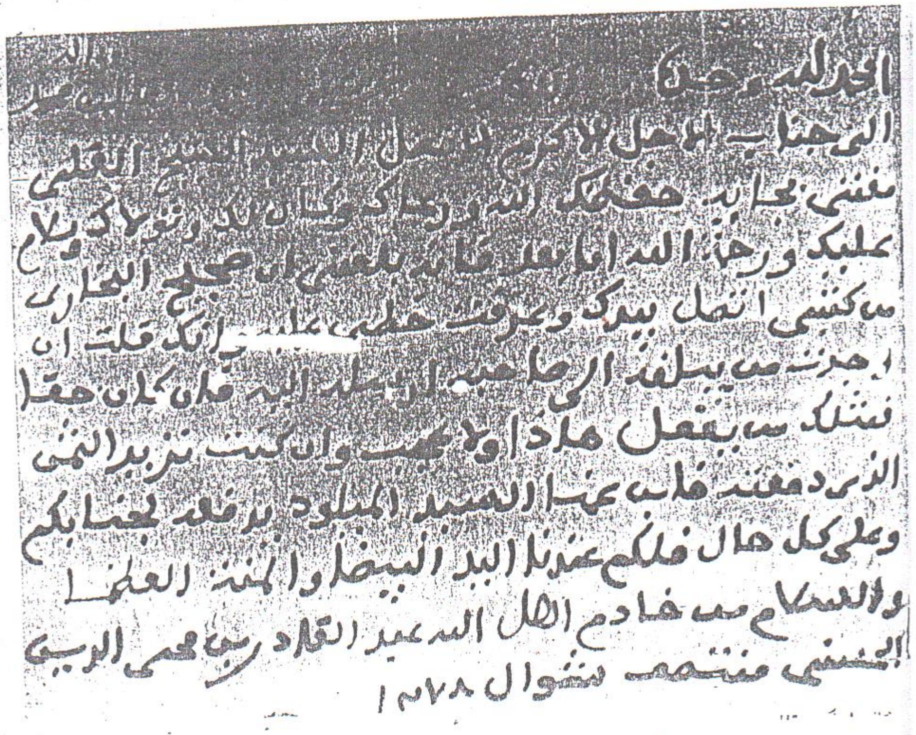

الحمد لله وحده [illegible]

الى جناب الاجل الاكرم الافضل السيد الشيخ العلي

مفتي بجاية حفظك الله ورعاك وكان لك [illegible] وليا والسلام

عليك ورحمة الله اما بعد فانه بلغني ان صحيح البخاري

من كتبي انتقل بيدك وعرفت خطي عليه وانك قلت ان

احرزت من يبلغه الى صاحبه او يبلغه اليه فان كان حقا

فنسألك من يفعل هذا او لا يجب وان كنت تريد الثمن

الذي دفعته فانه يعطيه السيد المبلوه برفقه لجنابكم

وعلى كل حال فلكم عندنا اليد البيضا والمنة العظمى

والسلام من خادم اهل العلم السعيد عبد القادر بن محي الدين

الحسني منتصف شوال ١٢٧٨

رسالة الأمير لمفتي بجاية.

الملحق رقم:

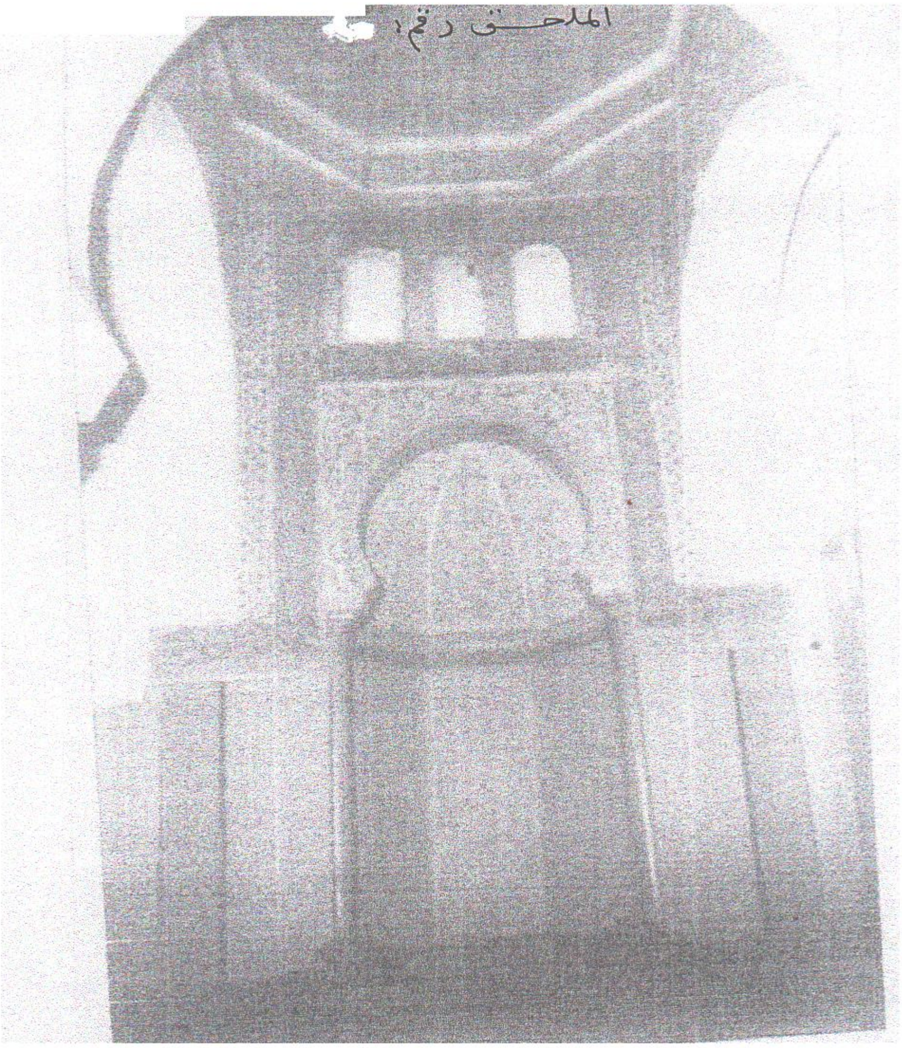

مسجد الأمير بمعسكر

الملحـــق رقم:

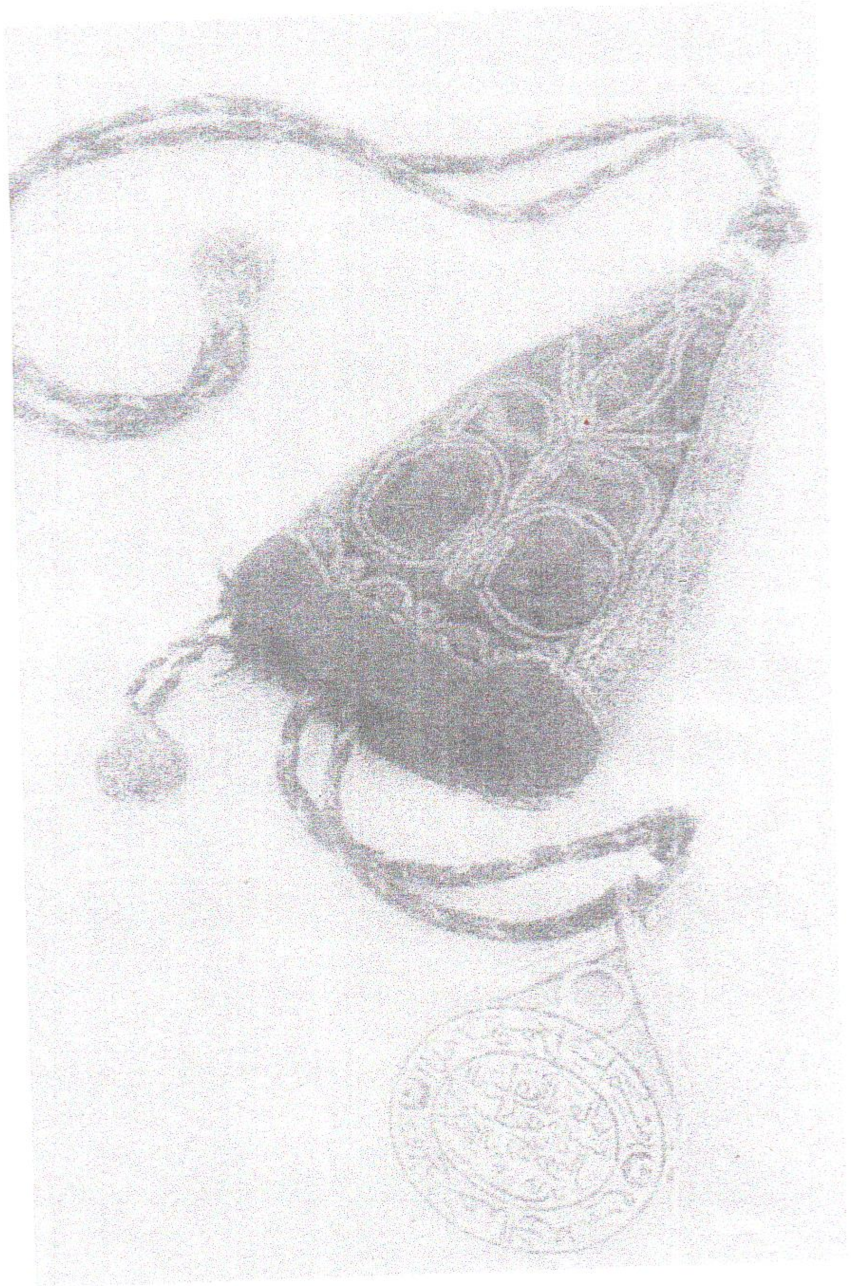

الملحق رقم : [illegible]

العملة المحمدية التي سكها الأمير، نقش على أحد وجهيها الآية الكريمة ((إن الدين عند الله الإسلام))

[illegible]

من الساحة الداخلية لدار الأمير في المدية.

وصية الأمير بخط يده لزوجته قبل ذهابه للجهاد.

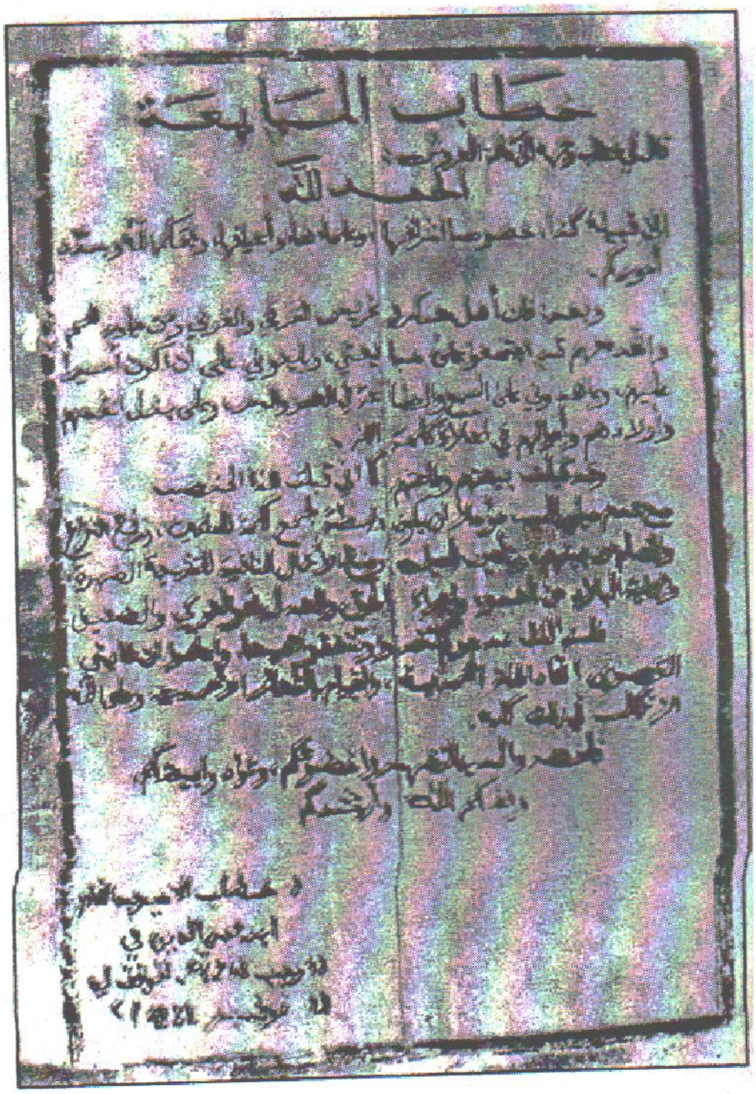

حجر تذكاري يخلّد مبايعة أهل معسكر وغريس للأمير عبد القادر.

UNE NOUVELLE STATUE DE L'EMIR ABDELKADER

L'arrivée des cendres à Dar-el-Alia. Le cercueil a été porté par des membres du Conseil de la Révolution.

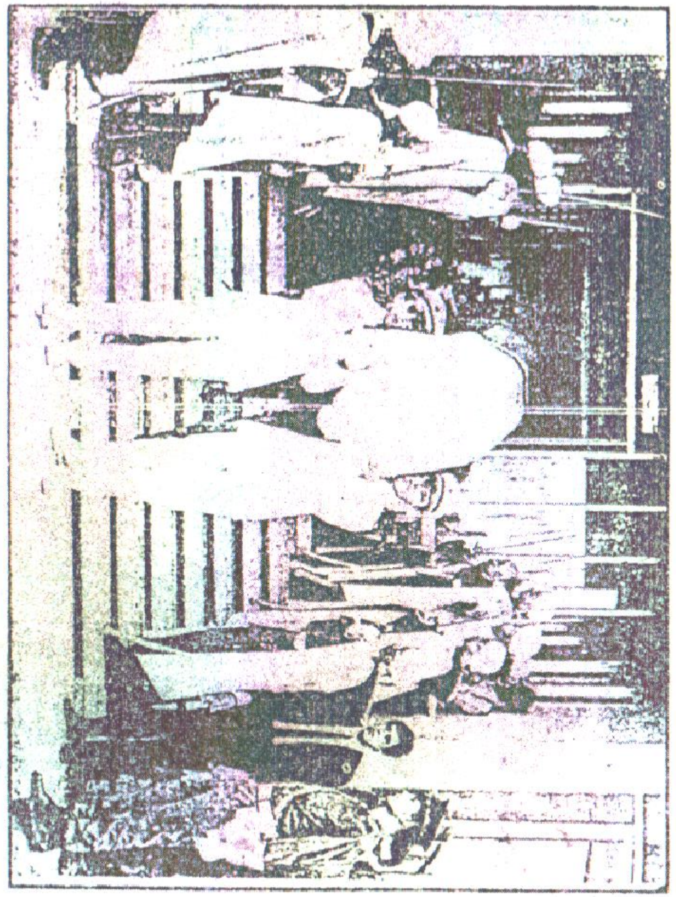

الشعب

اليوم ٦ صفحات — الثمن ٢٥ سنتيما

الثلاثاء ١٦ ربيع الاول سنة ١٣٨٦ هـ الموافق ٥ جويلية سنة ١٩٦٦م

السنة الرابعة ـ العدد ١١٠١

MARDI 5 JUILLET 1966

لحظات خالدة عاشتها بلادنا

امتزجت فيها آلام الماضي بروعة الحاضر وآمال المستقبل

آلاف المواطنين ازدحم بهم مطار الدار البيضاء لتحية رفات البطل العائد

هناك لحظات خالدة في تاريخ الشعوب، تكرس لها الجهود وتجند لها الطاقات من اجل احياء ذكراها على مر الزمن، وقد عرفت الجزائر يوم امس تلك اللحظة، باستقبالها لرفات أول من حمل لواء الكفاح والمقاومة، وأول من رفض أن يعيش تحت السيطرة الأجنبية، الا وهو الامير عبد القادر الذي لقن قوات الاستعمار دروسا في البطولة، شهد بها الاعداء أنفسهم .. خمس دقائق عاشتها هذه البلاد، قائدا وشعبا، اجلالا وتحية لرفات هذا القائد العظيم، الذي تحقق امله في العودة الى ارض الوطن، بعد غيبة طويلة، آل هذا الشعب على نفسه أن ينتزع خلالها حريته واستقلاله انتزاعا، بعد انتفاضات وحروب تحريرية عاتية ..

قبيل نزول الطائرة

لحظات رهيبة

٦ ، الرئيس بومدين، رئيس الجمهورية الجزائرية ومجموعة من الوزراء يحملون جثمان الأمير عبد القادر بعد نقله إلى الجزائر ، عام ١٩٦٦.

كبار المسؤولين الجزائريين وبعض أفراد عائلة الأمير يتقدمون الموكب
حين نقل رفاته من دمشق وطنه الثاني إلى الجزائر وطنه الأول

يتقدم المشيعين في الوسط الأمير سعيد الحسني الجزائري حفيد الأمير عبد القادر الذي رفع العلم العربي على سراي الحكومة عام ١٩١٨، الذي ألف وزارة من زعماء أهالي دمشق وحفظ الأمن بمساعدة شقيقه الشهيد الأمير عبدو قبل دخول الملك فيصل إلى دمشق برفقة قائد قوات الثورة العربية لورانس الضابط البريطاني الذي لم يعجبه هذا العمل ومنع القوات البريطانية من دخول البلاد قبل وصول فيصل، فكان عقابه بسجن الأمير سعيد واغتيال أخيه الأمير عبدو في جادة العفيف وهو على متن جواده. وعلى يمينه الأمير كاظم ابن عمه محمد باشا، أول سفير لسوريا في تركيا بعد الاستقلال. وإلى يساره ابن عمه الأمير جعفر عضو المجمع العلمي في الثلاثينات في سوريا ومدير المتحف الوطني فيها الذي أنقذ الكثير من الآثار. وفي الصف التالي مسؤولون جزائريون يليهم الأمير إدريس الذي كان مسؤول عن البيئة في الأمم المتحدة وسفيرا للجزائر في بروكسل، وإلى جانبه ابنة عمه الأميرة أمل الحسني الجزائري مديرة مدرسة دوحة الأدب. وخلفهم بعض شباب عائلة الأمير عبد القادر.
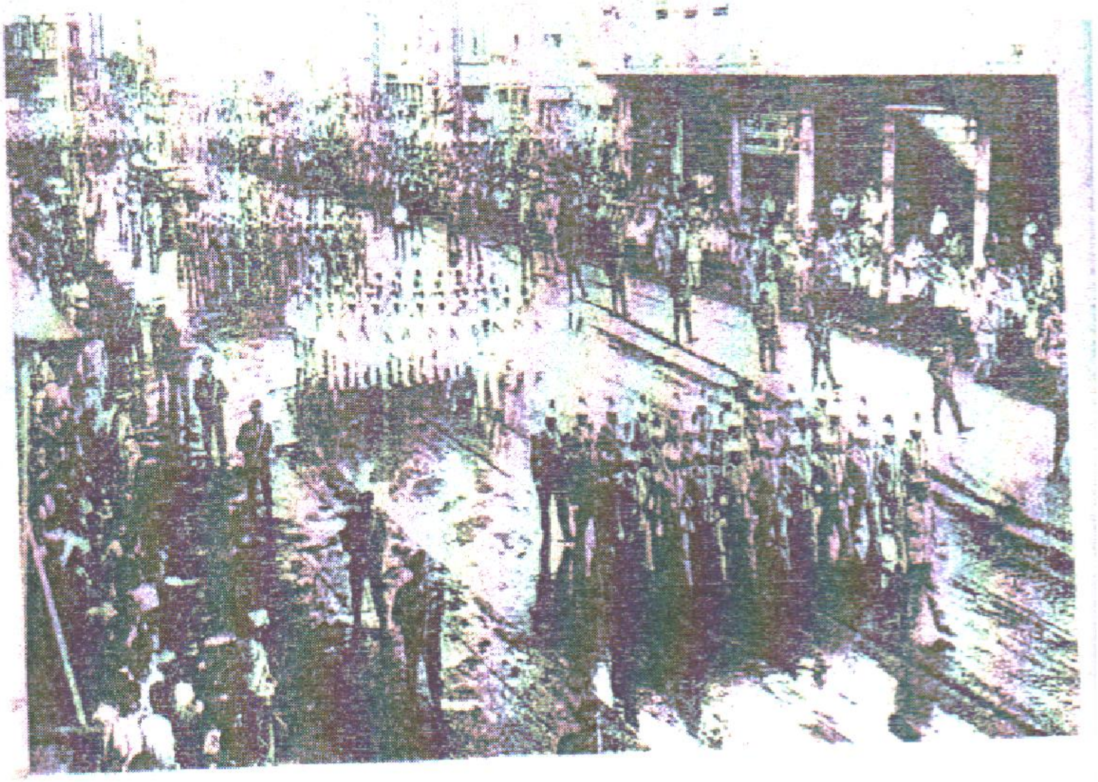
قطعات رمزية من مختلف أنواع الأسلحة في الجيش العربي السوري لدى تشييع رفات الأمير عبد القادر من دمشق إلى الجزائر